

ماريو بارغاس يوسا

دفاقر دون ريغوبيرتو

رواية

ترجمة: صالح علماني



hero788©

ماريو بارغاس يوسا

دفاتر دون ريغوبيرتو

رواية

ترجمة صالح علماني

العنوان الأصلي للكتاب:

Los cuadernos de don Rigoberto

Mario Vargas Llosa

Madrid, abril 1997

الإنسان إله حين يحلم
ولا يكاد يكون شحاذاً حين يفكر.

هولدرلين، هيبيريون

لا يمكنني أن أضع سجلاً لحياتي من أعمالي، لأن الحظ جعل
أعمالي في موضع منخفض: ولهذا فإنني أضعه من خيالاتي.

مونتين

I. عودة فونتشيتو

طُرق الباب، فذهبت دونيا لوكريثيا لتفتحه، وفي فراغه، على خلفية أشجار حقل زيتون سان ايسيدرو الملتوية والشائبة، رأت رأس فونتشيتو بخصل شعره الذهبية وعينييه الزرقاوين. فبدأ كل شيء يدور.

غرد الصوت الذي تعرفه جيداً:

— لقد اشتقتُ إليك كثيراً يا خالتي. أما زلتِ غاضبة مني؟ لقد جنّت لأطلب منك الصفح. هل تسامحيني؟
— أنت، أنت؟ — قالت دونيا لوكريثيا وهي تمسك مقبض الباب وتبحث عن سند لها في الجدار: — ألا تخجل من المجيء إلى هنا؟

فألح الطفل وهو يعرض عليها دفتر الرسم وأقلام ألوانه:
— لقد هربتُ من المعهد. إنني أشتاق إليك كثيراً، حقاً. لماذا أصابك الشحوب هكذا؟

— رباه، رباه. — ترنحت دونيا لوكريثيا وتهاوت على مقعد بجوار الباب فيه تقليد لمقاعد الطراز الاستعماري. كانت تغطي عينيها، وقد جعلها الشحوب بيضاء مثل ورقة.

— لا تموتي! — صرخ الطفل مذعوراً.
ورأت دونيا لوكريثيا — وهي تشعر بأنها تذهب — الشبح الطفولي يجتاز عتبة البيت، ويغلق الباب، ويهوي على ركبته عند

قدميها، ويمسك يديها ويضربهما قلفاً: «لا تموتي، لا تغيبني عن الوعي، أرجوك». بذلت مجهوداً لكي تنهض وتستعيد السيطرة على نفسها. تنفست بعمق، قبل أن تتكلم. وفعلت ذلك ببطء، شاعرة بأن صوتها قد ينكسر في أي لحظة:

— لم يصبني أي شيء، إنني بخير. رؤيتك هنا هي آخر ما كنت أتوقعه. كيف تجرأت على المجيء؟ ألا تشعر بتأنيب الضمير؟
— قولي إنك قد صفحت عني يا خالتي — توسل إليها —.
قولي ذلك، قوليه لي. البيت لم يعد هو نفسه بعد أن غادرتَه. لقد كنتُ أجيء لأراقبك أحياناً، لدى الخروج من الدروس. وكنتُ أرغبُ في طرق الباب، ولكنني لم أكن أتجرأ. أَلن تصفحي عني أبداً؟
فقلت بحزم:

— أبداً. لن أغفر لك أبداً ما فعلته أيها الخبيث.
ولكن على نقيض كلماتها، كانت عيناها السوداوان الكبيرتان تتعرفان بفضول وبشيء من الرضا، بل ربما الرقة، على الحلقات غير المنتظمة لذلك الشعر، وأوردة العنق الزرقاء، وحواف الأذنين البارزة بين خصل الشعر الأشقر، والجسد الرشيق المحشور في السترة الزرقاء، والبنطال الزبي المدرسي الرمادي. وكان أنفها يشم رائحة المراهقة التي لها عبق مباريات كرة القدم والساكر ومثلجات دي أونوفريو، وأذناها تتعرفان على الصرخات الحادة وتبدلات الصوت التي ترن في ذاكرتها أيضاً. واستسلمت يدا دونيا لوكريثيا لأن تضمخهما قبلات العصفور الصغير بذلك الفم:
— أحبك كثيراً يا خالتي — قال فونتشييتو وهو يكاد يبدأ

بالبكاء — وأبي أيضاً يحبك، حتى ولو كنت لا تصدقين ذلك.
في هذه الأثناء ظهرت خوستينيانا: شبخ رشيق بلون القرفة
متشحة بثوب مزين بأزهار، وعلى رأسها منديل وفي يدها منفضة
من ريش. وقفت متجمدة في الممر المؤدي إلى المطبخ، ثم تلعثمت
غير مصدقة:

— الصغير ألفونسو. فونتشيتو! غير معقول!
فهتفت دونيا لوكريثيا وهي تحاول إظهار قدر من السخط أكبر
مما تشعر به:

— تصوري، تصوري! إنه يتجرأ على المجيء إلى هذا
البيت. بعد أن دمر حياتي بتوجيهه ذلك الخنجر إلى ريغوبيرتو. يأتي
ليطلب مني الصفح، ليسكب دموع التماسيح. هل رأيت مثل هذه
الوقاحة يا خوستينيانا؟

ولكنها لم تحاول الآن أن تنتزع أصابعها الرفيعة التي كان
فونتشيتو لا يزال يقبلها وهو يرتعش منتحياً.

— فالتصرف حضرتك أيها الصغير ألفونسو — قالت الفتاة
ذلك وهي مضطربة إلى حد لم تنتبه معه إلى استبدالها
صيغة التوقير "حضرتك" واستعمالها صيغة "أنت"، حين
أضافت: — ألا ترى الغضب الذي تسببه للسيدة، هيا انصرف
من هنا يا فونتشيتو.

فتوسل الطفل وسط التهديدات ووجهه منكب على يديّ دونيا
لوكريثيا:

— سأغادر إذا قالت لي إنها تسامحني. أهكذا تبدئين بشتمي يا

خوستيتا حتى قبل أن تسلّم عليّ؟ ما الذي فعلته لك أنت؟ بل إنني أحبك كثيراً، ويوم غادرت البيت بكيتُ طوال الليل.

— اصمت أيها الكاذب، لست أصدق كلمة مما تقول. —
كانت خوستينيانا تمسد شعر دونيا لوكريثيا: — هل آتيك بمنديل عليه بعض الكحول يا سيدتي؟

— من الأفضل أن تأتيني بكأس ماء. لا تقلقي، إنني أحسن حالاً. إن رؤية هذا الصغير هنا قلبت كل شيء فيّ.

وأخيراً، سحبت يديها، دون خشونة، من بين يديّ فونتشيتو. ظل الطفل عند قدميها، دون بكاء، كابحاً بمشقة شهقات جديدة. كانت عيناه محمرتين والدموع قد شقت أثلاماً على خديه. وكان خيط من اللعاب يتدلى من فمه. ومن خلال الغلالة التي تغطي عينيها تطلعت دونيا لوكريثيا خلسة إلى الأنف الدقيق، وإلى الشفتين المرسومتين، وإلى الذقن الصغيرة المتكبرة ومنتصفها الغائر، وإلى أسنانه البيضاء الناصعة. وأحست برغبة في صفع وخمش وجه ذلك الطفل يسوع. منافق! يهوذا! بل ورغبت في عضه من عنقه ومص دمه مثل مصاص دماء.

— هل يعرف أبوك أنك جئت إلى هنا؟

فرد الطفل على الفور بنبرة سرية:

— كيف يخطر لك مثل هذا يا خالتي. من يدري ما الذي سيفعله بي إذا عرف. ومع أنه لا يتكلم عنك أبداً، إلا أنني أعرف أنه يفتقدك كثيراً. إنه لا يفكر في أي شيء آخر طوال الليل والنهار، أقسم لك. لقد جئتُ خفية، هربتُ من المعهد. إنني أذهب ثلاث

مرات في الأسبوع، بعد الانتهاء من المدرسة. أتريدين أن أريك رسومي؟ قولي إنك سامحتني يا خالتي.

— لا تقولي له ذلك واطرديه يا سيدتي — كانت خوستينيانا قد رجعت بكأس من الماء؛ وشربت دونيا لوكريثيا عدة رشقات —. لا تتخذي بوجهه الجميل. إنه الشيطان بشخصه، وأنت تعرفين ذلك. سيلحق بك شروراً أسوأ من الشر السابق.

بدا على فوننشيتو وكأنه سيجهش بالبكاء من جديد:

— لا تقولي مثل هذه الأشياء يا خوستيتا. أقسم لك إنني نادم يا خالتي. لم أكن أدرك ما أفعله، أقسم لك بأقدس ما لدي. لم أكن أريد حدوث أي شيء. وهل كنت أرغب في أن تغادري البيت؟ هل كنت أرغب في أن أبقى أنا وأبي وحدنا؟

فأنبته دونيا لوكريثيا وهي تضغط على أسنانها:

— أنا لم أغار البيت. لقد طردني منه ريغوبيرتو مثلما تطرد عاهرة. وكل ذلك بسببك!

رفع الطفل كلتا يديه مستكراً:

— لا تنطقي بذاءات يا خالتي. لا تقولي هذا الكلام، إنه لا يناسبك.

وبالرغم من الحزن والغضب فقد كادت دونيا لوكريثيا أن تبتسم. لا يروقه قول بذاءات! أهو طفل لبيب، حساس؟ إن خوستينيانا على حق: فهو ثعبان له وجه ملاك، إنه إبليس.

انفجر الطفل طرباً وسعادة:

— إنك تضحكين يا خالتي! هل صفحت عني إذاً؟ أخبريني،

قولي إنك قد غفرت لي إذاً يا خالتي.

كان يصفق وقد انقشع الحزن عن عينيه الزرقاوين ولمع فيهما بريق وحشي. لاحظت دونيا لوكريثيا وجود لطخات من الحبر على أصابعه. وأحست بالتأثر رغماً عنها. هل سيغمر عليها من جديد؟ ما هذا الخاطر. رأت نفسها في مرآة المدخل: كانت قد استعادت ملامحها، وكان خفر خفيف يلون خديها بينما صدرها يعلو ويهبط من الانفعال. وبحركة آلية، غطت فتحة عنق روبها البيتي. كيف يمكن له أن يكون على هذا القدر من الوقاحة، من الصفاقة، من القدرة على الرد، رغم كونه صغيراً؟ وكانت خوستينيانا تقرأ أفكارها. وكانت تنظر إليها كأنها تقول لها: «لا تضعفي يا سيدتي، إياك أن تسامحيه. إياك أن تكوني حمقاء إلى هذا الحد!». وعادت دونيا لوكريثيا وهي تحاول مداراة سخطها إلى شرب بضع رشقات من الماء؛ كان الماء بارداً، فحسّن مزاجها. وسارع الطفل إلى إمساك يدها غير المشغولة وراح يقبلها من جديد وهو يهذر:

— شكراً يا خالتي. أنت طيبة جداً، كنتُ أعرف ذلك، ولهذا تجرأتُ على طرق الباب. أريد أن أريك رسومي. وأن نتحدث عن إيغون شيلي، عن حياته وعن رسومه. وأن أخبرك عما سأصير في المستقبل وعن ألف شيء آخر. هل حزرت ما أريد أن أصير؟ رساماً يا خالتي! هذا ما أريد أن أصيره.

كانت خوستينيانا تهز رأسها مذعورة. وكانت أصوات محركات السيارات وأبواقها تذهل غروب سان ايسيدرو. ومن خلال ستارة نافذة غرفة الطعام كانت دونيا لوكريثيا تلمح الأغصان العارية

وجذوع الزيتون المملوءة بالعقد التي تحولت إلى حضور أليف.
يكفي ضعفاً، فقد حان الوقت للقيام برد فعل.

— حسن يا فونتشيتو — قالت ذلك بصرامة لم يعد قلبها
يتطلبها —. والآن، أرحني. هيا انصرف، أرجوك.
نهض الطفل قافزاً:

— أجل يا خالتي. مثلما تشائين. سأكون مطيعاً لك دوماً،
سأطيعك على الدوام في كل شيء. وسترين كيف سأحسن
التصرف.

كان له صوت وملامح من أزاح ثقلاً عن كاهله وتوصل إلى
المصالحة مع ضميره. وكانت خصلة شعر ذهبية تكنس جبهته،
وعيناه تشعان سعادة. ورأته دونيا لوكريثيا يدس يده في جيبه
الخلفي، ويُخرج منه منديلاً، وينف فيه؛ ثم يلتقط بعد ذلك عن
الأرض حقيبتة وحافظة رسومه وعلبة ألوانه. وبعد أن حمل كل ذلك
على ظهره، تراجع مبتسماً إلى الباب، دون أن يرفع بصره عن
دونيا لوكريثيا وخوستينيانا.

— عندما يتاح لي، سأهرب مرة أخرى لكي آتي وأزورك يا
خالتي — قال مؤكداً وهو عند الباب — وأنت أيضاً يا خوستيتا
بالطبع.

عندما أغلق الباب الخارجي، بقيتا كلتاهما جامدتين دون أن تقولا
شيئاً. وبعد قليل، دوت في البعيد نواقيس كنيسة عذراء البيلار. ونبح
كلب.

— لا أستطيع أن أصدق — دمدمت دونيا لوكريثيا —. لقد

بلغت به الصفاقة حد المجيء إلى هذا البيت.

فردت الفتاة ساخطة:

— ما لا يُصدّق هو مدى طبيبتك. فقد صفحت عنه، أليس كذلك؟ بعد الشرك الذي نصبه لك كي تتشاجري مع السيد. أنت ستذهبين إلى الجنة بملابسك مباشرة يا سيدتي!

— ليس مؤكداً أنه كان شركاً، وأن دماغه الصغير قد خطط لما حدث.

ومضت نحو الحمام وهي تحدث نفسها، ولكنها سمعت خوستينيانا تصح لها:

— لقد خطط لكل شيء بالطبع. فوننشيتو قادر على أسوأ الأمور، ألم تلاحظي ذلك بعد؟

«ربما»، فكرت دونيا لوكريثيا. ولكنه مجرد طفل، مجرد طفل. أليس طفلاً؟ أجل، فهذا على الأقل أمر لا شك فيه. وفي الحمام، بللت جبهتها بماء بارد وتفحصت نفسها في المرأة. كان التأثر قد شحذ أنفها الذي كان يتشمم بجزع، وسبب لها ازرقاقاً حول عينيها. وفي فمها المفتوح قليلاً رأت طرف ورقة السنفرة تلك التي تحول إليها لسانها. تذكرت حرادزين وعظام بيورا؛ فألسنتها تكون جافة على الدوام، مثلما هو لسانها الآن. لقد جعلها مجيء فوننشيتو إلى بيتها تشعر بأنها متحجرة وعتيقة مثل تلك التذكارات الخرافية في الصحارى الشمالية. وبحركة آلية، دون تفكير، حلت حزام خصرها وتجردت بحركة من كتفيها من الروب البيتي؛ فانزلق الحرير على جسدها مثل مداعبة وسقط على الأرض متهادياً.

الروب الذي غطى قدميها، بدا في تسطحه واستدارته مثل زهرة عملاقة. ودون أن تدري ما الذي تفعله أو ستفعله، وبينما هي تتنفس جزعة، اجتازت قدمها حدود الروب المحيط بهما وقادتاهما إلى حوض البيديه، حيث جلست، بعد أن أنزلت سروالها الداخلي المطرز. ماذا تفعلين؟ ما الذي ستفعلينه يا لوكريثيا؟ لم تبتسم. كانت تحاول أن تتنفس وتُخرج الهواء بهدوء أشد بينما يداها، وباستقلالية عن إرادتها، تفتحان صنوبري الحوض، الساخن، البارد، تلمسان الماء، تخلطانه، تقدران حرارته، ترفعان أو تخفضان خلاط الماء، ساخن جداً، بارد، شديد البرودة، ضعيف، مندفع، متقافز. بينما أسفل جسدها يتقدم، يتراجع، يميل إلى اليمين، إلى اليسار، إلى أن يجد الوضع المناسب. ها هو ذا. وتجتاح نخاعها الشوكي هزة قشعريرة. «ربما لا ينتبه لأي شيء، ربما يفعل كل ذلك دون أية نوايا»، كررت لنفسها، مشفقة على الطفل الذي طالما لعنته في هذه الشهور الستة الأخيرة. ربما لم يكن خبيثاً، ربما لم يكن كذلك. مشاكس، شقي، أكبر من سنه، عديم المسؤولية، وألف شيء آخر. ولكنه ليس خبيثاً. «ربما لم يكن كذلك». كانت الأفكار تنفجر في ذهنها مثل فقاعات طنجرة تغلي. تذكرت اليوم الذي تعرفت فيه على دون ريغوبيرتو، الأرملة ذي الأذنين البوذيتين والأنف الشهواني الذي ستتزوج منه بعد ذلك بقليل، وتذكرت المرة الأولى التي رأت فيها ابن زوجها، الملاك، بلباس البحارة — بدلة زرقاء، أزرار ذهبية، وقبعة عليها مرساة —، وتذكرت ما راحت تكتشفه وتتعلمه، تلك الحياة غير المتوقعة، المتخيلة، الليلية، الزخمة، في بيت بارانكو الذي أمر

ريغوبيرتو بينائه لكي يبدأ معها حياة مشتركة، والمشاجرات بين المهندس وزوجها عند وضعهما علامات البناء الذي سيكون منزلها. هل انقضت كل تلك الأشياء! الصور تذهب وتجيء، تذوي، تتغير بالتبادل، تتداخل، تتوالى وكأن مداعبة خلاط الماء السائلة والخفيفة تصل إلى روحها.

تعليمات للمهندس

سوء تفاهمنا من النوع المتعلق بالمفاهيم. أنت وضعت هذا التصميم الجميل لبيتي ومكتبتي منطلقاً من الافتراض — وهو افتراض شائع جداً للأسف — بأن المهم في البيت هم الناس وليس الأشياء. لست أنتقدك لتبنيك وجهة النظر هذه، وهي ضرورية لرجل في مهنتك لا يمكنه الاستغناء عن الزبائن. ولكن مفهومي لبيتي المستقبلي هو النقيض. ولعلمك: في هذا الحيز الصغير المبني الذي سأدعوه عالمي وستحكمه نزواتي، ستكون الأولوية الأولى لكتبي ولوحاتي، أما نحن الأشخاص فسنكون مواطنين من الدرجة الثانية. فهذه أربعة الآلاف مجلد والمئة لوحة قماشية وكرتونية وجرافيكية هي التي تشكل المبرر الأول للتصميم الذي كلفتك به. وعليك أن تخضع راحة البشر وأمنهم ومتعتهم لراحة تلك الأشياء وأمنها. وأن يكون بالإمكان تحويل المدفأة إلى فرن لإحراق الكتب واللوحات الزائدة هو تفصيل لا غنى عنه في رأيي. ولهذا يجب

أن يكون موقعها قريباً جداً من رفوف الكتب وفي متناول مقعدي، ذلك أنني أستمتع بلعب دور قاضي التفتيش مع البلايا الأدبية والفنية وأنا جالس، وليس وأنا واقف على قدمي. وسأشرح لك ما أعنيه. أربعة الآلاف مجلد والمئة لوحة التي اقتنيها هي أرقام ثابتة. فلن أملك مطلقاً أكثر من هذا العدد، لكي أتفادى الفيضان والفوضى، ولكن هذه الكتب لن تبقى هي نفسها أبداً، بل ستتجدد دون توقف إلى أن أموت. وهذا يعني أنه مقابل كل كتاب أضيفه إلى مكتبتي، سألغي كتاباً آخر، وكل لوحة — لیتوغرافية، خشبية، حفر على الخشب، رسم بالفحم، حفر مختلط، زيتية، مائية، إلى آخره — تتضمن إلى مجموعتي ستحل محل أقل الأخریات محبة إلى نفسي. ولا أكتمك بأنه من الصعب اختيار الضحية، بل إنه أمر مؤثر أحياناً، وأشبه بمعضلة هاملتية تبعث في نفسي الكآبة أياماً، أسابيع، وتعيد تكوين كوابيسي في ما بعد. في البدء كنت أهدي الكتب واللوحات المضحى بها إلى المكتبات والمتاحف العامة. أما الآن فإنني أحرقها، ومن هنا تأتي أهمية المدفأة. وقد اخترت هذه الصيغة القاسية التي تدرُّ بهار التدنيس الثقافي أو المخالفة الأخلاقية على القلق الناجم عن وجوب اختيار الضحية، في اليوم، أو بكلمة أدق، في الليلة التي قررت فيها أن أستبدل لوحة بديعة لسيزيلو مستوحاة من بحر باراكاس بنسخة من لوحة علبة حساء كامبيللز متعددة الألوان لأندي وار هول، أدركت أنه من الحمق إلحاق الضرر بعيون أخرى من خلال لوحة كنت قد توصلت إلى تقدير أنها غير جديرة بعيني. عندئذ ألقيت بها إلى النار. أعترف بأنني أحسست بندم غامض وأنا

أرى تلك اللوحة تحترق. أما الآن فلم يعد يخطر لي ذلك. لقد بعثت بعشرات الشعراء الرومنطيين والإنديخينستا إلى النار، وبعدد لا بأس به من اللوحات غامضة المعاني والتجريدية واللاشكلائية والمناظر الطبيعية والتصويرية والدينية، لكي أحافظ على العدد المحدد لكتب مكتبتي ومجموعة لوحاتي، دون ألم، بل بالإحساس المُشجع بأنني أمارس النقد الأدبي والفني مثلما يجب ممارسته: بصورة جذرية، لا رجعة عنها، ووقودية. وأضيف، كي أنهي هذا الاستطراد، بأن التسلية تمتعني، ولكنها لا تفيد شيئاً في الاستثارة الجنسية، ولهذا فإنني أمارسها بصورة محدودة وفي الحدود الدنيا، كوسيلة روحية وحسب، ودون أي انعكاسات على الجسد.

أنق بأنك لن تأخذ ما انتهيت من قراءته — الأفضلية التي أعطيتها للوحات والكتب على ذوي القدمين من لحم وعظم — على أنه نوبة مزاح أو موقف مستهتر. الأمر ليس هكذا، وإنما هي قناعة متجذرة، ونتيجة لتجارب صعبة، ولكنها ممتعة في الوقت نفسه. لم يكن من السهل عليّ التوصل إلى موقف يناقض التقاليد القديمة — ولندعها تقاليد إنسانية بابتسامة على شفاهنا — والفلسفات والديانات المؤمنة بمركية الإنسان، والتي لا تستطيع أن تتقبل اعتبار الإنسان الواقعي، وهو بنيان من لحم وعظم محسوسين، أقل جدارة بالاهتمام والاحترام مما هو مُبتكر، ذاك الذي يظهر (وإذا كان يروقك أكثر، نقول ينعكس) في صورة الفن والأدب. وسأعفيك من تفاصيل هذه الحكاية وأنتقل بك إلى النتيجة التي توصلت إليها والتي أطالب بها الآن دون خجل. فليس عالم الأوغاد ذاتيي الحركة الذي نشكل أنا

وأنت جزءاً منه هو الذي يهمني، أو الذي يجعلني أستمتع وأتألم، وإنما تلك الآلاف المؤلفة من الكائنات المتحركة بالمخيلة وبالرغبات وبالبراعة الفنية، والمائلة في هذه اللوحات والكتب وأعمال الحفر التي تمكنتُ من جمعها بصبرٍ وحبٍ سنواتٍ طويلة. البيت الذي سأشيده في بارانكو، والذي عليك أن تصممه بإعادة البدء ثانية في المشروع من البداية حتى النهاية، سيكون لتلك الأشياء قبل أن يكون لي أو لزوجتي الجديدة الباهرة، أو لأبني الصغير. هذا الثلاثي الذي يشكل أسرتي، دون أي تجديف، هو في خدمة تلك الأشياء مثلما يتوجب عليك أنت أيضاً أن تكون في خدمتها عندما تنتهي من قراءة هذه الرسالة وتتحنني على طاولتك لتصح ما أسأت عمله. ما انتهيتُ من كتابته هو حقيقة حرفية، وليس تورية غامضة. سأبني هذا البيت لأعاني وأسعد معهم، ومن أجلهم ولأجلهم. فابذل جهدك في محاكاتي خلال الفترة المحدودة التي ستعمل فيها من أجلي. والآن، ابدأ الرسم.

ليلة القطط

وفيةً لموعدها، دخلت لوكريثيا في الظلال متحدثة عن القطط. وكانت هي نفسها تبدو مثل هرة أنغورة جميلة تحت حفيف فرو القائم الذي يصل حتى قدميها ويخفي حركاتها. أكانت عارية تحت روبها المفضض؟

— هل قلت قطط؟

— بل قطيطات بكلمة أصح — ماعت وهي تخطو بضع خطوات حاسمة حول دون ريغوبيرتو الذي فكر في ذي قرنين خارج لتوه من الإسطبل يتفحص مصارع الثيران — هررة، قطط، هريرات. دزينة منها، وربما أكثر.

كانت تلعب فوق غطاء السرير المخملي الأحمر. تنكمش على نفسها، تمد قوائمها تحت مخروط الضوء الغبش الذي ينزل، غبار نجوم، على السرير من السماء الصافية غير المرئية. وكانت رائحة مسك تحمم الجو، وموسيقى باروكية ذات إيقاعات جافة تأتي من الركن نفسه الذي جاء منه الصوت المهيمن والجاف:
— تعرّي.

اعترضت دونيا لوكريثيا:

— غير ممكن. أنا أتعري هنا، مع هذه الكائنات؟ لن أفعل ذلك ولو مت، إنني أكرهها.

— هل أراك أن تمارسي الحب معه بين القطط؟ — لم يكن دون ريغوبيرتو يضيع حركة واحدة من حركات دونيا لوكريثيا على السجادة الوثيرة. لقد بدأ قلبه يصحو، وبدأ ليل بارانكو يتخلص من الرطوبة ويجف.

— تصور — تمتمت وهي تتوقف لثانية، ثم عادت تخطو خطواتها الدائرية حوله —. أراد رؤيتي عارية بين تلك القطط. مع القرف الذي أشعر به نحوها! إن بدني كله يقشع حين أتذكر ذلك.
بدأ دون ريغوبيرتو يتبين شبحيهما، آذانهما وهي تتسمع مواء

القطط الصغيرة الخافت. بدأ يطلان في العتمة، يتميزان، يتجسدان، وعلى ملاءة السرير الملتهب، تحت وابل الضوء، دوّخه البريق، وانعكاسات الضوء، والجدران المتلوية. وحده أنه في أقصى تلك الأطراف المتحركة تلمح مخالبا مائية، منحنية، حديثة البروز.

— تعالي، تعالي إلى هنا — أمر الرجل الذي في الركن بعذوبة. وكان عليه في الوقت نفسه أن يرفع صوته لأن ألحان بيانوهات وكمانات راحت تتعالي صافعة أذنيه. بيرغوليسي!، تعرف دون ريغوبيرتو على الموسيقى، وتفهم اختيار هذه السوناتا؛ فالقرن الثامن عشر لم يكن عصر التقنع وعدم تمييز الذكر من الأنثى وحسب، بل كان كذلك، وبامتياز، عصر القطط. أولم تكن فينسيا، منذ الأزل، جمهورية هريّة؟

— أكنت قد تعريت؟ — سمع نفسه يقول ذلك، وأدرك أن اللفظة قد سيطرت على جسده بسرعة كبيرة.

— ليس بعد. لقد عراني هو، كالعادة. لماذا تسأل وأنت تعرف أن هذا هو أكثر ما يروقه.

فقاطعها برقة:

— وأنت أيضاً؟

ضحكت دونيا لوكرينثيا، وكأنها ضحكة مغتصبة.

— من المريح على الدوام أن يكون هناك فالييت⁽¹⁾ — ثم

(1) - فالييت valet: خادم متخصص بمساعدة سيده على ارتداء ملابسه وخلعها.

همست وهي تبتدع ابتسامة خفر : — مع أن الحال كانت مختلفة
في هذه المرة.

— بسبب القطط؟

— ومن سيكون السبب سواها. لقد جعلتني عصبية، كانت
تستثير أعصابي يا ريغوبيرتو.

ومع ذلك فقد انصاعتُ لأمر العشيّق المتخفي في الركن.
كانت تقف بجانبه، ودیعة، فضولية ومثلهفة، وكانت تنتظر، دون أن
تنسى لحظة واحدة مجموعة القطط المختلطة، المختبئة، المتقلبة،
اللاعقة، وهي تعرض نفسها في الدائرة الصفراء اللجوجة التي
تحبسها في وسط الفراش الملتهب. حين أحست باليدين في
كاحليها، تنزلقان إلى قدميها وتخلعان منهما الحذاء، توتر نهداها مثل
قوسين، وتصلبت الحلمات. كان الرجل يخلع عنها الآن بحذر
الجوربين، مُقبلاً دون تعجل، كل تفصيل، كل جزء صغير من
البشرة المكشوفة. وكان يهمس شيئاً بدا في أول الأمر لدونيا
لوكرينثيا كلمات رقيقة أو بذيئة أملتها الاستنارة.

— ولكن لا، لم تكن عبارات بوح بالغرام، ولم تكن تلك
البذاءات التي تخطر له أحياناً — قالت ذلك وهي تضحك من
جديد، تلك الضحكة الجادة نفسها، متوقفة في متناول يدي دون
ريغوبيرتو. ولم يحاول هذا لمسها، بل تلثم مناضلاً ضد تيبس
لسانه:

— ماذا كانت إذاً؟

— توضيحات وشروح، محاضرة هريّة متكاملة. أتعرف أن

أكثر ما يعجب القطط في الدنيا هو العسل؟ وأن لها في مؤخراتها جراباً يُستخرج منه عطر؟

تشم دون ريغوبيرتو الليل بمنخريه الواسعين.

— أهي الرائحة التي تتبعث منك؟ أليس هذا مسكاً إذًا؟

— إنه زياد. عطر القطط. إنني مضمخة. أيزعجك هذا؟

كانت القصة تستثير دون ريغوبيرتو، تضلله، فيظن أنه في

الداخل وهو في الخارج. ولم يكن يعرف في ما يفكر.

— ولماذا أحضر أواني العسل؟ — سأل وهو خائف من

لعبة، من مزحة، تنزع الطابع الشكلي عن تلك الطقوس.

— لكي أدهنك — قال الرجل متوقفاً عن تقبيلها. وواصل

تعريتها. كان قد انتهى من الجوربين، من المعطف، من البلوزة.

وبدأ يفك الآن أزرار تنورتها — لقد أحضرته معي من اليونان،

من نحل جبل إيميتو. إنه العسل الذي يتحدث عنه أرسطو. وقد

خبأته لك، مفكراً في هذه الليلة.

«إنه يحبها»، فكر دون ريغوبيرتو بغيرة وتأثر.

— هذا غير ممكن — احتجتُ دونيا لوكريثيا —. لا وألف

لا. فأنا لا تُمارس معي هذه القذارات.

كانت تقول ذلك دون سُلطة، فدفاعاتها كانت مكتسحة بعدوى

إرادة عشيقها، فكانت تقول ما تقوله بنبرة من تعرف أنها مهزومة.

وكان جسدها قد بدأ يصرف انتباهها عن صرير السرير، وأخذ

يذبذبها، يركزها مع تجريد الرجل لها من آخر ملابسها وركوعه

عند قدميها وهو يواصل مداعبتها. تركته يفعل ذلك، محاولة نسيان

نفسها في اللذة التي تثيرها فيها المداعبة. كانت شفتاه ويده
تخلف لهيباً في كل موضع تمر عليه. وكانت القطط هناك طوال
الوقت، شهباء، مائلة إلى الاخضرار، متناومة أو متحمسة، مجعدة
ملاءة السرير. تموء، تتلاعب. وكان بيرغوليسي قد استكان، لقد
كان نسيماً نائياً، وإغماءة مدوية.

— هل طلى جسدك بعسل نحل من جبل إيميتو؟ — كرر
دون ريغوبيرتو السؤال، متهجياً كل كلمة.

— لكي تلحسني القطط، لاحظ ذلك. بالرغم من القرف الذي
تثيره في هذه الأشياء، ومن تحسسي من القطط، ومن الضيق الذي
أحس به إذا ما تلوثت بشيء دبق (وفكر دون ريغوبيرتو ممتناً: «لم
تمضغ لبناً في حياتها»)، حتى ولو تلوث طرف إصبعي فقط.
أتلاحظ ذلك؟

— لقد كانت تضحية عظيمة، وقد أقدمت عليها فقط لأنك...
— لأنني أحبك — قطعت هي كلمته —. وأنت تحبني
أيضاً. أليس هذا صحيحاً؟

«من كل روعي»، فكر دون ريغوبيرتو. كانت عيناه مغمضتين.
وكان قد توصل أخيراً إلى حالة الصفاء التام التي يبحث عنها. يمكنه
أن يجول الآن دون مشقة في تلك المتاهة كثيفة الظلال. وبوضوح
تام، مع لمسة من الحسد، كان يتخيل مهارة الرجل الذي يجرد
لوكريثيا — دون تسرع ودون أن يفقد السيطرة على أصابعه —
من ثوبها، من حمالة صدرها، من سروالها الداخلي، بينما شفتاه
تقبلان بنعومة لحمها المصقول، شاعراً بالحبيبات — أهو البرد، أم

التردد، أم الاشمئزاز، أم القرف أم الرغبة؟ — التي توتر أعصابها وبالأنفاس الدافئة التي تجسدت، مع مجموع المداعبات، في هذه الأشكال المتوقعة هجساً. وحين أحس في لسان العشيقي وأسناناه وحلقه أجمة الزغب المجعد وصعد إلى دماغه طعم عصاريتها اللاذع، بدأ يرتجف. هل بدأ بطليها؟ أجل. أهو يفعل ذلك بفرشاة رسام صغيرة؟ لا. بمنديل؟ لا. بيديه نفسيهما؟ أجل. ومن الأفضل القول بكل واحد من أصابعه الطويلة المعروقة وبحكمة خبير تدليك. كانت الأصابع تنثر على البشرة تلك المادة البراقة — رائحتها السكرية تصعد عبر فتحتي أنف دون ريغوبيرتو، فتتخمه — وتحقق من تماسك الفخذين، الكتفين، الثديين، وتقرص الردفين، وتمر على الإليتين، وتغرق في تلك الأعماق المجعدة، مباحدة ما بينها. تحولت موسيقى بيرغوليسي إلى النزق. فكانت تدوي مطفئة اعتراضات دونيا لوكرينثيا وتهيج القطط التي تشممت رائحة العسل وبدأت تتقافز وتصرخ وقد أدركت ما الذي سيحدث. كانت تفتح أشداقها وهي تركز فوق ملاءة السرير جزعة.

— من الأصح القول: جائعة. — صححت له دونيا لوكرينثيا.

فلهت دون ريغوبيرتو:

— أكنت قد تهيجت؟ أكان هو عارياً؟ هل طلى جسده بالعسل

أيضاً؟

— أيضاً وأيضاً وأيضاً — رتلت دونيا لوكرينثيا — طلاني،

طلّى نفسه، طلب مني أن أطلي ظهره، حيث لا تصل يده. إنها ألعاب مهيجة جداً بالطبع. فهو ليس خشبة وأنت لا تحبني أن أكون

خشبة، أليس كذلك؟

فأكد دون ريغوبيرتو:

— كلا بالطبع. يا حبي.

— تبادلنا القبلات طبعاً، واللمس، والمداعبة — حددت زوجته. وكانت قد جددت مشيها الدائري حوله بينما أذنا دون ريغوبيرتو تحسان بحفيف فرو القاقم في كل خطوة. أكانت متهيجة وهي تتذكر؟ — أعني أننا فعلنا ذلك دون أن نتحرك من الركن. وبقينا هناك لبعض الوقت. إلى أن حملني، هكذا وأنا مطلية بالعسل بالكامل، وأوصلني إلى السرير.

كانت الرؤية واضحة تماماً، ومعالم الصورة جلية إلى حد أن دون ريغوبيرتو أحس بالخوف: «قد أصاب بالعمى». مثل أولئك الهبيين في سنوات الهذيان، الذين كانوا يتعاطون عقار الهلوسة، ويتحدون شمس كاليفورنيا إلى أن تفحم لهم الأشعة شبكيات عيونهم وتحكم عليهم برؤية الحياة بمسامعهم وملامسهم وخيالهم. كانا هناك، مشحمين، يقتران عسلاً وملاطفة، هيلينيين في عريهما ووجهتهما، يتقدمان نحو الجلبة الهرية. كان هو رماحاً من العصر الوسيط مسلحاً من أجل المعركة، وكانت هي غادة الغابة، سابينية مخطوفة⁽¹⁾. تهر قدميها الذهبيتين وتعرض: «لا أريد، لا يروقتي ذلك»، ولكن ذراعيها تحيطان بوله بعنق خاطفها، ولسانها يسعى لاقتحام فمه ولعق لعابه بتلذذ. «انتظري، انتظري»، طلب منها دون

(1) - إشارة إلى إقدام رومولوس على سبي نساء السابينيين عند تأسيس مدينة روما.

ريغوبيرتو. فتوقفت دونيا لوكريثيا بوداعة، وبدا كما لو أنها ستختفي في تلك الظلال المتواطئة، بينما كانت ترجع إلى ذاكرة زوجها فتاة بالثوس النحيلة (عارية مع القطن) الجالسة على كرسي، رأسها مستند إلى الوراء بشهوانية، إحدى ساقها ممدودة، والأخرى مثنية، والكعب عند حافة المقعد، تمد ذراعها لتداعب هراً يقبع فوق خزانة، ينتظر متعته بعينين نصف مطبقتين. وفي أثناء تقليبه وبحثه تذكر كذلك أنه كان قد رأى لوحة لم يولها اهتماماً، أكان ذلك في كتاب الهولندي المتخصص بالحيوانات ميداس ديكرز؟ لوحة روسالبا لبوتيرو (1968)، عمل زيتي يقبع فيه على سرير زوجي هراً صغيراً أسود يتقاسم الملاءات والفرشة مع المومس الوافرة ذات الشعر الأجدع الطويل وهي تنهي سيجارتها، وكذلك لوحة على الخشب لفيلكس فالوتون (أهي هر الأنغورة من عام 1896 تقريباً؟) حيث تظهر صبية حيوية ما بين وسائد مزينة بزهور ولحاف هندسي، وهي تحك الرقبة المهيجة لقط منتصب. باستثناء هذه المقاربات غير المؤكدة، ليس هناك في ترسانة ذاكرته أي صورة تتماثل مع هذا الذي يحدث. كان مذهولاً بصورة طفولية. فقد تراجعته الإثارة إلى الوراء، دون أن تختفي تماماً؛ كانت تطل من أفق جسده مثل إحدى تلك الشموس الباردة في خريف أوربي، وهو الفصل المفضل لرحلاته.

— ثم ماذا؟ تساعل وهو يعود إلى واقع الحلم الذي انقطع.

كان الرجل قد وضع لوكريثيا تحت مخروط الضوء، وبعد أن تخلص بحزم من ذراعيها اللذين يريدان منعه، خطا خطوة إلى الوراء

دون أن يستجيب لتوسلاتها. ولأن دون ريغوبيرتو كان يتأملها كذلك من الظلمة، فقد كان المشهد فريداً، بل وجميلاً بصورة لا تقارن، بعد أن تم تجاوز التردد الأولي. فالقطط التي كانت قد ابتعدت مرتعبة لتفسح لها مكاناً وتراقبها، بقيت رابضة، مترددة، ولكنها متيقظة طوال الوقت — شرارات خضراء، صفراء، شوارب متصلبة — وحين تشممتها، انقضت الحيوانات على هذه الفريسة الحلوة. تسلفت وحاصرت واحتلت الجسد المطلي بالعسل وهي تزرق من السعادة. وأخذت صرخاتها اعتراضات دونيا لوكرينثيا المتقطعة، وضحكاتهما المكتومة ونداءاتها المتوسلة. لفت ذراعيها على وجهها لتحمي فمها وعينيها وأنفها من اللعقات المتحمسة، فقد كانت تحت رحمتها. وكانت عينا دون ريغوبيرتو تلاحقان تلك المخلوقات القزحية الشرهة، فتنزلان معها عبر نهديها وإليتيها، وتترلقان على ركبتيها، وتلتصقان بمرفقيها، وتصعدان عبر فخذيها وتتسليان أيضاً مثل تلك الألسنة الصغيرة بالحلاوة السائلة والراكدة في القمر المقعر الذي بدا عليه بطنها. كان بريق العسل الذي تتبل بلعاب القطط يمنح التكرورات البيضاء مظهراً شبه سائل، وكان في الطفرات الصغيرة التي يطبعها عليها عدو الحيوانات الصغيرة وتدرجها شيء من الليونة الحركية للأجسام في الماء. كانت دونيا لوكرينثيا تطفو، إنها زورق حي يمخر مياهاً غير مرئية. وفكر: «كم هي جميلة!» كان جسدها ذو النهدين الصليبين والوركين الوافرين، والإليتين والفخذين جيدي التحديد، في تلك النهاية القصوى التي يستطيع هو أن يقدرها لأنه يعرف كل أشياء ذلك الشبح الأنثوي: الوفرة التي توحى بها،

وتتجنبها، السمنة غير المرغوبة.

وطلب منها الرجل الذي بلا وجه:

— افتحي ساقيك يا حبي.

وتوسل دون ريغوبيرتو:

— افتحيهما، افتحيهما.

وألح الرجل:

— إنها صغيرة جداً، لا تعض، لن تؤذيك.

سألها دون ريغوبيرتو:

— أكنت قد بدأت تستمتعين؟

— لا، لا. — ردت دونيا لوكريثيا التي كانت قد أعادت

تجديد نزهة ذلك التتويم المغنطيسي. حفيف فرو القاقم أيقظ

شكوكه: أتكون عارية تحت المعطف؟ أجل، إنها كذلك —.

الدغدغات تثير في الجنون.

ولكنها انتهت إلى القبول وسارع هران أو ثلاثة بلهفة إلى لعق

الجانب المختفي من فخذها، وقطرات العسل التي تلمع الشعيرات

الحريرية السوداء على قمة فينوس. بدا كورال الألسنة اللاعقة لدون

ريغوبيرتو أشبه بموسيقى سماوية. وكان رجع موسيقى بيرغوليسي

الآن دون قوة، عذباً، يتأوه ببطء. وكان الجسد المتماسك منزوع الطلاء

ساكناً، في راحة عميقة. ولكن دونيا لوكريثيا لم تكن نائمة، فقد كان

يصل إلى أذني دون ريغوبيرتو التكتسل المتكتم الذي كان يفلت من

أعماقها دون أن تنتبه إليه. سألها:

— أكنت قد تجاوزت القرف؟

فردت هي:

— لا، بالطبع لا — ثم أضافت بعد لحظة، بمزاج طيب:
— ولكنني لم أعد أهتم كثيراً بذلك.

وضحكت، وكانت ضحكتها هذه المرة هي تلك الضحكة التي تخصه بها وحده في ليالي الحميمية المتقاسمة، ليالي الخيال غير المكتم التي تجعلهما سعيدين. واشتهاها دون ريغوبيرتو بكل ما في جسده من أفواه. فتضرع إليها:

— اخلعي المعطف. تعالي، تعالي إلى ذراعي يا ملكتي، يا معبودتي.

ولكن المشهد الذي صار ثنائياً في هذه اللحظة بالذات شده من جديد. فالرجل غير المرئي لم يعد كذلك. فقد تسلل جسده الطويل الزيتي بصمت إلى الصورة. وصار هناك أيضاً الآن. يستلقي على الفرشة المائلة إلى الحمرة، ويحتضن دونيا لوكرينثيا. وجرّحت مسمعي دون ريغوبيرتو صرخات الهرة المسحوقة بين العاشقين وهي تلتمس الهرب، مضطربة، مفتوحة الأشفاد، ومتدلّية الألسن. ومع أنه أغلق أذنيه، فقد ظل يسمعها. وبالرغم من أنه أغمض عينيه، فقد رأى الرجل فوق دونيا لوكرينثيا. بدا كأنه يغوص في الردفين المتينين البيضاوين اللذين يتلقيانه بهجة. كان يقبلها بشراهة القط التي لحستها ويتحرك فوقها، معها، ضاغطاً بذراعيه. وكانت يدا دونيا لوكرينثيا تضغطان على ظهره، وساقاها المرفوعتان تسقطان فوق ساقيه وقدماهما الشامختان تستقران على ربلتي ساقيه، وهو المكان الذي يُلهب دون ريغوبيرتو. تنهد، وكان يكبح بمشقة الحاجة إلى

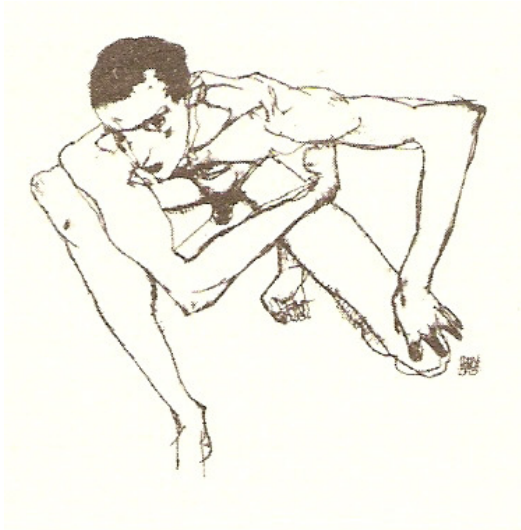
البكاء التي كانت تُثقل عليه. وتمكن من رؤية دونيا لوكريثيا تتسل
باتجاه الباب.

— هل سترجعين غداً؟ — سأل بلهفة.

فرد الشبح الصامت الذي كان يختفي

— وبعد غد، والذي يليه. وهل تراني ذهبت؟

القطط التي استعادت أنفاسها من المفاجأة عاودت الهجوم،
وراحت تبحث عن قطرات العسل الأخيرة، غير مبالية بتعارك
العاشقين.



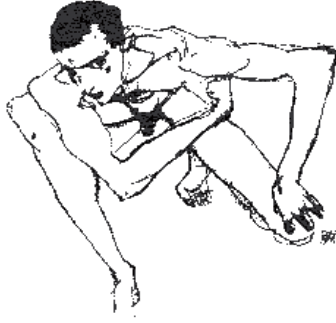
وثنية الأسماء

إنني مهووسة إلى حد العبادة بالأسماء، واسمك يفتنني ويجنّني.

ريغوبيرتو! إنه اسم رجولي، إنه وجيه، إنه برونزي، إنه إيطالي. حين أنطقه بصوت خافت، لنفسي وأنا وحدي، أشعر بأفعى تنساب في ظهري ويتجمد كعباي الورديان اللذان منحني إياهما الله (أو الطبيعة إن شئت أيها الملحد). ريغوبيرتو! شلال ضاحك من ماء زلال. ريغوبيرتو! صفار كناري مرح يحتفل بالشمس. هناك حيث تكون، أكون أنا. ساكنة ومتميمة أكون هناك. أنت تُوَقَّع الآن على كيميائية، على سند مؤجل، باسمك رباعي المقاطع؟ أنا النقطة فوق الـ i ، وذيل الـ g والقرن الصغير للـ t. أنا لخرة الحبر التي تبقى على إبهامك. أتطفئ ظمأك من الحر بكأس صغيرة من المياه المعدنية؟ أنا الفقاعة التي ترطب حلقك ومكعب الثلج الذي يبعث القشعريرة في لسانك الأفعواني. أنا يا ريغوبيرتو رباط حذائك ورفاقة رحيق الخوخ التي تتناولها كل ليلة لمقاومة الإمساك. كيف أعرف هذا التفصيل من حياتك المعوية؟ من يُحبّ يعرف، ويصير عارفاً بكل ما يتعلق بمحبوبه، ويقدم أصغر توافه شخصه. أمام صورتك أرسم إشارة الصليب وأصلي. للتعرف على حياتك لدي اسمك، وعلم أعداد العرافين، وفنون نوستراداموس التنبؤية. من أكون؟ إنني من تحبك مثلما يحب الزبد الشاطئ ومثلما تحب السحابة تورد الشفق. ابحث، ابحث عني وستجدي يا حبي.

لك، لك، لك

المهووسة بالأسماء



II. أشياء إيغون شيلي الصغيرة

— لماذا تهتم كثيراً بإيغون شيلي؟ — سألتُ دونيا لوكريثيا.
فأجاب فوننشيتو:

— يحزنني موته وهو في مطلع شبابه، ولأنهم زجوا به
في السجن. إن لوحاته بديعة جداً. إنني أقضي ساعات في النظر
إليها في كتب أبي. ألا تعجبك أنت يا خالتي؟
— لست أتذكرها جيداً. اللهم إلا في الأوضاع. بعض
الأجساد في أوضاع غير تلقائية، ومنفصلة عن مكانها، أليس
كذلك؟

وقاطعها الطفل وكأنه سيكتشف سراً:

— ويعجبني شيلي أيضاً لأنني، لأنني... لست أتجرأ على قول ذلك يا خالتي.

— أنت تعرف جيداً كيف تقول الأشياء عندما تريد أن تقولها، لا تتصنع الحماسة.

— لأنني أشعر بأنني أشبهه. وبأنني سأعيش حياة مأساوية كحياته.

قفزت لونيا لوكريثيا من الضحك. ولكن قلقاً ما لبث أن داهمها. من أين يأتي الطفل بمثل هذه الأشياء؟ وكان ألفونسيتو ما يزال ينظر إليها بجدية. ثم بذل مجهوداً بعد هنيهة ليبتسم لها. كان جالساً على أرض الصالة التي تستخدم حجرة للطعام، مصالماً ساقيه. وكان لا يزال يرتدي سترة الزي المدرسي الزرقاء وربطة العنق الرمادية، ولكنه كان قد خلع القبعة ذات الواقية التي تقبع إلى جانبه، بين الحقيبة وحافظة الرسوم وعلبة ألوان معهد الرسم. وعند ذلك دخلت خوستينيانا وهي تحمل صينية الشاي. فاستقبلها فونتشيتو مبتهجاً، وصفق فجأة متخلصاً من القلق:

— بسكويت محمص مع الزبد والمربي. هذا هو أكثر ما أحبه في الدنيا. ألا تتذكرين يا خوستيتا! فكذبت خوستينيانا متصنعة الجفاء:

— لم أصنعه من أجلك، وإنما من أجل السيدة. أنت لا تستحق ولو قطعة فتات محروقة.

راحت تسكب الشاي وترتب الفناجين على المنضدة الصغيرة في الصالة. وكان هناك في بستان الزيتون بضعة صبيان يلعبون

كرة القدم تظهر أشباحهم من خلال ستائر النافذة. وكانت تصل إليهم في الداخل، مخففة، الكلمات النابية والركلات وصرخات الفوز. عما قريب سيخيم الظلام. أبدى الطفل حزناً:

— ألن تصفحي عني أبداً يا خوستيتا؟ تعلّمي من خالتي، فقد نسيتُ ما جرى وها نحن الآن على أحسن حال مثلما كنا من قبل. «ليس مثل السابق»، فكرت دونيا لوكريثيا. وكانت موجة ساخنة تلحقها من قدميها حتى قمة شعرها. ولكنها تغاضت عما قاله بشغل نفسها في شرب رشفات من الشاي. وقالت خوستينيانا ساخرة:

— هذا لأن السيدة طيبة جداً بينما أنا خبيثة جداً. — إننا متشابهان إذاً يا خوستيتا، لأنني حسب رأيك خبيث جداً، أليس كذلك؟

— أنت تتفوق علي بالأهداف — قالت الفتاة ذلك مودعة، وغابت في الممر إلى المطبخ. ظلت دونيا لوكريثيا والطفل صامتين بينما هما يأكلان البسكويت ويشربان الشاي.

— خوستيتا تكرهني بالكلام فقط — أكد فونتشيتو حين انتهى من المضغ — أما في أعماق نفسها فأظنها قد غفرت لي أيضاً. ألا ترين ذلك يا خالتي؟

— ربما لا. فهي لا تتخدع بأساليب الطفل الطيب التي تستخدمها. إنها لا تريد أن يحدث ثانية ما حدث لي من قبل. لأنني،

وإن كنت غير راغبة في تذكر ذلك، قد عانيتُ وتألّمت كثيراً بسببك يا فونتشيتو.

شحب وجه الطفل:

— وهل تظنّيني لا أعرف ذلك يا خالتي؟ ولهذا سأفعل كل شيء، كل شيء، لكي أصلح الضرر الذي سببته لك.

أيتكلم بجد؟ أيمثل مهزلة باستخدامه مفردات شخص هرم قبل أوانه؟ من المستحيل التحقق من ذلك في وجه تبدو فيه العينان والفم والأنف والوجنتان والأذنان، وحتى فوضى الشعر، كأنها لشخص مولع بإظهار جمال مظهره. إنه جميل مثل ملاك، مثل إله وثني صغير. والأسوأ... أسوأ ما في الأمر — تفكر دونيا لوكرينثيا — أنه يشبه تجسيد الطهارة، مثال البراءة والفضيلة. «هالة النقاء نفسها التي كانت لموديستو»، قالت ذلك لنفسها وهي تتذكر المهندس المولع بالأغنيات المتكلفة الذي هام بها حباً قبل زواجها من ريغوبيرتو، والذي استخفت به، ربما لأنها لم تستطع أن تقدّر جيداً استقامته ونزاهته. أم أنها رفضت بلوتو المسكين ذاك بسبب طبيته بالذات؟ الآن ما كان يجتذب قلبها هو القيعان العكرة التي يغوص فيها دون ريغوبيرتو؟ معه لم تكن لتتردد ولو ثانية واحدة. ففي طيبة بلوتو كانت الطهارة تعبيراً يعكس نقاء روحه، أما في هذا الشيطان ألفونسو، فإنها استراتيجية للإغواء، مثل غناء الحوريات اللواتي ينادين من الأعماق.

— أتحبّين خوستينا كثيراً يا خالتي؟

— أجل، كثيراً. إنها بالنسبة إليّ أكثر من خادمة. لست أدري

ما الذي كنت سأفعله من دون خوستينيانا طوال هذه الشهور، ريثما أعتاد مرة أخرى على العيش وحيدة. لقد كانت صديقة وحليفة. هكذا أنظرُ إليها. ليست لدي الأحكام الحمقاء المسبقة التي لدى أهالي ليما عن فنيات الخدمة.

وكانت على وشك أن تروي لفوننتشيتو قصة السيدة المحترمة جداً دونيا فيلثيا دي غالاغير التي تتباهى في حفلات الشاي التي تقيمها بأنها منعت سائقها، وهو زنجي مربع يرتدي بدلة ذات لون أزرق بحري، من شرب الماء في أثناء عمله حتى لا يشعر بالرغبة في التبول ويضطر إلى وقف السيارة ليوحيث عن مرحاض تاركاً سيدته وحدها في هذه الشوارع الممتلئة باللصوص. ولكنها لم تفعل، لإحساسها بأن الإشارة، ولو بصورة غير مباشرة، إلى وظيفة عضوية أمام الطفل، سيكون أشبه بتحريك المياه الننتة في مستنقع.

لاطفها فوننتشيتو:

— هل أسكب لك مزيداً من الشاي؟ البسكويت لذيذ جداً. إنني أشعر بالسعادة يا خالتي كلما استطعت الهرب من معهد الرسم والمجيء إلى هنا.

— يجب عليك ألا تضيع أمسيات كثيرة. فهذه الدروس ستنتفك كثيراً إذا كنت تريد أن تصير رساماً حقاً.

لماذا حين نتحدث إليه كما نتحدث إلى طفل — مثلما هو —، يسيطر عليها الإحساس بأنها تطأ أرضاً مزيفة، وبأنها تكذب؟ ولكنها إذا عاملته كرجل صغير، تشعر بالغم نفسه، ويسيطر عليها

الإحساس بالزيف نفسه.

— أتبدو لك خوستينيانا جميلة يا خالتي؟

— أجل. إنها من النمط البيروي جداً ببشرتها التي بلون القرفة ووجهها الذي يشع حيوية. لا بد أنها حطمت قلوباً كثيرة.

— هل قال لك أبي يوماً إنه يراها جميلة؟

— لا، لا أعتقد أنه قال ذلك. لماذا كل هذه الأسئلة؟

— لا شيء. ولكنك أجمل من خوستينا ومن جميع النساء يا خالتي — هتف الطفل. ولكنه سارع إلى الاعتذار فوراً وقد استولى عليه الذعر — هل أسأتُ التصرف بقول هذا لك؟ لن تغضبي مني، أليس كذلك؟

حاولت دونيا لوكريثيا ألا تفسح المجال لابن ريغوبيرتو بأن يلاحظ اختناقها. هل عاد إبليس إلى غيِّه؟ هل عليها أن تمسكه من أذنه وترمي به خارجاً، وتأمره ألا يرجع؟ ولكن كان يبدو أن فوننتشيتو قد نسي ما قاله للتو، وراح يقلِّب محتويات حقيبته بحثاً عن شيء ما. وأخيراً وجده.

— انظري يا خالتي — قدم لها القصاصاة الصغيرة —. إنه

شيلي في صغره. ألا أشبهه؟

تفحصت دونيا لوكريثيا الصبي الضامر ذا الشعر القصير والتقاطيع الرقيقة، المحشور في بدلة قاتمة من بدايات القرن، مع وردة على الياقة، وبدا كما لو أن ياقة القميص القاسية وربطة العنق تخنقانه. وقالت:

— في أدنى الحدود. إنه لا يشبهك في شيء.

— البنتان اللتان إلى جانبه هما أختاه. جيرترود وميلاني.
الصغرى الشقراء هي جيرتي الشهيرة.
— ولماذا هي شهيرة؟ سألته دونيا لوكريثيا بانزعاج. وكانت
تعرف جيداً أنها تتوغل بذلك في حقل ألغام.
— كيف تسألين لماذا؟ — فوجئ الوجه الأشقر، وقامت يدها
بحركة مسرحية — ألا تعرفين؟ لقد كانت موديله في أشهر
لوحاته للعاريات.

اشتد ضيق دونيا لوكريثيا:

— آه، هكذا؟ أرى أنك تعرف جيداً حياة إيغون شيلي.
— لقد قرأت كل ما هو موجود عنه في مكتبة أبي. هناك
نساء كثيرات وقفن أمامه عاريات ليرسمهن. بنات مدارس، نساء
شوارع، وعشيقاته فالي. وكذلك زوجته إيديث وأخت زوجته آديل.
— طيب، طيب. — ونظرت دونيا لوكريثيا إلى ساعتها —
لقد تأخر الوقت يا فونتشيتو.

وواصل الطفل متحمساً، وكأنه لم يسمع ما قالتها:

— ألم تكوني تعرفين كذلك أنه جعل إيديث وآديل تتعريان
معاً ليرسمهما؟ وعندما كان يعيش مع فالي في قرية كروماو، فعل
الشيء نفسه. أوقفها عارية مع بنات من المدرسة. ولهذا السبب
حدثت فضيحة.

فعلقت السيدة لوكريثيا:

— لست أستغرب الأمر إذا كن بنات مدرسة. وبما إن الظلام
يخيم الآن، فمن الأفضل أن تنصرف. إذا ما اتصل ريغوبيرتو

بالمعهد فسوف يكتشف أنك تتغيب عن الدروس.

وواصل الطفل وهو تحت تأثير انفعال كبير:

— ولكن تلك الفضيحة كانت جائرة. لقد كان شيلي فناناً، وكان بحاجة إلى الإلهام. ألم يرسم أعمالاً رائعة؟ وما السيئ في أنه جعلهن يتعريين؟

نهضت دونيا لوكريثيا واقفة:

— سأخذ هذه الفناجين إلى المطبخ. ساعدني برفع الأطباق وسفط البسكويت يا فونتشيتو.

سارع الطفل ليلتقط بيديه فتات البسكويت المنثور على المنضدة الصغيرة. ولحق الخالة بوداعة. ولكن السيدة لوكريثيا لم تتوصل إلى انتزاعه من الموضوع. فقد راح يقول بينما هما يجتازان الممر:

— حسن، صحيح أنه كان يعمل أشياء أيضاً مع من يعريهن. مع أخت زوجته آديل مثلاً عمل ذلك. ولكنه لم يفعله مع أخته جيرتي، أليس كذلك يا خالتي؟

راحت الفناجين تتراقص بين يدي السيدة لوكريثيا. إن لهذا الصغير المخاطي العادة الشيطانية بنقل الحديث دائماً نحو موضوعات وعرة، مثل من لا يفعل ذلك دون قصد.

— لم يعمل ذلك طبعاً معها — ردت عليه وهي تشعر بأن لسانها ينعقد —. بالطبع لم يفعل، يا لهذا الخاطر.

كانا قد دخلا المطبخ الذي بلاطه مثل المرايا. وقد كانت جدرانها تلمع أيضاً. تأملت هما خوستينيانا مذهولة. وكانت فراشة تحوم في عينيها، مثيرة الحيوية في وجهها الأسمر.

قال الطفل بإلحاح:

— ربما لم يفعل شيئاً مع جيرتي، ولكنه فعل ذلك مع أخت زوجته. لقد اعترفتُ بذلك أديل نفسها حين كان إيغون شيلي قد مات. هذا ما تقوله الكتب يا خالتي. أي أنه عمل أشياء مع الأختين. وربما كان الإلهام يأتيه بفضل ذلك.

— ومن هو هذا البارد؟ — سألت الخادمة. وكانت ملامح وجهها حيوية جداً بينما هي تتلقى الفناجين والأطباق وتضعها تحت الصنبور المفتوح، ثم تغطسها في الحوض المملوء حتى حافته بماء رغوي أزرق. وكانت رائحة ماء الكلور تعبق في المطبخ. فقدمت دونيا لوكريثيا:

— إيغون شيلي. رسام نمساوي.
وحدد الطفل:

— لقد مات في الثامنة والعشرين من عمره يا خوستيتا.
— مات من كثرة ما عمل أشياء — قالت خوستينيانا ذلك وهي تغسل الفناجين والأطباق وتجففها بمنشفة ذات مربعات ملونة — عليك أن تحسن سلوكك إذن يا فونتشو، حذار أن يصيبك الشيء نفسه.

فرد الطفل الذي لا يتأثر بالمزاح:

— لم يمّت من عمل الأشياء، وإنما بالإنفلونزا الإسبانية. وماتت زوجته بالمرض نفسه قبله بثلاثة أيام. ما هي الإنفلونزا الإسبانية يا خالتي؟

— إنفلونزا خبيثة كما أظن. ومن المؤكد أنها تأتي إلى فيينا

من إسبانيا. حسن، والآن يجب أن تذهب، فقد تأخر الوقت.

فتدخلت خوستينيانا دون كاجح:

— الآن عرفتُ لماذا تريد أن تصبح رساماً أيها الشقي. لأن الرسامين يعيشون على هواهم مع موديلاتهم كما أرى. فأثبتها دونيا لوكريثيا:

— لا تمزحي بهذا الكلام. إنه طفل.

— ولكنه طفل كبير جداً يا سيدتي — ردت عليها وهي تفتح فمها على اتساعه مظهرة أسنانها الناصعة. فأمسك فونتشيتو ثانية بخيط أفكاره دون أن يبدي اهتماماً بحوار السيدة والخدامة:

— قبل أن يرسمهن كان يلعب معهن. يجعلهن يقفن في أوضاع مختلفة، للتجريب. بملابسهن، ودون ملابس، ونصف عاريات. وكان أكثر ما يروقه هو أن يبذلن جواربهن. جوارب حمراء، خضراء، سوداء، من كل الألوان. وأن ينبطن على الأرض. معاً، منفصلات، مختلطات. وأن يتصرفن كما لو أنهن يتصارعن. وكان يراقبهن لساعات. يلعب مع الأختين وكأنهما دميتاه. إلى أن يأتيه الإلهام. وعندئذ يرسمهن. فاستثارته خوستينيانا:

— يا للعب. أشبه بلعبة خلع الملابس، ولكن مثلما يلعبها البالغون.

— نقطة وانتهى! يكفي! — رفعت دونيا لوكريثيا صوتها إلى حد ظل معه فونتشيتو وجوستينيانا مفتوح الفم. فهذأت هي من

صوتها — لا أريد أن يبدأ أبوك بتوجيه الأسئلة إليك. يجب أن تتصرف.

فتلعثم الطفل:

— حسن يا خالتي.

كان شاحباً من الفزع، فندمت دونيا لوكريثيا لأنها صرخت. ولكن، لم يكن بمقدورها السماح له بمواصلة التحدث بذلك الاندفاع عن علاقات إيغون شيلي الحميمة، فقد كان قلبها يحدثها بأن في ذلك الحديث فحاً، بأن فيه مجازفة، وأنه لا بد من تجنبه. ما الذي لسع خوستينيانا حتى راحت تستحنه بهذه الطريقة؟ خرج الطفل من المطبخ. سمعته وهو يلتقط حقيبته وحافظة أوراقه وأقلامه من غرفة الطعام. وحين رجع كان قد أعاد وضع ربطة العنق، واعتمر القبعة وزرر السترة. وقف عند الباب ناظراً إلى عينيها، وسألها بطبيعية:

— ألا يمكنني أن أقبلك قبلة الوداع يا خالتي؟

تسرع قلب دونيا لوكريثيا من جديد بعد أن كان قد بدأ يهدأ؛ ولكن أكثر ما أقلقها هو ابتسامة خوستينيانا. ما الذي عليها عمله؟ من المضحك أن ترفض. وافقت، وأحنت رأسها. وبعد لحظة من ذلك أحست بمنقار طائر صغير على خدها.

— وأنت أيضاً يا خوستيتا؟

وأطلقت الفتاة فهقهة وهي تقول:

— حذار أن تكون قبلة على الفم.

وفي هذه المرة احتفل الطفل بالنكتة مطلقاً ضحكة في الوقت الذي استعد فيه لتقبيل خوستينيانا من خدها. لقد كان ما قالته حماقة

بالطبع، ولكن السيدة لوكريثيا لم تكن تتجرأ على النظر إلى عيني الخادمة ولم تستطع تأنيبها لتجاوزها الحد في مزاح سيء الذوق.
— سأفتك — قالت لها أخيراً بين الجد واللعب، حين سمعت إغلاق الباب الخارجي — هل جننتِ حتى تُظهري هذه الملاحظات لفوننتشيتو؟

فاعذرت خوستينيانا وهي تهز كتفيها:
— في هذا الطفل شيء لا أدري ما هو. إنه يجعل فم إحدانا يمتلئ بالخطايا.

فقلت دونيا لوكريثيا:
— مهما يكن الأمر... ولكن، من الأفضل عدم إلقاء الحطب إلى النار معه.
فردت خوستينيانا بطلاقتها المعهودة:
— النار هي ما يظهر في وجهك يا سيدتي. ولكن لا تقلقي فهذا اللون يناسبك بصورة باهرة.

اليخضور والروث

يؤسفني أن أخيب أملك. فخطاباتك المؤثرة عن حماية الطبيعة والوسط المحيط لا تهزني. فقد ولدتُ وعشتُ وسأمتُ في المدينة (في مدينة ليما القبيحة، إذا ما حاولت التقصي بدقة) وابتعادي عن المدينة، حتى ولو في نهاية الأسبوع، هو عبودية أُخضع نفسي لها

أحياناً لضرورات أُسرية أو بسبب العمل، ولكنني أفعل ذلك مغموماً على الدوام. لا تضمني إلى هؤلاء الوسطيين الذين تتمثل أثنى أحلامهم في شراء بيت صغير على شاطئ في الجنوب ليقضوا فيه الصيف وعطلة نهاية الأسبوع في اختلاطات قبيحة مع الرمل والماء المالح والبطون المتخمة بالبيرة لوسطيين آخرين يشبهونهم تماماً. هذا المشهد الأحدي لأسر متآخية في استعراض حسن الترتيب على حافة البحر هو بالنسبة إليّ الأكثر غمماً بين المشاهد التي تقدمها، في التراتب الاجتماعي المبتذل، هذه البلاد ما قبل الفردية.

أفهم أن قلب أناس مثلك يخفق طرباً لمرأى منظر طبيعي تزيّنه أبقار ترتع بين أعشاب شذية أو معز تنتشم أشجار خروب، وأنكم تشعرون عندئذ باستثارة مثل تلك التي يشعر بها شاب يافع وهو يرى امرأة عارية أول مرة. أما بالنسبة إليّ فإن المصير الطبيعي للثور الفحل هو ساحة مصارعة الثيران — بكلمات أخرى، أن يعيش لمواجهة الرداء، والموليتا⁽¹⁾، ورمح الطعن، والسهم، وسيف المصارع — أما الأبقار البلدية فلا أرغب في رؤيتها إلا مقطّعة ومشويّة على السفود مع تتبيلة من البهار اللاذع، ودامية أمامي، ومحاطة ببطاطا مقلية تقرقش وسلطة طازجة، وأن أرى المعز مدقوقة، منزوعة الألياف، مقلية أو متبلّة، حسب وصفات السيكو الشمالي، وهو أحد أطباقي المفضلة بين تلك التي يوفرها المطبخ

(1) - موليتا muleta: قضيب يثبت عليه الرداء الأحمر في مصارعة الثيران.

المحلي الهمجي.

أعرف أنني أرح أعلى معتقداتك، فأنا أعرف أنك وجماعتك — وهذه مؤامرة جماعية أخرى! — تعتقدون مقتنعين، أو أنكم في طريقكم إلى الاقتناع، بأن للحيوانات حقوقاً بل وربما لها أرواحاً، كل الحيوانات، دون استثناء بعوض المستنقعات، أوضع الجيف، أو الكوبرا الصافرة، أو سمكة البيرانيا الشرهة. أنا أعتز بوضوح بأن الحيوانات لا تتمتع في نظري إلا بأهمية صلاحيتها للأكل والزينة وربما للرياضة (مع أنني أحدد لك بأن حب الخيول يسبب لي من الغم قدر ما يسببه لي النباتيون، وأنا أنظر إلى الفرسان ذوي الخصى القزمية بسبب الاحتكاك بالسرج، على أنهم نمط كئيب بصورة خاصة من الخصي البشري). وبالرغم من أنني أحترم، عن بعد، من ينسبون إلى الحيوانات وظائف إيروتيرية، إلا أنني شخصياً لن أفن على الإطلاق (والصحيح أنني أشتم روائح كريهة وأتصور أنواعاً من المضايقات الجسدية) بفكرة مجامعة دجاجة أو بطة أو قردة أو مهرة أو أي نوع من الحيوانات ذات الثقوب، بل إنني أتمسك بالارتياح المثير للأعصاب بأن من ينعمون بهذا النوع من الرياضة هم، في نخاع عظامهم — ولا تأخذ حضرتك الأمر على أنه هجوم شخصي — بيئيون في حالة وحشية، وحماة يجهلون ذلك، وهم قادرون في المستقبل على الذهاب للالتحاق بعصابة بريجيت باردو (التي أحببتها أيضاً في شبابي، ولكن لأشياء أخرى) من أجل العمل على إنقاذ الفقمة. ومع أن تخيلات هائجة قد راودتني يوماً على صورة امرأة باهرة الجمال وعارية، تتقلب على فراش مملوء بالقطن، إلا أن معرفة أنه يوجد

في الولايات المتحدة ثلاثة وستون مليون قط وأربعة وخمسون مليون كلب أليف يربعني أكثر مما يربعني ركام الأسلحة الذرية المخزنة في نصف دزينة من بلدان الاتحاد السوفييتي السابق.

إذا كنت أفكر هكذا في رباعيات الأرجل والطيور هذه، فإنه يمكن لحضرتك أن تتصور السخريات التي توقظها في نفسي أشجارك الهامسة، والغابات الكثيفة، والأيكات الوارفة، والأنهار المزغردة، والصدوع العميقة، والقمم البلورية. كل هذه الأشياء الأولية يصبح لها معنى ومبرر إذا ما مرت عبر غربال الحضارة المدنية، بمعنى، إذا ما صنعها وحولها — لا يهمني أن نقول أعاد تكوينها، ولكنني أفضل صيغة "أنسها" سيئة السمعة — الكتاب، أو اللوحة، أو السينما، أو التلفزيون. ولكي نفاهم، فإنني مستعد لتقديم حياتي (وهذا أمر يجب عدم أخذه بحرفيته، لأنه مجرد قول مبالغ فيه جداً) من أجل إنقاذ شجرات الحور التي ترفع هاماتها في البوليفيمو⁽¹⁾ وأشجار اللوز التي تخط بالشيب عزلات غونغورا، وشجيرات البان في قصائد غارثيلاسكو الرعوية أو أزهار عباد الشمس وحقول القمح التي تُقطر عسلها الذهبي في لوحات فان جوخ، ولكنني لا أذرف دمعاً واحدة في سبيل غابات الصنوبر المخربة في حرائق موسم الاصطياف، ولا ترتعش يدي عند التوقيع على مرسوم العفو عن الحارقين الذين يفحّمون غابات الأنديز أو سيبيريا أو الألب. فالطبيعة غير المُصفاة عبر الفن أو الأدب، الطبيعة الطبيعية، الممثلثة بالذباب والبعوض والوحل والفئران والصراصير، لا

(1) - بوليفيمو El Polifemo y Galatea: أسطورة شعرية نظمها الشاعر الإسباني لويس دي غونغورا، وتعتبر من أجمل نماذج الشعر الناطق بالاسبانية.

يمكن مقارنتها بالمتع الراقية، مثلما هي النظافة الجسدية والأناقة في الملابس.

ولكي أوجز، سألخص لك أفكارى — أو ميولي بكلمة أدق — موضحاً أن هذا الذي تدعوه حضرتك «الطاعون العمراني» الذي يزحف دون كبح ويبتلع كل مروج العالم ويسعى إلى تغطية الكوكب الأرضي بطفحٍ من ناطحات السحاب، والجسور المعدنية، والشوارع الإسفلتية، والبحيرات والحدائق الاصطناعية، والمساحات الحجرية ومواقف السيارات تحت الأرضية، حيث الكوكب كله سيتغذى بطبقة من الأسمت المسلح والدعائم الفولاذية ليصبح مدينة كونية واحدة غير محدودة (أجل، ومملوءة بالمكتبات والمعارض ودور الكتب العامة والمطاعم والمتاحف والمقاهي) فإن الداعي يؤيد كل ذلك لأنه سيبقى دُبالاً مدينياً إلى أن تتحلل عظامه.

لكل الأسباب المذكورة أعلاه، لن أساهم بقرش واحد في أرصدة جمعية اليخضور والروث التي تترأسونها، وسأبذل كل ما بوسعي (وهو قليل، فاطمئن) كي لا تتحقق أهدافكم، وكي يكتسح فلسفتكم الشاعرية الرعوية هذا الشيء الرمزي من الثقافة التي تكرهها أنت وأقدرها أنا، ألا وهو: الشاحنة.

حلم بلوتو

في عزلة مكتبه، وقد أيقظته برودة الفجر، كرر دون ريغوبيرتو عن ظهر قلب عبارة بورخيس التي نقاها للتو: «الخيانة

الزوجية تساهم فيها الرقة ونكران الذات». وبعد بضع صفحات من العبارة البورخيسية، ظهرت الرسالة أمامه، سالمة رغم مرور السنوات الأكالمة.

عزيزتي لوكريثيا

وأنت تقرئين هذه السطور ستجدين مفاجأة عمرك، وربما ستحتقريني. ولكن لا يهم. فحتى لو كان هناك احتمال واحد بأن توافقني على اقتراحي مقابل ألف احتمال برفضك إياه، فإنني سأغامر بإلقاء نفسي في البركة. سأوجز لك ما يحتاج إلى ساعات من المحادثة، يرافقها تبدلات في نبرة الصوت وإيماءات إقناعية.

منذ أن غادرتُ البيرو (بعد خيبة الأمل التي سببتها لي)، عملتُ في الولايات المتحدة بنجاح لا بأس به. وخلال عشر سنوات توصلت إلى أن أكون مديراً وشريكاً صغيراً في هذا المصنع للمُوصَّلات الالكترونية، وهو مؤسسة راسخة في ولاية ماساشوستس. وقد تمكنت من شق طريقي كمهندس ورجل أعمال في وطني الثاني هذا، ذلك أنني أصبحت منذ أربع سنوات من مواطني الولايات المتحدة.

ولكي تعرفني، فقد استقلت للتو من هذه الإدارة وأنا أبيع الآن أسهمي في المصنع، وأمل أن أحصل على مبلغ يصل إلى ستمئة ألف دولار، وقد يكون أكثر إذا حالفتني الحظ. وأنا أفعل كل هذا لأنهم عرضوا علي إدارة TIM أي (معهد ماساشوستس للتكنولوجيا)، وهي الكلية التي درست فيها واحتفظ باتصالات

دائمة معها. إن ثلث الطلاب فيها هم hispanic (أي من الأمريكيين اللاتينيين). وسيكون راتبي نصف ما أتقاضاه هنا. ولكنني غير مهتم بذلك. فأنا أحلم بأن أكرس نفسي لتعليم وتكوين هؤلاء الشباب من الأمريكيين الذين سيبنون القرن الحادي والعشرين. ولقد حلمت على الدوام بوهب حياتي للجامعة وهو ما كنت سأفعله لو أنني ظللت في البيرو، أي، لو أنني تزوجت منك. لا بد أنك تتساءلين: «ما سبب كل هذا؟ لماذا ينبعث موديستو بعد عشر سنوات ليروي لي مثل هذه الحكايات؟». إنني أت بالكلام يا عزيزتي لوكريثيا.

لقد قررت، بين مغادرتي بوسطن وذهابي إلى اكسفورد في المسيسيبي، أن أنفق في أسبوع من الراحة مئة ألف دولار أدخرها. وأقول بالمناسبة إنني لم آخذ أية إجازة على الإطلاق من قبل، ولن آخذ في المستقبل، لأن العمل، مثلما تتذكرين، هو ما كان يروقني على الدوام. وما زال عملي هو متعتي الكبرى. ولكن إذا ما تحققت خططي مثلما أرجو فإن هذا الأسبوع سيكون خارجاً عن المألوف. فلن تكون إجازة عادية في سفينة تجوب الكاريبي أو شواطئ فيها أشجار نخيل ومتزلقين على الماء في هاواي. وإنما شيء شخصي جداً ولا يتكرر: إنه تجسيد حلم قديم. وهنا تدخلين أنت في القصة، ومن أوسع أبوابها. أعرف أنك متزوجة من سيد محترم من ليما، أرمل ومدير شركة تأمين. وأنا أيضاً قد تزوجت، وزوجتي غرينغية من بوسطن، تعمل طبيبة، وأنا سعيد بالقدر المتواضع الذي يتيح الزواج للسعادة. لن أقترح عليك الطلاق

وتغيير حياتك، لا شيء من هذا. وإنما أريدك أن تشاطريني هذا الأسبوع المثالي الذي داعب خيالي على امتداد سنوات طويلة، وأن تتيح لي الظروف تحويله إلى حقيقة واقعة. لن تندمي على العيش معي هذه الأيام السبعة الحاملة وستذكرينها طوال ما تبقى من حياتك بحنين.. أعدك بذلك.

سألتقي يوم السبت، السابع عشر، في مطار كينيدي في نيويورك، أنت قادمة من ليما في رحلة اللوفتهانزا، وأنا من بوسطن. وستقلنا سيارة ليموزين إلى جناح في فندق بلازا، وهو محجوز منذ الآن، بما في ذلك تعليمات عن الأزهار التي يجب أن تعبق فيه. وسيكون لديك متسع من الوقت للراحة والذهاب إلى صالون الحلاقة، والتمتع بحمام ساونا أو الخروج للتبضع في الجادة الخامسة مشياً على قدميك. ولدنيا في هذه الليلة مكانان محجوزان في المتروبوليتان لمشاهدة البدائية لبوتشيني، مع لوسيانو بافاروتي لماريو كافارادوسي وأوكسترا المتروبوليتان السيمفونية بقيادة المعلم إدوارد مولير. وستناول العشاء في مطعم السيرك، حيث يمكنك إذا ما حالفنا الحظ أن تكوني على مقربة من ميك جاغير، أو هنري كيسينجر أو شارون ستون. وسنهي السهرة في بهجة ريجنس.

الكونكورد الذاهبة إلى باريس تغادر يوم الأحد عند الظهر، ولن تكون هناك حاجة إلى الاستيقاظ المبكر. وبما أن الرحلة تكاد لا تدوم ثلاث ساعات ونصف — لن نشعر بها كما يبدو، بفضل لداوند الغداء الذي أوصى بإعداده الطاهي بول بوكوس — فإننا سنصل

إلى مدينة النور خلال النهار. وبعد أن نستقر في فندق ريتز (مع إطلالة مضمونة على ساحة الفاندوم) سيكون لدينا متسع من الوقت للقيام بجولة على جسور السين، مستغلين ليالي بداية الخريف الدافئة، وهي أفضل الليالي حسب رأي العارفين، شريطة ألا يهطل المطر. (لقد أخفقتُ في جهودي لمعرفة احتمالات الهطول المطري في باريس في يومي الأحد والاثنين المعنيين، ذلك أن ناسا، وهذا يعني علم الأرصاد الجوية المحكم، لا تستطيع أن تتنبأ بنزوات السماء إلا قبل أربعة أيام من اليوم المرغوب). أنا لم أذهب إلى باريس من قبل قط، وأرجو ألا تكوني قد ذهبت إليها أيضاً، وهكذا فإننا سنكتشف معاً في مشوارنا المسائي هذا الطريق المذهل كما يبدو، من فندق ريتز حتى سان جرمان. وعلى الضفة اليسرى (حي ميرافلوريس الباريسي، لكي نتفاهم) ينتظرنا في كنيسة سان جرمان دي باريس الاستماع إلى صلاة جناز موزارت غير المنتهية وعشاء في مطعم ومشرب ليب الألزاسي حيث تناول طبق الشوكروت إجباري (لست أعرف ما هو هذا الطبق، ولكنه سيروقني إذا كان لا يتضمن الثوم). لقد افترضتُ أنك ستستريحين بعد العشاء لكي تبدئي جولة يوم الاثنين المكثفة بنشاط، ولهذا لن يعرقل البرنامج في هذه الليلة ذهاباً إلى صالة رقص أو بار أو ملهى أو علبة ليل حتى الفجر.

في صباح اليوم التالي سنمر على اللوفر لنقدم احتراماتنا للجوكندا، ثم نتناول غداء خفيفاً في كلوز دي ليلا أو في كويبول (مطعما السنوب المحترمان في مونبارناس)، وسيكون لدينا

بعد الظهر حمام طبيعي في مركز بومبيدو، وسنلقي نظرة على الماريه الشهير بقصوره التي من القرن الثامن عشر ومخنثيه المعاصرين. وسنتناول الشاي في لاماركيز دي سيفينيا، في ميدلين، قبل أن نذهب لاستعادة قوانا بحمام في الفندق. أما برنامج الليل فإنه بصراحة، تافه: تناول مقبلات في بار فندق ريتز، وعشاء في أجواء الحداثة في مطعم مكسيم ثم ننهي الحفلة في كاتدرائية الستريبتيز: صالة الكريزي هورس التي ستفتح استعراضها الجديد "يا للحر!". (بطاقات الدخول مشتراة، والطاولات محجوزة والجراسين والبوابون تلقوا الرشى ليضمنوا لنا أفضل مكان وأفضل منضدة وخدمة.)

سنتظرنا سيارة ليموزين، أقل استعراضية من سيارة نيويورك ولكنها أكثر فخامة، مع سائق ودليل لتقلنا في صباح يوم الثلاثاء إلى فرساي للتعرف على قصر وحدائق ملك الشمس. سنأكل شيئاً تقليدياً (أخشى أن يكون ستيك مع بطاطا مقلية) في مطعم صغير على الطريق، وقبل الذهاب إلى الأوبرا (عطيل، لفيردي، مع أحد هادئ بالطبع) سيكون لديك متسع من الوقت للمشتريات من فوبور سانت اونوريه، وهو بجوار الفندق. ونتناول عشاء صورياً، لأسباب بصرية وسوسيلوجية بحتة، في فندق ريتز بالذات، حيث — حسب مجربين — أبهة الإطار وفخامة الخدمة يعوضان عن الوجبة التي لا يمكن تخيلها. أما العشاء الحقيقي فسيكون بعد الأوبرا، في البرج الفضي ومن نوافذه سنتمكن من وداع أبراج كاتدرائية نوتردام وأنوار الجسور المنعكسة على مياه السين الجارية.

قطار الشرق السريع الذهاب إلى فنيسيا يخرج يوم الأربعاء عند الظهر، من محطة سان لازار. وسنقضي في السفر والراحة بقية هذا اليوم واللييلة التالية، ولكن حسب رأي من قاموا بهذه المغامرة القطارية، فإن اجتياز جغرافية فرنسا وألمانيا والنمسا وسويسرا وإيطاليا في قمرات **الحقبة الجميلة** هذه أمر يبعث على الاسترخاء واستعادة النشاط، وهو مثير ولكن دون إرهاق، ويستنهض الحماسة دون الوصول إلى الجنون، ويسلي حتى لأسباب أركيولوجية، وذلك بسبب الذوق الذي رُممت به القمرات والحمامات والبارات والمطاعم في هذا القطار الأسطوري الذي كان مسرحاً لعدد من الروايات والأفلام ما بين الحربين. سأخذ معي رواية أغاتا كريستي **موت في قطار الشرق السريع**، بطبعة إنكليزية وأخرى إسبانية، فلربما ترغيبين في إلقاء نظرة على مسرح الأحداث. وحسب النشرة الإعلامية، فإن التقيد بالإتيكيت وبالفسنان المفتوح جداً عند الصدر صارم تماماً في **العشاء على ضوء الشموع** لهذه اللييلة.

الجناح المحجوز في فندق شيبيرياني، في جزيرة جيوديكا، يطل على القناة الكبرى وعلى ساحة سان ماركوس وأبراج كنائسها البيزنطية. وقد تعاقدتُ مع جندول ومع دليل تعتبره وكالة السياحة الأكثر كفاءة (واللطيف الوحيد) في المدينة المائية؛ وذلك لكي يُعرفنا في صباح ومساء يوم الخميس على الكنائس والساحات والأديرة والجسور والمتاحف، مع استراحة قصيرة في الظهيرة لتناول وجبة خفيفة — بيتزا مثلاً — ونحن محاطان بالحمام والسياح في شرفة **الفلوريان**. وسنتناول المقبلات — مغلي لا بد

منه يدعونه **بيليني** — في فندق دانيللي ونتناول العشاء في هاريس بار الذي خلدته رواية سيئة لهيمنغواي. ونواصل الماراتون في يوم الجمعة بزيارة إلى شاطئ ليدو وبرحلة إلى مورانو، حيث ما زال الزجاج يُصنع بقوة الأنفاس البشرية (وهي تقنية بعثتها التقاليد وتقوي رئات الوطنيين). وسيكون لدينا متسع من الوقت لشراء السوفينير وإلقاء نظرة اضطرارية على **فييلا بالاديو**. وفي الليل، نتعشى في جزيرة سان غريغوريو — **موسيقى فينيسية** — مع سماع مقطوعات مشهورة للباروكيين الفينيسيين بالطبع: **فيفاردي**، **سيماروسا**، وألبينوني. العشاء سيكون على شرفة **دانيللي**، وستأمل — إذا كانت الليلة دون غيوم — أعضاء فينيسيا التي ستبدو مثل «عباءة من الحباب»، (وأنا أخص هنا كتيبات سياحية). وسنودع المدينة والقارة العجوز يا عزيزتي لوكري، إذا ما سمح الجسد بذلك، ونحن محاطان بالحدائث في صالة رقص **القط الأسود**، التي تجتذب شيوخاً وناضجين وشباباً مولعين بموسيقى الجاز (أنا لم أكن من هؤلاء على الإطلاق، وأنت كذلك، ولكن إحدى متع هذا الأسبوع المثالي أن نعمل ما لم نفعله قط، مخضعين نفسينا للعبودية الدنيوية).

في صباح اليوم التالي — اليوم السابع، وكلمة النهاية أضحت في الأفق — يتوجب علينا الاستيقاظ باكراً. فالطائرة إلى باريس تُقلع في العاشرة، لكي نلحق هناك بالكونكورد إلى نيويورك. وبينما نحن فوق الأطلسي نقارن ما بين الصور والأحاسيس المختزنة في ذاكرتنا لكي نختر منها ما هو جدير

بالبقاء.

الوداع بيننا يكون في مطار كينيدي (طائرتك إلى ليما وطائرتي إلى بوسطن ستقلعان في وقت واحد تقريباً) وبعدها لن يكون بيننا أي لقاء دون شك. فأنا أشك بأن تتقاطع مصائرنا مرة أخرى. لأنني لن أرجع إلى البيرو ولست أظنك ستصلين أبداً إلى ذلك الركن في الجنوب البعيد Deep South، الذي يمكنه أن يفاخر منذ شهر تشرين الأول بامتلاك مدير الجامعة الهسباني الوحيد في هذه البلاد (فالألف وخمسمئة مدير الآخرون هم غرينغيون أو أفارقة أو آسيويون).

هل ستأتين؟ بطاقة سفرك بانتظارك في مكتب لوفتهانزا في ليما. لا حاجة بك إلى الرد على رسالتي. فأنا سأكون موجوداً على أي حال يوم السبت 17، في المكان المحدد. وسيكون مجيئك أو عدم مجيئك هو الرد. فإذا لم تحضري، سأكمل برنامج الرحلة وحدي، متخيلاً أنك معي، محولاً إلى واقع هذه النزوة التي سلوت بها نفسي طوال هذه السنوات، مفكراً بامرأة ستبقى، رغم صدها الذي قلب مسار حياتي، فؤاد ذاكرتي إلى الأبد.

هل أحتاج إلى أن أحدد لك بأن هذه الدعوة التي ستشرفيني بمرافقتك فيها، لا تفرض عليك أي واجبات أخرى سوى مرافقتي؟ لن أطلب منك بأي حال من الأحوال خلال أيام الرحلة هذه أن — لست أدري كيف أقول ذلك بعبارة أخرى ملطفة — أن تشاطريني فراشي. إنني لا أتطلع يا عزيزتي لوكرثيا إلا إلى أن تشاطريني حلمي. الأجنحة المحجوزة في فنادق نيويورك وباريس وفينيسيا

مؤلفة من غرفتين منفصلتين ومزودتين بأقفال ومفاتيح، يمكنني أن أضيف إليها خناجر وفؤوساً ومسدسات، بل وحراساً شخصيين أيضاً إذا ما استدعت وسأوسك ذلك. ولكنك تعرفين أنه لا حاجة بك لأي شيء من هذا، وأن موديستو الطيب، بلوتو الوديع كما كنت تلقينني في الحي، سيكون محترماً معك مثلما كان قبل سنوات في ليما، عندما كنت أحاول إقناعك بالزواج مني دون أن أتجرأ على لمس يدك في عتمة صالات السينما.

إلى اللقاء في مطار كينيدي أو إلى لا لقاء إلى الأبد يا لوكري.

موديستو (بلوتو)

أحس دون ريغوبيرتو بارتفاع في حرارته وبمداهمة الحمى الثلاثية له. كيف سيكون رد لوكريثيا؟ هل سترفض ساخطة رسالة هذا المنبعث من النسيان؟ هل ستستجيب لإغراء التجربة الطائش؟ وبدا له في الصباح الحليبي أن دفاتره تنتظر حل العقدة بجزع مثل جزع روحه المعذبة.

أوامر ملزمة للمسافر المتعطش

هذا أمر من عبدك، أيتها المحبوبة.
قبالة المرأة، وعلى سرير أو أريكة مزينة بحريير هندي مرسوم

يدويًا أو آتيك أندونيسي ذي عيون حمراء، تتبطحين عارية، وشعرك
الأسود الطويل مفلت.

ترفعين ساقك اليسرى وهي منحنية حتى تشكل زاوية. تسندين
رأسك إلى كتفك اليمنى، وتفتحين شفثيك قليلاً وتجعدين بيدك اليمنى
أحد أطراف الملاعة، تخفضين رموشك متظاهرة بالنوم. وتتخيلين أن
نهرًا أصفر من أجنحة فراشات ونجوم غبارية يهبط فوقك من
السماء ويشطرك.

من أنت؟

إنك دانايبه لغوستاف كليمت. ليس مهمًا من هي التي جلست
أمامه ليرسم هذه اللوحة الزيتية (1907—1908)، فالمعلم قد
استبقك، خمنك، وربما رآك مثلما ستأتين إلى الدنيا ومثلما ستكونين،
على الجانب الآخر من المحيط، بعد نصف قرن من الزمان. كان
يظن أنه يبديع بفراشيه سيده من المثلوجيا الهيلينية بينما هو في
الحقيقة يستبق إبداع جمال مستقبلي، وزوجة عاشقة، وعرابة حسية.
أنت وحدك بين جميع النساء، مثلما في هذا التخيل الفني
الجمالي، تجمعين بين الكمال الدقيق للملاك وبراءته ونقائه، وجسد
أرضي إلى حد الجراءة. إنني أتخلى اليوم عن صلابة نهديك وعن
حريية ردفيك لكي أقتصر في تقديم التكريم إلى فخذيك وحدهما،
معبد الأعمدة هذا الذي أريد أن أُفيد وأجلد فيه بسبب سوء
تصرفي.

كلك احتفال لحواسي.

يا بشرة المخمل، يا لعاب الألوّة⁽¹⁾، أيتها السيدة الرقيقة ذات
المرفقين والركبتين الخالدة، استيقظي، انظري في المرأة، وقولي:
«إنني موضع احترام وتقدير مثلما لم تكن امرأة، وموضع شوق
ورغبة مثلما هو السراب السائل بالنسبة إلى الرحالة الظامئين».
لوكريثيا — داناييه، داناييه — لوكريثيا.
هذا توصل من سيدك، يا عبدتي.

الأسبوع المثالي

قال دون ريغوبيرتو:

— اتصلت سكرتيرتي بلوفتهانزا، وبالفعل، بطاقة سفرك
موجودة هناك، ومدفوعة الثمن. بطاقة ذهاب وإياب. في الدرجة
الأولى بالطبع.

فهتفت دونيا لوكريثيا بخفر:

— هل أحسنتُ صنعاً بعرض هذه الرسالة عليك يا حبي؟ أنت
لم تغضب، أليس كذلك؟ بما أننا قد تعاهدنا على ألا يخفي أحداً أي
شيء عن الآخر، فقد رأيتُ أن من واجبي عرضها عليك.

فقال دون ريغوبيرتو وهو يقبل يد زوجته:

— أحسنتُ صنعاً يا ملكتي. أريدك أن تذهبي.

— تريدني أن أذهب؟ — ابتسمت دونيا لوكريثيا، ثم تحولت

(1) - ألوّة aloe: نبات من الصباريات يستخرج منه سائل طبي شديد المرارة.

إلى الجديّة: — أتتكلّم بجد؟

فألح هو، وشفّته على أصابع امرأته:

— بل أتوسل إليك. إلا إذا كانت الفكرة تزعجك. ولكن، لماذا ستزعجك؟ بالرغم من أنه برنامج ثريّ محدث ومبتذل بعض الشيء، إلا أنه مشغول بروح مرحة وتهكمية قلما توجد لدى المهندسين. ستتسلين يا حبي.

تلعثمت دونيا لوكريثيا مقاومة خجلها:

— لست أدري ما أقول لك يا ريغوبيرتو. هذا كرم منك،

ولكن...

فأوضح لها زوجها:

— أطلب منك أن توافقي لأسباب أنانية. فأنت تعرفين أن الأنانية هي فضيلة في فلسفتي. ستكون رحلتك تجربة عظيمة بالنسبة إليّ.

ومن خلال عيني دون ريغوبيرتو وملامح وجهه، عرفت دونيا لوكريثيا أنه يتكلّم بجد. فقامت بالرحلة، وفي اليوم الثامن رجعت إلى ليما. وقد استقبلها في مطار كورباك زوجها وفوننشيتو، وكان هذا الأخير يحمل باقة أزهار ملفوفة بورق سيلوفان وبطاقة تقول: «أهلاً بك في الوطن يا خالتي». حياها بمظاهر حب كثيرة، ولكي يساعدها دون ريغوبيرتو على مواصلة قلقها راح يتنقل عليها بأسئلة عن الطقس، والجمارك، وتبدل المواقيت، وطائرة الجت ليغ، وتعبها، متقادياً أية مقارنة للمادة العصبية. وفي طريقهما إلى بارانكو قدم لها عرضاً مفصلاً لوضع المكتب، ودراسة فوننشيتو في المعهد، ووجبات

الفطور والغداء والعشاء خلال غيابها. كان البيت يزهو بمغالاة في التنظيم والنظافة. فقد أمرت خوستينيانا بغسل الستائر وتجديد سجاد الحديقة، وهي مهمات لا تنفذ عادة إلا في آخر كل شهر.

أمضت المساء وهي تفتح الحقائق، وتتحدث مع الخدم في أمور عملية، وترد على مكالمات هاتفية من صديقاتها وأقربائها الذين يريدون أن يعرفوا كيف كانت رحلتها إلى ميامي للتسوق من أجل أعياد الميلاد (وكانت هذه هي الرواية الرسمية لاختفائها). ولم يكن هناك أدنى استياء في الأجواء عندما أخرجت الهدايا لزوجها ولابنه ولخوستينيانا. فقد أبدى دون ريغوبيرتو رضاه عن ربطات العنق الفرنسية، والقمصان الإيطالية والكنزة النيويوركية، وأعجب فونتشييتو بملابس الجينز، والسترة الجلدية والملابس الرياضية التي كانت على مقاسه بالضبط. وشهقت خوستينيانا بحماسة حين جربت، فوق مريولها، الثوب الأصفر المزركش الذي كان من نصيبها.

وبعد العشاء دخل دون ريغوبيرتو إلى الحمام وتأخر أقل من المعتاد في اغتساله. وعندما رجع وجد حجرة النوم غارقة في عتمة مجروحة بضربة ضوء غير مباشرة لا تضيء إلا لوحتي جرافيك أوتامارو: اتصالين منقطعي النظر ولكنهما أورثوذكسيان للثنائي نفسه، هو مزود بقضيب محلزن وهي بفرج قزم، ما بين كيمونات مننقخة مثل غيوم عاصفة، ومصاييح ورقية، وحُصر، وطاولات صغيرة مع أواني الشاي الخزفية، وفي البعيد جسور على نهر متعرج. كانت دونيا لوكريثيا ما بين ملاءات السرير، غير عارية، وقد تأكد من ذلك حين انزلق إلى جوارها، ولكنها كانت

بقميص نوم جديد — أتكون قد اشتريته واستخدمته في الرحلة؟
— يوفر ليديه الحرية الضرورية للوصول إلى الأركان الحميمة.
مالت هي، واستطاع هو أن يدخل ذراعه تحت كتفيها وأن يلمسها
من قدميها إلى رأسها. قبلها دون أن يُثقل عليها، بعذوبة كبيرة، في
عينيها، في خديها، متعمداً التأخر في الوصول إلى فمها.

— لا تروي لي شيئاً لا تودين قوله — همس في أذنها
بمداعبة طفولية تُسرّر نفاذ صبره، بينما شفتاه تجوبان انحناء أذنها
— اروي لي ما بدا لك، أو لا تروي شيئاً إن أردت.

فهمست دونيا لوكريثيا وهي تبحث عن فمه:

— سأروي لك كل شيء. ألم ترسلني من أجل ذلك؟

— أيضاً. — وافق دون ريغوبيرتو، مقبلاً عنقها، شعرها،
جبهتها، متوقفاً بإلحاح عند الأنف، والخدين والذقن — هل
استمتعت؟ أكان كل شيء على ما يرام؟

— معرفة ما إذا كان جيداً أم سيئاً يعتمد على ما سيحدث الآن
بيني وبينك — قالت السيدة لوكريثيا ذلك بسرعة، وأحس دون
ريغوبيرتو، للحظة، بأن زوجته قد تشنجت — لقد استمتعت، أجل.
سعدت، أجل. ولكنني كنت خائفة طوال الوقت.

— أكنت تخشين أن أغضب؟ — كان دون ريغوبيرتو يقبل
الآن النهدين الصليبين، كل مليمتر فيهما، وكان طرف لسانه يداعب
الحملمتين ويحس كيف تنتصبان — أكنت تخشين من غيرتي؟

فهمست دونيا لوكريثيا وهي تعانقه:

— كنت أخشى أن تتألم.

«بدأت تتعرق»، تأكد دون ريغوبيرتو من ذلك. وكان يشعر بالسعادة وهو يداعب الجسد الذي يزداد فعالية في كل لحظة، وكان لا بد له من تشغيل وعيه للتحكم بالدوار الذي بدأ يسيطر عليه. همس في أذن زوجته بأنه يحبها أكثر، أكثر بكثير مما كان عليه قبل الرحلة.

بدأت هي الحديث، مع فواصل من التوقف، باحثة عن الكلمات — وقفات صمت كانت محددة لاعترافها —، ولكنها راحت تكتسب الثقة شيئاً فشيئاً، متشجعة بالمداعبات والمقاطعات الغزلية. وأخيراً انتبه دون ريغوبيرتو إلى أنها قد استعادت طلاقها وأنها صارت تروي متخذة مسافة تكلف مما ترويه. كانت تلتصق بجسده، وتسند رأسها إلى كتفه. وكانت أيديهما تتحرك على التوالي بين لحظة وأخرى لتتخذ وضعاً جديداً أو لتبحث عن عضو، عن عضلة أو جزء من بشرة الآخر.

— هل تغير كثيراً؟

لقد تأمركَ في طريقته باللبس والتكلم، فدائماً تقلت منه عبارات بالإنكليزية. ولكن على الرغم من الشيب والسمنة، فإن وجهه يبقى دائماً هو وجه بلوتو الطويل والكئيب نفسه، وكذلك خجله وحياءه في شبابه.

— رآك تصلين وكأنك قد هبطت من السماء.

— لكم شحب لونه! ظننتُ أنه سيغمى عليه. كان ينتظرنى بباقة من الزهر أكبر منه حجماً. وكانت سيارة الليموزين واحدة من هذه السيارات المفضضة التي يستخدمها الغانغستر في الأفلام.

فيها بار، وتلفزيون، وموسيقى استيريو، و — فلتَمْتُ غيضاً —
مقاعد من جلد فهد.

تحمس دون ريغوبيرتو:

— يا لحُمة البيئة المساكين.

— أعرف أنها سيارة مبتذلة — قال موديستو معتذراً، بينما
كان السائق، وهو أفغاني طويل جداً يرتدي زياً أحمر، يرتب
الحقائب في صندوق السيارة —. ولكنها الأعلى أجراً.
وأصدر دون ريغوبيرتو حكمه:

— إنه شخص لا يتوانى حتى عن أن يسخر من نفسه. لطيف.
وواصلت دونيا لوكريثيا:

— في الطريق إلى فندق بلازا غازلني مرتين، وكان محمراً
حتى أذنيه. قال إنني ما زلت أحتفظ بنضارتي على أحسن حال،
وإنني أجمل مما كنت عليه حين أراد الزواج مني.

— إنك كذلك فعلاً — قاطعها دون ريغوبيرتو مرتشفاً أنفاسها
— كل يوم أجمل، كل ساعة تكونين أجمل.

وقالت هي:

— لم يقل أي كلمة مزعجة، ولا أي تلميح مفاجئ. شكرني كثيراً
لأنني ذهبت إليه حتى جعلني أشعر وكأنني السامرية الطيبة في
الكتاب المقدس.

— أوتدرين فيما كان يفكر وهو يقول لك هذه المجاملات؟

— ماذا؟ قالت دونيا لوكريثيا وهي تلف ساقها على ساق
زوجها.

فأوضح لها دون ريغوبيرتو:

— كان يفكر في ما إذا كان سيراك عارية ذلك المساء بالذات في فندق بلازا، أم أنه سينتظر إلى الليل، أم حتى الوصول إلى باريس.

— لم يرني عارية في ذلك المساء ولا في تلك الليلة. اللهم إلا إذا كان قد تلمص علي من ثقب المفتاح وأنا أستحم وأرتدي ثيابي للذهاب إلى المتروبوليتان. مسألة الغرفتين المنفصلتين كانت صحيحة. غرفتي كانت تطل على السنترال بارك. فتذمر هو وقد خاب رجأؤه:

— ولكنه سيمسك يدك على الأقل في الأوبرا أو في المطعم. وبمساعدة الشمبانيا سيلصق وجهه بخدك وأنتما ترقصان في ريجنس. وسيقبلك من عنقك، من أدنك.

لا شيء من هذا. لم يحاول أن يمسك يدها أو أن يقبلها طوال تلك الليلة التي لم يوفر فيها مع ذلك الزهور الكلامية، ولكن مع مراعاة المسافة الفاصلة دائماً. لقد أظهر اللطف فعلاً، ساخراً من انعدام خبرته («إنني أموت خجلاً يا لوكري، ولكنني خلال ست سنوات من الحياة الزوجية لم أحن زوجتي مرة واحدة»)، واعترف لها بأنها المرة الأولى في حياته التي يحضر فيها عرض أوبرا أو يضع قدميه في مطعم السيرك وفي ريجنس.

— الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنه علي أن أطلب شمبانيا دوم بيرونيا، وأن أشم كأس النبيذ بأنف متحسس وأن أطلب الأطباق المكتوبة بالفرنسية.

كان ينظر إليها بامتنان لا يقدر، بامتنان كلبى.

— إذا أردتَ أن أخبرك الحقيقة، فقد جئت بدافع الزهو يا موديستو. إضافة إلى الفضول بالطبع. هل من الممكن أن تكون قد ظللت مغرماً بي طوال هذه السنوات العشر، دون أن تكون قد رأيتني خلالها، ودون أن يعرف أحدنا أي شيء عن الآخر؟ فأوضح لها هو:

— "مغرماً" ليست الكلمة المناسبة. فأنا مغرم بدوروثي، الغرينغية التي تزوجت منها، وهي متفهمة جداً وتسمح لي بالغناء في الفراش.

فشرح لها دون ريغوبيرتو:

— لقد كنت بالنسبة إليه شيئاً أكثر رقة. كنت اللواقع، الوهم، امرأة ذاكرته ورغباته. أنا أيضاً أريد أن أحبك هكذا، مثله. انتظري، انتظري.

جردها من قميص النوم الصغير وأعاد إراحة جسدها بحيث تتلامس بشرة جسميهما في أكبر عدد ممكن من النقاط. ثم كبح رغبته، وطلب منها أن تواصل.

— رجعنا إلى الفندق فور تناؤبي الأول. تمنى لي ليلة سعيدة بعيداً عن مخدعي. وأن أحلم بالملائكة. لقد تصرف جيداً، وكان شهماً إلى حد دفعني إلى أن أقدم له حركة تغنج صغيرة في صباح اليوم التالي.

لقد حضرت لتناول الفطور، في الحجرة الوسطية بين غرفتي نومهما، وهي حافية وبروب خروج من السرير صيفي وقصير

جداً، يكشف عن ساقئها وفخذئها. وكان مودئستو ٱنتظرها حلق الذقن ومستحماً ومرتدياً ملابسه. فانفتح فمه على مصراعئه.

— هل نمت جيداً؟ — استطاع أن ٱركب هذه العبارة وهو مرتخي الفكئن، بئنا كان يساعدها على الجلوس أمام عصئر الفاكهة، والخبز المحمص ومربئ الفطور، ثم أضاف: — هل أستطئع أن أقول لك إنك تبءئن جمئلة جداً؟

فقاطعها دون رءغوبئر تو:

— توقئ. دعئني أركع وأقبل الساقئن اللئئن بهرتا الكلب

بلوتو.

وفي طرئقهما إلى المطار، ثم بعد ذلك فئ طائرة الكونكورء التابعة للاءئر فرانس، وبئنا هما ٱتناولان وجبة الغداء، عاد مودئستو إلى موقف الهئام المهذب الذي كان عله فئ الئوم الأول. ذكر لوكرئئئا، دون ملوءراما، كئف قرر الاستقالة من جامعة الهندسة حئن اقتنع أنها لن تتزوج منه وسافر إلى بوسطن، لئجرب حظه. وحدثها عن البءاءات الصعبة فئ تلك المءئنة ذات الشءاءات الباردة والببوت الحمراء الفكئورئئة، حئث بقئ ثلاثة أشهر للحصول على عمله الأول الثابء. لقد تحطمت روجه، ولكنه لم ٱنءم على ذلك. فقد حصل على الأمان الذي لا بء منه، وعلى زوجة ٱتقاهم معها، وهو سئبءاً الآن مرحلة جءئدة بالعودة إلى الجامعة، وهذا عمل طالما تشوق إليه، وها هو ٱجسد لعبة خئالئة، اللعبة الراشءة اللئ لاذ بها طوال تلك السئوات: لعبة الأسبوع المثالئ، حئث ٱلعب ءور الثرئ فئ نئوئورك وبارئس وفئئئسئا مع لوكرئ. ٱمكنه أن ٱموت الآن وهو مطمئن.

— هل صحيح أنك ستنفق ربع مدخراتك في هذه الرحلة؟
فأكد وهو ينظر إلى عينيها:

— أرغب في أن أنفق الثلاثمئة ألف دولار التي تخصصني،
لأن بقية المبلغ هو من نصيب دوروثي. ليس من أجل الأسبوع كله،
وإنما لأني استطعت أن أراك فقط، في ساعة الفطور، بهاتين
الساقين والذراعين والكتفين المكشوفة. هذا هو أجمل ما في
الدنيا يا لوكري.

وقبلها دون ريغوبيرتو:

— ما الذي كان سيقوله لو أنه رأى نهديك ومؤخرتك. إنني
أحبك، أحبك.

— في تلك اللحظة قررت أن أريه البقية في باريس —
قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تتهرب من قبلات زوجها —.
قررت ذلك حين كان قائد الطائرة يعلن أننا قد اخترقنا جدار
الصوت.

ووافق دون ريغوبيرتو:

— كان هذا هو أقل ما يمكنك عمله لسيد شديد الصراحة إلى
هذا الحد.

ما إن استقر كل منهما في مخدعه — الإطالة من غرفة
لوكريثيا كانت تحيط بالمسلة القاتمة في ساحة الفاندوم التي تضيع
في الأعلى وواجهات محلات المجوهرات النمطية في محيط
الساحة — حتى خرجا ليتمشيا. كان موديستو يحفظ الطريق
ويحسب الوقت عن ظهر قلب. ذرعا التويليري، ثم اجتازا السين

ونزلاً نحو سان جرمان عبر أرصفة الضفة اليسرى. ووصلاً إلى الكنيسة قبل نصف ساعة من موعد الكونشرتو. كان مساءً شاحباً ودافئاً في خريف أصفى بريقاً على أشجار الكستناء، وبين حين وآخر كان المهندس يتوقف وفي يده الدليل والخارطة، كي يقدم إلى لوكريثيا معلومة تاريخية، مدينية، معمارية أو جمالية. وكان عليهما أن يجلسا متقاربين جداً على مقاعد الكنيسة غير المريحة والمزدحمة من أجل الكونشرتو. استمتعت لوكريثيا بالكآبة السخية لموسيقى صلاة الجناز لموزارت. وبعد ذلك، بينما هما يجلسان إلى طاولة في الطابق الأول في مطعم ليب، هنأت موديستو:

— لا أستطيع أن أصدق أنها رحلتك الأولى إلى باريس. إنك تعرف الشوارع، والأنصاب التذكارية والعناوين وكأنك تعيش هنا.

— لقد أعددت نفسي لهذه الرحلة مثلما أستعد لامتحان نهاية الدراسة يا لوكري. كنت أراجع كتباً، وخرائط، ووكالات سفر، وأستجوب الرحالة. أنا لا أجمع الطوابع، ولا أربي كلاباً، ولا ألعب الغولف. ومتعتي الوحيدة منذ سنوات هي الإعداد لهذا الأسبوع.

— وهل كنتُ أنا ضمن مشروعك دائماً؟

فلاحظ دون ريغوبيرتو:

— خطوة أخرى على طريق الغنج.

واحمر وجه بلوتو حياءً:

— أنت دائماً ولا أحد سواك. فنيويورك، وباريس، وفيينيسيا، ودور الأوبرا، والمطاعم وكل هذه الأشياء ليست سوى الإطار. أما المهم، المركزي، فهو أنت وأنا، وحدنا في المشهد.

رجعا إلى ريتز في سيارة تكسي، متعبين ومنتشيين قليلاً بسبب كأس الشمبانيا، ونبذ بورغونيا والكونياك الذي انتظرا ورافقا وودعا به طبق الشوكروت. وعند تبادل التمنيات بليلة سعيدة وهما واقفان في الصالة التي تفصل بين حجرتي النوم، أعلنت دونيا لوكريثيا لموديستو دون أي تردد:

— إنك تتصرف بصورة جيدة جداً، وأنا أيضاً أريد أن ألعب. سأقدم لك هدية.

اخنتق بلوتو:

— آه، صحيح؟ ما هي هذه الهدية يا لوكري؟
فغردت هي:

— جسدي كله. أدخل عندما أناديك. ولكن لتنتظر فقط.

لم تسمع ما الذي ردّ به موديستو، ولكنها كانت واثقة من أنه كان مختنقاً من السعادة بينما وجهه الأبحم يهتز موافقاً في الردهة الظليلة. ودون أن تعرف كيف ستفعل ذلك، بدأت تتعري، وعلقت ثيابها، ثم أفلتت شعرها في الحمام («مثلما يروقني يا حبيبتي؟»). «مثلما يروقك تماماً يا ريغوبيرتو.» ثم رجعت إلى غرفتها، فأطفأت كل الأنوار باستثناء مصباح السرير الذي حركته بحيث يضيء النور المخفّف بكُمّة وردية ملأءات السرير التي كانت قد هياتها عاملة الفندق للنوم. ثم استلقت على ظهرها، ومالت قليلاً في وضع متكاسل، مستسلم، وأراحت رأسها على الوسادة.

— ادخل عندما تشاء.

«أغمضت عينيها كيلا تراه وهو يدخل»، فكر دون ريغوبيرتو

متأثراً بهذا التفصيل الخَفِر. كان يرى بوضوح، من وجهة نظر شبح المهندس المتردد والمتشوق الذي اجتاز عتبة الباب، في تدرجات الضوء الزرقاوية، جسد التكرورات الذي يضاهاى الوفرات العذراوية عند موريللو، دون أن يصل إلى الإفراطات الروبنزية، مستلقٍ وإحدى الركبتين متقدمة، تغطي العانة، والركبة الأخرى تقدم نفسها، وانحناءات الرديفين البارزة توازن حجم اللحم الذهبي في منتصف السرير. ومع أنه كان قد تأمل ذلك الجسد، وتفحصه، وداعبه واستمتع به مرات ومرات، إلا أنه كان يراه الآن أول مرة بهاتين العينين الغريبتين. وخلال برهة لا بأس بها — وأنفاسه محبوسة وعضوه متصلب — أُعجب به. وبينما كانت دونيا لوكريثيا تقرأ أفكاره، دون أي كلمة تكسر الصمت، راحت تتقلب بين لحظة وأخرى بحركة كاميرا بطيئة، بتهاون من تظن أنها بمنجى من أي نظرات مسترقة، وتُظهر لموديستو المحترم، المسمر على بعد خطوتين من السرير، خاصرتيها وظهرها، مؤخرتها ونهديها، إيطيها منزوعي الشعر وأجمة العانة. وأخيراً، راحت تفتح ساقيها كاشفة عمق ما بين فخذيهما وهلال عضوها.. «في وضع الموديل المجهولة للوحة أصل العالم، لغوستاف كوربيه (1866)»، بحثت ووجدت دون ريغويرتو، منهوكاً من الانفعال لدى تأكده من أن نضارة البطن ومثانة الفخذين وقمة فينوس عند زوجته تتطابق بصورة ميليمترية مع المرأة مقطوعة الرأس في تلك اللوحة الزيتية، أميرة مجموعة لوحاته الخاصة. وعندئذ تبخرت الأبدية:

— أشعر بالنعاس، وأظنك تشعر به أيضاً يا بلوتو. لقد حان وقت النوم.

— تصبحين على خير — رد على الفور ذلك الصوت وهو
عند حافة السعادة أو الاحتضار. وتراجع موديستو متعثراً، ثم أغلق
الباب بعد ثوانٍ.

صاح دون ريغوبيرتو مفتوناً:

— استطاع كبح نفسه، لم ينقض عليك مثل وحش جائع. لقد
كنت تحركينه بطرف خنصرك.

ضحكت لوكرينثيا:

— لم أصدق ذلك. ولكن وداعته هذه كانت جزءاً من اللعبة
أيضاً.

في صباح اليوم التالي حمل عاملٌ في الفندق إليها وهي
في السرير باقة أزهار مع بطاقة تقول: «عيون تری، وقلب يحس،
وذاكرة تتذكر وكتبُ رسومٍ متحركة يشكرك من أعماق روحه».

اعتذر دون ريغوبيرتو وهو يطبق فمها بيده:

— أشتهيك كثيراً. يجب علي أن أحبك.

— تصور إذن كيف أمضى بلوتو المسكين تلك الليلة.

— المسكين؟ — جاء رد فعل دون ريغوبيرتو بعد الحب،
بينما هما يستردان أنفاسهما، منهوكين وسعيدين — ولماذا تقولين
إنه مسكين؟

— أنا أسعد رجل في العالم يا لوكري — أكد لها موديستو
تلك الليلة ما بين جولتين من الستريبيتيز في افتتاح استعراض صالة
الكريزي هورس، وهما محاطان بسياح يابانيين وألمان، وبعد أن
شربا زجاجة الشمبانيا —. حتى القطار الكهربائي الذي أحضره لي

بابا نويل وأنا في العاشرة من عمري لا يمكن مقارنته بهديتك لي.
طوال النهار، بينما هما يجوبان أنحاء اللوفر، ويتغديان في
مطعم كلوزري دي ليلا، ويزوران مركز بومبيدو أو يضيعان في
أزقة مارييه المتبدلة الطراز، لم يُشر بأدنى تلميح إلى الليلة السابقة.
مواصلًا التصرف كرفيق رحلة حسن الاطلاع، ووفي وخدم.

وأكمل دون ريغوبيرتو:

— في كل شيء تحدثيني عنه، أزدادُ حسنَ ظنِّ به.

واعترفت دونيا لوكريثيا:

— لقد حدث لي الشيء نفسه. خطوت في ذلك اليوم خطوة
صغيرة أخرى، لكي أكافئه. ففي مطعم مكسيم لامست ركبتي
ركبته طوال فترة تناول الطعام. وعندما رقصنا، أحس بلامسة
نهدي له. وفي الكريزي هورس أحس بساقي.

هتف دون ريغوبيرتو:

— من مثله. يتعرف إليك على النمط المتسلسل، على حلقات،
جزءاً بعد آخر. إنها لعبة القط والفأر في نهاية المطاف. وهي لعبة
لا تخلو من خطورة.

تغنجت دونيا لوكريثيا:

— لا، ليست خطرة يا بلوتو إذا ما كانت تُلعب مع رجل
محترم مثلك. إنني سعيدة لأنني وافقت على دعوتك يا بلوتو.

كانا قد رجعا إلى فندق ريتز، سعيدين وحالمين. وفي صالة
الجناح ودع كل منهما الآخر.

— انتظر يا موديستو — ارتجلت هي الكلام وعيناها

ترمشان — مفاجأة، مفاجأة. أغمض عينيك.
انصاع بلوتو في الحال، وقد حوَّله التوقع. اقتربتُ منه،
والتصقت به وقبَّلتَه، بصورة سطحية في أول الأمر، مدركة أنه
سيتأخر في الرد على الشفتين اللتين تلامسان شفثيه، وفي الرد
بعد ذلك على توعدات لسانها. وحين فعل ذلك، أحست أن المهندس
يسلم إليها في القبة حبه القديم، وتقديسه لها، وتخيله، وصحته (إذا
كانت لديه صحة) وروحه. وعندما أمسكها من خصرها، بحذر،
وباستعداد لإفلاتها لدى أول صدود، سمحت له دونيا لوكريثيا
باحضانها.

— هل يمكنني أن أفتح عيني؟

— يمكنك.

«وعندئذ نظر إليها، ليس نظرة باردة مثل نظرة الماجن دي ساد
— فكر دون ريغوبيرتو — وإنما نظرة الصوفي النقية،
الولوعة، والولهة في لحظة التجلي والرؤيا.»
— هل كان متهيجاً؟ — أفلت السؤال منه، وندم على ذلك
— يا للسؤال الأحمق. اعذريني يا لوكريثيا.

— على الرغم من أنه كان متهيجاً، إلا أنه لم يحاول استبقائي
بين ذراعيه. فقد ابتعد عني عند أول إشارة.

عاتبها دون ريغوبيرتو:

— كان يتوجب عليك أن تذهبي معه إلى الفراش في تلك
الليلة. إنك تتعسفين، أو ربما لا. ربما فعلت ما هو واجب. أجل،
أجل، بالطبع. فالبطيء، والرسمي، والشعائري، والمسرحي، هو

الإيروتيكي. لقد كان انتظاراً حكيماً. فالتسرع يقربنا من الحيوان.
أتعرفين أن الحمار، والقرد، والخنزير والأرنب تنهي الجماع في
اثنتي عشرة ثانية على الأكثر؟

— ولكن الضفدع يستطيع مواصلة النكاح طوال أربعين يوماً
وأربعين ليلة، دون توقف. لقد قرأت هذا في كتاب جان روستن:
من البعوضة إلى الإنسان.

فقال لها دون ريغوبيرتو بإعجاب:

— يا للحسد. إنك ممثلة بالحكمة يا لوكرينثيا.

— إنها كلمات موديستو نفسها — شوشته زوجته بإعادته إلى
قطارٍ شرقٍ سريعٍ يمضي ثاقباً أوربا، باتجاه فينيسيا. وأضافت:
— قالها لي في اليوم التالي في قمرتنا من طراز الحقبة
الجميلة.

وهذا ما كانت تقوله كذلك بطاقة بطاقة الأزهار التي وجدتھا
باننظارها في فندق شيبيرياني، في جيوديكا المشمسة: «إلى
لوكرينثيا، الجميلة في الحياة والحكمة في الحب».

وقال لها دون ريغوبيرتو منبهاً إياها إلى سكة الحديد:

— انتظري، انتظري. هل تقاسمتما تلك القمرة في القطار؟

— قمرة بسريرين. أنا في العلوي وهو في السفلي.

— أي أنكما...

فأكملت هي:

— كان علينا أن نبدل ملابسنا وأحدنا فوق الآخر، حرفياً.
لقد رأى كل منا الآخر بالملابس الدنيا، ولكن في الظلام. فقد

أطفأتُ كل الأنوار، باستثناء ضوء النوم الخافت.

تَكَبَّرَتْ دون ريغوبيرتو:

— الملابس الدنيا هو مفهوم عام ومجرد. حدي ما الذي يعنيه.

وقدمت له دونيا لوكريثيا التحديد. ففي موعد خلع الملابس — وكان قطار الشرق السريع الأسطوري يجتاز غابات ألمانية أو نمساوية، ويمر بين الحين والآخر بقريّة ما —، سألتها موديستو إذا ما كانت تريده أن يخرج. فردت عليه دونيا لوكريثيا: «لا لزوم لذلك، ففي هذه العنمة تبدو أشباحاً». جلس المهندس على السرير السفلي، منكمشاً على نفسه قدر ما يستطيع ليُفسح لها مزيداً من المجال. تعرت بحركات لا يشوبها أي إكراه أو جفاء، وكانت تدور حول نفسها في المكان كلما نزعت قطعة من ملابسها؛ الفستان، الثوب الداخلي، حمالة الصدر، السروال. وكان وميض المصباح الليلي، وهو على شكل فطر مزين بأشكال رُمحية، يداعب عنقها، كتفها، نهدتها، بطنها، إلبتها، فخذها، ركبتها، قدمها. ورفعت ذراعها لتُدخل من رأسها بيجامة حرير صينية مزينة بتنانين.

— سأجلس مكشوفة الساقين بينما أنا أُسرح شعري بالفرشاة — قالت وهي تفعل ما قالته — إذا كان يستثيرك أن تقبل ساقِي، فيمكنك أن تفعل ذلك. حتى الركبتين فقط.

أكان ذلك تعذيباً لإغوائه؟ أكان حديقة اللذة؟ كان دون ريغوبيرتو قد انزلق إلى نهاية السرير، فجلست دونيا لوكريثيا التي لاحظت ذلك، على الحافة لكي يقبل زوجها — مثلما فعل بلوتو

في قطار الشرق السريع — ظاهر قدميها، ويتنشق عبير الدهون
والعطور التي ترطب كاحليها، ويعضض أصابع القدمين ويلعق
الفجوات التي تفصل بينها.

— أحنك وأقدرك —. قال دون ريغوبيرتو

— أحنك وأقدرك —. قال بلوتو

— والآن إلى النوم —. أمرته دونيا لوكريثيا.

وصلا إلى فينيسيا في صباح انطباعي، شمس متجبرة
وسماء زرقاء بحرية، وبينما كان الزورق يحملهما إلى فندق
شيبيرياني بين تموجات متجدة، ودليل ميشلان السياحي في اليد،
قدم موديستو إلى لوكريثيا شرحاً سريعاً حول قصور وكنايس القناة
الكبرى.

قاطعها دون ريغوبيرتو:

— بدأت أشعر بالغيرة يا حبي.

فاقترحت عليه دونيا لوكريثيا:

— إذا كنت جاداً في قولك، فسنمحو كل شيء يا قلبي.

فقال مترجعاً:

— ولا بأي حال. الشجعان يموتون وهم ينتعلون جزماتهم، مثل

جون واين.

من شرفة الشيبيرياني، ومن فوق أشجار الحديقة، كانت تظهر
بالفعل أبراج سان ماركوس وقصور الضفة. خرجا في الجندول
مع الدليل الذي كان بانتظارهما. وكان دوار أقينية وجسور، ومياه
مخضرة وأسراب نوارس تحلق لدى مرورهم، وكنايس قائمة لا بد

من إجهاد العيون في التحديق من أجل رؤية رموز الألوهية
والقداسة المعلقة عليها. رأياً أعمالاً لتيزاني و فيرونسي، وبيليليني
وبيومبو، وخيول سان ماركوس، وفسيفساء الكاتدرائية وقدمًا حبوب
ذرة ضامرة لحمايم الساحة السمينة. وعند الظهر التقطت لهما
الصورة الإيجابية على إحدى موائد الفلوريان بينما هما يتذوقان
البيتزا المعروفة. وواصلًا بعد الظهر الجولة وهما يسمعان أسماء
وتواريخ وطرائف لا يكادان يصغيان إليها، مستغرقين في هديل
صوت دليل وكالة السياحة. وفي الساعة السابعة والنصف، وبعد
أن استحما واستبدلا ملابسهما تناولا البيليليني في قاعة الأقواس
الموريسكية والطنافس العربية في دانيللي، وفي الساعة المحددة
— الساعة التاسعة — كانا في هاريس بار. وهناك رأيا وصول
كاترين دينوف الإلهية إلى المنضدة المجاورة (بدت وكأنها جزء من
البرنامج). وقال بلوتو ما يجب عليه أن يقوله: «أنت تبدين لي أجمل
منها يا لوكري».

فاستعجلها دون ريغوبيرتو:

— ثم؟

قبل أن يركبا الزورق إلى جيوديكا، تأبطت دونيا لوكريثيا ذراع
موديستو وقاما بجولة على الأقدام في أزقة شبه مقفرة. ووصلًا
إلى الفندق بعد انتصاف الليل. تتأبعت دونيا لوكريثيا.

فقد دون ريغوبيرتو الصبر:

— ثم؟

— عندما أكون متعبة إلى هذا الحد من المشي ومن الأشياء

اللطيفة التي رأيتها لا أستطيع أن أغمض عيني — تأسفت دونيا
لوكريثيا —. ولكن لديّ لحسن الحظ علاجاً لا يخطئ أبداً.

سألها موديستو:

— وما هو؟

وقال دون ريغوبيرتو:

— أي علاج؟

— حمام جاكوزي، بمناوبة الماء البارد والساخن —
أوضحت دونيا لوكريثيا وهي تتجه نحو مخدعها. وقبل أن تختفي
فيها، أشارت للمهندس باتجاه حجرة الحمام الفسيحة والمضاءة،
ذات البلاط والبورسلين الأبيض على الجدران — هل تملأ لي
الجاكوزي بينما أضع روب الحمام؟

تململ دون ريغوبيرتو في مكانه بجزع مؤرق لا يستطيع
النوم: ثم؟ ذهبت هي إلى غرفتها، وتعرت على مهل، وكانت تطوي
ملابسها قطعة قطعة، وكأنها تمتلك الأبدية. ثم رجعت بروب
بشكير، وبمنشفة أخرى كعمامة. وكان حوض الحمام الدائري يفور
بفقااعات الياكوزي.

قال موديستو مستفهماً:

— لقد أضفتُ أملاحاً. هل هذا مناسب أم سيء؟

— إنها ممتازة — قالت وهي تختبر الماء بطرف قدمها.

تركت روب البشكير الأصفر يسقط على قدميها، محتفظة
بالمنشفة التي تشكل العمامة، ودخلت الحوض واستنقت في
الجاكوزي. أسندت رأسها إلى وسادة سارح المهندس إلى تقديمها

إليها. وتنهت شاكراً.

— هل يجب علي أن أفعل شيئاً آخر — سمع دون ريغوبيرتو سؤال موديستو بصوت كالخيط — هل أذهب؟ هل أبقى؟

كانت دونيا لوكرينثيا تمط ساقها وذراعيها متلذذة:

— يا للذه، كم هي لذية مساجات الماء البارد هذه. بعدها، سأضيف الماء الساخن جداً ثم إلى السرير، وكأنني جديدة.

وافق دون ريغوبيرتو بزمجرة:

— كنت تشوينه على نار هادئة.

— ابق إذا شئت يا بلوتو — قالت ذلك أخيراً، بلامح استغراق كمن هي تستمتع دون حدود بمداعبات الماء الذي يذهب ويجيء على جسدها —. الحوض واسع جداً، هناك متسع. لماذا لا تستحم معي.

وسجلت أدنا دون ريغوبيرتو الصوت الغريب — أهو نعيب بوم، أم زعيق ببغاء، أم زقزقة عصفور؟ — الذي رد على دعوة امرأته. وبعد ثوان رأى المهندس عارياً، يغطس في الحوض. جسده الذي على ضفاف الخمسين، وقد كبح السمنة في الوقت المناسب بفضل تمارين الايروبيك ورياضة المشي التي يمارسها حتى مشارف الإصابة بنوبة قلبية، صار على بعد مليمترات عن جسد امرأته.

— ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً — سمعه يقول ذلك، وأحس بازدياد تقديره له بقدر ازدياد غيرته — لا أريد أن أفعل شيئاً لا

ترغبين فيه. لن أتخذ أي مبادرة. كل المبادرات رهن يديك. فأنا في هذه اللحظة أكثر كائنات الخليقة سعادة وأكثرهم تعاسة.

وهمست هي دون أن تفتح عينيها، بسلسلة بوليرو:

— يمكنك أن تلمسني. داعبني، في الجسد والوجه. ولكن لا تقترب من شعري ، لأنه إذا ابتل فسوف تخجل غداً منه يا بلوتو. ألا ترى أنك لم تترك في برنامجك أي ثغرة تتيح لي الذهاب إلى صالون تجميل؟

ودمدم دون ريغوبيرتو:

— وأنا أيضاً أسعد إنسان في العالم. والأكثر تعاسة.

فتحت دونيا لوكريثيا عينيها:

— لا تبق مرتعباً هكذا. فلن نستطيع البقاء طويلاً في الماء. ولكي يراها بصورة أفضل، أغمض دون ريغوبيرتو رموشه. وكان يسمع قرقعة الجاكوزي الرتيبة ويحس الدغدغة، وارتطامات الماء، ومطر القطرات التي تنتثر على البلاط، ويرى بلوتو وهو يبالغ في الاحتياطات حتى لا يبدو فظاً، بينما هو يجهد مع هذا الجسد اللدن المتاح له لمسه ومداعبته، والذي كان يسهل بحركاته وصول يديه وشفتيه إلى كل أنحاءه، ولكن دون أن يردّ على المداعبات أو القبل، محتفظاً بحالة من التلذذ السلبي. وكان يشعر بالحمى تحرق بشرة المهندس.

— أئن تقبلينه؟ أئن تعانقيه يا لوكريثيا ولو مرة واحدة؟

ردت زوجته:

— ليس بعد. فأنا أيضاً كان لدي برنامجي المدروس جيداً. ألم

يكن سعيداً؟

— لم أكن سعيداً في حياتي مثلما أنا الآن — قال موديستو وهو يرفع رأسه من عمق الحوض، ما بين ساقَي لوكريثيا، ثم يضيف قبل أن يغطس من جديد: — أرغب في أن أغني صارخاً يا لوكري.

وتدخل دون ريغوبيرتو سامحاً لنفسه بعبارة مازحة:

— إنه يقول كل ما أشعر به بالضبط. ألم يكن ثمة مخاطرة

في هذه الطريقة الإيرونيك — مائة للتخلص من الإجهاد؟

ضحك، ولكنه ندم فوراً، متذكراً أن المزاح واللذة يتنافران مثل الماء والزيت. فقال معتذراً: «أسف لأنني قاطعتك». ولكن الوقت كان قد فات. فقد بدأت دونيا لوكريثيا تتثاءب بطريقة دفعت المهندس المنهمك، في جراءة مصطنعة، إلى التوقف ساكناً. استندت إلى ركبتيها وهي تقطر ماء، بينما رأسها مغطى، متظاهرة بالخضوع.

— ها أنت قد نعست يا لوكري.

— لقد حطّ عليّ تعب النهار كله دفعة واحدة. لم أعد قادرة على

المزيد.

خرجت من الحوض بقفزة سريعة، ولفت جسدها بالروب. ومن باب غرفتها تمتت له ليلة سعيدة بجملة جعلت قلب زوجها يقفز من مكانه:

— غداً سيكون يوماً آخر يا بلوتو.

— اليوم الأخير يا لوكري.

— والليلة الأخيرة أيضاً. قالت ذلك بتدلل وهي ترسل له قبلة.

بدأ صباح يوم السبت بتأخر نصف ساعة عن البرنامج، ولكنهما عوضاها في زيارتهما إلى موراثو، حيث شاهدا، تحت شمس جهنمية، صنّاع الزجاج التقليدي بقمصان سجناء وهم ينفخون الزجاج ليحولوه إلى أشياء تزيينية أو استعمالية منزلية. أصر المهندس على لوكريثيا أن تبقى لتشتري المزيد، وقد قبلت شراء ثلاثة حيوانات شفاقة: سنجاب، ولقلق، وفرس بحر. وفي طريق العودة إلى فينيسيا نورهما الدليل السياحي حول فيلانتين اثنتين للمعماري بالاديو. وبدلاً من الغداء، تناولوا شايًا مع بسكويت في كوادري، مستمتعين برؤية شفقٍ دامٍ يشعل سطوحاً وجسوراً، ومياهاً، وأبراجاً، ووصلوا مبكرين إلى سان جيورجيو من أجل الكونشيرتو الباروكي، فكان لديهما متسع من الوقت للتجوال في الجزيرة الصغيرة وتأمل البحيرة والمدينة من مواقع مختلفة.

علقت دونيا لوكريثيا:

— اليوم الأخير يكون كثيباً دوماً. كل هذا سينتهي غداً وإلى الأبد.

— أكان كل منكما يمسك بيد الآخر؟ — أراد دون ريغوبيرتو أن يعرف.

واعترفت زوجته:

— أجل، وكنا كذلك طوال الكونشيرتو.

— هل ذرف المهندس دموعه؟

— كان شاحباً. وكان يضغط على يدي بينما عيناه تلمعان.

«من الامتتان والرجاء»، هكذا فكر دون ريغوبيرتو. وارتدت

لفظة الاستدراك «عيناه» في نهاياته العصبية. ومنذ تلك اللحظة قرر أن يصمت. وبينما كانت دونيا لوكريثيا وبلوتو يتعشيان في دانييلي، متأملين أضواء فينيسيا، احترم كآبتهما، ولم يقاطع حوارهما العادي، وعانى بصبر وهو يرى خلال العشاء أن الرعاية لم تعد تقتصر على ما يقدمه موديستو. فلوكريثيا كانت تقدم له أيضاً قطعاً من الخبز المحمص مطلية بالزبد، وتعرض عليه أن يتذوق، بشوكتها الخاصة، لقيمات من طبق معكرونتها، وتتنازل له راضية عن يدها كلما أراد أن يرفعها إلى فمه ويلصقها بشفتيه: مرة راحتها، وأخرى ظاهر يدها، وأخرى الأصابع، ثم كل ظفر من أظفارها. وراح ينتظر ما لا بد من حدوثه على أي حال بقلب منقبض وانتصاب ابتدائي.

وبالفعل، فما إن دخلا إلى الجناح في فندق شيبيرياني حتى أمسكت دونيا لوكريثيا بذراع موديستو وأحاطت به خصرها، ثم داعبت شفتيه بفم قبالة فم، ولسان في مواجهة لسان، ودمدمت:

— سنقضي الليلة معاً على سبيل الوداع. وسأكون معك لطيفة، رقيقة، محبة، مثلما لم أكن إلا مع زوجي.

وابتلع دون ريغوبيرتو استركنين وعسلاً:

— هل قلت له هذا؟

فدعرت امرأته:

— هل أسأت القول؟ أكان يجب عليّ أن أكذب؟

ونبح دون ريغوبيرتو:

— بل أحسنت صنعاً يا حبي.

في حالة ملتبسة يُفسد فيها التهيُّجُ الغيرةَ ويتغذيان كلاهما بمؤثرات سابقة، رآهما يتعريان، وقدَّر الطلاقة التي فعلت بها زوجته ذلك واستمتع ببلادة هذا الفاني المحفوظ المنقل بالسعادة التي كوفئ بها في تلك الليلة الأخيرة، بحيائه وإذعانه. ستكون له، سيحبها: اليدان لا تستطيعان فك أزرار القميص، تضطربان عند زر البنطال، تتعثران لدى خلع الحذاء، وعندما يريد الصعود — متجاوزاً الحدود — إلى السرير المغل بالعتمة حيث الظَّهر في وضع خامد — وفكر دون ريغوبيرتو «الجميلة العارية لغويا، رغم أن الفخزين منفتحان أكثر» — ظهر هذا الجسد العظيم، اصطدم كاحله بحد السرير وصرخ «آي ي ي!». واستمتع دون ريغوبيرتو بالبرودة الجليدية التي سببها الحادث للوكريثيا. وكان موديستو يضحك أيضاً وهو راعع في الفراش: «إنه الانفعال يا لوكري، إنه الانفعال».

انطفأت جمرات لذته حين رأى زوجته، بعد خنق الضحكة، تتخلى عن عدم المبالاة الصنمية التي تَلقت بها في اليوم السابق مداعبات المهندس وتأخذ هي زمام المبادرة. عانقته، أجبرته على الاستلقاء بجوارها، فوقها، تحتها، وشابكت ساقها بساقيه، وبحثت عن فمه، وغرست فيه لسانها و — «آي آي» غاب دون ريغوبيرتو — قرفصت باستعداد محب، واصطادت بين أصابعها الرقيقة العضو البارز ومرت به على ظهرها وعلى رأسها وحملته إلى شفيتها وقبلته قبل أن تواريه في فمها. وعندئذ، راح المهندس يتواثب على السرير اللين وبدأ يغني — يزمجر، يعوي —

بصوت من حلقه عد إلى سورينتو.

نهض دون ريغوبيرتو بعنف:

— هل بدأ يغني عد إلى سورينتو؟ أفي تلك اللحظة؟

— هكذا بالضبط — وعادت دونيا لوكريثيا تطلق القهقهة،
وتكبحها وتعتمر —. إنك تدهشني يا بلوتو. أتغني لأن هذا يعجبك
أم لأنه لا يعجبك؟

— أغني كي يعجبني — أوضح لها مرتعشاً ومتورداً، ما
بين صياح ديكة ونغمات سريعة.
— أتريدني أن أتوقف؟
فابتهل موديستو بانيساط:

— أريدك أن تواصلني يا لوكري. اضحكي، ليس مهماً. فأنا
أغني كي تصبح سعادتي كاملة. أغلقت أذنيك إذا كان غنائي يُلهيك
عما أنت فيه أو يسبب لك الضحك. ولكن لا تتوقفني بحق أعز ما
لديك.

— وهل واصل الغناء؟ — صرخ دون ريغوبيرتو ثملاً،
ومجنوناً بالمتعة.

وأكدت دونيا لوكريثيا بين نوبات فواق:

— دون أن يتوقف ثانياً واحدة. بينما أنا أقبله وبينما هو
يجلسني فوقه أو هو فوقني، وبينما نحن نمارس الحب العادي
والمغاير، كان يغني. كان لا بد له من الغناء، لأنه إذا لم يغن، يُخفق.
— وطوال الوقت كان يغني عد إلى سورينتو؟ قال دون
ريغوبيرتو ذلك متلذذاً بمتعة الانتقام العذبة.

— أي أغنية من أغنيات أيام شبابي — ترنم المهندس قافزاً
بكل ما في رثيته من قوة، من إيطاليا إلى المكسيك — سأغني
وصلة كئيبة جداً...

وحددت دونيا لوكريثيا:

— غنى خليطاً من أغنيات متكلفة من الخمسينيات: لي وحدي،
درب صغير، خوان تشاراسكيادو، هناك في المزرعة الكبيرة.
وحتى أغنية مدريد لأغوسطين لارا. آي، كم هو مضحك!
— ومن دون هذا الغناء المبتذل، هل كان سيُخفق حقاً؟ —
طلب دون ريغوبيرتو تأكيد ذلك وهو يحلق في السماء السابعة
— إنها أفضل الليالي يا حبي.

— ليس الأفضل هو ما سمعته، فالأفضل كان في النهاية،
ذروة التهريج — قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تمسح دموعها —
فقد بدأ النزلاء المجاورون بالدق على الجدران، واتصلوا
بالاستعلامات طالبين منا أن نخفض صوت التلفاز، أو المسجلة، لأن
أحداً لم يعد يستطيع النوم في الفندق.

وألح دون ريغوبيرتو بأمل ضعيف:

— أي أنك أنت وهو لم تنتهيا...

فأعادته دونيا لوكريثيا إلى الواقع:

— أنا مرتان. وهو مرة واحدة على الأقل، إنني واثقة من
ذلك. وعندما كان جاهزاً من أجل المرة الثانية، بدأت المشادة
وقطعت إلهامه. وانتهى كل شيء بالضحك. يا لتلك الليلة.

— ها أنت تعرفين الآن سري أيضاً — قال ذلك موديستو

بعد أن هداً النزلاء والاستعلامات، وبعد أن انطفأت ضحكاتها،
وهدأت اندفاعاتها، وبعد أن تذرنا بروبي حمام فندق شيبيرياني وجلسا
يتحدثان: — ألا يهكم أن نتجاهل الحديث في هذا الأمر؟ فهو كما
تتصورين، يسبب لي الخجل... وأخيراً، دعيني أقول لك إنني لن
أنسى هذا الأسبوع مطلقاً يا لوكري.
— وأنا أيضاً يا بلوتو. سأذكره دائماً. وليس بسبب الكونشرتو
فقط، أقسم لك.

نأما مثل خادمتين أنجزتا واجبات الضمير، وكأنا منذ الصباح
الباكر في المرسى ليركبا الزورق البخاري إلى المطار. وقد
أحكمت أليطاليا مواعيدها أيضاً وخرجت طائرتها دون تأخير،
وهكذا لحقا بالكونكورد الذاهبة من باريس إلى نيويورك. وهناك
توادعا، مدركين أنهما لن يعودا إلى اللقاء فعلاً.

— قولي لي إنه كان أسبوعاً فظيماً، وإنك كرهته — أن فجأة
دون ريغوبيرتو وهو يضغط خاصرة امرأته ويرفعها لتمنطيه —
ألم يكن كذلك يا لوكريثيا؟

— لماذا لا تجرب أن تغني شيئاً، بصوت منتوف —
اقترحت عليه هي بصوتها المخملي الذي تحتفظ به لأفضل اللقاءات
الليلية —. غن شيئاً مبتدلاً يا حبي. زهرة القرفة، أو أنتظر
مدخناً، أو برازيل يا أرض قلبي. ولننظر ما الذي سيحدث يا
ريغوبيرتو.



III. لعبة اللوحات

— كم يبدو الأمر مضحكاً يا خالتي — قال فونتشيتو —

جورباك الأخضران القاتمان يشبهان تماماً جوربي إحدى موديلات
إيغون شيلي.

نظرت السيدة لوكريثيا إلى الجوربين الصوفيين السميكين
الذين يغطيان ساقها إلى ما فوق الركبتين، وقالت وهي تلمسهما:
— إنهما مناسبان جداً لرتوبة ليما. بفضلهما تبقى قدماي
دافئتين.

فقال الطفل متذكراً:

— عارية متكئة بجوربين أخضرين. إنها إحدى أكثر لوحاته
شهرة. أتريدان رؤيتها؟
— لا بأس. أرني إياها.

وبينما كان فوننتشيتو يسرع لفتح حقيبةه التي ألقاها، كعادته،
على سجادة الصلاة وغرفة الطعام، أحست السيدة لوكريثيا بالقلق
الذي اعتاد الطفل أن يبعثه فيها بهذه الحركات المفاجئة التي تبدو
لها دائماً كأنها تخفي شيئاً خطيراً تحت مظهرها البريء.

— يا لهذا التطابق يا خالتي — كان فوننتشيتو يقول ذلك وهو
يقلب الكتاب الذي يضم صوراً للوحات شيلي بعد أن أخرجه من
الحقيبة —. أنا أشبهه وأنت تشبهين إحدى موديلاته في أشياء
كثيرة.

— في ماذا، مثلاً؟

— بهذين الجوربين الأخضرين، أو الأسودين أو البنين اللذين
تلبسينهما. وكذلك بملاءة سريرك ذات المربعات.
— يا للجنة، كم أنت دقيق الملاحظة.

— وأخيراً بالمهابة — أضاف فونتشيتو ذلك دون أن يرفع
بصره، مستغرقاً في البحث عن **عارية متكنة بجوربين أخضرين**.
ولم تعرف دونيا لوكريثيا إذا ما كان عليها أن تضحك أم تسخر .
أهو مدرك للمغازلة المنتقاة أم أنها خرجت منه مصادفة؟ — ألم
يكن أبي يقول إن لك مهابة عظيمة؟ وإنك مهما فعلت لا يبدو فيك
شيء مبتذل؟ وقد استطعتُ أن أفهم ما كان يعنيه بفضل شيلي.
فموديلاته يرفعن تتانيرهن، ويكشفن كل شيء، ويظهرن في
أوضاع شديدة الغرابة، ولكن لا يبدو عليهن الابتذال أبداً. إنهن
ملكات على الدوام. لماذا؟ لأن لهن مهابة. متلك يا خالتي.

كانت دونيا لوكريثيا المرتبكة، المفتونة، المستتارة، المذعورة
تريد ولا تريد أن تضع حداً لذلك التفسير. وعادت تشعر بعدم الأمان
مرة أخرى:

— يا للأشياء التي تقولها يا فونتشيتو.

— ها هي! — هتف الطفل بذلك وهو يقدم إليها الكتاب —
أترين ما أقوله لك؟ أليست في وضع سيبدو معه سيئاً اتخاذها أي
وضع آخر؟ ولكن ليس الأمر في الوضع يا خالتي. هذه هي
المهابة.

— دعني أرى — تناولت السيدة لوكريثيا الكتاب، وبعد أن
تأملت ملياً **العارية المتكنة بجوربين أخضرين**، قالت موافقة —:
صحيح، إنه نفس لون الجورب الذي ألبسه.

— ألا تبدو لك جميلة؟

— بلى، إنها جميلة جداً — وأغلقت الكتاب وأعادته إليه

بخفة. وأثقلت عليها مرة أخرى فكرة أنها فقدت المبادرة، وأن الطفل قد بدأ يهزمها. ولكن، أي معركة هي هذه؟ وجدت عيني ألفونسو: لامعتين بضوء خاطئ مع ابتسامة متوعدة في وجهه الطازج. — أستطيع أن أطلب منك خدمة كبيرة جداً؟ أكبر خدمة في الدنيا؟ هل ستحققينها لي؟

وخطر لها وهي مرتعبة: «سيطلب مني أن أتعرى. سأطرده ولن أراه مطلقاً». وكرهت فونتشيتو وكرهت نفسها. — أي خدمة هي؟ — تلعثت محاولة ألا تبدو ابتسامتها جنائزية.

وترنم الصوت النحيل العذب: — أن تقفي مثل السيدة التي في لوحة عارية متكئة بجوربين أخضرين. لحظة واحدة فقط يا خالتي! — ماذا تقول؟

فطمأنها الطفل وهو يحرك عينيه ويديه ويجعد أنفه: — ولكن دون أن تتعري بالطبع. هذا البوز. إنني أموت رغبة في ذلك. ألا تقدمين لي هذه الخدمة الكبيرة، الكبيرة؟ لا تكوني سيئة يا خالتي.

فقلت خوستينيانا وهي تُظهر وتبدي مزاجها اليومي الرائع: — لا تتوسلها كثيراً، أنت تعرف جيداً أنها ستقدم لك هذه الخدمة راضية. بما أن عيد ميلاد فونتشيتو غداً، فلتكن هذه هي هديتك إليه.

صفق الطفل:

— برافو يا خوستينيانا! فلنتعاون كلانا وسنتمكن من إقناعها.
ألا تقدمين لي هذه الهدية يا خالتي؟ ولكن يجب أن تخلي حذاءك.
— اعترف بأنك تريد رؤية قدمي السيدة لأنك تعرف أنهما
جميلتان. — استحثته خوستينيانا وهي أكثر تهوراً مما في
المساءات الأخرى. وكانت تضع الكوكا كولا وكأس المياه المعدنية
التي طلبها على المنضدة.
فأكد الطفل ببراءة:

— كل شيء فيها جميل. هيا يا خالتي، لا تخجلي منا. إذا
أنت أردت فيمكننا أنا وخوستينيانا أن نلعب بعد ذلك لوحة أخرى
لإيغون شيلي.

ودون أن تدري السيدة لوكريثيا بماذا تجيب، أو أي مزحة
تقول، أو كيف تداري غضباً لا تشعر به، وجدت نفسها فجأة وهي
تبتسم وتهز رأسها موافقة، متلعثمة «سكون هذه هي هدية عيد
ميلادك يا ذا النزوات»، وكانت في أثناء ذلك تخلع من قدميها،
وتتحني وتستلقي على الأريكة الطويلة. حاولت أن تقلد صورة
اللوحة التي فتحها فونتشيتو وهو يشير إليها، مثل مخرج مسرحي
يعطي تعليماته لنجمة الاستعراض. كان حضور خوستينيانا يُشعرها
بالحماية، على الرغم من أن المجنونة قد وقعت الآن في هوى
الوقوف إلى جانب فونتشيتو. وفضلاً عن كونها شاهدة هناك، فإنها
تضفي شيئاً من الزينة على المشهد الفريد. حاولت أن تنقل ما تقوم
به إلى الاستهزاء، «أهكذا هو الوضع؟ لا، الظهر أعلى قليلاً،
والعنق مثل الدجاجة، والرأس مستو»، بينما هي تستند إلى مرفقيها،

تمد ساقاً وتثني الأخرى، محاكية وضع الموديل. كانت أعين خوستينيانا وفونتشيتو تنتقلان من النظر إليها إلى النظر للوحة، ومن اللوحة إليها، وكانت عينا الفتاة تضحكان بينما عينا الطفل تتحركان بتركيز عميق. وخطر لدونيا لوكريثيا أن تقول: «هذه اللعبة هي الأكثر جدية في الدنيا».

— إنك مماثلة تماماً يا سيدتي.

فانتزع فونتشيتو منها الكلام:

— ليس بعد. يجب أن ترفعي ركبتيك أكثر يا خالتي. أنا

سأساعدك.

وقبل أن يتاح لها الوقت لأن ترفض السماح له، كان الطفل قد سلم الكتاب إلى خوستينيانا، واقترب من الأريكة ووضع يديه تحت ركبته، حيث ينتهي الجورب الأخضر القاتم ويبدأ الفخذ. رفع ساقها وحركها وهو يدفق في اللوحة. ملامسة الأنامل النحيلة لانحناءتها العارضة أربكت دونيا لوكريثيا. وبدأ النصف السفلي من جسدها بالارتعاش. كانت تشعر بنبض، بدوار، بشيء متسلط وقاهر يجعلها تتألم متلذذة. وعند ذلك اكتشفت نظرة خوستينيانا. فحدقتا ذلك الوجه الأسمر الملتهبتان كانتا مفعمتين بالكلام. وفكرت دونيا لوكريثيا بخجل: «إنها تعرف حالتي». وجاءت صرخة الطفل لتتقدها:

— الآن يا خالتي! أليست مثلها بالضبط يا خوستيتا؟ ابقى هكذا

لحظة من فضلك.

وجلس على السجادة مستغرقاً في غيبوبة وهو يقاطع ساقيه مثل شرقي، نظرتة مفتونة، وفمه مفتوح قليلاً، وعيناه قمران

مكتملان. ظلت دونيا لوكريثيا خمس ثوان، عشر، خمس عشرة ثانية ساكنة، مصابة بعدوى الوقار التي أخذ بها الطفل اللعبة. ثم حدث شيء. أهو توقف الزمن؟ أم هاجس المطلق؟ أم سر الكمال الفني؟ وداهما الشك فجأة: «إنه مثل ريغوبيرتو. لقد ورث عنه مخيلته الملتوية، ونزواته، وقدرته على الإغواء. ولكن، لحسن الحظ أنه لم يرث كذلك وجهه المكتبي، ولا أذنيه الدومبويتين، ولا أنفه الذي مثل الجزرة». وقد تكلفتُ جهداً في كسر ذلك الجو السحري:

— يكفي. جاء دوركما الآن.

وسيطرت خيبة الأمل على الملاك. ولكنه استعاد رد فعله في الحال:

— معك حق. فهذا ما اتفقنا عليه.

فحنتهما دونيا لوكريثيا:

— إلى العمل. أي لوحة ستقدمان؟ أنا سأختار. أعطني الكتاب يا خوستينيانا.

فنبهها فوننتشيتو:

— هناك لوحتان فقط تنفعان لخوستيتا ولي. أم واين، وعري رجل وامرأة متكئين ومتقابلين. أما اللوحات الأخرى فهي لرجال وحيدين أو نساء وحيدات أو لامرأتين معاً. اختاري أيهما تشائين يا خالتي.

— يا للعارف بكل شيء! — هتفت خوستينيانا مذهولة.

تفحصت دونيا لوكريثيا الصور، وبالفعل، كانت اللوحتان اللتان ذكرهما فوننتشيتو هما الوحيدتان اللتان يمكن تقليدهما. فاستبعدت

الثانية، لأنه، أي شبه يمكن أن يوجد بين طفل أمرد وهذا الملتحي الأشقر الذي يحدد مؤلف الكتاب هويته بأنه الفنان فيليكس ألبريخت هارتا، والذي ينظر إليها من صورة اللوحة الزيتية بلامح بلهاء، غير مبالٍ بالعارية مطموسة الوجه ذات الجوربين الأحمرين التي تزحف مثل حيةٍ غرامية تحت ساقه المنحنية؟ أما لوحة الأم والطفل ففيها على الأقل تناسب في السن مماثل لتناسب عمري ألفونسو وخوستينيانا.

تصنعت الخادمة الذعر:

— يا لوضع هذه الأم وهذا الابن. لا أظنك ستطلب مني خلع ثوبي يا قليل الحياء.

فأجابها الطفل دون مزاح:

— البسي على الأقل جوربين أسودين. وأنا سأخلع حذائي وقميصي فقط.

لم تكن هناك بذاءة في صوته، ولا أي ظل لخلفية خبيثة. أرهفت دونيا لوكريثيا سمعها، وتفحصت بارتياح الوجه الناضج قبل مواعده: لا، ليس فيه أي ظل. هل كان ممثلاً بالغ الكمال. أم أنه طفل نقي بينما هي بلهاء، وعجوز دنسة؟ ما الذي أصاب خوستينيانا، إنها لا تتذكر أنها رأتها متكررة إلى هذا الحد طوال السنوات التي عاشتها معها.

— أي جورب أسود سألبس، هل تراني أملك جورباً أسود؟

— فلتعرك إياه خالتي.

وبدلاً من أن تُوقف اللعبة، مثلما كان يشير عليها عقلها، سمعت

نفسها تقول: «بالطبع». وذهبت إلى حجرتها ورجعت بالجوربين
الأسودين اللذين تلبسهما في ليالي البرد. وكان الطفل في أثناء
ذلك يخلع قميصه. لقد كان نحيلًا، متناسقًا، ما بين الأبيض والذهبي.
رأت دونيا لوكريثيا صدره، ذراعيه الطويلتين، وكتفيه بعظامهما
البارزة، فتذكرت. هل كان قد حدث كل ذلك إذن؟ كانت خوستينيانا
قد توقفت عن الضحك متجنبة النظر إليه. إنها على الجمر أيضاً.
استعجلها الطفل:

— البسي الجوربين يا خوستيتا. هل تريدان أن أساعدك؟
— لا، شكراً جزيلاً.

كانت الفتاة قد فقدت كذلك التلقائية والثقة اللتين قلما تغادرانها.
ارتبكت أصابعها، ولبست الجوربين مائلين. وبينما كانت تمسدهما
وترفعهما، انحنت محاولة إخفاء ساقيها. وظلت مطرقة إلى جانب
الطفل، على السجادة، وهي تحرك يديها دون أن تنبس بكلمة.
قال ألفونسو:

— فلنبدأ. فمك إلى أسفل، الرأس على ذراعيك المتقاطعين
كوسادة. يجب أن ألصق بجانبك الأيمن. ركبتاي على ساقيك،
ورأسي على خاصرتك. ولكن، بما أنني أكبر من طفل اللوحة،
فسأصل حتى كتفك. هل تشبه اللوحة في شيء يا خالتي؟
دونيا لوكريثيا التي كانت تمسك الكتاب بيدها، انحنت فوقهما
وقد سيطر عليها هاجس الكمال. اليد الصغيرة اليسرى يجب أن
تظهر تحت كتف خوستينيانا اليسرى، والوجه الصغير أقرب إلى
هنا. «اسند يدك اليمنى إلى ظهرها يا فوننتشو، ولتسترح هي. أجل،

الآن تشبهان اللوحة كثيراً».

جلست على المقعد وتأملتهما، دون أن تراهما، مستغرقة في أفكارها، مذهولة مما يحدث. لقد كان هذا الطفل ريغوبيرتو آخر، مُصَحَّحاً ومزيداً. مزيداً ومصححاً. أحست بأنها قد ذهبت، تغيرت. ظلا هما ساكنين، يلعبان بكل جدية. لا أحد يبتسم. والعين الوحيدة التي أبقاها الوضع لخوستينيانا لم تعد تتداری بخبث، بل بدأ يظهر فيها وسن متكاسل. أتكون متهيجة أيضاً؟ أجل، أجل، مثلها، بل أكثر منها. فونتشيتو وحده — بعينه المغمضتين لكي يبدو أقرب إلى طفل شيلي مطموس الوجه — كان يبدو وكأنه يمارس اللعبة دون أي حيلة أو إضافة. كان الجو قد تكثف، وضجة بستان الزيتون قد انطفأت، والزمن قد انزلق، والبيت الصغير، وحي سان ايسيدرو بأسره قد تبخر.

وأخيراً قال فونتشيتو وهو ينهض:

— لدينا متسع من الوقت لتمثيل لوحة أخرى. الآن، أنتما الاثنتان. ما رأيكما؟ هذه وحدها، اقلبي الصفحة يا خالتي، هذه اللوحة وحدها يمكن أن تكون مضبوطة تماماً. فتاتان ترقدان متشابكتين. لا تتحركي يا خوستيتا. انقلبي فقط. استلقي بجانبها يا خالتي، على ظهرك فوقها. يدك هكذا، فوق ردفها. أنت ذات الفستان الأصفر يا خوستينيانا. قلديها. هذه الذراع هنا، والذراع اليمنى مرريها تحت ساقي الخالة. وأنت عليك أن تتحني قليلاً، لتصطدم ركبتك بكتف خوستيتا. ارفعي هذه اليد، وضعيها على ساق خالتي، افتحي أصابعك. هكذا، هكذا، بالضبط!

كانتا صامنتين، مطيعتين، تلتحمان، تنفصلان، تحنيان أرجلهما،
أذرعهما، رقبتيهما، أو تمدانها أو تقلصانها. أتقادان بوداعة؟ أهما
مسحورتان؟ مفتونتان؟ «بل مهزومتان»، أقرت بذلك دونيا لوكريثيا.
وكان رأسها يستريح على فخذي الفتاة، ويدها اليمنى تمسك
بخاصرتها. وبين حين وآخر، تضغط عليها لتحس بالرطوبة
والحرارة المتصاعدة منها، ورداً على هذا الضغط، كانت أصابع
خوستينيانا تغرق أيضاً في فخذا الأيمن وتجعلها تحس بأنها تحس
بها. لقد كانت حية. بالطبع كانت حية؛ فهذه الرائحة الزخمة، الكثيفة،
والمقلقة التي تشمها، من أين سنأتي إلا من جسد خوستينيانا؟ أم أنها
تصدر منها هي نفسها؟ كيف وصلنا إلى هذا الحد؟ ما الذي حدث
دون أن ندركا — أو وهما مدركتان — حتى جعلهما هذا الطفل
تمارسان هذه اللعبة؟ لا يهمها ذلك الآن. إنها تشعر بأنها على ما
يرام ضمن اللوحة. إنها على ما يرام مع نفسها، مع جسدها، مع
خوستينيانا، ومع الظروف التي تعيشها. وسمعت فوننتشيتو يبتعد:

— مؤسف أنني مضطر للذهاب. مع أن اللعبة أصبحت حلوة.
ولكن، يمكنكما أن تواصلوا اللعب. شكراً لهديتك يا خالتي.

سمعتة يفتح الباب، وسمعتة يغلقه. لقد انصرف. لقد تركهما
وحيدتين، متشابكتين، مهجورتين، تائهتين في إحدى تخيلات
رسامه المفضل.

ثورة البُظر

أفهم يا سيدتي أن البدائل النسائية التي تمثلينها قد أعلنت الحرب على الأعضاء الجنسية الذكرية وأن فلسفة حركتك تستند إلى القناعة بأن البَطْر متفوق معنوياً وجسدياً وثقافياً وإروتيكياً على القضيب، وأن المبيضات أنبل طبيعة من الخصيات.

أوافقك على أن طروحائك يمكن الدفاع عنها. ولست أنوي أن أبدي أدنى معارضة لك. فتعاطفي مع الحركة النسوية عميق، وإن كان يأتي في المرتبة التالية لحبي للحرية الشخصية وحقوق الإنسان، وهي ضمن حدود لا بد لي من تحديدها حتى يكون هناك مغزى لما سأقوله فيما بعد. أبدأ بالتعميم، وبما هو أكثر جلاء، لأؤكد أنني مؤيد لإلغاء كل العقوبات القانونية التي تحول دون وصول المرأة إلى المسؤوليات نفسها التي يصل إليها الذكر، ومؤيد للمعركة الفكرية والأخلاقية ضد الأحكام المسبقة التي يستند إليها انتقاص حقوق النساء، وأسارع لأضيف أن من ضمنها، بل وأكثرها أهمية برأيي، بالنسبة للذكور أيضاً، هو حق المتعة، والذي يبرز منه — وأنا متأكد من ذلك — خلافتنا الأول.

ولكن الخلاف الأساسي، وأخشى أن يكون الخلاف الذي لا رجعة عنه، لأنه يفتح الهوة التي لا سبيل إلى ردمها في ما بين حضرتك وبينني — أو بين قضيبتي ومهبلك، لكي نبقى ضمن حدود الحيادية العلمية — هذا الخلاف الأساسي، يرتكز من وجهة نظري، إلى أن الحركة النسوية هي مقولة مفهوم جماعي، بمعنى أنها مغالطة سفسطائية، لأنها تسعى إلى أن تحيط في مفهوم نوعي متجانس، تشكيلةً جماعيةً فسيحةً من الفرديات غير المتجانسة،

الاختلافات والتفاوتات فيها لا تقل أهمية (بل هي أكثر أهمية بالتأكيد) من القاسم المشترك البظري أو المبيضي. وما أعنيه، دون أي قفزات بهلوانية مستهترّة، أن كون المرء مزوداً بقضيب أو ببظر (وهي أجهزة ملتبسة الحدود، مثلما سأثبتُ لك فيما بعد) هو في رأيي أقلُّ شأنًا في التفريق ما بين كائن وآخر من المواصفات الأخرى (العيوب، الفضائل، النقائص) الخاصة بكل فرد. وقد أدى تجاهل ذلك إلى تمكين الأيديولوجيات من خلق أشكال من التعسف في المساواة تكون أسوأَ عموماً من تلك المظالم التي تسعين إلى أن تثوري ضدها. وأخشى أن الحركة النسوية، من النوع الذي تقودينه حضرتك، ستواصل المضي في هذا الطريق في حال انتصار طروحاتك، وهو أمر، من وجهة نظرٍ تتطلق من ظروف المرأة، لا يعني أي شيء آخر — باللغة العامية — سوى استبدال المخاط باللعب.

هذه الأمور بالنسبة لي هي اعتبارات تتطلق من مبدأ أخلاقي وجمالي، لستِ حضرتك معنية بمشاطرتي إياها. ولكن لحسن الحظ أن العلم يقف إلى جانبي أيضاً. وستتأكدين من ذلك إذا ما ألقينا نظرة، مثلاً، على أعمال بروفيسورة الوراثة والعلوم الطبية في جامعة براون، الدكتورة آن فاوستو — ستيرلينغ التي تصرخ منذ سنوات عديدة للبرهنة، أمام حشود متبلدة بسبب التوافقات الاجتماعية والخرافات والعمى حيال الحقيقة، بأن الأجناس البشرية لا تقتصر على الجنسين اللذين جعلونا نؤمن بأنهما الجنس الوحيدان — مذكر ومؤنث — بل هناك على الأقل خمسة أجناس، وربما أكثر.

ومع أنني أعترض لأسباب لغوية صوتية على الأسماء التي اختارتها الدكتورة فاستو — ستيرلينغ (*herms, merms, ferms*) للأجناس الثلاثة الوسيطة بين ما هو مذكر ومؤنث، وقد أملت عليها علوم البيولوجيا والوراثة والجنس، إلا أنني أحيي في أبحاثها وأبحاث العلماء مثلها بعض الحلفاء الأقوياء لمن هم مثل هذا الجبان الذي يكتب لك، يؤمنون بأن التقسيم المانوي للبشرية إلى رجال ونساء هو وهم جماعي، وخنثارة مؤامرة ضد الاستقلالية الفردية — وبالتالي ضد الحرية —، وتزوير علمي متوج بفضل السعي التقليدي للدول والأديان والأنظمة التشريعية إلى الحفاظ على هذا النظام الثنائي، ضد **طبيعة** تفنذه وتدحضه في كل خطوة.

إن مخيلة التحرر الأقصى في الميثولوجيا الهيلينية كانت تعرف ذلك جيداً حين أذنت بهذه الصيغة التركيبية من هرمس وأفروديت، المتمثلة في هرمافروديت المراهق الذي ما إن أحب حورية حتى صهر جسده بها، متحولاً منذ ذلك الحين إلى رجل — امرأة أو امرأة — رجل (كل واحدة من هاتين الصيغتين تمثل، حسب قول الدكتورة فاستو ستيرلينغ، في فرد واحد لوناً مختلفاً من التآلف في الغدد الجنسية، والهرمونات، وتركيب الصبغيات فينشأ، بناء على ذلك، جنس مختلف عما نعرفه من الرجل والمرأة، هو تلك التباينات الصوتية *herms, merms, ferms*). ومن المهم أن نعرف أن هذا ليس ميثولوجيا وإنما هو واقع فاقع، ذلك أنه قبل وبعد هيرمافروديت الإغريقي، ولدت مثل هذه الكائنات الوسيطة (ليسوا ذكوراً ولا إناثاً في المفهوم الشائع للمصطلح)

المحكومة بسبب الغباء والجهل والتعصب والأحكام المسبقة بأن تعيش متكرة، أو — إذا ما اكتشف أمرها — بأن تتعرض إلى الحرق، والشنق، والتعزيم باعتبارها من نسل الشيطان، أو — في العصر الحديث — يجري «تطبيعهم» منذ المهد عن طريق الجراحة والمعالجة الجينية بعلم موضوع في خدمة هذه التسميات المضللة التي لا تتقبل إلا الذكر أو الأنثى وتلقي إلى خارج المألوف، إلى جحيم الشذوذ، والمسخوية، والغرابة الجسدية، هؤلاء الأبطال الرقيقين من غير الجنسين — كل تعاطفي معهم — المزودين بخصى ومبيضات، ببظر مثل القضيب أو بقضيب مثل البظر، وبإحليل ومهبل، وقد يفرزون أحياناً حيوانات منوية في الوقت الذي يحيضون فيه. ولعلمك، فإن هذه الحالات النادرة ليست نادرة جداً؛ فالدكتور جون موني، من جامعة جون هوبكنز، يقدر عدد من هم من غير الجنسين بأربعة بالمئة من بني البشر (احسبي وسترين أنهم، ودهم، يملؤون قارة بكاملها).

وجود هذه الإنسانية الواسعة المقررة علمياً (والتي علمتُ بأمرها من خلال قراءة هذه الأعمال التي هي، بالنسبة إلي، ذات أهمية إيروتيكية قبل أي شيء)، على هامش ما هو طبيعي، ومن أجل حريتها والاعتراف بها وتقبلها أناضل أيضاً بطريقتي التافهة (أعني، من ركني المنعزل كمتلذذ فوضي، محب للفن ومتع الجسد، مكبل وراء صورة مدير شركة تأمين فظ) لأصعق من يسعون، مثل حضرتك، إلى فصل الإنسانية في حظائر راکدة حسب الجنس: القضبان هنا، البُظر في الجانب الآخر، المهابل إلى اليمين

والخُصى إلى اليسار. هذا الابتسار الجماعي لا يتوافق مع الحقيقة. ففيمَا يتعلّق بالجنس أيضاً، نمثّل نحن البشر مروحة من التنوع، من الأسر، من الاستثناءات، ومن الأصول والألوان. ومن أجل إمساك الحقيقة الأخيرة غير القابلة للتحوّل لما هو بشري، لا بد من التخلّي عن القطيع، وعن الرؤية الرعاعية والانسحاب نحو ما هو فردي.

وباختصار، أقول لك إن كل حركة تسعى إلى تجاوز المعركة من أجل السيادة الفردية (أو استبعادها إلى مستوى ثانوي)، مُقدّمة عليها مصالح جماعية — لطبقة، أو عرق، أو سلالة، أو أمة، أو جنس، أو اثنية، أو كنيسة، أو مهنة — تبدو لي مؤامرة تريد فرض مزيد من اللجم على الحرية البشرية المهانة. هذه الحرية التي لا تصل إلى مغزاها الواسع إلا في مجال الفرد، موطنها الدافئ وغير القابل للتجزئة الذي تجسدينه حضرتك ببظرك المحارب وأجسده أنا بقضيبي المتخفي (الذي غُفّة على عضوي، وكذلك ابني ألفونسو، لأنني ضد الختان الديني لحديثي الولادة — ولست ضد الختان لمن يختارونه وهم في سن الرشد — وأدين للأسباب نفسها عمليات بتر البظر والشفرين العلويين التي يمارسها كثيرون من الإسلاميين الأفارقة) ويتوجب علينا أن ندافع عنها، خاصة في مواجهة مزاعم من يريدون تذييبنا في هذه التجمعات المشوهة والمخصية التي يتحكم بها المتعطشون إلى السلطة. وكل شيء يشير كما يبدو إلى أنك وأتباعك تشكّلون جزءاً من هذا القطيع، ومن واجبي بالتالي، أن أنقل إليك خصومتي وعدائي عبر هذه الرسالة التي لا أفكر أيضاً

في حملها إلى البريد.

ولكي أستبعد قليلاً طابع الجديّة المأتمية الذي يطغى على رسالتي وأنهيتها بابتسامة، فإنني أتحمس لأن أشير إلى قضية إيماً البرغماتية الثنائي الجنس⁽¹⁾ (هل يتوجب علي أن أقول ثنائية الجنس؟) والتي يذكرها طبيب الأمراض التناسلية هوغ هـ. يونغ (وكذلك جون هوبكنز) الذي عالجها/عالجه. لقد تربت إيماً على أنها طفلة، على الرغم من امتلاكها بظراً بحجم القضيب، ومهبلًا مضافاً، مما أتاح لها الاحتفال بتبادلات جنسية مع نساء ورجال. في عزوبيتها كانت تمارس علاقاتها مع الفتيات بصورة خاصة، مؤدية دور الرجل. ثم تزوجت فيما بعد من ذكر ومارست الحب كامرأة، دون أن تتلذذ بهذا الدور مثلما كانت تتلذذ بدورها الآخر؛ ولهذا كانت لها عشيقات من النساء تتقبن ببظرها الذكري. وحين استشارت الدكتور يونغ عن حالتها، أوضح لها أنه من السهل القيام بمدخلة جراحية وتحويلها إلى رجل وحسب، لأن هذه هي حالتها كما يبدو. وكان رد إيماً الذي يساوي مكتبات مما قيل حول تقشف العالم البشري: «سيكون عليك أن تستأصل مهبلي، أليس كذلك يا دكتور؟ لا أظن هذا الحل يناسبني، لأن رحمي هو الذي يوفر لي الطعام. فإذا ما أجريت لي العملية، سيكون علي أن أفصل عن زوجي وأن أبحث عن عمل. ولهذا، أفضل أن أبقى مثلما أنا». تورد هذه القصة الدكتورة آنا فاوستو — ستيرلينغ في كتابها: **خرافة**

(1) - عمدنا إلى التذكير هنا، رغم فجاجته، حتى يتاح لنا إظهار التناقض المقصود في الجملة التالية.

الأجناس: نظريات بيولوجية حول المرأة والرجل، وهو كتاب
أنصحك بقراءته.

وداعاً وقضباناً يا صديقتي.

سُكْر وكرمبولا⁽¹⁾

في سكون ليل بارانكو، استوى دون ريغوبيرتو في سريره
بخفة حية أيقظها الحاوي. وهناك كانت دونيا لوكرينثيا جميلة جداً
بفستانها الأسود الشفاف المفتوح حول عنقها، مكشوفة الكتفين
والذراعين، باسمه، وهي تحيط عشرة المدعويين برعايتها. كانت
تُصدر الأوامر لكبير الخدم الذي يقدم المشروبات، ولخوستينيانا التي
كانت، بزيها الأزرق ومنديل رأسها الأبيض المنشى، تُحضر
صواني المقبلات — قطع من اليكة مع صلصا هوانكانية، وأصابع
من الجبن، وقواقع معدة على الطريقة البراميسية، وحبات زيتون
محشوة — وتفعل ذلك بانطلاق وأريحية ربة بيت. ولكن قلب دون
ريغوبيرتو قفز من مكانه. فمن كان يسعى للهيمنة على كامل المشهد
في ذاكرته غير المباشرة لذلك الحدث (وكان هو نفسه الغائب
الأكبر عن تلك الحفلة التي عرف بما جرى فيها من خلال
لوكرينثيا ومن خلال مخيلته نفسها) هو الصوت النشاز الصادر عن

(1) - كرمبولا carambola: تصادم كرتين دون قصد في لعبة البلياردو.

فيتو ثيبويًا. هل كان سكراناً؟ إنه في الطريق إلى السكر،
فكؤوس الويسكي كانت تتوالى في يديه مثلما تتوالى حبات مسبحة
في يدي متدين ورع.

دفتت دونيا لوكرينثيا نفسها بين ذراعيه قائلة:

— لقد كان علينا أن نلغي حفلة الكوكتيل طالما أنك كنت
مضطراً إلى السفر. لقد قلت لك ذلك.

— لماذا؟ سألتها دون ريغوبيرتو وهو يلصق جسده بجسد
زوجته: — هل حدث شيء؟

فضحكت دونيا لوكرينثيا وفمها ملتصق ب صدره:

— أشياء كثيرة. لن أخبرك بها. لا تحلم بذلك.

تحمس دون ريغوبيرتو:

— هل أساء أحدهم التصرف؟ هل تجاوز فيتو ثيبويًا الحد
مثلاً؟

وأرضته زوجته:

— ومن سواه. إنه هو بالطبع.

وفكر: «فيتو، فيتو ثيبويًا». هل هو يحبه أم يكرهه؟ لم يكن
من السهل معرفة ذلك، فهو يوظف فيه أحد هذه المشاعر المشوشة
والمتناقضة التي هي من اختصاصه. لقد تعرف عليه عندما قرروا
في أحد اجتماعات مجلس الإدارة تعيينه مسؤول علاقات عامة
للشركة. ففيتو أصدقاء في كل مكان، وبالرغم من أنه كان في
مرحلة انحدار صريح ويهوي نحو أشد أشكال الإدمان على الخمر
غباء، إلا أنه كان يعرف على أحسن وجه كيف ينجز ما يتطلبه

تعيينه في المنصب الرنان: مسؤول علاقات، وعامة أيضاً.
سألها متلهفاً:

— أي فضاظة ارتكب؟

— مدّ يده إليّ — قالت دونيا لوكريثيا بحياء، ثم انسلت
مضيفة: — ولولا قليل لاغتصب خوستينيانا.

كان دون ريغوبيرتو يعرفه من خلال ما سمعه عنه، وكان واثقاً
من أنه سيكرهه فور رؤيته قادماً إلى المكتب لتسلم منصبه. فما
الذي يمكن أن يكونه سوى نذل لا يليق به التعرف عليه، شخص
يعيش حياة موسومة بنشاطات رياضية — اسمه نفسه يختلط في
ذهن دون ريغوبيرتو بألواح التزلج على الماء، والتنس، والغولف،
وبعروض الأزياء أو مسابقات ملكات الجمال التي اعتاد أن يكون
مُحكماً فيها، أو صفحات التفاهة في الصحف، حيث تظهر بكثرة
أسنانه الضارية وبشرته المحمصة على شواطئ الكوكب الأرضي،
مرتدياً ملابس الاليتكيت الرسمية، أو الملابس الرياضية، أو زي
هاواي، في الليل، في المساء، في الفجر، في الغسق، حاملاً
كأساً في يديه ومحاطاً بنساء باهرات الجمال. لقد كان ينتظر أن
يجد فيه حماقة الكاملة، في نسختها الجلية من مجتمع ليما
الراقي. وكانت مفاجأته عظيمة حين اكتشف أن فيتو ثيوياً، على
الرغم من كونه ما يمكن انتظاره منه بالضبط — طائش، متهتك
على الراقى، مستهتر، سكير، طفيلي، رياضي سابق، ونمر
كوكتيل سابق — إلا أنه كان في الوقت نفسه شخصاً أصيلاً، لا
يمكن تجاهله، ومسلماً جداً، على الرغم من انحطاطه الكحولي. كان

قد قرأ شيئاً ما فيما مضى، وهو يستخلص الفائدة من تلك القراءة، مستشهداً بفرناندو كاسوس — «الرائع في البيرو هو ما لا يحدث فيها». وببول غروساك وسط قهقهات منذرة: «فلورنسا هي المدينة — الفنان، وليفربول هي المدينة — التاجر، وليما هي المدينة — المرأة». (ولكي يثبت تأكيده ذلك إحصائياً، كان يحمل معه دفترًا صغيراً يدون فيه النساء القبيحات والجميلات اللواتي يصادفهن في طريقه). وبعد قليل من التعارف، وبينما هما يتناولان كأساً مع زميلين آخرين من المكتب في نادي الاتحاد، تراهن الأربعة فيما بينهم لرؤية من الذي يستطيع أن ينطق أشد العبارات حذقة. وقد كسبت عبارة فيتو ثيبويًا بالإجماع حين قال: «في كل مرة أمر من بورت دوغلاس، في استراليا، أكل شريحة تمساح وارمي امرأة وطنية»⁽¹⁾.

في العزلة القاتمة، وقع دون ريغوبيرتو ضحية نوبة من الغيرة رفعت ضغطه. كانت مخيلته تشتغل مثل كاتبة اختزال. ها هي ذي دونيا لوكريثيا مرة أخرى. إنها رائعة، كتفاها مصقولتان وذراعاها ناعمان، وهي تقف فوق حذاء رفيع الكعب وقد أزالتم شعر ساقيهما المسبوكتين. إنها تتحدث إلى المدعويين، وتوضح لهم، لكل زوجين على حدة، اضطرار دون ريغوبيرتو الى السفر بصورة طارئة إلى ريو دي جانيرو بعد ظهر اليوم، من أجل عمل للشركة. — وماذا يهمننا غيابه — قال فيتو ثيبويًا مازحاً ومتأنقاً

(1) - طرافة العبارة تكمن في أنها مصاغة في الأصل من كلمات غريبة وغير شائعة في الاستعمال إلا في البيرو.

وهو يقبل يد سيدة البيت بعد أن قبل خدها: — وما الذي نريده أكثر من هذا.

كان مترهلاً، على الرغم من مآثره الرياضية في سنوات شبابه، طويل القامة، مختالاً، له عينان ضفدعيتان، وفم متقلب يُدسم بالشبق كل ما ينطق به من كلام. لقد جاء إلى حفلة الكوكتيل من دون زوجته بالطبع. لأنه كان يعرف أن دون ريغوبيرتو يطير في تلك اللحظة فوق غابات الأمازون؟ كان فيتو ثيبويًا قد بدد الثروات المتواضعة لزوجاته الثلاث الشرعيات اللواتي كان يطلقهن بعد أن يعنصرهن في رحلات إلى أفضل منتجعات الاستجمام في العالم الفسيح. وحين جاء وقت الراحة، خضع لزوجته الرابعة، وهي الأخيرة دون ريب، التي لا يمكن لثروتها الضئيلة أن تضمن له الرفاهية والإفراط في السياحة والملبس والمأكّل، ولكنها تؤمن له على الأقل بيتاً جيداً في حي بلانيثيه، ومؤونة معقولة وما يكفي من الويسكي لكي يزيد تشمع كبده حتى اليوم الأخير من حياته، شريطة ألا يتجاوز السبعين من العمر. وقد كانت زوجته هشة، ضئيلة، أنيقة ومذهولة بالتقدير ذي الأثر الرجعي للأدونيس الذي كانه فيتو ثيبويًا في زمن مضى.

إنه الآن ستيني منتفخ يمضي في الحياة مسلحاً بدفتر جيب صغير ومنظار يستخدمهما في جولاته في مركز المدينة وأمام ضوء إشارة المرور الأحمر، حين يقود سيارته الكاديلاك القديمة التي بلون ثمالة النبيذ، ليرى ويسجل، إضافة إلى إحصائه العام (للقيحات والجميلات)، إحصاء آخر أكثر تخصصاً: المؤخرات

البارزة، والصدور الجامعة، وأفضل السيقان سبكاً، وأكثر الأعناق بجعية، وأشد الأفواه حسية، وأكثر العيون سحراً مما تقدمه حركة المرور. وهو في تقصيه الصارم والانتقائي إلى أقصى الحدود، يكرس في بعض الأحيان يوماً، وربما أسبوعاً بكامله، لجزء من التشريح الأنثوي العابر، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة دون ريغوبيرتو في تنظيف أجزاء جسده: الاثني عشر للشرح؛ والثلاثاء للصدر؛ والأربعاء للساقين؛ والخميس للذراعين؛ والجمعة للرقبة؛ والسبت للفم؛ والأحد للعينين. وهو يضع كذلك متوسطاً للدرجات، ما بين صفر وعشرين درجة، في نهاية كل شهر.

منذ أن سمح له فيتو ثيبويًا بتصفح إحصائياته، بدأ دون ريغوبيرتو يهجس، في أقيانوس النزوات والأهواء الذي لا يُسبر له قرار، بتشابه مُفلقٍ معه، ويتساهل في تعاطف غير مقيد مع شخص يمكنه أن يستعرض شذوذاته بكل هذا التبجح. (لم تكن هذه هي حالة دون ريغوبيرتو، لأن شذوذاته كانت من النوع الخفي والزوجي). لقد أحس بطريقة ما، بعد أن استبعد جنبه وخجله، اللذين يخلو منهما فيتو ثيبويًا، بأن هذا الشخص هو قرينه. وبينما هو يغمض عينيه — دون أي جدوى، لأن الظلام في حجرة النوم كان تاماً — ويهدل له صوت البحر المجاور عند أقدام وهدة الساحل، لمح دون ريغوبيرتو اليد التي يغطي الشعر الخفيف مفاصلها، والمزينة بخاتم زواج وخاتم ذهبي في الخنصر، تمتد في حركة خيانية إلى مؤخرة زوجته. فجرحت حنجرته زمجرة بهيمية كان يمكن لها أن توظف فونتشتيتو: «يا ابن العاهرة!».

فقلت دونيا لوكريثيا وهي تلتصق به:

— لم يجر الأمر على هذا النحو. كنا نتبادل الحديث في جماعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وكان فيتو بينهم، وكان قد شرب كثيراً من الويسكي عندما مرت خوستينيانا وهي تحمل الصينية، فراح يغازلها بمنتهى الوقاحة.

— يا للخادمة الجميلة — هتف بعينين محققنتين وشففتين تمتصان خيط لعبه، وبنبرة غير مازحة: — إنها خلاسية على رمح وسيف. يا للجسد البديع!

فردت دونيا لوكريثيا:

— كلمة خادمة قبيحة ومهينة وتتطوي على شيء من العنصرية. خوستينيانا موظفة لدينا يافيتو، مثلك. وأنا وريغوبيرتو والفونسيو نحبها كثيراً.

وواصل فيتو ثيويًا وهو منجذب إلى الفتاة التي كانت تبعد: — موظفة، تابعة، صديقة، محمية أو أي شيء آخر، فأنا لا أريد إغضاب أحد. يروقني أن أستخدم في بيتي خلاسية مثل هذه. وفي هذه اللحظة أحست دونيا لوكريثيا بيد مؤكدة، متسلطة، مضمخة ودافئة قليلاً على الجزء السفلي من إلبتها اليسرى، في المكان الحساس الذي ينحدر التكور فيه ببروز يلتقي بالفخذ. لم تستطع لعدة ثوانٍ الإتيان بأي رد فعل أو إبعاد اليد أو الابتعاد بنفسها أو إيداء الغضب. وقد استغل هو نبتة الزينة الكبيرة التي كانوا يتبادلون الحديث بجوارها ليقوم بعمليته دون أن ينتبه إليه الآخرون. وشدت انتباه دون ريغوبيرتو عبارة بالفرنسية *La main*

baladeuse . كيف يمكن ترجمتها؟ اليد الرحالة؟ اليد السارحة؟
اليد المتجولة؟ اليد المنزلة؟ اليد العابرة؟ واستشاط غضباً من جديد
دون أن يحلّ المعضلة اللغوية. لقد كان هناك فيتو متماد يتطلع إلى
دونيا لوكريثيا بابتسامة تواطؤ بينما أصابعه تتحرك، وتطوي قماش
فستانها. عندئذ ابتعدت عنه دونيا لوكريثيا بجفاء.

وأوضحت لريغوبيرتو:

— كنتُ دائخة من الغضب، وذهبت إلى المطبخ لأشرب كأساً
من الماء.

— ماذا أصابك يا سيدتي؟ سألتها خوستينيانا.

— هذا القدر وضع يده هنا. لست أدري كيف لم أصفعه.

اغتاظ ريغوبيرتو:

— كان عليك أن تصفيعه، أن تكسري أصيص زهر على
رأسه، أن تخمشيه، أن تطرديه من البيت.

— لقد صفعته، وكسرتُ على رأسه، وخمشته، وطردته من

البيت — قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تفرك أنفها الأسكيمي بأنف
زوجها، وأضافت: — ولكنني فعلت ذلك فيما بعد. وقبله حدثت
أمور أخرى.

وفكر دون ريغوبيرتو: «ليل طويل». كان قد بدأ يهتم بفيتو
ثيبويًا كاهتمام عالم حشرات بحشرة نادرة جداً في مجموعته. كان
يحسده على هذه الفظاظة البشرية التي يعرض بها باستهتار شديد
مغامراته وتخيلاته، وكل ذلك من منطلق أخلاقي ليس هو منطلقه،
يدعونه رذائل، نقائص، انحطاط. وبسبب إفراط أنانيته، دون أن

يدرك ذلك، كان الأحمق فيتو ثيبويًا قد حقق لنفسه قدراً من الحرية أكبر منه هو الذي يعرف كل شيء ولكنه منافق، بل يمكن القول إنه تأميني («مثلما كان كافكا والشاعر والاس ستيفنس» قال ذلك معتزلاً أمام نفسه، ولكن دون جدوى). وتذكر دون ريغوبيرتو بمرح تلك المحادثة في بار سيسرز، والمدونة في دفاتره، حين اعترف له فيتو ثيبويًا بأن أعظم استثارة في حياته لم يبعثها فيه الجسد المسبوك لأي واحدة من عشيقاته اللواتي لا حصر لهن، ولا فتيات استعراض الفولي بيرجير في باريس، وإنما لوزيانا الصارمة، جامعة باتون روج المتعفة، حيث سجله أبوه المغتر بأمل الحصول على شهادة الكيمياء الصناعية. هناك، عند حافة نافذة غرفة نومه، في مساء ربيعي، كان من نصيبه أن يشهد أعظم لقاء جنسي منذ أن تلاقحت الديناصورات.

— أكانا عنكبوتين؟ — انفتحت فتحتا أنف دون ريغوبيرتو وواصلتا التلمس بوحشية. وخفقت أذناه اللتان كأذني دومبو كذلك بتهيج بالغ.

— عنكبوتان بهذا الحجم — مثل فيتو ثيبويًا المشهد برفع يديه وضم أصابعه العشرة وتقريبها من بعضها البعض ببذاءة —. رأى كل منهما الآخر، واشتاهاه، وتقدم أحدهما نحو الآخر، مستعداً للحب أو الموت. أو بعبارة أدق: للحب حتى الموت. وحين قفز أحدهما فوق الآخر حدثت قرعة زلزالية. وامتألت النافذة والغرفة برائحة منوية.

فوجه إليه دون ريغوبيرتو الطعنة:

— وكيف عرفت أنهما كانا يتناكحان؟ لماذا لا يكون ما فعلاه صراعاً؟

— كانا يتصارعان ويتناكحان في الوقت نفسه. مثلما يجب أن يكون، مثلما يتوجب أن يكون الأمر. — تراقص فيتو ثبويًا في مقعده؛ وكانت يدها قد تقاطعتا متداخلتين. وبينما هو يفرك أصابعه العشرة في قرقرة عظيمة، واصل قائلاً: — كان كل منهما يجامع الآخر بكل قوائمه، بحلقاته، بزغبه، بعينييه، وبكل ما في جسده. لم أرَ على الإطلاق ما هو أكثر إثارة، أقسم لك بأمي المقدسة التي في السماء يا ريغو.

الإثارة التي سببتها المجامعة العنكبوتية استمرت، على حد قوله، إلى ما بعد استمناء باليد وعدة حمامات بالماء البارد. وبالرغم من انقضاء أربعة عقود على ذلك وعدد لا حصر له من المغامرات، مازالت ذكرى تلك الدوبيات الوبرية المتشابكة تحت سماء باتون روج الزرقاء القاسية ترد إلى ذهنه أحياناً لتشوشه، وحتى الآن، حين تنصح سنوات العمر بالاعتدال، ما إن ترد تلك الصورة النائية إلى وعيه فجأة، حتى تسمو به وتهيجه أكثر من جرعة من منشط اليوبيمبينا.

— حدثنا عما كنت تفعله في فولي بيرجير يا فيتو — طلبت منه ذلك تيتي باريجا، وهي تعرف جيداً ما تطلبه — إنه مسل جداً، حتى ولو كان كذباً.

وقالت السيدة لوكريثيا لزوجها مطيلة أمد الحكاية:

— كان ذلك أشبه باستثارته، مثل مد اليد إلى النار. ولكن تيتي

تُفتن بشيِّ نفسها.

تقلب فيتو ثيبويًا في المقعد الذي يجلس عليه وهو شبه منهار
من الويسكي:

— كيف يكون كذباً! لقد كان العمل اللطيف الوحيد الذي
مارسته في حياتي. على الرغم من أنهم كانوا يعاملونني معاملة
سيئة مثلما يفعل زوجك الآن في المكتب يا لوكري. تعالي، اجلسي
معنا، اهتمي بضيفك.

كانت عيناه زجاجيتين، وصوته مترنماً. وكان المدعوون قد
بدؤوا ينظرون إلى ساعاتهم. تظاهرت دونيا لوكريثيا بالشجاعة،
صانعة من أحشائها قلباً، وجلست بجانب الزوجين باريغا. وبدأ
فيتو ثيبويًا يتذكر ذلك الصيف. كان قد توقف في باريس وليس
معه سنتيم واحد، وبفضل مساعدة أحد الأصدقاء، حصل على وظيفة
حلماتي في «مسرح شارع ريشيت التاريخي».

— حلماتي من حلمة، وليس من حلم — أوضح ذلك وهو
يُخرج طرف لسان داعر وردي ويطبق عينيه الشبقتين وكأنه يريد
أن يرى ما يراه بصورة أفضل («وما كان يراه هو فتحة الفستان
حول عنقي يا حبي»). وكانت وحدة دون ريغوبيرتو قد بدأت تزدهم
وتتهيج) وتابع فيتو: — ومع أنني كنت أقل العاملين مكانة
وأسوأهم أجراً، إلا أن نجاح الاستعراض كان يعتمد عليّ. إنها
مسؤولية كبيرة!

فاستعجلته تيتي باريغا:

— وما هي تلك المسؤولية، ما هي؟

— أن أصلب حلّات نهود فتيات الاستعراض في لحظة
خروجهن إلى المنصة.

ومن أجل ذلك، كان لديه في حيزه الصغير وراء الكواليس
سطل مملوء بالثلج. وكانت الفتيات المتزينات بقنازع الريش
وبالأزهار، وبتسريحاتهن الغريبة، ورموشهن الطويلة، وأظفارهن
الاصطناعية، وشباكهن غير المرئية وذبولهن الطاوسية، وأردافهن
وصدورهن المكشوفة، ينحنين أمام فيتو ثيويا لكي يدعك حلّاتهن
والتويج المحيط بها بمكعبات من الثلج. فيطلقن عندئذ صرخة
خافتة، ويقفزن إلى المنصة وصدورهن منتصبة كالسيوف.

— أهي فعالة، أهي فعالة؟ — ألحت تيتي باريغا وهي تنظر
مواربة إلى صدرها المتهدل، بينما زوجها يتثاءب —. إذا دُعَا
بالثلج يصبحان...؟

— يصبحان مشدودين، قاسيين، مستقيمين، شامخين، متكبرين،
منتصبين، متباهيين، متنفذين، ساخطين — أسرف فيتو ثيويا
في لفه ودورانه حول المترادفات، ثم أضاف: — ويبقيان كذلك
خمس عشرة دقيقة، وهو توقيت مجرب.

«أجل، إنها طريقة فعالة»، كرر دون ريغويرتو ذلك. وكان
يظهر شعاع شاحب من خلال أباجور النافذة. إنه صباح آخر بعيداً
عن لوكريثيا. هل حان موعد إيقاظ فوننتشيتو للذهاب إلى المدرسة؟
ليس بعد. ولكن، أليست هي موجودة هنا؟ مثلما حدث يوم تحقّقا من
صحة وصفة الفولي بيرجر بتجربتها على نهديها. وقد رأى كيف
تصلبت الحلمتان القامتان وسط هالتيهما الذهبيتين، وعرضتا لشفتيه

وهما باردتان وصلبتان كالحجارة. لقد كلفت تلك التجربة لوكريثيا زكاماً ما لبثت عدواه أن انتقلت إليه.

سأل فيتو ثيبويًا:

— أين الحمام؟ لا تسيئوا الظن، فأنا أريد أن أغسل يدي.

قادته لوكريثيا حتى الممر محتفظة بمسافة حذرة. فقد كانت تخشى أن تشعر في أي لحظة بملامسة تلك الحجاماة اليدوية.

وكان فيتو يتلثم وهو يتعثر في طريقه:

— لقد أعجبتني خلاسيتك حقاً. أنا ديمقراطي، وأقبلهن

زنجيات، ببيضاوات، صفراوات ما دمن جيدات المظهر. ألا تهديني إياها؟ أو تنازلي لي عنها إذا أنتِ شئت. سأدفع لك مقابلها ذكراً لطيفاً.

أوقفته دونيا لوكريثيا:

— ها هو الحمام. واغسل لسانك أيضاً يا فيتو.

— رغباتك أوامر — قال مُرِيلاً، وقبل أن تتمكن من تقاديه،

كانت اليد اللعينة تتجه مباشرة إلى نهديها. ولكنه أعادها على الفور، ودخل إلى الحمام قائلاً: — اعذريني، اعذريني، لقد أخطأت بالباب.

رجعت دونيا لوكريثيا إلى الصالة. وكان المدعون قد بدؤوا

بالانصراف. كانت ترتعش من الغضب. سترمي به خارج البيت هذه المرة. كانت تتبادل آخر المجاملات مع الضيوف وتودعهم في الحديقة. «هذا لا يطاق، لقد تجاوز الحد.» وكانت الدقائق تمضي دون أن يظهر فيتو ثيبويًا.

— أتعنين أنه كان قد انصرف؟

— هذا ما ظننته. فقد ظننت أنه قد انصرف خفية من باب الخدم بعد خروجه من الحمام. ولكن لا، لا. لقد بقي اللعين. ذهب الضيوف، وكذلك الجرسون الذي تعاقدت معه للخدمة، وبعد أن ساعد كبير الخدم والطاهية خوستينيانا في جمع الكؤوس والأطباق، وفي إغلاق النوافذ، وإطفاء أنوار الحديقة، وتشغيل جهاز الإنذار، تمنيا ليلة سعيدة لدونيا لوكريثيا وانصرفا إلى غرفتي نومهما المنعزلتين، في الجناح المنفصل، في ما وراء المسبح. أما خوستينيانا التي تنام في الطابق العلوي، بجوار مكتب دون ريغوبيرتو، فكانت في المطبخ تُدخل أدوات المائدة إلى الجلاية الآلية.

— وهل بقي فيتو ثيبويًا مختبئًا في الداخل؟

— ربما في حجرة الساونا، أو ما بين شجيرات الحديقة. منتظرًا أن يغادر الآخرون، وأن ينام كبير الخدم والطاهية، لكي يدخل إلى المطبخ. مثل لص!

كانت دونيا لوكريثيا على الأريكة في الصالة، متعبة، دون أن تكون قد استردت بعد هدوءها من الإساءة. لن تسمح للبذيء فيتو ثيبويًا بأن يضع قدميه في هذا البيت مرة أخرى. وكانت تتسائل إذا ما كان عليها أن تخبر ريغوبيرتو بما حدث، عندما انفجرت صرخة مدوية. كانت الصرخة آتية من المطبخ. نهضت مسرعة، وركضت. وعند الباب الأبيض — الجدران المغطاة بالبورسلان كانت تلمع تحت الضوء الصيدلاني — أوقفها المشهد مشلولة.

رمش دون ريغوبيرتو عدة مرات قبل أن يدقق النظر في الشعاع الشاحب الذي ينفذ من النافذة معلناً قدوم النهار. كان يراهم: خوستينيانا ملقاة على منضدة خشب الصنوبر التي طُرحت فوقها، تقاوم بيديها ورجليها ضد الكتلة المترهلة التي تسحقها، تتمم وتغرغر مصدرة أصواتاً، يجب أن تكون شتائم بذيئة. وعند عتبة الباب كانت دونيا لوكرينثيا مشوهة المظهر ومضطربة. ولكن شللها لم يدم طويلاً. لقد كانت هناك — خفق قلب دون ريغوبيرتو باندفاع، مفعماً بالإعجاب بالجمال الديلاكراوي لهذا الغضب الذي يمسك بأول ما يواجهه، بشوبك العجين، وينهال به على فيتو ثيبويا، مع سيل من الشتائم: «مستغل، لعين، قذر، ماجن». كانت تضربه دون رحمة، حيثما يقع الشوبك، على الظهر، على الرقبة السمينة، على الرأس الرهباني، على المؤخرة، إلى أن أجبرته على إفلات ضحيته ليدافع عن نفسه. كان بإمكان دون ريغوبيرتو سماع الضربات التي تنهال على عظام وعضلات المغتصب المَعطل الذي انهزم أخيراً بسبب الضرب وتأثير السكر في تناقل حركاته، فاستدار ويده مرفوعتان باتجاه ضاربتة، ثم انقلب وتهاوى منسكباً على الأرض كأنه الهلام.

— اضربيه، اضربيه أنت أيضاً، اضربيه — كانت دونيا لوكرينثيا تصرخ وهي تنهال بشوبك العجين على كتلة البدلة الزرقاء القذرة التي كانت تحاول النهوض وهي ترفع يديها لتتقي الضربات.

سألها دون ريغوبيرتو المبتهج:

— ألم تكسر خوستينيانا المقعد على رأسه؟

لقد فعلت وتطاير فتات الخشب حتى السقف. فقد رفعته بكتا يديها، ثم انهالت به بكل قوة على جسده. ورأى دون ريغوبيرتو القامة المشوقة بزي الخادمة الأزرق ومنديلها الأبيض، وهي ترفع يديها لتهوي عليه. وسمع صرخة «آي ي ي!» المدوية التي أطلقها فيتو ثيبويًا المطروح على الأرض مفرشخاً ساقيه، وهزت طبلتي أذنيه. (ولكنها لم توظ الطاهية ولا كبير الخدم ولا فونتشيتو؟) كان يغطي وجهه، وكانت هناك بقع من الدم على يديه. بقي غائباً عن الوعي عدة ثوانٍ. وربما تكون قد أعادته إلى الوعي صرخات المرأتين اللتين واصلتا شتمه: «منحل، سكير، مستغل، منيوك».

ضحكت دونيا لوكريثيا:

— يا للذة الانتقام. فتحنا الباب الخلفي فهرب على الفور وهو يدب على أربع.. أقسم لك. وكان يبكي: «آي، يا رأسي؛ آي، لقد حطمتا رأسي».

وعندئذ، انفلت جرس الإنذار. يا للرعب. ولكن هذا كله لم يوقظ فونتشيتو وكبير الخدم والطاهية. هل هذا ممكن؟ لا. ولكنه مناسب جداً، هكذا فكر دون ريغوبيرتو.

وكانت دونيا لوكريثيا تضحك وهي تقول:

— لست أدري كيف أطفأنا صفارة الإنذار، ثم دخلنا، وأقفلنا الباب، وأعدنا ضبط جهاز الإنذار. وشيئاً فشيئاً بدأنا نستعيد هدوءنا. عندئذ انتبهت إلى ما كان قد فعله ذلك المتوحش بالمسكينة خوستينيانا. فقد مزق ثوبها. وانفجرت الفتاة التي كانت ما تزال مرعوبة بالبكاء. يا للمسكينة. لو أن دونيا لوكريثيا كانت قد سعدت

إلى غرفة نومها لما سمعت صرخاتها، لأن كبير الخدم والطاهية والطفل لم يسمعوا شيئاً. وكان ذلك النذل قد اغتصبها وهو سعيد. احتضنتها وقالت لها مواسية: «لقد انقضى الأمر، لقد انتهى كل شيء.. لا تبكي». جسد الفتاة الذي كان يستند إلى جسدها — بدا أكثر فتوة عن قرب — كان يرتعش من الرأس حتى القدمين. وكانت تشعر بطفرات قلبها وترى جهودها من أجل كبح شهقاتها.

همست دونيا لوكريثيا:

— لقد أحزنتي حالها. فضلاً عن تمزيق ثوبها، كان قد ضربها أيضاً.

فأوماً دون ريغوبيرتو:

— لقد نال ما يستحقه. ذهب مهاناً ونازفاً. أحسنتما صنعاً!

وأبعدت دونيا لوكريثيا خوستينيانا عنها «انظري ما الذي فعله بك هذا النذل». وتفحصت ثوبها الممزق، وداعبت بحنان وجهها الذي فارقه فيض المرح الذي يشع منه عادة، ولم يبق فيه سوى بضع دمعات تسيل على خديها، وتكشيرة تجمد شفثتها. لقد كانت عيناها منطفئتين.

— وهل حدث شيء؟ ألمح دون ريغوبيرتو بكثير من الحذر.

وردت دونيا لوكريثيا بحذر مماثل:

— ليس بعد. وأنا لم أنتبه على أي حال.

لم تنتبه. فقد كانت تظن أن سبب ذلك الهياج والعصبية والانفعال هو الحادث، وقد كان كذلك أيضاً دون ريب. وكانت تشعر بأنها طافحة بمشاعر الحنان والشفقة، متشوقة لعمل شيء، أي شيء،

لإخراج خوستينيانا من الحالة التي هي فيها. أمسكتها من يدها، وقادتها نحو السلم: «تعالى لتتزعى عنك هذه الثياب، من الأفضل استدعاء طبيب». ولدى خروجهما من المطبخ أطفأت أنوار الطابق السفلي. سعدتا في الظلام، إحداهما تمسك بيد الأخرى، درجة درجة، اجتازتا السلم الحلزوني نحو المكتب وغرفة النوم. بينما كانتا في منتصف السلم، أحاطت دونيا لوكريثيا خصر الفتاة بذراعيها الأخرى. «يا للرب الذي مررت به.» «ظننت أنني سأموت يا سيدتي، ولكن الرب بدأ يفارقني الآن.» ليس صحيحاً؛ فقد كانت يدها تعتصر يد سيدتها وأسنانها تصطك، مثلما من البرد. ودارتا وهما متماسكتا الأيدي والخصر حول الرفوف المترعة بكتب الفن، وفي غرفة النوم استقبلتهما، منتشرة عبر النافذة، أضواء ميرافلوريس والذوَابات البيضاء للأمواج المتقدمة نحو وهدة الساحل. أضاعت دونيا لوكريثيا مصباح الثريا ذات العمود فغمر الضوء أريكة الشيرلنغ الفسيحة الحمراء المزينة بقائمتي صقر والمنضدة الصغيرة المغطاة بمجلات، والخزف الصيني، والوسائد والحشايا المبعثرة على السجادة. وبقي السرير الواسع غارقاً في الظلام، وكذلك الكوميدينو، والجدران المزينة بلوحات فارسية ويابانية. اتجهت دونيا لوكريثيا إلى خزانة الملابس. وناولت رداءً إلى خوستينيانا التي ظلت واقفة، تغطي جسدها بذراعيها، وهي منحنية قليلاً.

— يجب رمي هذه الملابس إلى القمامة، أو حرقها. أجل، من الأفضل حرقها مثلما يفعل ريغوبيرتو بالكتب واللوحات التي لم تعد تروقه. البسي هذا، وسأرى ما الذي يمكنني أن أقدمه إليك.

وفي الحمام، بينما كانت تبلل منشفة بماء الكولونيا، رأت نفسها في المرآة (وكافأها دون ريغوبيرتو «كنت جميلة جداً»). وكانت هي أيضاً تشعر برعب ربنا وأبيننا. كانت شاحبة وتحيط بعينها زرقة قاتمة؛ وكانت الأصبغة قد سالت على وجهها، كما كان سحاب فستانها قد انشق دون أن تشعر به.

— أنا أيضاً جريحة حرب يا خوستينيانا — قالت لها ذلك عبر الباب — فقد تمزق ثوبي بسبب فيتو القذر. سأرتدي روباً. تعالي، هنا الإضاءة أفضل.

عندما دخلت خوستينيانا إلى الحمام، رأتها دونيا لوكريثيا التي كانت تتخلص من ثوبها عند قدميها — ولم تكن تضع حمالة صدر، وإنما سروالاً مثلثاً من الحرير الأسود وحسب — رأتها في مرآة المغسلة، ورأتها مكررة كذلك في مرآة حوض الاستحمام. كانت الفتاة الملتفة بالروب الأبيض الذي يغطيها حتى الفخذين تبدو أكثر نحولاً وأشد سمره. ولأنه لم يكن لديها حزام، فقد كانت تثبت الروب بيديها. تناولت دونيا لوكريثيا روب الخروج من الحمام الصيني — «الروب الحريري الأحمر المزين بتنينين أصفرين متحدين بذيليهما على الظهر»، قال دون ريغوبيرتو مدققاً —، وارتدته ونادتها:

— اقتربي قليلاً. هل أنت مصابة بجراح؟
— لا، لا أظن، هناك خدشان لا يستحقان الذكر — وأخرجت خوستينيانا ساقها من بين ثنايا الروب — هذه الرضوض بسبب ضربتي إلى المنضدة.

انحنى دونيا لوكريثيا، أسندت إحدى يديها على الفخذ الصقيل

ودلكت برفق البشرة المرضوزة بمنشفة مبللة بالكولونيا.

— ليس شيئاً مهماً، سيختفي بسرعة. والآخر؟

في الكتف وأعلى العضم. فتحت خوستينيانا الروب وأرتها الرضة التي بدأت تتورم. ولاحظت دونيا لوكريثيا أن الفتاة لا تلبس كذلك حمالة صدر. وكان نهدها قريباً جداً من عينيها. فكانت ترى رأس الحلمة. إنه نهد فتىّ وصغير، مرسوم جيداً، مع حبيبات ناعمة في التويج المحيط بالحلمة.

دمدمت:

— هذا جرح سيء. هل يؤلمك؟

— قليلاً — قالت خوستينيانا ذلك دون أن تسحب ذراعها الذي كانت دونيا لوكريثيا تمسح عليه برفق، وهي متيقظة الآن إلى اضطرابها نفسه أكثر من جرح الخادمة المتورم.

وأح، توسل دون ريغوبيرتو:

— يعني، لقد حدث هناك شيء.

ووافقت زوجته هذه المرة:

— أجل. لست أدري ماذا، ولكن شيئاً قد حدث. لقد كنا قريبتين، وبروبي حمام. لم أصل من قبل على الإطلاق إلى مثل هذه الحميمية معها. أو ربما بسبب ما جرى في المطبخ. أو لأي سبب آخر. ولكنني لم أعد أنا نفسي فجأة. وكنت أتأجج من رأسي حتى قدمي.

— وهي؟

— لست أدري، من يعرف ذلك.. أظنها لم تشعر بشيء —

اختلطت الأمور على دونيا لوكريثيا — لقد تبدل كل شيء، هذا ما أنا متأكدة منه. هل تلاحظ يا ريغوبيرتو؟ بعد ذلك الرعب. ولاحظ ما الذي راح يحدث لي.

— هذه هي الحياة — دمدم دون ريغوبيرتو بصوت عال، مستمعاً إلى رنين كلماته في وحدة حجرة النوم المضاءة بنور النهار. — هذا هو عالم الشهوة الفسيح، الرائع، الرهيب، الذي لا يوصف. لكم أنت قريبة مني الآن يازوجتي الحبيبة وأنت بعيدة عني.

— أتعرفين؟ — قالت دونيا لوكريثيا لخوستينيانا — ما نحتاجه أنا وأنت للتخلص من انفعالات هذه الليلة هو كأس من الشراب.

— حتى لا تأتينا كوابيس تلك اليد الطويلة — ضحكت الموظفة وهي تلحق بها إلى غرفة النوم. وكانت العبارة قد بعثت فيها النشاط: — في الحقيقة، أظن أنني لن أتخلص من الحلم به هذه الليلة إلا إذا سكرت.

— فلنسكر إذن — قالت دونيا لوكريثيا وهي تتجه نحو البار الصغير في غرفة المكتب — أتريدين كأساً من الويسكي؟ هل يعجبك الويسكي؟

— أي شيء، مما ستشربين أنت سأشرب. اتركي الأمر لي، أنا سأحضر الشراب لك.

فأوقفتها دونيا لوكريثيا، من المكتب:

— ابقى هنا. أنا سأقوم بالخدمة هذه الليلة.

ضحكتُ، وحذت الفتاة حذوها مبتهجة. وفي المكتب، بينما كانت تشعر بأنها قد فقدت السيطرة على يديها ولم تعد تريد التفكير، ملأت دونيا لوكريثيا كأسين كبيرين بكمية كبيرة من الويسكي، وبقليل من المياه المعدنية ومكعبين من الثلج. ورجعت مثل قطة ما بين الوسائد المبعثرة على الأرض. وكانت خوستينيانا قد اتكأت على مسند الشيزلُنغ دون أن ترفع ساقها. أرادت النهوض. فأوقفتها دونيا لوكريثيا مرة أخرى:

— ابقِي حيث أنت. أفسحي لي مكاناً، هناك متسع.

ترددت الفتاة وقد أحست بالحيرة لأول مرة؛ ولكنها استعادت السيطرة على نفسها في الحال. فخلعت حذاءها، ورفعت ساقها وانزلت باتجاه النافذة لتفسح لها مكاناً. جلست دونيا لوكريثيا إلى جانبها. رتبت الوسائد تحت رأسها. لقد اتسع لهما المكان، ولكن جسديهما تلامسا. كان الكتفان، الذراعان، الساقان، الردفان قريبة ومتلامسة أحياناً.

قالت دونيا لوكريثيا:

— نخب من سنشرب؟ أنشرب نخب ضرب هذا الحيوان؟

— نخب ضربة الكرسي التي وجهتها إليه — استعادت خوستينيانا روحها المرحية —. مع الغضب الذي تملكني، أقول لك إنني كنت قادرة على قتله. أتعتقدين أنني قد هشمت رأسه؟

شربت رشفة وداهما الضحك من جديد. وانفجرت دونيا لوكريثيا كذلك في ضحكة هستيرية. «هشمته بالطبع، وأنا هشمت فيه أشياء أخرى بشوبك العجين». أمضتا وقتاً لا بأس به وهما

على تلك الحال، كأنهما صديقتان تتبادلان أسراراً مفرحة وخشنة بعض الشيء، تهزهما القهقهات. «أؤكد لك أن فيتو ثيبويًا قد أصيب برضوض أكثر منك يا خوستينيانا»، «وما الحجة التي سيقدمها الآن لزوجته، لتفسير تلك الأورام والجراح؟»، «سيقول إن لصوصاً انقضوا عليه وأوسعوه ضرباً». وبينما هما في هذه التعليقات الساخرة، نفذ كأسا الويسكي. فهدأتا. وشيئاً فشيئاً استعادتا أنفاسهما.

— سأعدّ كأسين آخرين. — قالت دونيا لوكريثيا.

— أنا سأفعل، دعيني أعهما أنا، أقسم لك أنني أعرف كيف أفعل ذلك.

— لا بأس، هيا، وأنا سأضع موسيقى.

ولكنها بدل النهوض عن الشيزُّنغ لكي تتمكن الفتاة من المرور، أمسكتها دونيا لوكريثيا من خصرها بكلتا يديها وساعدتها على الانزلاق من فوقها، دون أن توقفها وإنما أخرتها في حركة أبقت جسديهما ملتصقين — السيدة في الأسفل، والموظفة فوقها — لدقيقة. وفي الظلمة الخفيفة، وبينما وجه خوستينيانا فوق وجهها — وكانت أنفاسها تدفئ وجهها وتدخل إلى فمها — رأت دونيا لوكريثيا في كهрман عينيها السوداوين بريقاً منذراً بالخطر.

— وعندئذ انتبعت إلى أنها؟ — توعدّها دون ريغوبيرتو

المزنوق، وهو يحس بدونيا لوكريثيا تتحرك بين ذراعيه بالتكاسل الحيواني الذي يغرق فيه جسدها وهما يمارسان الحب.

قالت وكأنها تشرف على الغرق:

— لم تستكرر؛ بل ربما تكون قد فزعتُ قليلاً فقط. لأنني تماديت إلى ذلك الحد في الثقة معها، بالسماح لها بالمرور من فوقني وأنا أمسك خاصرتها. ربما تكون قد انتبعت. لست أدري، لم أكن أعرف شيئاً، ولم يكن يهمني أي شيء. فقد كنتُ أطيّر. ولكنني انتبعت بالفعل إلى أنها لم تغضب. لقد أخذت الأمر بمرح، بهذا الخبث اللطيف الذي تضيفه على كل شيء. لقد كان فيتو على حق، فهي جذابة. وأكثر جاذبية وهي نصف عارية. جسدها الذي مثل قهوة بالحليب بدا واضحاً على بياض الحرير...

— كنتُ مستعداً لإعطاء سنة من عمري مقابل رؤيتكما في تلك اللحظة — ووجد دون ريغوبيرتو عندئذ السند الذي كان يبحث عنه منذ بعض الوقت: لوحة تكاسل وشبيق أو اللحم لغوستاف كوربيه.

وسخرت دونيا لوكريثيا:

— ألسنت ترانا؟

بكل وضوح، على الرغم من اختلاف غرفة نومه النهارية عن تلك الغرفة الليلية، وهذا الجزء من الغرفة كان مظلماً لا يصله نور المصباح ذي العمود. كان الجو قد تكثف. وذلك العطر النفاذ الذي يسبب الدوار كان يخنق دون ريغوبيرتو. كان أنفه يشمه، ينفثه، ويعيد تنشقه. وفي العمق كان يُسمع حفيف البحر، وفي المكتب، صوت خوستينيانا وهي تعد كأسَي الشراب. تمطت دونيا لوكريثيا وهي نصف مختفية وراء النبتة ذات الأوراق الرمحية، وشغلت الحاكي، فطفت في الغرفة

موسيقى قيثارات باراغوائية وكورال يغني باللغة الغوارانية، وبينما دونيا لوكريثيا عائدة إلى مكانها على الشيزلُنغ وعيناها مغمضتان، كانت تنتظر خوستينيانا بزخم شمه دون ريغوبيرتو وسمعه. كان الروب الصيني يكشف فخذها الأبيض وذراعها العاريين. وكان شعرها مشعثاً وعيناها تومضان وراء الرموش الحريريّة. وفكر دون ريغوبيرتو: «نمر يترصد فريسته». عندما ظهرت خوستينيانا حاملة الكأسين في يديها، جاءت باسمّة، تتحرك بطلاقة، وقد اعتادت على هذا التواطؤ، وعلى عدم الاحتفاظ بمسافة من الاحترام تجاه سيدتها.

دمدتم دونيا لوكريثيا:

— هل تعجبك هذه الموسيقى الباراغوائية؟ لا أعرف ما اسمها.

— تعجبني كثيراً، إنها جميلة، ولكنها ليست للرقص، أليس كذلك؟ — علقت خوستينيانا وهي تجلس على حافة الشيزلُنغ وتمد إليها الكأس — هل الشراب جيد هكذا أم أنه بحاجة إلى ماء؟

لم تتجرأ على المرور من فوقها فابتعدت دونيا لوكريثيا باتجاه الركن الذي كانت فيه الفتاة من قبل. ثم شجعتها بحركة من يدها لتحلّ مكانها. فعلت خوستينيانا ذلك، وحين استلقت بجانبها انزلق الروب كاشفاً عن ساقها اليمنى التي أصبحت على بعد مليمترات من ساق السيدة المكشوفة. فقالت هذه وهي تدق كأسها:

— في صحتك يا خوستينيانا.

— في صحتك يا سيدتي.

شربتاً. وما إن أبعدتا الكأسين عن فميهما حتى
قالت دونيا لوكريثيا مازحة:
— كم كان سيدفع فيتو ثيبويًا مقابل اللقاء بنا مثلما نحن
الآن.

ضحكت، وضحكت معها خوستينيانا أيضاً. وراح ضحكهما
يعلو، ويزداد. وتجرات الفتاة على المزاح أيضاً:
— لو أنه كان شاباً ووسيماً على الأقل. ولكن من التي ستقبل
مثل هذا الضفدع، وهو مخمور فوق ذلك.

— ولكنه صاحب ذوق على كل حال ويحسن الاختيار —
داعبت يد دونيا لوكريثيا الطليقة شعر خوستينيانا — الحقيقة أنك
جميلة جداً. لست أستغرب أنك تسببين الجنون للرجال. هل هو
فيتو وحده؟ لا بد أنك دمرت الكثيرين.

وكانت طوال الوقت تمسد شعرها، ثم مدت ساقها حتى لامست
ساق خوستينيانا. فلم تبعد هذه ساقها. ظلت هادئة، ونصف ابتسامة
جامدة على وجهها. وبعد بضع ثوان، لاحظت دونيا لوكريثيا وقلبها
يطفر من مكانه أن قدم خوستينيانا تنسل ببطء لتلامس قدمها.
وراحت أصابع خجولة تتحرك فوق أصابعها في خرمشة لا تكاد
تكون محسوسة.

— أحبك كثيراً يا خوستينا — قالت ذلك وهي تتأديها للمرة
الأولى مثلما يناديها فوننشيتو — لقد انتبهتُ إلى ذلك هذه الليلة.
حين رأيتُ ما كان يفعله بكِ ذلك البدين. أحسستُ بالغضب! كما لو
أنك أختي.

— وأنا أحبك أيضاً يا سيدتي — تمتمت خوستينيانا وهي تميل قليلاً، فتلامست الآن الأرداف والأذرع والأكتاف فضلاً عن الأقدام والسيقان —. لست أدري كيف أقول ذلك، ولكنني أشعر نحوك بالحسد. لأنك مثلما أنت.. لأنك متأنقة جداً. أفضل من كل من عرفتهن.

— أسمحين لي بقبلة؟ — قالت السيدة لوكريثيا ذلك ومالت برأسها حتى لامس رأس خوستينيانا. فاختلط شعراهما. كانت ترى عينيها العميقتين، مفتوحتين جداً، تراقبانها دون أن ترمشا، ودون خوف، وإن كان ذلك بشيء من اللهفة: — هل يمكنني أن أقبلك؟ أيمكننا؟ كصديقتين؟

أحست بالقلق، بالندم، خلال الثواني — أكانت ثانيتين، ثلاث، عشر ثوان؟ — التي تأخر فيها رد خوستينيانا. ثم عادت روحها إلى جسدها — كان قلبها ينبض بسرعة كبيرة لا تكاد تتيح لها التنفس — عندما تحرك، أخيراً، الرأس الذي كان تحت رأسها موافقاً، واقترب مقدماً شفثيه. وبينما هما تتبادلان القبلة باندفاع، تُشَابِكا لسانيهما، تتفصلان وتلتحمان، وجسداهما ينعقدان، كان دون ريغوبيرتو يُحلق خفيفاً. أكان فخوراً بزوجته؟ أكان مغرماً بها أكثر من أي وقت آخر؟ بالطبع. وتراجع لكي يتمكن من رؤيتهما وسماعهما.

وسمع خوستينيانا تهمس في أذن دونيا لوكريثيا:
— سأقول لك شيئاً يا سيدتي. لدي حلم يتكرر منذ زمن. إنه يتكرر كثيراً، حتى وأنا مستيقظة. أحلم بأنه في ليلة باردة، بينما

كان السيد مسافراً. أحسستِ حضرتك بالخوف من اللصوص وطلبتِ
مني أن آتي لمرافقتك. عندئذ أردت أن أنام على هذا المقعد فقلتِ
لي: «لا، لا، تعالي هنا، تعالي». وجعلتني أنام معك. وعندما أحلم
هذا الحلم، هل أخبرك؟ أنهض مبلة. يا للخجل!

— فلنحقق هذا الحلم — نهضت السيدة لوكرينثيا وهي تقود
وراءها خوستينيانا — سننام معاً، ولكن في السرير، فهو أطرى
من الشيزلنغ. تعالي يا خوستيتا.

قبل أن تندسا تحت الملاءات، خلعتا الروبين اللذين بقيا عند
نهاية الفرشة المقسومة إلى قسمين والمغطاة بشرشف سرير. وكان
قد تلا موسيقى القيثارات لحن فالس من أزمنة أخرى، أنغام كمانات
يتوافق إيقاعها مع مداعباتهما. وما أهمية أنهما قد أطفأتا النور وهما
تلعبان وتتحابان، واختفتا تحت الملاءات، وأن شرشف السرير
يتغضن، يتجدد، ويتلوى؟ لم يكن دون ريغوبيرتو يضيع تفصيلاً
واحداً من توعدهاتهما وهجماتهما، كان يتشابك ويفصل معهما، لقد
كان مع اليد التي تمسك نهداً، وفي كل إصبع يلامس وركاً، ومع
الشفاه التي تجرأت أخيراً، بعد عدة مناوشات، على الغوص في
تلك القتامة المدفونة بحثاً عن بركان اللذة، عن الثغرة الدافئة، عن
القم النابض، عن العضلة الصغيرة المتوترة. كان يرى كل شيء،
يحس بكل شيء، يسمع كل شيء. أنفه يتضخم بعطر تينك البشرتين
وشفتاه ترشfan الرحيق الذي يسيل من المرأتين المندفعتين.

— ألم تكن قد فعلت ذلك من قبل؟

فأكدت له دونيا لوكرينثيا:

— ولا أنا أيضاً. لم تمارس أي منا ذلك من قبل على الإطلاق. كنا مستجدين. نتعلم هناك بالذات. وقد استمتعت.. استمتعنا. ولم أشتق إليك مطلقاً في تلك الليلة يا حبي. ألا يزعجك أن أقول لك هذا؟

فاحتضنها زوجها:

— يروقني أن تقوليه لي. وهي، ألم تشعر بالاستياء فيما

بعد؟

أبداً. لقد أبدت طبيعية وتكتماً أدهشاً دونيا لوكريثيا. اللهم إلا في اليوم التالي، حين وصلت باقتي الزهر (المرسلة إلى السيدة عليها بطاقة تقول: «من بين أضمده، يشكرك فيتو ثيبويًا من كل قلبه على الدرس الذي يستحقه، والذي تلقاه من صديقه العزيزة والمحترمة لوكريثيا»، وعلى باقة الخادمة: «فيتو ثيبويًا يحيي ويطلب الاعتذار من زهرة القرفة») فأرت كل منهما باقتها للأخرى، وبعدها لم تتطرق أي منهما إلى الموضوع. العلاقة بينهما لم تتبدل بالنسبة لمن يراقبهما من الخارج، ولا أسلوبهما، ولا تعاملهما. صحيح أن دونيا لوكريثيا كانت تقدم من حين لآخر بعض اللمسات الرقيقة إلى خوستينيانا، فتهدى إليها حذاءً جديداً، أو ثوباً، أو تأخذها معها عندما تخرج، ولكن هذا كله لم يكن يفاجئ أحداً، وإن كان يثير غيرة كبير الخدم والطاهية، ذلك أن جميع من في البيت، ابتداءً من السائق وحتى فوننتشيتو ودون ريغوبيرتو، كانوا قد لاحظوا منذ وقت طويل بأن خوستينيانا قد استحذت على السيدة بحيويتها وتملقها.

عشقٌ للآذان الطيارة

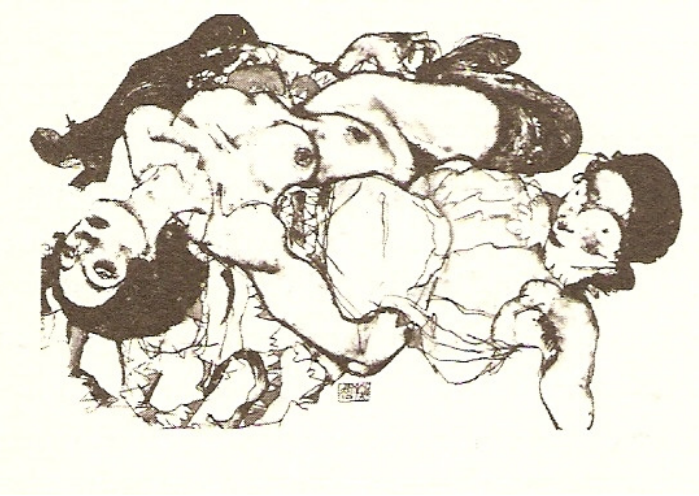
عينان للرؤية، أنف للشم، أصابع للمس وآذان مثل قرون الوفرة
لكي تُفرك برؤوس الأصابع، مثلما هي حبة الحدياء أو كرش بوذا
— اللذان يجلبان حسن الطالع — ثم تُلحس وتُقَبَّل.
تعجبني أنت يا ريغوبيرتو، وأنت، وأنت، ولكن قبل كل أشيائك،
تعجبني أذنيك الطيارتين. أريد أن أجتو على ركبتني وأترصد هاتين
الفتحتين اللتين تتظفهما كل صباح (من تعرف، تعرف) بعود قطني،
وتنتزع الشعيرات عنهما بملقط — شعرة آي بعد شعرة آي قبالة
المرآة آي — في اليوم الذي يكون فيه دورهما بالتنظيف
التخصصي. ما الذي أراه أنا في هاتين الفجوتين العميقتين؟ أرى
هوةً. وهكذا أكتشف أسرارك. أي سر مثلاً؟ أنك تحبني دون أن
تعرف ذلك يا ريغوبيرتو. وهل أرى شيئاً آخر؟ فيلين صغيرين
بخرطومين مرفوعين إلى أعلى. يا دومبو، يا صغيري دومبو، كم
أحبك.

ما بين المتع والألوان لم يكتب المؤلفون. أنت بالنسبة إليّ الكائن
الأكثر جاذبية، حتى ولو كان هناك من يقول إنك ستكسب بسبب
أنفك وأذنيك مسابقة الرجل الفيل في البيرو، ولكنك أفضل شاب
رأيتَه. احزر يا ريغوبيرتو من سيختار قلبي إذا ما خيروني بينك
وبين روبرت ريدفورد؟ أجل يا أذيتني، أجل يا أنيفي، يا يا
بينوكيو: أنت، أنت من سيختاره قلبي.

ما الذي سأراه إذا ما أطلقت أترصد هويتك السمعتين؟ حقل
برسيم، كل نبتة فيه من أربع وريقات. وبقاات ورد رُسم على
بتلاتها بزغب أبيض رَسْمُ وجه محب. أي وجه؟ إنه وجهي.
من أكون يا ريغوبيرتو؟ من هي المتسلفة الأنديزية التي تحبك
وتعبدك وستتسلق في يوم غير بعيد أذنيك مثلما يتسلق آخرون
الهمالايا أو قمة هواسكاران؟

لك، لك، لك،

المجنونة بأذنيك



IV. فونتشيتو باكياً

ظل فونتشيتو مطرقاً وشاحباً منذ وصوله إلى البيت في سان ايسيدرو، وكانت دونيا لوكريثيا واثقة من أن الزرقة المحيطة بعينيه ونظراته المتهربة لها علاقة بإيغون شيلي، الموضوع المؤكد في كل مساء. لم يكذب يفتح فمه في أثناء تناولهما الشاي، ونسي للمرة الأولى في هذه الأسابيع أن يطري على بسكويت خوستينيانا المحمص. أهي أخبار سيئة في المدرسة؟ هل اكتشف ريغوبيرتو أنه يتغيب عن معهد الرسم لكي يأتي ويزورها؟ كان يعض عقد أصابعه وهو حبيس الصمت الحزين. وفي بعض اللحظات كان يتمتم بشيء رهيب عن أدولف وماريا، أبويّ أو قريبي رسامه المفضل.

عرضت عليه دونيا لوكريثيا المساعدة:

— عندما ينهش أحدنا شيء من الداخل، فمن الأفضل أن يرويه لأحد كي يشاطره إياه. ألا تتق بي؟ أخبرني بما جرى لك، فربما أستطيع مساعدتك.

نظر الطفل إلى عينها مرتبكاً. كان يرمش بكثرة ويبدو كما لو أنه سينفجر بالبكاء. كان صدغاه يرتعشان، ولمحت دونيا لوكريثيا

الأوردة الزرقاء في عنقه.

— لقد... لقد كنت أفكر — قال ذلك أخيراً. ثم أخفض بصره وصمت، نادماً على ما سيقوله.

— بماذا كنت تفكر يا فوننتشيتو؟ هيا، أخبرني. لماذا أنت مهتم كثيراً بهذين الشخصين؟ من هما أدولف وماريا؟
فقال الطفل وكأنه يتحدث إلى زميل في الصف:
— أبوا إيغون شيلي. ولكن، ليس السيد أدولف هو من يهمني، وإنما أبي.

— ريغوبيرتو؟

— لا أريده أن ينتهي مثله — وأصبح الوجه الصغير أكثر غمماً وقامت يده بحركة غريبة، وكأنها تبعد الأشباح — إنني خائف ولا أعرف ماذا أفعل. لا أريد أن أسبب لك القلق. فأنت ما زلت تحبين أبي، أليس كذلك يا خالتي؟
فوافقت وهي حائرة:

— طبعاً ما زلتُ أحبه. إنك تشوشني يا فوننتشيتو. ما علاقة ريغوبيرتو بوالد رسام مات في الجانب الآخر من العالم، قبل نصف قرن؟

في أول الأمر بدت لها مسلية، وخاصة به جداً، هذه اللعبة غير المألوفة بالانبهار برسوم وحياة إيغون شيلي، ودراستها، وفهمها، والتطابق معه إلى حد الاعتقاد، أو الادعاء بالاعتقاد أنه إيغون شيلي منبعثاً، وأنه سيموت بعد حياة لامعة قصيرة، ميته تراجيدياً حين يبلغ الثامنة والعشرين. ولكن هذه اللعبة راحت تتعكر.

تلعثم فونتشييتو وهو يبتلع لعبه:

— مصير أبيه أيضاً بدأ يتكرر مع أبي. لا أريد لأبي أن يصبح مجنوناً أو أن يصاب بالزُّهري مثل السيد أدولف يا خالتي. فحاولت أن تهدئه:

— ولكن، أي حماقة هذه. انظر، الحياة لا تورث ولا تتكرر. وما هذه الخواطر إلا هراء.

تحول وجه الطفل الذي لم يعد قادراً على كبح نفسه، إلى مرجل وانفجر بالبكاء، مرفقاً ذلك بشهقات تهز محياه الناعم. قفزت السيدة لوكرينثيا من مقعدها، وسارعت إلى الجلوس إلى جانبه على سجادة صالة الطعام الصغيرة، عانقته، قبّلت شعره وجبهته، ومسحت دموعه بمنديلها، ونفّت له أنفه. التصق فونتشييتو بها. وكانت شهقات عميقة ترفع صدره وتُشعر دونيا لوكرينثيا بقلبه يطفر من مكانه.

— اهدأ، لقد انقضى الأمر، لا تبك، هذه الهواجس الخبيثة ليس لها أساس ولا رأس — وكانت في أثناء ذلك تمسد شعره وتقبّله —. ريغوبيرتو هو أسلم الرجال صحة وله أفضل دماغ مترن.

هل كان أبو إيغون شيلي مصاباً بالسفلس ومات مجنوناً؟ دونيا لوكرينثيا التي كان قد لسعها الفضول بسبب تلميحات فونتشييتو المتواصلة، ذهبت للبحث عن شيء حول شيلي في مكتبة البيت الأخضر، على بعد خطوتين من بيتها، ولكنها لم تجد أي بحث أو كتاب عنه وحده، وإنما وجدت كتاباً حول تاريخ الانطباعية يخصص له جزءاً من فصل. وهي لا تذكر أن هناك في الكتاب أي ذكر لأسرته. هز الطفل رأسه مؤكداً، بينما فمه مزموم وعينه شبه

مغمضتين. وبين الحين والآخر كانت تهزه قشعريرة. ولكنه راح يهدأ، وبدأ يتكلم دون أن يفصل عنها، وهو منكمش، بل وهو سعيد لإحساسه بأن ذراعي دونيا لوكريثيا يحميانه. ألا تعرف هي قصة السيد أدولف؟ لا، لم تكن تعرفها؛ فهي لم تستطع العثور على سيرة حياة هذا الرسام. ولكن فوننتشيتو كان قد قرأ عدة روايات لسيرته في مكتبة أبيه، وبحث عنه في الموسوعة. إنها قصة رهيبية يا خالتي. كانوا يقولون إنه لا يمكن فهم إيغون دون معرفة ما جرى للسيد أدولف شيلي والسيدة ماريا سوكوب. لأن هذه القصة تخفي سر رسومه.

وحاولت دونيا لوكريثيا أن تجرد القضية من التشخيص:

— حسن، حسن. وما هو هذا السر في رسومه؟

فرد الطفل دون تردد:

— إصابة أبيه بالسفلس. وجنون السيد أدولف شيلي المسكين.

عضت دونيا لوكريثيا شفتها لتكبح الضحكة كي لا تجرح مشاعر الطفل. وبدأ لها كما لو أنها تستمع إلى الدكتور روبيو، وهو طبيب نفساني من معارف دون ريغوبيرتو، اشتهر جداً بين أصدقائه منذ بدأ يتعرى، مستشهداً بمثال ويلهلم رايخ، في جلسات العلاج لكي يفسر أحلام مرضاه، وقد اعتاد الإقدام على أشياء من هذا النوع في حفلات الكوكتيل، بالقناعة نفسها.

قالت له وهي تنفخ على جبهته اللامعة من العرق:

— ولكن، هل تعرف يا فوننتشيتو ما هو السفلس؟

فاعترف الطفل بصراحة مذهلة:

— مرض تناسلي، مشتق من اسم فينوس، وهي ربة لا أعرف من تكون. لم أجد لها في المعجم. ولكنني أعرف أنها نقلت عدوى الداء إلى السيد أدولف. هل أروي لك كيف حدث ذلك؟

— شريطة أن تهدأ. وألا تعود إلى تعذيب نفسك بأوهام لا أساس لها. فأنت لست إيغون شيلي ولا ريغوبيرتو يشبه بأي حال ذلك السيد المجنون.

لم يعدها الطفل بأي شيء، ولكنه لم يرد عليها كذلك. ظل صامتاً هنيئاً، بين الذراعين الحاميتين، ورأسه على كتف خالته. وعندما بدأ يروي القصة، فعل ذلك بإسهاب في التواريخ والتفاصيل كما لو كان شاهد عيان على ما يرويه. أو أحد أبطال الحدث. فقد كان يفعل كمن عاش الأحداث وعانى منها بنفسه. وكأنه، بدلاً من أن يكون قد ولد في ليما في أواخر القرن العشرين، كان هو نفسه إيغون شيلي، ذلك الفتى من الجيل الأخير من مواطني الدولة النمساوية — الهنغارية التي سترى اختفاء ما سمي **الحقبة الجميلة** والإمبراطورية من الوجود في كارثة الحرب العالمية الأولى، ذلك المجتمع اللامع، الكوسمبوليتي، الأدبي، الموسيقي، الفني الذي أحبه ريغوبيرتو كثيراً وقدم عنه إلى دونيا لوكريثيا دروساً شديدة الصبر في سنوات زواجهما الأولى. (وها هو فوننتشيتو يواصل الآن تقديم تلك الدروس). إنه مجتمع ماهر، وشونبيرغ، وفرويد، وكليمت، وشيلي. في الرواية القلقة، وبعد استبعاد التسلسل التاريخي والصيبانية، بدأت تتشكل قصة. هناك قرية صغيرة تدعى توللن، على ضفاف الدانوب، في محيط مدينة

فبينما (على بعد 25 كيلومتر عنها، حسب قوله) ثم، في تلك السنوات الأخيرة من القرن، تقام حفلة زفاف الموظف في السكك الحديدية الإمبراطورية أدولف إيغون شيلي، وهو بروتستانتي من أصل ألماني، كان قد أكمل للتو ستاً وعشرين سنة من عمره، والفتاة الكاثوليكية المراهقة، التشيكية الأصل، ذات السبعة عشر عاماً، ماريا سوكوب. إنه زواج ملعون، مخالف للتيار، بسبب معارضة أسرة الفتاة. («هل عارضت أسرتك زواجك من أبي؟» «بالعكس، كانت أسرتي مفتونة بريغوبيرتو.» لقد كانت تلك الحقة بورتانوية جداً ومرتعة بالأحكام المسبقة، أليس كذلك يا خالتي؟ أجل، بالتأكيد، ولكن لماذا هذا السؤال؟ لأن ماريا سوكوب لم تكن تعرف أي شيء عن الحياة؛ بل إنهم لم يكونوا قد علموها كيف يُصنع الأطفال، فكانت المسكينة تعتقد أن طيور اللقلق هي التي تأتي بهم من باريس. (لم تكن الخالة ساذجة إلى هذا الحد عندما تزوجت؟ لا، فدونيا لوكريثيا كانت تعرف كل ما تجب معرفته.) لقد كانت ماريا بريئة إلى حدّ لم تدرك معه أنها صارت حبلى، وخطر لها بأن السبب في توعكها هو التفاح الذي كان يفتتها. ولكن في هذا الكلام استباق للأمور. فلا بد من العودة قبل ذلك إلى رحلة العروسين. فهناك بدأ كل شيء.

— وما الذي حدث في شهر العسل ذاك؟

— لا شيء — قال الطفل وهو يعتدل في جلسته ليتمخط.

كانت عيناه منتفختين، ولكن الشحوب قد فارقه، وكان مندمجاً في الحكاية بجسده وروحه —. خافت ماريا. ولم تسمح في الأيام

الثلاثة الأولى للسيد أدولف أن يلمسها. وهكذا لم يتكرس الزواج. ما الذي يُضحكك يا خالتي.

— سماعك تتكلم مثل عجوز مسن، وأنت ما تزال شقفة الرجل الذي أنت عليه. لا تغضب، القصة تعجبنى كثيراً. حسن، في الأيام الثلاثة الأولى من الزواج، لم يحدث أي شيء بين أدولف وماريا. قال فونتشيتو مغموماً:

— ليس بالأمر المضحك. إنه جدير بالبكاء. لقد مضى شهر العسل في الحزن. ومن أجل تذكر رحلة الأبوين هذه، قام إيغون شيلي وأخته المفضلة جيرتي، بالرحلة نفسها في عام 1906. في ذلك الحزن، خلال شهر العسل، بدأت المأساة. لأن السيد أدولف حين رأى أن زوجته لا تسمح له بلمسها — كانت تبكي، وترفس، وتخدشه، وتثير ضجة هائلة كلما اقترب محاولاً تقبيلها —، صار يخرج إلى الشارع. إلى أين؟ ليعزي نفسه مع النساء السيئات. وفي واحد من تلك الأماكن، نقلت إليه فينوس عدوى الزُّهري. وبدأ هذا المرض يفتك به شيئاً فشيئاً منذ ذلك الحين. أفقده صوابه ونكب الأسرة كلها. وابتداءً من ذلك الوقت حلت اللعنة على آل شيلي. فقد نقل أدولف، دون أن يدري، العدوى إلى زوجته، حين استطاع تكريس الزواج، في اليوم الرابع. ولهذا السبب أجهضت ماريا أجنحتها الثلاثة الأولى؛ ولهذا السبب أيضاً ماتت إلفيرا، الابنة التي عاشت حوالي عشر سنوات. ولهذا السبب كان إيغون ضعيف البنية وعرضة للأمراض. حتى إنهم كانوا يعتقدون، في طفولته، أنه سيموت لكثرة ما يأخذونه إلى الأطباء. وانتهت دونيا لوكريثيا

إلى رؤيته: طفل متوحد، يلعب بلعبة قطارات صغيرة، يرسم، ويرسم طوال الوقت على دفاتره المدرسية، وعلى هوامش الكتاب المقدس، وحتى على أوراق يستخرجها من القمامة.
— أترى، أنت لا تشبهه في أي شيء. فقد كنت أفضل الأطفال صحة في الدنيا كما يقول ريغوبيرتو. وكنت تحب اللعب بالطائرات وليس بالقطارات.

— هل ستسمحين لي بأن أكمل أم أنك مللت؟
لم تمل، وكانت مستمتعة؛ ولكن ما كان يتمتعها أكثر من تقلمات الشخصيات النمساوية — هنغارية في أواخر القرن، هو التآثر الذي يتحدث به فوننتشيتو: متوتراً، محرّكاً عينيه وبديه، مع تبدلات ميلودرامية في نبرة صوته. الرهيب في هذا الداء هو أنه يأتي ببطء وهدوء؛ وأنه يشين ضحيته. وهذا هو السبب الذي جعل السيد أدولف ينكر دوماً إصابته بالمرض ولا يعترف بها. فحين كان أقرباؤه ينصحونه باستشارة طبيب، كان يعترض محتجاً: «إنني سليم أكثر من أي شخص». وكيف يكون كذلك. لقد بدأ عقله يخونه. كان إيغون يحبه، فقد كانت علاقتهما جيدة، وكان يتألم وهو يرى أن أحواله تسوء. كان السيد أدولف يجلس ليلعب الورق وكأن أصدقاءه قد جاؤوا للعب معه، ولكنه يكون وحيداً. يوزع الورق، ويتحدث معهم، ويقدم لهم السجائر، دون أن يكون هناك أحد حول منضدة البيت في توللن. وكانت ماري وميلان وجيرتي يحاولون جعله يرى الحقيقة، «ولكن، ليس هناك من نتحدث إليه، ولا وجود لمن يلعب معك، ألا ترى ذلك؟». فكان إيغون يتصدى لمعارضتهم: «ما

يقولونه غير صحيح يا أبي، لا تصدقهم، هاهم هنا أصدقاؤك: رئيس الحرس ومدير البريد وأستاذ المدرسة. أصدقاؤك معك يا أبي. أنا أيضاً أراهم مثلما تراهم». لم يكن يتقبل أن ما يظهر لأبيه هو رؤى. وفجأة يرتدي السيد أدولف زي المراسم، والقبعة ذات الواقية اللماعة، وجزمة كالمرأة، ويخرج ليقف بانتظام على رصيف المحطة. «ما الذي تفعله هنا يا أبي؟» «سأستقبل الإمبراطور والإمبراطورة يا بني». وكان قد صار مجنوناً. لم يعد بإمكانه مواصلة العمل في السكة الحديد، وكان لا بد من إحالته على التقاعد. وقد دفع الإحساس بالخجل آل شيلي إلى الانتقال من تولن إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد: انتقلوا إلى كلوسترنبيرغ. وهذا يعني بالألمانية: «قرية الدير الجديدة». ساءت أحوال السيد، ونسي الكلام. فكان يقضي الأيام في غرفته، دون أن يفتح فمه. كان يرى؟ كان يرى؟ وهيمن على فوننتشيتو فجأة اضطراب مغموم، ثم انفجر صارخاً:

— مثلما يحدث لأبي. فهو أيضاً يرجع من المكتب ويحبس نفسه ولا يتكلم مع أحد. حتى ولا معي. وحتى في أيام السبت والأحد يفعل الشيء نفسه؛ يبقى في غرفة مكتبه طوال النهار. وعندما أريد محادثته، لا يخرج عن قول «نعم»، «لا»، «طيب».

أَيكون مصاباً بالسفلس؟ أَيكون قد بدأ بالجنون؟ إذا كان كذلك فالسبب هو دون شك مثلما كان لدى السيد أدولف. لأنه ظل وحيداً حين تركته السيدة لوكريثيا. لقد ذهب إلى بيت مشبوه، ونقلت فينوس العدوى إليه. أنت لا تريدين أن يموت أبوه يا خالة!

انفجر بالبكاء من جديد، ولكن دون صخب هذه المرة، كان يبكي إلى الداخل، مغطياً وجهه، وقد تكلفت دونيا لوكريثيا مشقة أكبر من السابق في تهدئته. واسته: ما هذه الهذيان الحقاء يا عزيزي. ريغوبيرتو لا يعاني من أي مرض. وهو أرجح عقلاً منها ومن فوننتشيتو، بينما كانت تشعر بدموع ذلك الرأس الأشقر تبلل صدر ثوبها. وبعد كثير من التذليل، تمكنت من تهدئته. ريغوبيرتو يحب الانفراد مع لوحاته وكتبه، ومع دفاتره، ليقراً، وليسمع موسيقى، وليكتب مقاطعه المنتقاة وتأملاته. ألا يعرف فوننتشيتو ذلك؟ أولم يكن كذلك على الدوام؟

— لا، لم يكن كذلك دائماً — أنكر الطفل بقوة — كان يروي لي من قبل عن حياة الرسامين، وكان يشرح لي اللوحات. وكان يضحك معك، ويخرج، كان عادياً. ومنذ أن ذهبت، تغير. لقد صار كئيباً. لم يعد يهتم الآن حتى بالدرجات التي أحصل عليها في المدرسة، إنه يوقع على سجل درجاتي دون أن ينظر إليه. الشيء الوحيد الذي يهمله هو مكتبه. يحبس نفسه فيه، ساعات وساعات. سيصير مجنوناً مثل السيد أدولف. وربما صار كذلك بالفعل.

كان الطفل قد ألقى بذراعيه حول عنقها وأسند رأسه على كتف الخالة. وكانت تسمع من بستان الزيتون صرخات الصبيان وجريهم، كما في كل مساء، حين يتدفق تلاميذ الجوار، عند خروجهم من المدرسة، إلى الحديقة ليدخنوا في أركانها سيجارة بالخفاء عن آبائهم، وليلعبوا الكرة أو ليحبوا بنات الحي. لماذا لا يفعل فوننتشيتو مطلقاً هذه الأشياء؟

— أما زلت تحبين أبي يا خالتي؟ — عاد السؤال يتكرر مشحوناً بالخوف، كما لو أن الموت والحياة متعلقان بجوابها.

— لقد قلت لك يا فوننتشيتو. لم أتوقف عن حبه قط. ما سبب هذا السؤال الآن؟

— إنه بهذه الحال لأنه يفتقدك. لأنه يحبك يا خالتي، ولا يجد العزاء لأنك ما عدت تعيشين معنا.

— لقد حدث ما حدث — قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تناضل ضد استياء متنامٍ.

وألمح الطفل بخوف:

— لست تفكرين في الزواج مرة أخرى، أليس كذلك يا خالتي؟

— هذا آخر ما يمكن أن أفعله في حياتي، الزواج مرة أخرى. مستحيل المستحيلات. ثم إننا لم نتطلق أنا وريغوبيرتو، إننا منفصلين فقط.

فهتف فوننتشيتو بارتياح:

— يمكنكم أن تتصالحا إذن. من يتشاجرون يستطيعون التوصل إلى مصالحة. أنا أشاجر وأتصالح كل يوم مع أولاد المدرسة. سترجعين إلى البيت، وكذلك خوستيتا. سيعود كل شيء مثلما كان من قبل.

«ونشفي البابا من جنونه»، فكرت دونيا لوكريثيا. كانت غاضبة. ولم تعد تستظرف تخيلات فوننتشيتو. غضب أصم، مرير، حاقد، كان يطغى عليها كلما استعادت ذاكرتها الذكريات السيئة.

تأملته وجهاً لوجه، مستاءة من هاتين العينين الزرقاوين، المنتفختين، المحمرتين اللتين تواجهان بكل هذه البراعة نظراتها المشحونة بالتأنيب. أمن الممكن أن يكون معدوم الإحساس إلى هذا الحد؟ إنه لم يصل إلى سن المراهقة بعد. كيف يمكنه أن يتكلم عن القطيعة بينها وبين ريغوبيرتو وكأنها أمر غريب عنه، وكما لو أنه ليس هو نفسه السبب فيما حدث؟ أولم يكن هو من رتب كل شيء لجعل ريغوبيرتو يكتشف اللعبة كلها؟ لقد كان يقابلها ببراعة عذراء في وجهه الذي جرفته الدموع، وملامحه المرسومة بالريشة، وشفتيه الورديتين، ورموشه المعقوفة، وذقنه الصغيرة الثابتة.

قالت له دونيا لوكريثيا من بين أسنانها، وهي تحاول ألا يفيض سخطها متحولاً إلى انفجار:

— أنت تعرف خيراً من أي شخص آخر ما الذي حدث. أنت تعرف جيداً لماذا انفصلنا. لا تأت الآن متظاهراً بأنك الطفل الطيب، الحزين لهذا الانفصال. لقد كنت مذنباً بقدر ما أنا مذنبه، بل ربما أكثر مني.

فقاطعها فوننتشيتو:

— لهذا السبب بالذات يا خالتي . أنا تسببت في شجاركما، ولذا أنا مسؤول عن مصالحتكما. ولكن، عليك أن تساعدني. ستفعلين، أليس كذلك؟ قولي نعم يا خالتي.

لم تدر دونيا لوكريثيا بماذا ترد؛ كانت تريد صفعه وتقيله. أحست بخديها يسخنان. والأدهى أن هذا البارد فوننتشيتو، وفي تحول مفاجئ في مزاجه، بدأ يبدو الآن سعيداً. وها هو يطلق فجأة

قهقهة صاخبة.

— لقد احمر وجهك — قال وهو يطوقها بذراعيه من جديد
— الجواب إذاً هو نعم. إنني أحبك كثيراً يا خالتي!
وقالت خوستينيانا التي ظهرت في الممر:
— في البدء بكاء والآن ضحك. هل يمكنني أن أعرف ما
الذي يحدث هنا؟
فرحب بها الطفل:

— لدينا خبر عظيم. هل نخبرها يا خالتي؟
فقال دونيا لوكريثيا موارية استياءها:
— أنت من تراخت براغي دماغه وليس ريغوبيرتو.
— ستكون فينوس قد نقلت إليّ عدوى السفلس أيضاً —
قال فونتشيتو ساخراً وهو يقلب عينيه، ثم أضاف باللهجة نفسها
متوجهاً إلى الفتاة: — أبي وخالتي سيتصالحان يا خوستينا! ما
رأيك بهذا الخبر؟

مرافعة تشهير ضد الرياضي

أفهم أنك تمتطي لوح تزلج هاواي فوق أمواج الباسفيك
الهائجة في الصيف، وتنزلق في الشتاء متزلجاً على الجليد في
مدرجات التزلج ببورتيو التشيلية وباريلوتشي الأرجنتينية (ذلك أن
جبال الأنديز البيروية لا تتيح ممارسة مثل هذه النزوات الراقية)،

وأنت تتعرق كل صباح في صالة التمارين الرياضية ممارساً
الايروبك، أو تجري في مضمار ملعب رياضي أو في الحدائق
والشوارع وتحيط نفسك بمغطس حراري يغضن مؤخرتك وبطنك
مثلما كانت مشدات الخصر القديمة تخنق جدانتا، ولا تضيع مباراة
للفريق الوطني، ولا مباراة القمة بين فريق ألينتا ليما والفريق
الرياضي الجامعي، ولا بطولة الملاكمة على لقب أميركا الجنوبية،
وأميركا اللاتينية، والولايات المتحدة، وأوربا، أو بطولة العالم، وهي
مناسبات تتسمر فيها قبالة شاشة التلفزيون محتفلاً بالاستعراض
بجرعات من البيرة والكوباليري والويسكي مع الثلج، ترعق،
تحتقن، توعّوع، تومئ أو تغتم لانتصارات معبوديك وإخفاقاتهم،
مثلما يليق بالمشجع الجدير بهذا الاسم. إنها أسباب أكثر من وجبة
يا سيدي لكي تؤكد أسوأ شكوكي حول العالم الذي نعيش فيه،
ولكي أعتبر حضرتك بلا عقل، متعفن الصدر بالبراز، ومتخلفاً
ذهنياً. (وأنا أستخدم التعبيرين الأول والثالث على سبيل المجاز؛ أما
التعبير الأوسط فأستخدمه بمعناه الحرفي).

أجل، بالفعل، لقد نفذ الضوء إلى ذكائك الضامر: إنني أرى
في ممارسة الرياضة عموماً، وفي عبادة ممارسة الرياضة
بصورة خاصة، شكلاً من أشكال البلاهة التي تُقرب الكائن البشري
إلى الكبش، وإلى الإوزة والنملة، وهي ثلاث درجات مهينة في
مملكة الحيوان. اكبح حضرتك تلهفك لسحقي، واسمع، فسنحدث بعد
قليل عن الإغريق وعن العبارة المناقفة *mens sana in corpore*

sano.⁽¹⁾ ولكن عليّ قبل ذلك أن أقول لك إن الرياضات الوحيدة التي أستبدها من منصة التشهير هي رياضات الطاولة (مستثياً البنغ — بونغ) ورياضات الفراش (بما في ذلك الاستمناء بالطبع). أما الرياضات الأخرى، فقد حولتها الثقافة المعاصرة إلى عراقيل أمام انطلاق الروح والحساسية والمخيلة (وبالتالي المتعة). ولكنها تعرقل أولاً وقبل كل شيء الوعي والحرية الفردية. فليس هناك ما أسهم — حتى أكثر من الأيديولوجيات والأديان — في تشجيع مفهوم الإنسان — الجمهور المزري، وربوت الشروط الانعكاسية، وانبعثت ثقافة تشريف الوشم ولباس إخفاء العورة المتخفية وراء واجهة الحداثة، مثل تأليه التمارين والألعاب الرياضية في مجتمع أيامنا هذه.

والآن يمكننا أن نتحدث عن الإغريق، لكي لا تواصل إزعاجي بأفلاطون وأرسطو. ولكنني أنبهك مسبقاً إلى أن مشهد الشبان الأثينيين وهم يطلون أنفسهم بالمراهم في الجيمناسيوم قبل أن يقيسوا براعتهم الجسدية، أو وهم يرمون القرص أو الرمح تحت زرقه السماء الإيجية النقية، لن تكون لصالحك وإنما ستغرقك أكثر فأكثر في الخزي، يا مغفلاً مأخوذاً بالعضلات الصلبة على حساب وفرة التستوسترون⁽²⁾ واستلاب حاصل ذكائك. إن ضرب كرة القدم، أو لكلمات الملاكمة أو عجلات دراجات السباق والجنون الشيخوخي

(1) - العبارة باللاتينية في الأصل، ومعناها: العقل السليم في الجسم السليم.

(2) - التستوسترون Testosterona: هرمون تفرزه الخصية.

المبكر (هل نضيف تقلص القدرة الجنسية والسلس والعجز؟) التي يستثيرونها عادة، هي وحدها التي تفسر المزاعم القائلة بوجود خط استمرارية ما بين اتحاديين أفلاطون المطليين وهم يدهنون أجسادهم بأنواع الراتينج بعد عروضهم الجسدية الحسية والفلسفية، والعصابات الثملة التي ترمجر على مدرجات الاستادات الحديثة (قبل أن تحرقها) في مباريات كرة القدم المعاصرة، حيث يتراكم اثنان وعشرون مهرجاً منزوعي التقرد بالزي الموحد الملون، في المستطيل العشبي وراء كرة، ليكونوا مبرراً لاستعراض الجنون الجماعي.

الرياضة في زمن أفلاطون كانت وسيلة، ولم تكن غاية، مثلما تحولت في هذه الأزمنة البلدية من الحياة. كانت تفيد في إغناء متعة البشر (الذكور منهم، لأن النساء لم يكن يمارسها)، وتنشيطها وإطالة أمدتها بتقديم جسد بديع، مشدود، بلا شحوم، متناسب ومنتاسق، وتحريضها برياضة عضلية جمالية ما قبل إپروتيكية عبر حركات، وأوضاع، واحتكاكات، وعروض جسدية، وتمارين، ورقصات، وملامسات تؤجج الشهوات إلى أن تقذف المشاركين والمشاهدين إلى حمى الاتصال. والقول بأن أولئك الرياضيين كانوا شاذين جنسياً لا يضيف ولا ينتقص ولو فاصلة واحدة من براهيني، مثلما لا يؤثر في ذلك كون الداعي، في مجال الجنس، سويّاً إلى حد الملل ولا أحب سوى النساء — وبالأحرى امرأة واحدة فقط —، وليست لدي أي قابلية للواطئة السلبية أو الإيجابية. وارجو أن تفهمني، فأنا لا أرمي بأي حال إلى معارضة جماعات الغاي. بل

أرجو لهم قضاء أوقات ممتعة وأدعمهم في حملتهم ضد القوانين التي تتضمن تمييزاً ضدهم. ولا يمكنني أن أرافقهم إلى ما هو أبعد من ذلك لأسباب عملية. فليس هناك ما يجتذبي في «عين فتحة الشرج» الكيفية. ذلك أن الطبيعة، أو الرب إذا كان له وجود ويضيع وقته في هذه الأمور، جعلت من هذه العين السرية الفتحة الأشد حساسية بين كل الثقوب التي منحتني إياها. فالتحميلة تجرحها وأنبوب الحقنة الشرجية يدميها (لقد أدخلوه لي مرة، في فترة الإمساك اللجوج، وكانت النتيجة مريعة) بحيث أن فكرة وجود بشر يمتعهم إيلاج قضيب ذكري هناك يُشعرنني بتقدير مرعب لهم. وأنا واثق، بالنسبة إليّ، أنه إضافة إلى الصراخ والزعاق، سأعاني صدمة نفسية إذا ما أدخل عضو ذكري في المستقيم الحساس المذكور، حتى ولو كان ذلك العضو هو قضيب قزم. وعملية الإيلاج الوحيدة التي عانيتُها في حياتي قام بها طبيب، لم يخبرني بذلك وتذرع بأنه يريد التأكد مما إذا كان لدي التهاب في الزائدة الدودية، فجرب على شخصي تعذيباً مستتراً تحت يافطة علمية تسمى «الملامسة الشرجية». ومع ذلك، فإنني أؤيد — نظرياً — أن يمارس البشرُ الحبَّ على الوجه والقفاء، على انفراد أو بصورة ثنائية أو في تواطؤ جماعي مختلط (إحمام)، أو أن يجامع الرجل رجالاً والنساء نساءً، وكلاهما مع البط، أو الكلاب، أو البطيخ، أو الموز، أو الشمام وكل القذارات التي تخطر على البال ما داموا يفعلون ذلك بالتوافق المشترك وبحثاً عن اللذة، وليس عن التنازل، هذا الحدث الذي ينتج عن الجنس ويجب الصبر عليه كشر صغير لا

بد منه، دون تقديسه بأي حال من الأحوال باعتباره تبريراً للاحتفال الجسدي (هذه الحماقة التي تدعو إليها الكنيسة تغيظني جداً مثل مباراة بكرة السلة). أعود إلى الإمساك بالخيط الضائع، وأقول إنني اهتز متأثراً بصورة الشيوخ الهيلينيين، والفلاسفة الحكماء، والمشرعين الجليلين، والجنرالات المجربين، أو مجرد الكهنة وهم يذهبون إلى الملاعب الرياضية لتنشيط شبقتهم بروية الشباب رماة القرص، والمصارعين، والماراثونيين أو رماة الرمح. ذلك النوع من الرياضة، المتعبّد للشهوة، أتسامح معه ولا أتردد في ممارسته، إذا ما سمحت لي بذلك صحتي، وسني، والوقت المتاح، وألا أكون مضحكاً.

هناك حالة أخرى، وهي أكثر بعداً عن وسطنا الثقافي (لست أدري لماذا أضمك إلى هذه الأخوية، خصوصاً وأنك قد استبعدت منها بقوة ركلات وضربات الرأس الكروية، أو العرق الدراجي أو خبطات الأرض الكراتية) حيث للرياضة بعض الانضباط أيضاً. حين يتجاوز الكائن البشري، وهو يمارسها، شرطه الحيواني ويلمس ما هو مقدس، ويسمو إلى مستوى كثيف الروحانية. وإذا كنت تسعى إلى أن نستخدم كلمة «صوفية»، فليكن. هذه الحالات كما هو واضح، صارت نادرة جداً، ومن بين أكثرها إثارة ذكرى مصارع السومو الياباني الأضحية، فهو يُعلف منذ طفولته بحساء خضري شرس يحوله إلى فيل ويحكم عليه بالموت بتمزق القلب قبل بلوغ الأربعين، ويقضاء حياته محاولاً ألا يتمكن جبل لحمي آخر مثله من إخراجة خارج دائرة الحلبة السحرية الصغيرة التي تتحدد فيها حياته، وهؤلاء لا سبيل

إلى تشبيههم بمعبودي التفاهة الذين يطلق عليهم مجتمع ما بعد التصنيع اسم «شهداء الرياضة». فأين هي البطولة في التحول إلى عسيمة وراء مقود نيزك ذي محركات تقوم بالعمل بدل الإنسان، أو في الارتداد من كائن مفكر إلى ضعيف العقل في الدماغ ومقدام في الخصيتين يمنع أو يسجل أهدافاً بالقطعة، لكي تقوم حشود معتوهة بتفريغ شحنتها الجنسية في استمناءات جماعية لكل هدف يُسجل؟ إن التمارين والمنافسات الجسدية المسماة رياضية في هذه الأيام، لا تقرب الإنسان المعاصر مما هو مقدس وديني، وإنما تبعده عن الروح وتجعله همجياً وتشبع أشد غرائزه انحطاطاً: الميل القبلي، والمازوشية، وإرادة الهيمنة، وتحلل الأنا الفردية في جماعية غير واضحة المعالم.

لست أعرف كذبة أكثر خسة من تلك العبارة التي تُلقن للأطفال: «العقل السليم في الجسم السليم». ومن قال إن العقل السليم هو النموذج المنشود؟ «سليم» تعني في هذه الحالة أبله، عادي، دون مخيلة ودون خبث، مختوم بخاتم الأخلاق السائدة والديانة الرسمية. أهذا عقل «سليم»؟ إنه عقل متوافق مع السائد، عقل طوباوي، عقل كاتب بالعدل، عقل موظف تأمين، عقل صبي الكنيسة، عقل عذراء وعقل صبي في الكشافة. وهذا ليس صحة، إنه خواء. فالحياة العقلية الغنية والخاصة تتطلب فضولاً، خبثاً، مخيلة، ورغبات غير مشبعة، وهذا يعني أنه عقل «قدر»، أفكار خبيثة، ازدهار تصورات محرمة، رغبات تقود إلى استكشاف المجهول وتجديد ما هو معروف، استخفاف منهجي بالأفكار الموروثة والمعارف المتداولة

والقيم الرائجة.

ومع ذلك، ليس صحيحاً كذلك أن ممارسة الرياضة في عصرنا تخلق عقولاً سليمة بالمعنى المبتدل للكلمة. فما يحدث هو العكس، وأنت تعرف هذا أكثر من الجميع، لأنك من أجل أن تكسب سباق المئة متر في يوم الأحد لا تتورع عن دس الزرنيخ والسيانور في حساء منافسك، وتبتلع كل أنواع المنشطات النباتية والكيميائية أو السحرية التي تضمن لك الفوز، وترشو الحكام أو تبتزهم، وتدبر مكاييد طبية أو قانونية لتفقد خصومك أهليتهم، وتعيش اختلالاً عصبياً من أجل تثبيت الفوز، والرقم القياسي، والميدالية، والمنصة، وهو أمر جعل منك أيها الرياضي المحترف، بهيمة توقيتية، عدواً للمجتمع، عصبياً، هستيرياً، مضطرب العقل، في القطب النقيض لهذا الكائن الأنيس، الكريم، الغيري، «السليم»، الذي يحاول الإشارة إليه ذلك الأحمق الذي مازال يتجرأ على استخدام عبارة «روح رياضية» بمعنى الرياضي النبيل المعبأ بالفضائل التحضرية، في حين أن من يتوارى خلفها هو قاتل كامن مستعد لإبادة الحكام، وسحق كل متعصي الفريق الآخر، وتدمير الاستادات والمدن التي تؤويهم، وإحداث القيامة، ليس على الأقل من أجل الهدف السامي الذي قاد الشاعر نيرون إلى إحراق روما، وإنما لمجرد أن ينال ناديه كأساً من فضة مزيفة أو من أجل أن يرى معبوديه الأحد عشر يصعدون إلى منصة، مزدهين بصورة مضحكة بسرراويلهم وقمصانهم المخططة، أيديهم على صدورهم وعيونهم مبهورة. يغنون نشيداً وطنياً!

الأخوان الكورسيكيان

في المساء الأخن لهذا الأحد الشتوي، وفي مكتبه قبالة السماء الغائمة والبحر الرمادي الجردني، جمع دون ريغوبيرتو دفاتره بحنين بعد أفكار كانت تلهب مخيلته. الفكرة الأولى التي التقى بها كانت للشاعر فيليب لاركين، *Sex is too good to share with anyone else*⁽¹⁾، وقد ذكرته بنسخ تشكيلية كثيرة للشاب نرسييس يتلذذ بصورته المنعكسة في ماء البئر، وبهرمافروديت المستلقي في اللوفر. ولكن هذه الذكرى سببت له الغم دون أي تفسير. كان قد توافق في مرات أخرى مع هذه الفلسفة التي تضع على كاهليه وحده مسؤولية لذته. أهي فلسفة صحيحة؟ وهل كانت صحيحة يوماً؟ الحقيقة أن وحدته، حتى في أشد لحظاتها نقاء، كانت مكاشفة، وموعداً لم تتخلف عنه لوكريثيا قط. وجاء تيقظ الهمة الضعيف هذا لينعش الأمل في نفسه: إنها لن تتخلف هذه المرة أيضاً. فنظرية لاركين تأتي مضبوطة مثل خاتم على إصبع القديس (وهذه صفحة أخرى من الدفتر) الذي يتحدث عنه ليتون ستراشي في كتابه **انتصارات باهرة**، القديس كوبيرتو الذي كان يرتاب كثيراً بالنساء، حتى إنه عندما يتحدث إليهن، بمن في ذلك القديسة المستقبلية إيبيا، كان يقضي «الساعات التالية في العتمة، مصلياً

(1) - بالانكليزية في الأصل: الجنس أذ من أن يتقاسمه المرء مع أحد.

وغطاساً في الماء حتى الرقبة». كم من الإصابات بالزكام والنزلات الصدرية من أجل إيمان يحكم على المؤمن بلذة الوحدة اللاركينية.

مرّ كما فوق الجمر على صفحات يتذكر فيها أثورين «نزوة تأتي من نعجة». وتوقف مبهوراً عند الوصف الذي يعرضه الدبلوماسي ألفونسو ديلا سيرنا لسمفونية الوداعات لهايدن، «حيث ما إن ينهي كل موسيقي مقطوعته، حتى يطفئ الشمعة التي تضيء نونته وينصرف، إلى أن يبقى كمان منفرد يعزف لحنه النهائي المتوحد الكئيب». أليست مصادفة؟ ألا يتوافق كمان هايدن المنفرد بصورة سحرية، مثل مكاشفة من النوع السري، مع المتلذذ الأناني فيليب لاركين الذي كان يرى أن الجنس مهم إلى حد لا يمكن معه تقاسمه مع أحد؟

ومع ذلك، ومع أنه هو نفسه يضع الجنس في المكانة العليا، إلا أنه قد تقاسمه على الدوام، حتى في أشد مراحل توحده قسوة: وهي هذه المرحلة بالذات. وأوردت الذاكرة إلى ذهنه، دون مبرر أو سبب، الممثل دوغلاس فيربانكس مدبلجاً في فيلم أرق طفولته: «الأخوان الكورسيكيان». إنه لم يتقاسم الجنس قط بالطبع مع أحد بالطريقة الجوهرية التي يتقاسمه بها مع لوكريثيا. وقد تقاسمه كذلك في طفولته ومراهقته وبلوغه مع أخيه الكورسيكي، أنسميه نرسييس؟ الذي كانت علاقته به حسنة على الدوام، بالرغم من اختلافه الشديد في الروح. وبالرغم من أن تلك الألعاب وذلك المزاح اللاذع الذي كان يدبره ويستمتع به الأخوان لا ينتمي إلى

المعنى التهكمي الذي يستخدم به الشاعر — المكتبي لفظة تقاسم. وفيما دون ريغوبيرتو يتصفح ويتصفح دفاتره وقع في تاجر البندقية على:

*The man that hath music in himself
Nor is not moved with concord of sweet sounds,
Is fit for treasons, stratagms, and spoils*

(الفصل الخامس، المشهد الأول)

«الرجل الذي لا يحمل موسيقى في نفسه/ ولا يفعل بصفيرة الأصوات العذبة/ يكون ميالاً إلى الكيد، والغش والخيانة»، ترجم الأبيات ترجمة حرة. وفكر في أن نرسيس لم يكن يحمل أي موسيقى في داخله، لقد كان مغلق الجسد والروح حيال سحر ميلبومين⁽¹⁾، وغير قادر على تمييز سمفونية الوداعات لهايدن من المامبو رقم 5 لبيريث برادو. هل كان شكسبير محقاً وهو يُشرع أن هذا الصمم عن أكثر الفنون تجريداً يجعل من المرء قوة كامنة في الخبث والخداع والاحتيال؟ حسن، ربما كان ذلك صحيحاً. فرنسيس اللطيف لم يكن قدوة تحتذى في الفضائل المدنية أو الخاصة أو اللاهوتية، وسيصل إلى سن الشيخوخة وهو يتبجح، مثل الأسقف هارولدو (لمن كان هذا الاستشهاد؟ الإشارة إلى صاحبها مطموسة بسبب رطوبة ليما أو بسبب جهد العث)، الذي كان يفاخر وهو على

(1) - ميلبومين Melpomene: إحدى ربات الموسيقى والشعر عند الإغريق.

فراش الموت بأنه مارس كل الرذائل الكبرى بمثابة لا تقل عن انتظام نبضه أو انتظام قرع أجراس مطرانيته. ولو لم يكن نرسيس على هذا القدر من الفظاظة الخلقية لما تجرأ في تلك الليلة أن يقترح على أخيه الكورسيكي ذلك التبادل الجريء — وأحس دون ريغوبيرتو في قرارة نفسه باستيقاظ تلك الموسيقى الشكسبيرية التي يظن أنه يحملها في داخله —. وارتسمت أمام عينيه صورة لوكرينثيا وإيلسي، زوجة نرسيس الشقراء، وهما تجلسان في ليلة المغامرة إحداهما إلى جانب الأخرى، في تلك الصالة في بيت حي بلانيشي المترعة بالابتذال والتجديف المثير لحفيظة جمعيات حماية الحيوان بما يبرز فيها من رؤوس نمور وجواميس يوفالو ودببة ووعول وغزلان محنطة. لقد كان شاعر المسرح على حق: فالصمم عن الموسيقى هو أحد أعراض (ألا يكون هو السبب؟) خسة الروح. لا، لا يمكن التعميم؛ وإلا توجب ضم خورخي لويس بورخيس وأندريه بریتون بسبب انعدام حساسيتهما الموسيقية، ليكونا يهوذا وقابيل، في الوقت الذي كانا فيه معروفين كما هو معروف، لدى كتّاب، بأنهما شخصان طيبان جداً.

لم يكن أخوه نرسيس شيطاناً، وإنما مغامر وحسب. وهو مزود بمهارة شيطانية ليحصل من ميوله السارحة وفضوله نحو ما هو محظور وسري وغريب، على مكسب اقتصادي. ولكن، بسبب كونه مدعياً وميالاً إلى المفاخرة الكاذبة، فإنه لم يكن من السهل معرفة ما هو الصحيح وما هو الخيالي في مغامراته التي يسحر بها مستمعيه، في الموعد (المشؤوم) لحفلات العشاء الرسمية، وحفلات

الزفاف أو حفلات الكوكتيل، وهي المسرح المناسب لمآثره الحكائية الكبرى. فدون ريغوبيرتو لم يصدق تماماً مثلاً الادعاء بأن جزءاً كبيراً من ثروته قد جمعه من بلدان آسيا المزدهرة التي كان يُهرَّب إليها قرون خرائيت، وخصى نمور، وأعضاء ذكورية لعجول البحر والفقمات (جنسا الحيوانات الأولان يأتيان من أفريقيا، والأخيران من ألاسكا وغروينلاند وكندا). فهذه الأشياء يُدفع ثمنها ذهباً في تايلند وهونغ كونغ وتايوان وكوريا وسنغافورة واليابان وماليزيا وحتى في الصين الشيوعية، ذلك أن العارفين يعتبرونها مقوية للقدرة الجنسية وعلاجاً أكيداً للعجز. وفي تلك الليلة بالذات، بينما كان الأخوان الكورسيكيان وزوجتا الأخوين، إيلسي ولوكريثيا، يتناولون المقبلات قبل العشاء في ذلك المطعم على الشاطئ الأخضر. أمتعهم نرسييس بقصة غير معقولة عن المقويات الجنسية كان هو نفسه بطلها وضحيتها، في العربية السعودية، حيث أقسم — مع تفاصيل جغرافية وأسماء عربية تتضمن الكثير من الخاءات للتأكيد — بأنه كان على وشك أن يُقطع رأسه في الساحة العامة في الرياض بعد اكتشاف أمره وهو يُهرَّب حقيبة من حبوب الكابتاغون، أي (هيدروكليرات الفينسلين) للحفاظ على القدرة الجنسية لعبد العزيز أبو أميد الذي أحست زوجاته الأربع الشرعيات ومحظياته الثماني والثمانون بأنه مرهق بعض الشيء. وكان يدفع له ثمن تلك المقويات ذهباً.

وتساءلت إيلسي مقاطعة حكاية زوجها في اللحظة التي كان يمثل فيها أمام محكمة علماء معتمدين:

— وهذه اليوبيمينا؟ هل مفعولها هذا الذي يتحدثون عنه، يؤثر على كل الأشخاص؟

ودون أن يضيع الوقت، بدأ أخوه — وتذكر دون ريغوبيرتو دون أدنى قدر من الحسد، بأنه بعد أن كان من غير الممكن التمييز بينهما في سن الطفولة ومطلع الشباب، بدأ سن البلوغ يفرق بينهما، والآن صارت أذنا نرسيس تبدو طبيعيتين بالمقارنة مع الأذنين الجناحيّتين الاستعراضيتين اللتين تزيناها هو، ويبدو أنفه مستقيماً ومتواضعاً إذا ما قيس بمخطم أو خرطوم الدب آكل النمل الذي يشم به هو الحياة — الكلام في محاضرة تعليمية مطولة حول اليوهيمينا (وتسمى يوبيمينا في البيرو بسبب ميول الكسل الفونوتية لدى الوطنيين الذين يكلفهم نطق الهاء الحلقية جهداً فموياً أكبر من الباء). واستمرت خطبة نرسيس طوال فترة تناول المقبلات — الرجال تناولوا نبيذ بيسكو والسيدات نبيذاً أبيض مثلاً —، وواصل الكلام طوال تناول وجبة الرز مع البحريرات وخبز الكيك مع المانخاريلانكو، فكان له بالنسبة إليه المفعول المُدغدغ للهفة ما قبل الجنسية. في هذه اللحظة، بنزوة من نزوات القدر، أمدّه الدفتر بالإشارة الشكسبيرية إلى أن حجارة الفيروز الكريمة تبدل لونها لكي تنبه من يحملها إلى خطرٍ وشيكٍ (تاجر البندقية مرة أخرى). هل يتكلم أخوه بجد، وهل تراه يعرف أم أنه يختلق هذا العلم بهدف خلق الجو النفسي واللامبالاة المناسبة لهدفه الذي سيعلنه فيما بعد؟ لم يسأله عن ذلك ولن يسأله، فما أهمية كل ذلك بعد أن وصل الحال إلى ما هو عليه؟

انفجر دون ريغوبيرتو في الضحك وكانت رمادية المساء قد بدأت بالخمود. لقد كان المونسنيور تاستي دي فاليري يتبجح في هامش هذه الصفحة: «الحماقة ليست من خصالي». يا لسعادته؛ لأن دون ريغوبيرتو كان قد أمضى في شركة التأمين ربع قرن وهو محاط، وغارق، ومختنق بالحماقة، إلى أن تحول إلى متخصص فيها. هل كان نرسييس مجرد أحمق؟ مجرد واحد آخر من هذه البروتوبلازما الليمية (نسبة إلى مدينة ليما) التي تسمى نفسها الناس المحترمين؟ أجل. ولكن هذا لا يمنعه من أن يكون مسلماً حين ينوي ذلك. مثلما هو في هذه الليلة مثلاً. فما هو ذا الممل العظيم، بوجهه الحليق جيداً وسحنته البرونزية من التبطل، يوضح الخصائص القلوية لنبته، تسمى أيضاً يوهيمبينا، ذات أصل نبيل في التقاليد العشبية والطب الطبيعي. فهي تزيد من توسع الأوعية الدموية وتنشط العقد التي تتحكم بالنسيج الانتصابي، وتحد من السيروتونين الذي يؤدي زيادته المفرطة إلى خمود الرغبة الجنسية. كان صوته الدافئ كغاوٍ عريق، وإيماءاته، تتوافق مع سترته الفضفاضة الزرقاء، وقيمه الرمادي ومنديل الحرير القاتم ذي النقط البيضاء المعقود حول عنقه. كان عرضه المترافق بابتسامات، يبقى عند الحد الخبيث ما بين الإخبار والتلميح، ما بين الطرفة والمخيلة، ما بين الحكمة والنكته، ما بين الإمتاع والإثارة. وانتبه دون ريغوبيرتو فجأة إلى أن عيني إيلسي الخضراوين وعيني لوكريثيا الياقوتيتين كانت تتلألأ. هل تمكن أخوه الكورسيكي عميق المعرفة من استشارة السيدتين؟ إذا حكمنا من خلال ضحكاتهما، وتعليقاتهما المازحة،

وأسألتهما، ومقاطعة كل منهما ساقبها ثم مبادعتهما من جديد، والسعادة التي تفرغان بها كؤوس النبيذ التشيلي كونتشا أي تورو، فيمكننا أن نقول نعم، لقد استثارهما. ولماذا لا تجربان هما أيضاً استرخاء اللذة مثله؟ أكان لدى نرسييس، في هذا الوقت من الليل، خطة جاهزة؟ بالطبع، لقد كانت لديه، قرر ريغويرتو ذلك بحسم.

ولهذا السبب كان يتحكم بالحديث ببراعة، فلا يترك لهم مجالاً للتنفس ولا يسمح بتحول المحادثة عن الاتجاه الميكافيلي الذي خطه هو نفسه. فمن الحديث عن اليوبيمينا انتقل إلى الفوغو الياباني، هذا السائل الخُصويّ الذي يفرزه نوع من الأسماك الصغيرة، وهو فضلاً عن أنه مقوٍ جنسي عظيم، فإنه سم يمكن أن يؤدي إلى الموت الزؤام — ويموت بهذه الطريقة مئات الشبقين اليابانيين كل عام —، ثم تحدث عن العرق البارد الذي سال منه حين جربه، في تلك الليلة المضيئة في كيوتو، على يد فتاة جيشا كانت ترتدي كيمونو شفافاً، ودون أن يعرف إذا ما كانت تنتظره بعد تلك اللقيمات العقدية حشرات الموت أم المئة ارتعاشة لذة جنسية الموعودة (وكان ما أصابه هو الاحتمال الثاني، ولكن الرقم انخفض إلى الصفر). وكانت إيلسي، المنحوتة الشقراء، والمضيئة السابقة في لوفتهانزا، والوالكيريا⁽¹⁾ المحلية تحتفل بقصص زوجها دون غيرة ذات أثر رجعي. وكانت هي التي اقترحت (هل كانت ضمن المخطط أيضاً)، بعد الحلوى الدقيقة، أن

(1) - الوالكيريا Walkiria أو Walquiria : جماعة من النساء اللواتي لهن صفات الألوهة في الميثولوجيا الاسكندنافية. وهن رسل الحقد والضعينة.

ينهوا الليلة في تناول كأس في بيتهما في بلانيثي. وقال دون ريغوبيرتو «فكرة جيدة»، دون أن يفكر ملياً في الاقتراح، إذ انتقلت إليه عدوى الحماس الذي تلقّت به لوكريثيا الفكرة.

بعد نصف ساعة من ذلك كانوا يجلسون على المقاعد الوثيرة في صالون التحف المبتذلة المرعب في بيت نرسييس وإيلسي — ابتذال بيروي وتنظيم بروسي — محاطين بحيوانات محنطة تتفحصهم بنبات بعيونها الزجاجية المتجمدة وهم يشربون الويسكي، مستحمين بضوء غير مباشر، ومستمعين إلى ألحان لئات كينغ كول وفرانك سيناترا، متأملين من خلال الزجاج الحديقة وبورسلان المسبح المضاء. وواصل نرسييس نشر ثقافته حول المقويات الجنسية بالسهولة نفسها التي كان ريشاردي العظيم — وتهد دون ريغوبيرتو وهو يتذكر سيرك الطفولة — يسحب بها المناديل من قبعته. فقد كان يهز رأسه ليخلط علمه بكل شيء مع الغرابة مؤكداً أن كل رجل في جنوبي إيطاليا يستهلك خلال حياته طناً من الحبق لأن التقاليد هناك تؤكد أن لهذه العشبة العطرة تأثيراً، فضلاً عن الطعم الطيب الذي تُكسبه للمعكرونة، على حجم القضييب، وأنهم في الهند يبيعون في الأسواق مرهماً — كان هو يهديه لأصدقائه الذين يبلغون الخمسين من عمرهم — مركباً من الثوم وغمص القروء، إذا ما دُهن في المكان المحدد، يؤدي إلى انتصابات متتالية، مثل العطس التحسسي. وأثقل عليهم بالإمعان في فضائل الصدف البحري، والكرفس، والجنسنغ الكوري، وحشيشة المحمودية، وعرق السوس، وحساء دقيق الذرة، والكمأة،

والكافيار، جاعلاً دون ريغوبيرتو يرتاب، بعد أن استمع إليه أكثر من ثلاث ساعات، بأن جميع المنتجات الحيوانية والنباتية في العالم إنما صُمتت من أجل إرضاء هذا الاضطراب في الأجسام الذي يسمى الحب الجسدي، الجماع، الخطيئة، والذي يوليه البشر (وهو ليس ضمنهم) اهتماماً كبيراً.

في هذه اللحظة انفرد به نرسييس بعيداً عن المرأتين، ممسكاً به من ذراعه، بحجة أنه سيريه آخر قطعة في مجموعته من عصي العكاكيز (وأي شيء آخر يمكن لهذا البهيمة المتخصص بعبادة الذكر، هذا القضيب المتجول، أن يجمعه سوى العصي إضافة إلى الوحوش المحنطة؟). كانت خمرة البيسكو، والنيبذ والكونياك قد أدت مفعولها. وبدلاً من أن يمشي، كان دون ريغوبيرتو يُبحر باتجاه مكتب نرسييس، وكانت تقبع على الرفوف بالطبع، وهي جاهلة، مجلدات الموسوعة البريطانية، والتقاليد البيروية لريكاردو بالما وقصة الحضارة للزوجين ديورانت، إضافة إلى رواية جيب لستيفن كينغ. ودون أي مقدمات، سأله في أذنه وهو يخفض صوته إذا ما كان يتذكر تلك الحيل الماكرة النائبة مع الفتيات في صالة سينما ليورو. أي حيل؟ ولكن قبل أن يجيب أخوه على السؤال، انتبه إلى الأمر. إنها المبادلات! محامي الشركة يطلق عليها اسم «خدعة استبدال الهوية». لقد كانا يستغلان التشابه بينهما ويزيدان منه بملابس وتسريحات متماثلة، ويتظاهر كل منهما بأنه الآخر. وهكذا يقبل أحدهما ويداعب — «البرنامج»، كما كانوا يسمون ذلك في الحي — محبوبة الآخر طوال الفيلم.

فابتسم دون ريغوبيرتو مستسلماً للحنين:
— يا لتلك الأزمان يا أخي.

وتذكر نرسييس:

— أنت كنت تظن أنهم كن يخطئ بنا ولا ينتبهن. ولم أستطع
أن أفنحك مطلقاً بأنهن يفعلن ذلك لأن اللعبة تروقهن.
فأكد دون ريغوبيرتو:

— لا، لم يكن ينتبهن. وإلا لما تركونا نفعل ذلك مطلقاً.
فأخلاق ذلك الزمن لم تكن تسمح بهذه الأشياء. هل كانت لوثيريتو
وتشيننشياً مثلما تقول أنت؟ لقد كانتا رسميتين جداً، تذهبان إلى
القداس وإلى المشاركة في الكنيسة بانتظام... مستحيل! وإلا لكانتا
شكثانا إلى أبويهما.
أنبه نرسييس:

— لديك مفهوم ملائكي جداً عن النساء.

— هذا ما تظنه أنت. كل ما في الأمر هو أنني متكتم،
ولست متك. ولكن، كل لحظة لا أستغلها في كسب ما يوفر لي
الأكل، أستثمرها في اللذة.

(وأهداه الدفتر في هذه اللحظة استشهاداً مناسباً من بورخيس:
«واجب كل الأشياء أن تكون سعادة؛ وما لم تكن سعادة فإنها غير
نافعة وضارة». وخطرت لدون ريغوبيرتو حاشية مازوشية: «وماذا
إذا وضعنا نساء بدل أشياء؟».)

— لن تعيش إلا حياة واحدة يا أخي. ولن تكون لديك فرصة
أخرى.

واستغرق دون ريغوبيرتو في الحلم:

— بعد تلك العروض السينمائية المسائية، كنا نهرع إلى قطاع هواتيكا، إلى مبنى الفرنسيات. لقد كانت أزمئة دون إيدز، أزمئة مغامرات غير مزعجة، ومغامرة لطيفة بين حين وآخر.
فأكد نرسييس:

— لم تتقض بعد. وها هن هنا. نحن لم نمت ولن نموت. هذا قرار لا رجعة عنه.

كانت عيناه تتوقدان وكان في صوته لزوجة. وأدرك دون ريغوبيرتو أن كل ما يسمعه ليس مرتجلاً؛ وأنه وراء هذه الذكريات الخبيثة ثمة مؤامرة. فسأل بفضول:

— أتعني أنك قد أعددت أمراً؟

— أنت تعرف ما أعنيه جيداً يا أخي الكورسيكي — ثم قرّب الذئب الضاري فمه من أذن دون ريغوبيرتو المجنحة. ودون أي مقدمات أخرى، عرض عليه الاقتراح: — المبادلة. مرة أخرى. ألا تعجبك إيلسي؟ أنا تعجبني لوكريثيا كثيراً. مثلما كنا نفعل مع لوثيريتو وتشينتشيا. وهل هناك غيرة بيني وبينك؟ فلنستعد الشباب يا أخي!

إنها وحدة يوم أحد، وقلب دون ريغوبيرتو أخذ يتسرّع. أهي المفاجأة، أم الانفعال، أم الفضول، أم الإثارة؟ ومثلما حدث في تلك الليلة، أحس بضرورة قتل نرسييس.

— لقد صرنا مسنين وأصبحنا مختلفين كثيراً بحيث لا يمكن لامراتينا أن تخطئنا بنا. — صاغ العبارة وهو ثمل بالبليلة.

فرد نرسييس وهو واثق من نفسه:

— لا حاجة لأن تخطئنا. إنهما امرأتان حديثتان، لا تحتاجان إلى حجة. أنا سأتولى كل شيء أيها المتهتك.

«من مستحيل المستحيلات أن ألعب لعبة التبادل وأنا في هذه السن»، فكر دون ريغوبيرتو بذلك دون أن يفتح فمه. والسكر الذي أطل قبل لحظة كان قد تلاشى. اللعنة! صحيح أن نرسييس هذا رجل قوي. كان قد أمسك به من ذراعه وعاد به مسرعاً إلى صالون الوحوش المحنطة، حيث كانت إيلسي ولوكريثيا، في حميمية النميمة، تجهزان على صديقة مشتركة تركها منشط جديد مفتوحة العينين إلى الأبد (أو على الأقل حتى القبر أو محرقة الجثث). وأعلن أنه قد حان الوقت لفتح زجاجة شمبانيا دوم بيرونيا وهي احتياطي خاص يحتفظ به للمناسبات الاستثنائية.

بعد دقائق من ذلك سمعوا صوت القذيفة الرغوية وراح الأربعة يتبادلون الأنخاب من شراب الآلهة ذاك. الفقاعات التي كانت تنزل في حلق دون ريغوبيرتو تساقطت في روحه مشاركة في الكلام المبتذل الذي احتكر به أخوه الكورسيكي الليلة كلها: هل تبل نرسييس هذه الشمبانيا التي يشربونها بأحد تلك المقويات الجنسية الكثيرة التي يقول إنه خبير بها وبتهريبها؟ لأن ضحك لوكريثيا وإيلسي وتراخيها قد ازداد، مترافقاً مع مزيد من الجرأة، وحتى إنه هو نفسه، وبعد أن كان يشعر قبل خمس دقائق بالشلل والبليبة والخوف والغضب من الاقتراح — مع أنه لم يتجرأ على رفضه — بدأ ينظر إليه الآن بقدر أقل من السخط، وعلى أنه واحد من

تلك الإغراءات التي كانت تدفعه في شبابه الكاثوليكي إلى اقتراف خطايا، ثم يعمد إلى وصفها وهو نادم في عتمة حجرة الاعتراف. ومن خلال سحب دخان — أكان أخوه هو الذي يدخن؟ — وما بين الأنياب الضارية لأسد أمازوني رأى تقاطع ساقي زوجة أخيه الطويلتين البيضاوين المنتوفتين وبروزهما على السجادة المنقطة كجلد نمر في صالة — حديقة الحيوان — المأتمية. وقد تبدت الاستثارة في حكة شعر بها في أعلى بطنه. ورأى كذلك ركبتها المستديرتين والصقيلتين، من ذلك النمط الذي يطلق عليه التغزل الفرنسي *polies* ، تعلنان عن أعماق متماسكة، ورطوبة دون ريب، تحت ثانيا هذه التتورة ذات اللون الصرصاري. اجتاحت الرغبة من أعلى إلى أسفل. وفكر مذهولاً من نفسه: «ولماذا لا، بعد كل هذا؟». كان نرسيس قد دعا لوكرينثيا إلى الرقص، وقد بدأ يتمايلان ببطء متلاصقين إلى جانب الجدار المزين بقرون غزلان ورؤوس دببة. وجاءت الغيرة لتتبل أفكاره (لا لتبدلها أو تدمرها) بطعم حامض حلو. فانحنى دون تردد، وأخذ الكأس التي تحملها إليسي في يدها، فأبعدها وشدها إليه: «أنرقص يا زوجة أخي؟». وكان أخوه قد وضع بالطبع متوالية من ألحان البوليرو للرقص الملتصق.

أحس بوخزة في القلب حين رأى من خلال شعر زوجة أخيه، أن أخاه الكورسيكي ولوكرينثيا يرقصان وخداهما متلاصقان، بينما هو يطوق خصرها وهي تطوق عنقه. منذ متى هذه الثقة؟ خلال عشر سنوات من حياته الزوجية لا يذكر أنه حدث شيء مماثل. أجل، لا بد أن نرسيس الخبيث قد أضاف شيئاً إلى الشراب. وبينما

هو سارح في التكهّنات، راحت ذراعها اليمنى تقرّب جسد زوجة أخيه من جسده. وعندما أحس بملامسة فخذيها لفخذيها وبأن البطنين قد تلامسا، قال دون ريغوبيرتو لنفسه، ولكن ليس دون قلق، إنه لم يعد بإمكان أحد أو أي شيء أن يمنع الانتصاب الآتي. وقد أتى بالفعل، في اللحظة التي أحس فيها بخد إيلسي على خده. وكان لانتهاه الموسيقى عليه تأثير أشبه بتأثير قرع الجرس في مباراة ملاكمة قاسية. «شكراً يا بونجيلا الجميلة»، وقبل يد زوجة أخيه. ثم تقدم متعثراً برؤوس ضواريّ محشوة بمعجون المرمر أو عجينة الورق، إلى حيث كانت لوكريثيا ونرسييس ينفصلان أحدهما عن الآخر — باستياء؟ دون رغبة؟ — ثم احتضن زوجته بين ذراعيه ودمدم بجفاء: «أتسمحين لي بهذه الرقصة يا زوجتي؟». اقتادها إلى الركن الأشد عتمة في الصالة. ورأى بطرف عينه أن نرسييس وإيلسي قد تعانقا ليرقصا معاً، وأنهما بدأا يتبادلان القبلات في حركة متوافقة.

حين شد بقوة جسد زوجته المسترخي بصورة مريبة، عاد الانتصاب يتجدد؛ فالتصق الآن دون تكلف بهذا الجسد المعروف، وبينما الشفتان على الشفتين، همس لها:

— أتعرفين ما الذي عرضه علي نرسييس؟

— يمكنني أن أتصور ذلك — ردت لوكريثيا بطبيعية أربكته بالقدر الذي أربكه سماعها تستخدم لفظة لم يكونا يحبان سماعها في حميمية حياتهما الزوجية — أيريدك أن تضرب أنت إيلسي، بينما يضربني هو؟

أحس برغبة في إلحاق الأذى بها. ولكنه بدل أن يفعل ذلك قبلها، متأثراً بإحدى نوبات التدفق العاطفي التي كانت تدهامة فيستسلم لها. وبعد أن تجاوز تلك الحال، وأحس أنه صار قادراً على البكاء، همس لها بأنه يحبها، وأنه يشتهيها، وأنه لن يستطيع مطلقاً إيفاءها الشكر على السعادة التي يدين بها إليها. قال بصوت عالٍ: «أجل، أجل، أحبك بكل أحلامي يا لوكريثيا.» رمادية يوم الأحد البارانكي كانت قد خفت، وعزلة مكتبه كانت قد همدت. وأحس دون ريغوبيرتو بدمعة تنزلق على خديه وتلطح فقرة انتهازية من الفاليري (فاليرينا وفاليري، يا للزوجين السعيدين) مونسنيور تيسني: *Tout ce qui m'était facile m'était indifférent et presque ennemi.*⁽¹⁾

وقبل أن يهيمن عليه الحزن ويغرقه تماماً الشعور الدافئ الذي انتابه قبل لحظة في الكآبة الأكالمة، بذل مجهوداً وهو يغمض عينيه ويركز انتباهه حتى رجع إلى صالة الوحوش المحنطة تلك، في تلك الليلة التي زادها الدخان كثافة — هل الذي يدخن هو نرسييس، أم إليسي؟—، والاختلاطات الخطرة، الشمبانيا، الكونياك، الويسكي، الموسيقى وجو الاسترخاء الذي يحيط بهم، بعد أن لم يعودوا منقسمين إلى ثنائيين مستقرين محددتين، مثلما كانوا في بداية الليل، قبل أن يذهبوا للعشاء في مطعم الشاطئ الأخضر، وإنما ثنائيان مختلطان غير ثابتين ينفصلان ويتحدان بخفة تتناسب مع هذا الجو الهلامي، المتبدل مثل صور الكاليدوسكوب. هل أطفؤوا النور؟ منذ بعض

(1) - بالفرنسية في الأصل: كل ما كان سهلاً عليّ كان عديم الأهمية ومعادياً لي تقريباً.

الوقت. ومن سوى نرسييس. صالة الوحوش الميتة كانت مضاعة بنور خافت يأتي من أضواء المسبح، ولا يسمح إلا برؤية أشباح، ظلال، طيف أشياء بلا هوية. أخوه الكورسيكي يرتب جيداً كمانته. كان جسد دون ريغوبيرتو وروحه قد انفصلا أحدهما عن الآخر؛ فبينما الروح تهيم محاولة أن تتقصى إذا ما كانت اللعبة التي اقترحها نرسييس ستصل إلى نهايتها المرسومة، كان جسده قد بدأ اللعب بتردد غير متوازن وانعناق. من يداعبُ في هذه اللحظة بينما هو يتظاهر بأنه يرقص بالإحساس الغامض الذي تسكته الموسيقى ثم تجده بين حين وآخر؟ أهي لوكريثيا أم إيلسي؟ لم يشأ معرفة ذلك. أي إحساس لطيف بهذا الشكل الأنثوي الملتحم به، والذي يشعر بعذوبة نهديه من خلال القميص، وهذا العنق الصقيل الذي تعضه شفتاه ببطء، متقدمتين نحو أذن بدأ طرف لسانه باستكشافها بشرافة. لا، هذا الغضروف، هذه العظيمة ليست للوكريثيا. رفع رأسه وحاول أن يخترق غلالة العنمة باتجاه الركن الذي ظن أنه رأى نرسييس يرقص فيه قبل لحظة.

— لقد صعدا منذ بعض الوقت — دوى صوت إيلسي في مسمعه مبهماً ومملاً. بل واستطاع أن يلمس فيه نغمة ساخرة.
— أين؟ — سأل بحماقة، وأحس على الفور بالخجل من حماقته.

فردت إيلسي بضحكة خبيثة ومزاج ألماني:
— أين برأيك؟ لرؤية القمر؟ للتبول؟ إلى أين تظنهما صعدا يا صهري اللطيف؟
— القمر لا يظهر مطلقاً في ليما — تلعثم دون ريغوبيرتو

وهو يفلت إيلسي ويبتعد عنها — والشمس لا تكاد تظهر إلا قليلاً
في الصيف. بسبب الضباب اللعين.
وأعادته إيلسي إلى آلة التعذيب دون أن تتيح له النقاط أنفاسه،
متكلمة وكأنها لا علاقة لها بالمسألة:

— منذ زمن بعيد ونرسييس يرغب في لوكري. لا نقل لي
إنك لم تلاحظ ذلك، فأنت لست مغفلاً إلى هذا الحد.
انقشعت السكره، وكذلك التهيج. وبدأ يتعرق، صامتاً، مذهولاً،
وكان يتساءل كيف أمكن للوكريثيا أن تستجيب بمثل هذه السهولة
لآلية أخيه الكورسيكي، عندما هزه ثانية صوت إيلسي الحريري
الناعم:

— هل تشعر بقليل من الغيرة يا ريغو؟
— أجل — قال معترفاً، ثم أضاف بصراحة أكبر: — في
الحقيقة أنني أشعر بغيرة كبيرة.
فقالت هي وكأنها تتحدث عن تفاهة أخرى في أثناء لعب
البريدج:

— وأنا أيضاً كنت أشعر بالغيرة في البداية. ولكنك ستعتاد
وسيصبح الأمر كما لو أنك ترى سقوط المطر.
فقال مشوشاً:

— حسن، حسن. أي أنك، أنت ونرسييس تمارسان لعبة التبادل
كثيراً؟

— مرة كل ثلاثة أشهر — ردت إيلسي بدقة بروسية —
ليس كثيراً. نرسييس يقول إن هذه المغامرات يجب أن تمارس في

فترات متباعدة، حتى لا تفقد جاذبيتها. لأنها إذا ابتذلت بكثرة لا تبقى لها متعة.

وفكر: «سيكون قد عراها. سيكون قد ضمها بين ذراعيه.»
أتكون لوكريثيا قد قبلته وداعبته أيضاً، بالجشع نفسه الذي يفعل به أخوه الكورسيكي ذلك؟ كان يرتجف مثل ممسوس سان فيتو حين عاد يسمع صوت إيلسي، مثل شحنة كهربائية، يسأله:
— أترغب في رؤيتهما؟

كانت قد قربت وجهها منه لتكلمه. فكان شعر زوجة أخيه الأشقر الطويل يدخل في فمه وعينيه.
تلعثم بذهول:

— أنتكلمين بجد؟

— هل ترغب في ذلك؟ — أأحنت وهي تبلل أذنه بشفتيها.
— أجل، أجل — قال موافقاً. وكان يشعر كما لو أنه يتحرر من عظامه ويتبخر.

أمسكته من يده اليمنى وأمرته: «بيطء، بصمت». جعلته يطفو باتجاه السلم الحلزوني الذي يصعد إلى غرف النوم. وقد كان مظلماً، ومثله الممر الأوسط الذي يصل إليه مع ذلك انعكاس أنوار الحديقة. وكان الموكيت يمتص وقع خطواتها وهما يتقدمان على رؤوس أصابعهما. أحس دون ريغوبيرتو بقلبه يتسرع. ماذا ينتظره؟ ماذا سيرى؟ توقفت زوجة أخيه وأصدرت له أمراً آخر في أذنه: «اخلع حذاءك»، في الوقت الذي كانت تتحني فيه لتخلع حذاءها أيضاً. انصاع لها دون ريغوبيرتو. أحس بأنه مضحك، ولص صغير، دون

حذاء وبالجورب، في هذا الممر المظلم، تقوده إيلسي من يده وكأنه فونتشيتو. «لا تُحدث ضجة، ستدمر كل شيء»، قالت له ذلك بخفوت. فhez رأسه موافقاً مثل رجل آلي. عاودت إيلسي التقدم، وفتحت الباب، وتركته يتقدمها. كانا في غرفة النوم، يفصلهما عن الفراش نصف جدار من الآجر يسمح من خلال فتحات فيه لها شكل المعين برؤية السرير. وكان سريراً فسيحاً ومسرحياً. في مخروط الضوء النازل من المصباح المثبت في السقف الأملس، رأى أخاه الكورسيكي ولوكري منصهرين، يتحركان بإيقاع واحد. وكان يصل إليه لهاتهما الخافت المتحاور.

أشارت له إيلسي:

— يمكنك الجلوس. هنا على الأريكة.

وترك نفسه يفعل ذلك. تراجع خطوة، وهوى إلى جوار زوجة أخيه على ما يجب أن يكون أريكة طويلة ممتلئة بالوسائد، موضوعة بطريقة تتيح لمن يجلس عليها ألا يفقد أدنى تفصيل من المشهد. ما معنى هذا؟ وأُفَلتت ضحكةً من دون ريغوبيرتو: «أخي الكورسيكي أكثر ميلاً إلى المبالغة في التفاصيل مما كنت أتصور». وكان فمه قد جف.

كان يبدو وكأن ذلك الثنائي قد مارس الحب طوال الحياة، بسبب الوضع البارع والتلاحم التام. لم يكن التحام الجسدين ينفصل مطلقاً في أي موقع؛ ففي كل وضع جديد تبدو الساق، المرفق، الكتف، الورك وكأنها تلتحم بصورة أفضل من السابق، وفي كل لحظة يعتمر كل منهما لذته من الآخر بعمق أشد. هناك كانت الأشكال

الجميلة الممتلئة، والشعر المتموج الكهرماني لحبيبتة، والمؤخرة المرتفعة التي تدفع إلى التفكير في رابية باسلة تتحدى هجوم البحر الهائج. ثم قال: «لا». من الأفضل القول إنها تدفع إلى التفكير في المؤخرة البديعة للصورة الضوئية الباهرة الصلاة لمان راي (1930). بحث في دفاتره، وخلال دقائق قليلة كان يتأمل الصورة. انقبض قلبه وهو يتذكر المرات التي اتخذت فيها لوكريثيا هذا الوضع من أجله في لقاءاتهما الليلية الحميمة، جالسة على كعبيها، ويدها تمسكان فلفتي مؤخرتها. ولم تشذ عن المقارنة أيضاً الصورة الأخرى لمان راي التي عرضها عليه الدفتر بجوار الصورة السابقة، فالظهر الموسيقي — كيكي دي مونبارناس (1925) كان يبدو بالضبط مثلما تعرضه لوكريثيا في هذه اللحظة بالذات وهي تميل وتتقلب. الليونة العميقة لإليتيها أغرقته للحظات في الغيبوبة، وبدا ذاهباً. ولكن الذراعين المكسوتين بالشعر اللتين تحيطان ذلك الجسد، والساقين اللتين تمسكان بدينك الفخذين وتفتحاهما ليست ذراعيه ولا ساقيه، ولا الوجه أيضاً — لم يتوصل إلى تمييز ملامح نرسييس — الذي كان يزرع الآن ظهر لوكريثيا، ويتفحصه ميلماً بعد آخر، وفمه المفتوح قليلاً، متردد أين يحط وماذا يُقبّل. ومرت في ذهن دون ريغوبيرتو المشوش صورة الثنائي البهلواني في السيرك، ثنائي «النسرين البشريين» اللذين يطيران ويلتقيان في الفضاء — وكانا يقدمان فقرتهما دون شبكة — بعد شقلابات خطيرة على ارتفاع عشرة أمتار عن الأرض. هكذا كانت لوكريثيا ونرسييس في براعتهما، وتكاملهما، وتوافق أحدهما مع الآخر. وغمره شعور ثلاثي

(التقدير، والحسد، والغيرة) وتدحرجت الدموع العاطفية مجدداً على خديه. ولاحظ أن يد إيلسي ترتاد سرواله باحتراف. وسمع أنها تقول، دون أن تُخفض صوتها:

— ما هذا، لا شيء يستثيرك.

ولمح دون ريغوبيرتو حركة مباغثة، هناك في السرير. لقد سمعها بالطبع؛ ولم يعد بإمكانها مواصلة التظاهر بأنهما لا يعرفان أن هناك من يتلصص عليهما. بقيا جامدين؛ انقلب بروفيل دونيا لوكريثيا نحو الجدار ذي الفتحات الذي يحميها، ولكن نرسييس عاد يقبلها ويقبلها نحوه في الصراع الغرامي.

وهمس دون ريغوبيرتو:

— متأسف يا إيلسي. إنني أخيب أملك، يا للأسف. المسألة هي أنني، أنني.. كيف أقول لك ذلك، أنني أو من بأحادية الزواج. لا يمكنني ممارسة الحب إلا مع زوجتي.

— إنك كذلك بالطبع — ضحكت إيلسي بعطف وبقوة إلى حد هرب معه وجه دونيا لوكريثيا المشعث، هناك في الضوء، من معانقة أخيه الكورسيكي، ورأى دون ريغوبيرتو عينيها الكبيرتين مفتوحتين على اتساعهما تتظران مرتعبتين إلى حيث يجلس هو وإيلسي التي تابعت قائلة: — إنك مثل أخيك الكورسيكي إذن. فنرسييس لا يحب ممارسة الحب إلا معي. ولكنه يحتاج إلى مقبلات، مشهيات، مقدمات. إنه ليس بسيطاً مثلك.

عادت تضحك من جديد، وأحس دون ريغوبيرتو بأنها تبتعد عنه وأنها تقدم له بشعرها الناعم حركة ملاطفة كذلك التي تقدمها

المعلمات إلى الأطفال حسني السلوك. لم يصدق عينيه. متى تعرت إيلسي؟ وما هي هناك، رياضية، عارية من رأسها حتى قدميها، تشق الظلام باتجاه السرير مثلما كانت الوالكيرات من أسلافها القديمات يخترقن الغابات وهن يعتمرن خوذاً ذات قرنين، ليصطنع الدب والنمر والرجل. في هذه اللحظة بالذات ابتعد نرسييس عن لوكريثيا، وانزلق إلى منتصف السرير ليترك مجالاً — وكان وجهه يكشف عن سعادة لا توصف — وفتح ذراعيه ليلتقاها وهو يطلق زمجرة إعجاب بهيمية. وهناك كانت الآن، لوكريثيا المخدولة والمنبوذة، تنسحب نحو الجانب الآخر من السرير، وهي مدركة تماماً أنها صارت منذ الآن فائضة عن الحاجة هناك، وكانت تتلفت إلى اليمين وإلى اليسار بحثاً عن يوضح لها ما يتوجب عليها عمله. أحس دون ريغوبيرتو بالشفقة. واستدعاها دون أن ينطق بكلمة. ورآها تنهض عن السرير على رؤوس أصابعها، كي لا ترزعج الزوجين السعيدين؛ وتبحث عن ملابسها على الأرض؛ وتغطي جسدها قليلاً وتتقدم إلى حيث ينتظرها هو بذراعين مفتوحتين. وتكومت على صدره نابضة. وسمعتها تقول له:

— هل تفهم شيئاً يا ريغوبيرتو؟

فأجابها وهو يحتضنها:

— أفهم أنني أحبك فقط. لم أرك قط أجمل مما أنت عليه الآن.

تعالى، تعالى.

— يا للأخوين الكورسيكيين! — سمع الوالكيريا تضحك،

هناك بعيداً، بخلفية زنخرة وحشية من خنزير بري ومن أبواق

فاغنية⁽¹⁾.

آربيا⁽²⁾ شقراء ومجنحة

أين أنت؟ في صالة الحيوانات الخرافية في متحف الباروك النمساوي، في بيلفيدير السفلى بفيينا. ماذا تفعلين هناك؟ تدرسين بتمعن إحدى مخلوقات جوناس درينتويت التي تمنح الخيال والمجد لكلماته.

أي مخلوق منها؟ الذي يمد عنقه الطويل جداً لكي يُبرز صدره بصورة أفضل ويُظهر الثدي الجميل اللجوج ذا البرعم المحمر الذي كانت جميع كائنات الرسوم المتحركة ستأتي لتمتصه لو لم تكوني قد احتفظت به لنفسك.

لأجل مَنْ؟ لأجل حبيبك عن بعد، باني هويتك، الرسام الذي يفككك ويركبك على هواه، مؤرّقك الحالم بك.

ماذا عليك أن تفعلي؟ التعلّم من هذا المخلوق ذي الذاكرة ومنافسته في تكتم مخدعك، بانتظار الليلة التي سأتيك فيها. ولا يقنطنك علمك بأنك دون ذيل، ودون مخالب طير جارح، وغير معتادة على المشي على أربع. لأنك إذا كنت تحيينني حقاً، فسيكون

(1) - فاغنية: نسبة إلى ريكارد فاغندر الذي وضع دراما موسيقية من ثلاثة فصول

بعنوان الوالكيريا مستوحاة من اسطورة الوالكيريا الاسكندنافية.

(2) - آربيا: Arpia: طائر خرافي له وجه امرأة وجسد طير جارح.

لك ذيل، ومخالب، وستتوقفين عن أن تكوني لوكريثيا ساكنة بستان الزيتون لتصبحي الخرافية، وتكوني لوكريثيا آربيا الشقراء والمجنحة، لوكريثيا الآتية إلى حبي ورغبتني من الأساطير والخرافات اليونانية (مع وقفة في المنمنمات الرومانية التي استنسخك منها جوناك درينتوت).

هل صرت مثلها؟ هل تراجعت المؤخرة، وشمخ الصدر، وانتصب الوجه؟ أتشعرين ببروز الذيل الهري، وبنمو جناحك الرمحيين بلون الخدود المتوردة؟ ما زال ينقصك الإكليل على جبهتك، وعقد الزبرجد، وحزام الذهب والأحجار الكريمة حيث يستريح منتصفك، ستأتيك عربون محبة واحترام ممن يحبك أكثر من كل الكائنات الواقعية أو غير الموجودة
المغرم بالآربيات.



V. فوننشيتو والطفلات

مسحت دونيا لوكريثيا عينيها الباسمتين مرة أخرى، لتكسب مزيداً من الوقت. لم تكن تتجرأ على سؤال فوننشيتو عما إذا كان صحيحاً ما روته لها تيتي باريغا. لقد أوشكت أن تفعل ذلك مرتين

ولكنها تخاذلت في المرتين.

— ما الذي يُضحك هكذا يا خالتي؟ — أراد الطفل المأخوذ أن يعرف. لأنه منذ وصوله إلى بيت بستان الزيتون في سان إيسيدرو، لم تفعل السيدة لوكريثيا شيئاً سوى إطلاق هذه القهقهات الصاخبة وهي تأكله بعينها.

تورد خدا دونيا لوكريثيا خجلاً:

— إنه أمر روته لي إحدى صديقاتي. وأنا خجلة حتى الموت من توجيه السؤال إليك، ولكنني أموت رغبة أيضاً لمعرفة إذا ما كان ذلك صحيحاً.

— لا بد أنها إحدى أقاويل أبي، لا شك في ذلك.

وحسنت دونيا لوكريثيا أمرها:

— سأخبرك، مع أنه أمر بذيء جداً. ولكن فضولي أقوى من

حسن تهذيبي.

المسألة، حسب ما قالت لها تيتي، وقد كان زوجها هناك وأخبرها بذلك وهو بين المرح والسخط، أن الأمر حدث في أثناء اجتماع يجري كل شهرين أو ثلاثة أشهر في مكتب دون ريغوبيرتو. لقاء رجال فقط. خمسة أو ستة أصدقاء منذ أيام الشباب، زملاء من أيام المدرسة، أو الجامعة أو الحي، يحافظون على هذه اللقاءات لمجرد الروتين، ودون حماس، ولكنهم لا يتجرؤون على تحطيم هذه الطقوس، ربما بسبب الشكوك الخرافية بأنه إذا ما تخلف أحدهم عن الموعد، فإن سوء الطالع سينصب على المنشق وعلى الجماعة كلها. وقد واصلوا اللقاء بالرغم من أنهم، مثل دون ريغوبيرتو، لم يعودوا

يشعرون بمتعة من هذه اللقاءات كل شهرين أو ثلاثة أشهر، حيث يشربون الكونياك، ويأكلون فطائر الجبن ويستعرضون أسماء الموتى والوضع السياسي الراهن. وتذكر دونيا لوكريثيا بأن دون ريغوبيرتو كان يشعر بألم في الرأس بعد تلك الاجتماعات ويضطر إلى تناول بضع قطرات من الفالريانا. وقد حدث في الاجتماع الأخير، في الأسبوع السابق، أن أولئك الأصدقاء — وهم خمسينيون أو ستينيون، بعضهم على عتبة التقاعد — رأوا فونتشيتو يصل بشعره الأشقر المشعث. وفوجئت عيناه الزرقاوان الكبيرتان برؤيتهم هناك. والفوضى التي كان يرتدي بها زيه المدرسي أضافت لمسة من الحرية إلى هيئته الجميلة. ابتسم له الرجال، ومساء الخير يا فونتشيتو، كم كبرت، كم أصبحت طويلاً.

عاتبه دون ريغوبيرتو وهو يتنحنح:

— ألا تسلم؟

ورد صوت ابن زوجها البلوري:

— بلى، بالطبع. ولكن أرجوك يا أبي، إذا كان أصدقاؤك

سيداعبونني تحبباً، فأرجو ألا يفعلوا ذلك بلمس طوطي.

وانفجرت السيدة لوكريثيا في القهقهة الخامسة هذا المساء.

— هل قلت لهم هذه الفضاة يا فونتشيتو؟

فهز الطفل كتفيه دون أن يولي الأمر كبير اهتمام:

— إنهم يلمسونني دائماً بحجة مداعبتي. لست أحب أن يلمسني

أحد هناك حتى ولو على سبيل اللعب، لأنني أشعر بلسعة بعد ذلك.

وعندما أشعر بأي لسعة أبقى أحك إلى أن أحدث قروحاً.

كانت دونيا لوكريثيا تنتقل من الضحك إلى الدهول ثم إلى الضحك من جديد:

— كان الأمر صحيحاً إذن، لقد قلت لهم ذلك. لا يمكن لصديقتي تيتي بالطبع أن تختلق مثل هذه الحكاية. وماذا عن ريغوبيرتو؟ ماذا كان رد فعله؟

قال فونتشيتو:

— ألهبني بنظراته وأمرني بالذهاب لكتابة واجباتي في غرفتي. وبعد ذلك، عندما انصرفوا، أنبني على هواه، وحرمني من مصروف يوم الأحد.

صاحت السيدة لوكريثيا بسخط مفاجئ:

— يا لهؤلاء المسنين طويلي الأيدي. يا لقلّة الحياء. لو أنني رأيتهم يوماً لطردتهم ركلاً إلى الشارع. وهل بقي أبوك ساكناً بعد أن عرف ذلك؟ ولكن، أقسم لي قبل ذلك. أكان ما قلته صحيحاً؟ هل كانوا يلمسون مؤخرتك؟ أليست هذه واحدة أخرى من الافتراءات الملتوية التي تخطر لك؟

— طبعاً كانوا يلمسونني هنا — وأشار الطفل بصفعة على إلبته، ثم أضاف: — مثلما يفعل رهبان المدرسة. لماذا يفعلون ذلك يا خالتي؟ ما الذي يوجد في طوطي حتى يريد الجميع لمسها؟

تفحصته السيدة لوكريثيا محاولة التأكد من أنه لا يكذب. ثم صرخت أخيراً وهي ما تزال متشككة:

— إذا كان هذا صحيحاً فهم جماعة من عديمي الحياء، من المسيئين للصغار. أفي المدرسة أيضاً؟ ألم تخبر ريغوبيرتو بذلك

كي يذهب ويثير فضيحة هناك؟

أبدى الطفل ملامح الملائكية:

— لا أريد أن أسبب مزيداً من القلق لأبي. وخصوصاً الآن،
وأنا أراه حزيناً جداً.

خففت دونيا لوكريثيا رأسها مشوشة. إن هذا الطفل معلم في قول أشياء تُشعرها بالكدر. حسن، إذا كان ما يقوله صحيحاً، فمن المستحسن تلقين هؤلاء الباردين درساً. زوج تيتي باريغا أخبرها بأنه بقي هو وأصدقائه منتييسين لا يتجرؤون على النظر إلى ريغوبيرتو لوقت طويل. وبعد ذلك، تبادلوا بعض المزاح، وإن بقيت وجوههم متجهمة. ولكن يكفي حديثاً في هذا الموضوع على أي حال. وانتقلت إلى أمر آخر. فسألت فونتشييتو عن أحواله في المدرسة، وعما إذا كان لا يتضرر من مغادرة معهد الرسم قبل انتهاء الدروس، وإذا ما كان قد ذهب إلى السينما، إلى كرة القدم، إلى حفلة ما. ولكن خوستينيانا التي دخلت حاملة الشاي والبسكويت، عادت إلى الموضوع. فقد كانت قد سمعت كل شيء وراحت تبدي رأيها، بأقصى ما يمكن من الهذر. فهي متأكدة من أنه يكذب: «لا تصدقيه يا سيدتي. إنها لعبة شيطانية أخرى من ألعاب هذا الشقي، يريد بها أن يخرج أولئك السادة أمام دون ريغوبيرتو. ألا تعرفينه؟». «إذا لم يكن بسكويتك لذيذاً فسوف أغضب منك يا خوستيتا.» أحست دونيا لوكريثيا بأنها قد تهورت، فباستسلامها للفضول المرضي، ربما تكون قد أيقظت الوحش الضاري — فلا أحد يعرف متى يحدث ذلك مع فونتشييتو — وبالفعل، فبينما كانت خوستينيانا تجمع الفناجين والأطباق، نزل عليها

سؤال الطفل مثل طعنة:

— لماذا يُعجب المسنون إلى هذا الحد بالأطفال يا خالتي؟
انسلت خوستينيانا هاربة وهي تطلق دويًا من حنجرتها أو من معدتها لا يمكن له أن يكون سوى ضحكة مكتومة. بحثت دونيا لوكرينثيا عن عيني فونتشيتو. ووجدتهما هادئتين، وراء شرارة نائمة أو نوايا خبيثة. لا. إنهما أقرب إلى سطوع سماء صافية.

— الجميع يحبون الأطفال — قالت مناققة —. من الطبيعي أن يلين المرء معهم. فهم صغار، حساسون، وشديدو الظرف أحياناً. أحست أنها حمقاء، وأنها تتلمس بجزع سبيل الهروب من العينين الساكنتين الصافيتين المسطتين عليها.

وقال فونتشيتو موافقاً:

— إيغون شيلي أيضاً كان يحبهم كثيراً. ففي فيينا، في بدايات القرن، كان هناك الكثير من الطفلات المتشردات، ممن يعيشن في الشوارع. وكن يطلبن الصدقات في الكنائس وفي المقاهي.
— مثلما هو الحال في ليما — قالت ذلك دون أن تعرف ما الذي تقوله. وغمرها مرة أخرى الإحساس بأنها ناموسة تتجذب، رغم جهودها، نحو مزرد عنكبوت.

وواصل فونتشيتو دون تراجع:

— وكان يخرج إلى حديقة شونبون، حيث توجد الكثيرات منهن. فبدأذهن إلى مرسمه. ويقدم لهن الطعام ويعطيهن النقود. والسيد بارس فون غوتيرلاش، الصديق الذي رسمه شيلي، الآن سأريك صورته، يقول إنه كان يجد في مرسمه على الدوام طفلتين

أو ثلاث من طفلات الشوارع. يقمن هناك على نفقته. ينمن ويلعبن
بينما شيلي يرسم. أتظنين أن هناك ما هو سيئ في هذا؟
— إذا كان يقدم لهن الطعام ويساعدهن، فكيف سيكون سيئاً.
فأضاف الطفل:

— ولكنه كان يعريهن ويرسمهن وهن في أوضاع —
وفكرت دونيا لوكريثيا: «لم يعد لي مهرّب» —. هل كان سيئاً أن
يفعل شيلي ذلك.

— حسن — ابتلعت الخالة اللعاب —، يخيل إليّ أن لا.
فالفنان يحتاج إلى موديلات. لماذا نسمح بأن يتعفن تفكيرنا؟ ألم يكن
ديغاس يحب أن يرسم الفأرات، الراقصات الصغيرات في أوبرا
باريس؟ حسن، إيغون شيلي أيضاً كان يستمد الإلهام من الطفلات.
— لماذا أدخلوه السجن إذن بتهمة اختطاف قاصر؟ ولماذا
أجبر على أن يحرق لوحة بذريعة أن الأطفال يرون في رسمه
أشياء فظة؟

هدأت هي حين رأت أنه أخذ يهتاج:

— لست أدري لماذا، فأنا لا أعرف أي شيء عن شيلي يا
فونتشيتو. أنت من يعرف كل شيء عنه. الفنانون أناس معقدون،
فليشرح لك أبوك هذا الأمر. وليس من واجب الفنانين أن يكونوا
قديسين. يجب عدم النظر إليهم على أنهم ملائكة أو شياطين. المهم
أعمالهم وليس حيواتهم. فما بقي من شيلي هو كيف رسم أولئك
الصغيرات، وليس ما كان يفعله معهن.
وأنهى فونتشيتو القصة:

— كان يجعلهن يلبسن تلك الجوارب التي تروقه كثيراً. ويستلقين على الأريكة، على الأرض. مجتمعات أو كل اثنتين على حدة. وعندئذ كان يصعد سلماً لينظر إليهن من أعلى. وفيما هو هناك، في الأعلى، يرسم اسكتشاً في دفاتره التي نُشرت فيما بعد. أبي يملك هذا الكتاب. ولكنه بالألمانية. أنا أستطيع رؤية الصور فقط، ولا أستطيع قراءة الكتاب.

— هل كان يصعد على سلم؟ هكذا كان يرسمهن؟

ها أنتِ في شبكة العنكبوت يا لوكريثيا. دوماً يتوصل إلى ذلك هذا الصبي. لم تعد تحاول الآن إبعاده عن الموضوع؛ بل كانت تجاربه، وقد علقت. إنها الحقيقة الخالصة يا خالتي. كان يقول إن حلمه هو التحول إلى طير جارح. وأن يرسم العالم من أعلى، أن يراه مثلما يراه كندور أو نسر. ولاحظي جيداً أن ذلك هو الحقيقة الخالصة. شأنت لك ذلك الآن حالاً. قفز للبحث في حقيبته المدرسية وبعد لحظة كانا يجلسان القرفصاء — هي على الأريكة كالعادة، وهو على الأرض — يقلبان صفحات كتاب جديد وضخم يضم صوراً لأعمال إيغون شيلي، وضعه على ركبتي الخالة. أيعرف فوننشيتو حقاً كل هذه الأشياء عن الرسام؟ كم منها صحيح؟ ولماذا أصابه هذا الهوس بشيلي؟ أهي أمور يسمعها من ريغوبيرتو؟ سيكون هذا الرسام هو آخر هوس متسلط على عقل زوجها السابق؟ ولكن الأدلة لا تنقص الطفل على أي حال. فهؤلاء الفتيات المستلقيات، وهؤلاء العشاق المتشابكون، وهذه المدن الشبحية، دون بشر ولا حيوانات ولا سيارات. ببيوتها المتراكمة كما لو أنها

متجمدة على ضفاف أنهار قاحلة، تبدو مرئية من أعلى، بعيني طائر ينقض عليها من عل بنظرة شاملة وغير رحيمة. أجل، إنه منظور طائر جارح. وابتسم لها وجه الملاك: «ألم أقل لك ذلك يا خالتي؟». فهزت رأسها موافقة بامتعاض. فوراء هذه الملامح الملائكية الطيبة، وراء هذه البراءة للوحة إعجازية، يعشش ذكاء ثاقب، ونضج مبكر، وسيكولوجية متقلبة مثل سيكولوجية ريغوبيرتو. وفي هذه اللحظة وعت ما تعرضه الصفحة. فاشتعلت مثل شعلة. لقد ترك فوننتشيتو الكتاب مفتوحاً على لوحة مائية ذات خطوط حمراء وفراغات سكرية اللون، مع حزام خبازي، لم تولها دونيا لوكرينثيا اهتماماً إلا الآن: فالفنان نفسه يجلس بقامته الطويلة، وبين ساقيه المفتوحتين هناك فتاة عارية تدير ظهرها، وتمسك عالياً، مثل سارية علم، طرفه الذكري العملاق.

وأثار اضطرابها الصوت البلوري:

— هذا الثنائي رُسم من أعلى أيضاً. ولكن، كيف أمكن له إعداد اسكتشه؟ لم يكن بإمكانه عمل ذلك وهو فوق السلم، لأن الجالس على الأرض هو الرسام نفسه. ألا ترين ذلك يا خالتي؟
فقلت دونيا لوكرينثيا:

— أرى أنها صورة ذاتية شديدة الفحش. من الأفضل أن تقلب الصفحة يا فوننتشيتو.

فحاولها الطفل باقتناع كبير:

— إنها تبدو لي كنيبة. دققي في وجه شيلي. إنه متراخ وكأنه لا يستطيع تحمل الحزن الذي يشعر به. يبدو وكأنه سيبيكي.

لقد كان عمره آنذاك إحدى وعشرين سنة فقط يا خالتي. لماذا تظنين أنه سمي هذه اللوحة خبز القربان الأحمر؟
بدأ وجه السيدة لوكريثيا يحمر:

— من الأفضل ألا تتحرى ذلك أيها العارف. وهكذا تُسمى هذه اللوحة؟ إنها تدنس المقدسات إذن فضلاً عن كونها فاحشة. اقلب الصفحة وإلا سأمزقها.
فأنبها فونتشيتو:

— ولكن، لا يمكن لك يا خالتي أن تكوني مثل ذلك القاضي الذي حكم على إيغون شيلي بتخريب لوحته. لا يمكن لك أن تكوني جائرة وصورية الأحكام.

كان سخطه يبدو حقيقياً. فحدقتاه تلمعان، وزعفتا أنفه الرقيقتان ترتعشان، وحتى أذنيه كانتا قد شُحِدَتَا. ندمت دونيا لوكريثيا على ما قالته.

— حسن، أنت محق، فلا بد من إبداء قدر أكبر من التسامح مع الرسم، مع الفن — ثم فركت يديها بعصبية — ولكنك تُخرجنِي عن طوري يا فونتشيتو. ولست أدري مطلقاً إذا كنت تقول ما تقوله بعفوية أم بنوايا مسبقة. لست أدري مطلقاً إذا ما كنتُ مع طفل أم مع عجوز داعر وخبيث يختبئ وراء وجه الطفل يسوع.
كان الطفل ينظر إليها مشوشاً؛ وبدا كما لو أن المفاجأة تنبثق من أعماق أعماقه. كان يرمش دون أن يفهم شيئاً. أهي نفسها من تستثير استنكار هذا الطفل بشكوكها؟ غير ممكن بالطبع. ومع ذلك، فقد أحست بالذنب وهي ترى عيني فونتشيتو تتضمخان. فتلعثمت:

— حتى إنني لا أدري ما الذي أقوله. إنس، فأنا لم أقل شيئاً.
تعال، دعني أقبلك، فلنتصالح.

نهض الطفل وألقى بذراعيه حول عنقها. وأحست دونيا لوكريثيا بخفقان البنية الهشة، العظام الصغيرة، هذا الجسد الضئيل الذي على حدود المراهقة، وهي السن التي يكون فيها الأطفال ما يزلون ملتبسين بالطفلات.

وسمعه يقول لها في أذنها:

— لا تغضبي مني يا خالتي. صوبيني إذا ما أسأت، قدمي لي النصح. أنا أريد أن أكون مثلما تريدين لي أن أكون. ولكن، لا تغضبي.

— حسن — قالت —، لقد انتهى كل شيء. فلننس.

كان يحبسها من عنقها بذراعيه ويكلمها ببطء وخفوت إلى حد لا يُمكنها من فهم ما يقوله. ولكنها سجلت بكل أعصابها طرف لسان الطفل حين تسلل، مثل خنجر مرهف، في تجويف أذنها وبالله باللعاب. قاومت الرغبة في إبعاده عنها. وأحست بعد لحظة بالشفتين الرقيقتين تجوبان شحمة الأذن بقبلات متباعدة، رقيقة. أجل، لقد أبعده الآن بنعومة — كانت هناك أفاع تنسل في جسدها بكل الاتجاهات — والتقت عيناها بوجهه الخبيث.

— هل دغدعتك؟ — بدا وكأنه يتباهى بمأثرة — لقد كنت

ترتعشين بالكامل. هل سرت فيك رعشة كهربائية يا خالتي؟

لم تعد تدري ما تقول له. فابتسمت ابتسامة مغتصبة. وكان فوننتشيتو هو الذي أخرجها من الموقف الحرج بعودته إلى مكانه

على الأرض عند أقدام الأريكة:

— نسيتُ أن أخبرك. لقد بدأتُ الشغل مع أبي.

— أي شغل؟

فأوضح لها الطفل مومئاً:

— المصالحة معك. أتُعرفين ما فعلتُ؟ قلتُ له إنني رأيتُك

تخرجين من كنيسة عذراء البيلار، متأنقة جداً، وممسكة بذراع سيد
وجيه. وإنكما كنتما تبدوان مثل زوجين في شهر العسل.

— ولماذا كذبت عليه هكذا؟

— لكي أثير الغيرة في نفسه. وقد توصلتُ إلى ذلك. لقد

صار عصبياً جداً يا خالتي!

وضحك ضحكة تعلن عن سعادة رائعة بالعيش. لقد شحب وجه

باباه؛ جحظت عيناه، مع أنه لم يعلق بأي شيء في البدء. ولكن

الفضول كان ينهشه، وكان يموت رغبة في معرفة المزيد. وفتح

فوننتشيتو النار ليسهل عليه الأمر:

— أتظن أن خالتي تفكر بالزواج ثانية يا بابا؟

تمرمر وجه دون ريغوبيرتو، وقام بحركة حسانية غريبة قبل

أن يجيب:

— لست أدري. كان عليك أن تسألها أنت — ثم أضاف بعد

تردد، وهو يحاول أن يبدو طبيعياً: — من يدري. هل بدا لك أن

السيد الذي كان معها هو أكثر من صديق؟

— حسن، لا أدري — أبدى فوننتشيتو التردد وهو يحرك

رأسه مثل "كوكو" الساعة: — كانت تتأبط ذراعه. وكان ذلك السيد

ينظر إليها كما في الأفلام. وهي أيضاً كانت توجه إليه نظرات شديدة الغنج.

— سأقتلك لأنك شرير وكاذب — قالت له دونيا لوكريثيا وهي ترميه بإحدى الوسائد، فتلقاها فوننتشيتو برأسه مُظهراً خوفاً مبالغاً فيه. وأضافت هي: — كيف ستصير عندما تكبر. فليحم الله الساذجة المسكينة التي ستقع في حبك.

اتخذ الطفل مظهر الجد، في واحدة من تبدلات المزاج هذه التي تشوش دونيا لوكريثيا. كان قد قاطع يديه على صدره، وجلس مثل بوذا، وراح يتفحصها بشيء من الخوف.

— أنت تمزحين في كلامك هذا يا خالتي، أليس كذلك؟ أم أنك تظنين فعلاً أنني شرير؟

مدت يدها وداعبت شعره قائلة:

— لا، لست شريراً. أنت لاغنى عنك. إنك عارف صغير تتمتع بمخيلة واسعة. هكذا أنت.

فقاطعها فوننتشيتو بحركة متحمسة:

— أريدكما أن تتصالحا. لهذا اخترعت له هذه الحكاية. ولدي خطة من أجل ذلك.

— بما إنني أنا المعنية، فأطلعني على الخطة لكي أمنحك موافقتي على الأقل.

لوى فوننتشيتو يديه:

— المسألة... لم أستكمل الخطة بعد. يجب أن تتقي بي يا خالتي. أريد أن أعرف بعض الأشياء عنك. كيف تعارفتما أنت

وبابا مثلاً. وكيف تزوجتما.

شلال من الصور السوداوية تداعى إلى ذاكرة دونيا لوكرينثيا، منذ ذلك اليوم — قبل إحدى عشرة سنة — في تلك الحفلة الصاخبة والمملة للاحتفال باليوبيل الفضي لزواج عمين لها، يوم عرفوها على هذا السيد ذي الوجه الكئيب، والأذنين الكبيرتين والأنف الحربي، والسائر نحو الصلح. إنه خمسيني أطلعتها على معلومات عنه صديقةً ثيليسطينا⁽¹⁾، منهمة في تزويج الجميع: «إنه أرمل طري، له ابن، وهو مدير شركة بيريتشولي للتأمين، إنه غريب الأطوار بعض الشيء، ولكنه من أسرة محترمة، تملك أموالاً كثيرة». لم تحتفظ من ريغوبيرتو في البدء إلا مظهره المأتمى، وسلوكه المتوحد، ومدى إهماله. ولكن شيئاً ما اجتذبها منذ تلك الليلة إلى هذا الرجل الذي لا يملك مفاتن جسدية، شيء تكهنت بأنه معقد وغامض في حياتها. ودونيا لوكرينثيا كانت تفتن، منذ طفولتها، بالإطلال على الهاويات من أعلى الجروف، وأن تتوازن على حواف الجسور. وقد تأكد اهتمامها به حين وافقت على شرب الشاي معه في صالة **تينديثيتا بلانكا**، وأن تحضر برفقته كونشيرتو الأكورديون في معهد سانتا أورسولا، وخصوصاً حين دخلت بيته أول مرة. أراها ريغوبيرتو لوحاته وكتبه الفنية ودفاتره التي يحتفظ فيها بأسراره، وشرح لها كيف يجدد مجموعته، حاكماً بالحرق

(1) - ثيليسطينا Celestina: الشخصية الرئيسية في الرواية التراجيكوميدية المشهورة بالعنوان نفسه، والتي يعتقد أنها لفرناندو روخاس (1499). وهي قصة قوادة تعمل على جمع شمل العشاق.

على الكتب والصور التي يستبدلها. وقد تأثرت وهي تسمع وتلاحظ التهذب الذي يعاملها به، ومراعاته الشكليات بصورة مهووسة. وكانت مفاجأة أسرتها وصديقاتها («ما الذي تنتظرينه لكي تتزوجي يا لوكري؟ أنتتظرين أميراً أزرق؟ لا يمكنك أن توأصلي رفض كل من يتقدمون إليك!»). وحين عرض عليها ريغوبيرتو الزواج («دون أن يكون قد قبلني قبلة واحدة») وافقت في الحال. ولم تندم على ذلك مطلقاً. لم تندم يوماً واحداً، ولا لحظة واحدة. لقد كان مسلياً، مثيراً، رائعاً، أن تمضي قدماً في اكتشاف عالم نزوات وطقوس وتخيلات زوجها، وأن تشاطره إياها، وأن تبني معه هذه الحياة المحجوزة لهما على امتداد عشر سنوات. إلى أن سمحت لنفسها بالانجرار في القصة السخيفة، المجنونة، الحمقاء مع ابن زوجها. مع طفل مخاطي يبدو الآن وكأنه لا يذكر شيئاً مما جرى. هي، هي! التي كان الجميع يعتقدون أنها حكيمة، حذرة، منظمة، من تحسب على الدوام كل الخطوات بكثير من الرصانة. كيف أمكن لها أن تخوض مغامرة مع طفل في المدرسة! مع ابن زوجها نفسه! لحسن الحظ أن ريغوبيرتو قد تصرف بوقار، متفادياً الفضيحة، فاكتفى بطلب الانفصال عنها وقدم لها الدعم الاقتصادي الذي يتيح لها أن تعيش الآن وحدها. لو أن شخصاً غيره لكان قتلها، لكان طردها بحقائب مشعثة ودون سننيم واحد، ولكان علقها على المنصة الاجتماعية باعتبارها مُسعدة قاصرين. إن التفكير بإمكانية مصالحتها هي وريغوبيرتو ليس إلا حماقة. فهو سيبقى غاضباً غضباً قاتلاً مما حدث؛ ولن يسامحها مطلقاً. وأحست مرة أخرى بالذراعين تطوقان

عنقها.

وقال لها فونتشيتو مواسياً:

— لماذا حزنت. هل فعلتُ شيئاً سيئاً؟

— لقد تذكرتُ شيئاً فجأة، وبما إنني عاطفية... لقد انقضى

الأمر.

— عندما رأيتك تتحولين هكذا، أحسستُ بالخوف!

عاد الطفل يقبلها من أذنها، القبلات الصغيرة جداً نفسها، ويجهز

على مشاعر حبه بترطيب صوان أذنها مرة أخرى برأس لسانه.

كانت دونيا لوكريثيا تشعر بالضيق الشديد إلى حد لم تجد معه

الحماسة لإبعاده عنها. وبعد لحظة سمعته يقول لها بلهجة مختلفة:

— حتى أنتِ يا خالتي؟

— ماذا؟

— إنك تلمسين طوطي، مثل أصدقاء أبي ورهبان المدرسة.

ما الذي تجدونه جميعكم في طوطي، يا للجنة!

رسالة إلى الروتاريّ

أعرفُ أنك غضبت يا صديقي لأنني رفضت الانضمام إلى

نادي الروتاري كلوب، هذه المؤسسة التي تقودها حضرتك

وتشجعها. وأظنك بقيت مرتاباً، وغير مقتنع بأن رفضي الانضمام

إلى الروتاري لا يعني بأي حال أنني سأتورط في نادي ليونز أو نادي كيونات البيرو حديث النشوء، وهي جمعيات تتنافس مع جمعيتك دون هوادة من أجل الحصول على سعات الخدمة العامة، والروح المدنية، والتضامن الإنساني، والمساعدة الاجتماعية وأشياء من هذا القبيل. اطمئن: فأنا لا أنتمي ولن أنتمي إلى أي واحد من هذه الأندية أو الجمعيات ولا إلى أي شيء يمكن له أن يشبهها (جمعيات الكشافة، جمعية الطلبة الجيزويت السابقين، الماسونية، الأوبوس- دي، إلى آخره). إنني معاد للجنس الجمعياتي إلى حد أنني كرهت كوني عضواً في التورينغ أوتومبيل كلوب، فما قولك في هذه الأندية الاجتماعية التي تقيس درجة الانتماء العرقي والثروة المادية لأهالي لياما. منذ سنوات عضويتي القديمة في جمعية العمل الكاثوليكي وبسببها — فقد كانت هذه هي التجربة التي فتحت عيني على وهم كل يوتوبيا اجتماعية ورمت بي إلى الدفاع عن مذهب اللذة وعن الفرد —، أصبتُ بعدوى القرف الأخلاقي، والنفسي، والأيديولوجي ضد أي شكل من أشكال العبودية الاجتماعية، إلى حد أن وقوفي — وهذا ليس مزاحاً — في طابور الانتظار أمام السينما يجعلني أشعر بأنني مظلوم ومهان في حريتي (وأحياناً لا أجد بداً من الوقوف في الدور بالطبع)، ومرتد إلى حالة الإنسان-الجمهور. التنازل الوحيد الذي أقدمت عليه كما أذكر كان بسبب خوف من زيادة في الوزن (فأنا مقتنع مثل سيريل كونوللي، بأن «السمنة هي مرض عقلي») فحملني ذلك إلى التسجيل في ناد رياضي، حيث كان هناك طرزانٌ بلا دماغ يجعلنا نتعرق

نحن الخمسة عشر أحمق لمدة ساعة كل يوم، على إيقاع زمجراته،
لنمارس حركات تشنجية كحركات القردة يدعوها هو إپروبك. وقد
جاء ذلك العقاب الرياضي ليؤكد كل أحكامي المسبقة ضد الإنسان
— القطيع.

واسمح لي بالمناسبة أن أنقل إليك واحدة من المقتطفات التي
تخترنها دفاتري، لأنها تلخص بصورة رائعة ما أفكر فيه. ومؤلفها
هو أستوري جوب آفاق استقر في غواتيمالا، ويدعى فرانثيسكو
بيريث دي انطون: «القطيع مؤلف مثلما هو معروف من أناس
صامتين ومنزوعي القدرة على الكلام وهم نوع من العضلات
القابضة المرتخية تقريباً. هذا أمر مؤكد ومثبت، إضافة إلى أن
القطيع، في أزمنة البلبله، يفضل العبودية على الفوضى. ومن هنا
فإن من يتصرفون كالنعاج لا يكون لهم زعماء وإنما تيوس. ولا بد
أن شيئاً من طباع هذا الجنس من الحيوان قد انتقل إلينا، فمن
المألوف جداً في القطيع البشري وجود هذا الزعيم القادر على
اقتياد الحشد إلى حافة الجرف البحري، وأن يجعلهم حين يصلون
هناك، يرمون بأنفسهم إلى الماء. وإذا كان لا يخطر له أن يدمر
حضارة، فإنه شيء موجود وبكثرة». سنقول أنه من الجنون أن أرى
في بعض الرجال اللطفاء الذين يجتمعون للغداء مرة كل أسبوع
وليناقشوا في أي قطاع جديد سيقومون نصبهم الحجري الأبيض
الجديد مع لوحته المعدنية التي تقول «نادي الروتاري يرحب بكم»،
وهو نصب تدفع قيمته بالمحاصصة، خطأً فظيلاً إلى هذا الحد من
قيمة النوع البشري وتحويلاً له من الفرد ذي السيادة إلى الفرد-

الجمهور. ربما كنتُ أبالغ. ولكنني لا أستطيع التهاون. فيما أن العالم يتقدم بسرعة كبيرة نحو نزع الفردية تماماً، ونحو انقراض هذا المعلم التاريخي، المتمثل في مملكة الفرد الحر والسيد، وبما أن هناك مجموعة من المصادفات والظروف التي تجعل الاستعداد ممكناً (لعدد محدود من الأشخاص بالطبع، وفي عدد أكثر محدودية من البلدان)، فإنني أعبئ للمعركة حواسي الخمس وأربعاً وعشرين ساعة في اليوم، لكي أؤخر قدر المستطاع وضمن ما هو متعلق بي، وقوع هذه الهزيمة الوجودية. المعركة هي معركة حتى الموت وكلية؛ فكل شيء وكل شخص سيشارك فيها. وهذه الجمعيات التي تضم مهنيين بدينين، ومديرين وتنفيذيين وبيروقراطيين من أعلى مستوى، ممن يلتقون مرة كل أسبوع ليتناولوا وجبة حمية (أهي مؤلفة من حبة بطاطا محشوة، وشريحة لحم مع الرز وبعض الخبز مع المنخاربلانكو، وكل هذا مضمخ بنبيذ أحمر تاكاما ريسيرفا خاص؟) إنها معركة تم كسبها بفضل انتشار الروبوتية النهائي والتعظيم، وتقدّم ما هو مبرمج، ما هو منظم، ما هو إجباري، ما هو روتيني، ما هو جماعي، وجهل أكبر بما هو عفوي، ما هو ملهم، ما هو إبداعي، وما هو أصيل، وهي أمور لا يمكن تصور وجودها إلا في الإطار الفردي.

هل بدأت تشك بعد هذا الذي قرأته، بأن وراء مظهري الغائم كبرجوازي خمسيني، يختفي فظّ معاد للنظام الاجتماعي ونصف فوضوي؟ ها قد أتيتك! لقد أصبت يا أخي (أردت أن أمزح فلم أوفق: فكلمة أخ توحى إلي بالتربيت على الكتف الذي لا بد أن

يرافقها والرؤيا المقرفة لرجلين ثملين بالبيرة وبالإفراط في تناول الأطعمة اللاذعة، مجتمعين، يشكلان جمعية، متكررين للأطياف والأشباح التي في عروقهما ولـ الأنا التي فيهما.) صحيح: إنني معاد للنظام الاجتماعي، بالقدر الذي تسمح به قواي، وهي ضعيفة للأسف، وأقاوم الجماعية في كل ما لا يعرض للخطر وجودي ومستويات حياتي الفاخرة. تماماً مثلما تقرأ. فكون المرء فردياً يعني أنه أناني (آين راند، فضائل الأنانية)، ولكن ليس أحق. وفيما عدا ذلك، فإن الحماسة تبدو لي محترمة إذا ما كانت جينية، وراثية، وليس إذا كانت اختيارية ومتبناة بصورة متعمدة. وأخشى أن كون المرء روتارياً، أو ليونزياً، أو كيوانياً، أو ماسونياً، أو كشافياً، يعني أنه (واعذرني) يراهن رهاناً رعيدياً لمصلحة الحماسة.

من الأفضل أن أوضح لك هذه الشتيمة، لأنني إذا ما خففت من وقعها وشاعت أعمالنا التأمينية أن نلتقي، فلن تهشم رأسي بكلمة (أو بركلة على قصبة الساق، وهي الطريقة الأكثر شيوعاً بين أناس في سننا). لست أدري ما هي الطريقة الأكثر دقة لتحديد قوام الفضائل والمشاعر الحميدة التي تمثلها هذه المؤسسات، إلا في اعتبارها تنازلاً عن المسؤولية الشخصية وطريقة رخيصة لاكتساب وعي «اجتماعي» (وأنا أضع الكلمة بين قوسين لأؤكد على النفور الذي تسببه لي). وبكلمات عملية، فإن ما تفعله أنت وزملاؤك لا يساهم في رأيي في تقليص الشر (أو في زيادة الخير إذا أردت) بأي حال. فالمستفيدون الأوائل من هذا الكرم الجماعي هم أنتم أنفسكم، بدءاً من معدكم التي تلتهم هذه المآذب الأسبوعية،

وعقولكم الخنزيرة التي تتقيأ سعادة في سهرات التأخي (يا للتعبير المرعب!) وأنتم تتبادلون النائم، والنكات البذيئة، وتهالون على من هو غائب دون رحمة. وأنا لست ضد هذه التسلّيات، ولست — منذ البدء — ضد كل ما من شأنه أن يبعث المتعة؛ ولكنني ضد النفاق في عدم المطالبة بهذا الحق بصورة سافرة، وفي البحث عن المتعة المتخفية تحت ذريعة العمل المدني الوقائية. ألم تقل لي، وأنت تبدي أدنين كأذني ساتور⁽¹⁾ وتقدم لي تلميحاً بورنوغرافياً، بأن هناك فائدة أخرى لكون المرء روتارياً تتمثل في أن الجمعية توفر ذريعة أسبوعية من الدرجة الأولى للابتعاد عن البيت دون إثارة غضب الزوجة؟ وها أنا أضيف هنا اعتراضاً آخر. هل عدم وجود نساء في صفوف الجمعيات هو جزء من أنظمتها أم أنه مجرد عادة شائعة لديها؟ ففي المآدب التي ورطتني بحضورها لم أر أي تنورة على الإطلاق. إنني واثق من أنكم لستم جميعكم مخنثين، مع أنه سبب معقول تقليدياً لتبرير شيوع البنطال الروتاري (الليونزي، الكيواني، الكشفي، إلى آخره). وهذه هي أطروحتي: كون المرء روتارياً هو ذريعة لقضاء لحظات ذكورية جيدة، بعيداً عن الحراسة، أو العبودية، أو الجدية التي تفرضها، حسب رأيكم، مساكنة المرأة. وهو ما يبدو لي غير حضاري مثله مثل بارانويا دعاء الحركة النسائية الجموحات اللواتي أعلنّ حرب الأجناس. إن فلسفتي في الحالات التي لا بد فيها من الخضوع للجماعية — المدارس،

(1) - ساتور Satiro: شخصية أسطورية في الميثولوجيا الإغريقية، تمثل غرائز الكائنات، وهو من بطانة باخوس، ويصور على هيئة مسخ له أذنان طويلتان رفيفتان.

العمل، التسلّيات — ترى أن اختلاط الأجناس (والأعراق، واللغات، والعادات، والمعتقدات) هو طريقة للتخفيف من البلاهة التي يتضمنها التعصب وإدخال عنصر لاذع، نوع من الخبث (أي الأفكار الخبيثة التي أنا من ممارسيها الحازمين) في العلاقات الإنسانية، وهو أمر — من وجهة نظري — يسمو بها جمالياً وأخلاقياً. ولن أقول لك إن الأمرين كليهما، بالنسبة إليّ — هما شيء واحد، لأنك لن تفهم ذلك.

إن كل نشاط بشري لا يساهم، ولو بطريقة غير مباشرة، في الفوران الخصيوي المبيضي، وفي لقاء الحيوانات المنوية مع البويضات، هو محط ازدراء. مثلما هو على سبيل المثال، بيع بوليصات التأمين الذي نمارسه أنا وأنت منذ قرابة ثلاثين سنة، أو مادب الروتاريين الخالية من النساء. وكذلك كل ما يشغل الناس عن الهدف الجوهري حقاً للحياة الإنسانية، والمتمثل، برأيي، في إشباع الرغبات. ولست أجد سبباً آخر لوجودنا هنا، ندور مثل دوامات بطيئة في هذا الكون المجاني. يمكن لأحدنا أن يبيع بوليصات تأمين، مثلما نفعل أنا وأنت — وبنجاح كبير، ذلك أننا توصلنا إلى مناصب رفيعة في شركتنا — لأنه لا بد من الأكل واللبس والاحتماء تحت سقف والحصول على شيء من الدخل الذي يتيح لنا امتلاك رغبات وتحقيقها. وليس هناك أي سبب آخر ينفع لتبرير بيع بوالص التأمين، أو لبناء السدود أو خصي الهررة أو كون المرء كاتب اختزال. إنني أسمعك تقول: وماذا إذا كان هناك رجل، على النقيض منك يا ريغوبيرتو المشوش، يجد تحقيق ذاته ومتعته في

بيع بوالص تأمين ضد الحريق أو السطو أو المرض؟ وإذا كان يجد في حضور المآدب الروتارية وفي المساهمة بحصة مالية زهيدة لنصب لوحات على الطرق العامة تقول «ببطء تصل أبعد» أفضل تجسيد لرغباته ولسعاداته، مثلما يحدث لك وأنت تقلّب مجموعة دفاترك وكتبك غير المناسبة للآنسات أو وأنت تمارس هذه الاستمناءات الذهنية التي هي مناجاة لدفاترك؟ أليس لكل واحد الحق في اختيار رغباته؟ بلى، له الحق. ولكن، إذا كانت أعلى رغبات (وهذه هي أجمل كلمات المعجم) كائن بشري تتلخص في بيع تأمينات والانضمام إلى نادي الروتاري (أو أضرابه) فإن ثنائي الأرجل هذا هو شخص متعفن الصدر بالبراز. وأنا أوافقك أن هذا هو حال تسعين بالمئة من بني البشر. أرى أنك بدأت تفهم أيها التأميني.

أتراك تُصلّب من أجل شيء تافه كهذا؟ إن رسمك إشارة الصليب يدفعني إلى التفكير في موضوع آخر، هو الموضوع نفسه. أي دور يحتله الدين في هذه المرافعة؟ هل يتلقى الصفعات أيضاً من هذا المرتد عن العمل الكاثوليكي، والقارئ السابق المحموم للقديس أغوستين، والكاردينال نيومان، وسان خوان دي لا كروث وجان غيتون؟ أجل ولا. إذا كنتُ شيئاً في هذه المواضيع، فإنني لا أدري. فأنا أرتاب من الملحد ومن المؤمن، إنني مؤيد لأن يعتنق الناس ويمارسوا إيماناً ما، لأنهم دون ذلك سيكونون بدون حياة روحية وستزدادون وحشية وهمجية. فالثقافة — الفن، والفلسفة، وكل النشاطات الفكرية والفنية العلمانية — لا يمكنها أن تعوض

الفراغ الروحي الذي ينتج عن موت الرب، وعن غياب واختفاء الحياة الماورائية، إلا لدى أقلية ضئيلة جداً (وأنا أشكل جزءاً منها). هذا الفراغ يجعل الناس أشد تدميراً وبهيمية مما هم عليه عادة. وفي الوقت الذي أُويد فيه الإيمان، فإن الأديان بصورة عامة تدفع بي إلى تغطية أنفي، لأنها جميعها تتطلب الموكبية القطيعية والتنازل عن الاستقلالية الروحية. جميعها تقيّد الحرية الإنسانية وتسعى إلى لجم الشهوات. وأنا أعترف، انطلاقاً من وجهة النظر الجمالية، بأن الأديان — وربما كانت الكاثوليكية أكثر من غيرها، بكاتدرائياتها البديعة، وطقوسها، وليتورجياتها، وأبهة أزيائها، وعروضها، وأيقوناتها، وموسيقاها — تكون عادة مصادر لذة عظيمة تفتن العين، والحساسة، وتعرض المخيلة وتحرقنا بأفكار خبيثة. ولكن، هناك في كل منها على الدوام رقيب يكمن مترصداً، مفوض، متعصب ومشواة وكلابات قاضي التفتيش. ولكن من الصحيح أيضاً أنه لولا محظورات الأديان، وخطاياها، وروادعها الأخلاقية، لما كانت الرغبات — الجنسية منها خصوصاً — قد وصلت إلى الرقي الذي بلغته في بعض العصور. وهذا ليس كلاماً نظرياً، وإنما هو واقع عملي، فبفضل استبيان شخصي متواضع ومحدود الآفاق، أؤكد أن ممارسة الحب تجري بصورة أفضل بكثير في البلدان المتدينة منها في البلدان الدنيوية (ففي أيرلندا أفضل من إنكلترا، وفي بولونيا أفضل من الدانمرك) وفي البلدان الكاثوليكية أفضل من البلدان البروتستانتية (إسبانية أو إيطالية أفضل من ألمانيا أو السويد) والنساء اللواتي تعلمن في مدارس للراهبات

هن أوسع مخيلة وأكثر جرأة ورقة بألف مرة من اللواتي تعلمن في مدارس علمانية (وقد وضع روجر بايلان نظرية في هذا الشأن في كتابه **نظرة باردة**). وما كان للوكرينثيا أن تكون لوكرينثيا التي ملأتني بسعادة لا تقدر، ليلاً ونهاراً (ولكن في الليل بصورة خاصة) على امتداد عشر سنوات، لو لم تتول مسؤولية تربيتها في طفولتها وشبابها راهبات القلب المقدس الصارمات، واللواتي كان بين تعاليمهن للصغيرات، أن جلوس البنات متباعدة الركبتين يشكل خطيئة. هؤلاء الراهبات اللواتي قدمن أنفسهن قرابين عبودية للرب، بأحكامهن ومحظوراتهن المتشددة في الموضوع الغرامي، رحن يربين على امتداد التاريخ سلالات متتالية من الميسالينات⁽¹⁾. فلتحل عليهن البركة!

ثم ماذا؟ أين وصلنا؟ أنا لا أعرف ما الذي ستتوصل إليه أنت يا زميلي العزيز (لكي أستخدم تعبيراً آخر يدعو إلى التقيؤ). أما أنا فسوف أبقى في تناقضي، وهو أيضاً، وعلى الرغم من كل شيء، مصدر للذة روح عاصية وغير قابلة للتصنيف مثل روجي. فأنا أعارض فرض قواعد مؤسساتية للمشاعر والإيمان، ولكنني أؤيد المشاعر والإيمان. وأبقى على هامش الكنيسة، ولكنني أشعر بفضول وحسد تجاهها. وأنا مستغل متيقظ لما يمكن أن يعرض لي من أجل إغناء عالم أوهامي. وأشير إليك بأنني أقدر دون حدود أحبار الكنيسة الذين استطاعوا أن يجمعوا على أعلى مستوى ما بين مسوح

(1) - ميسالينات، نسبة إلى ميسالينا Mesalina : الأميرة الرومانية التي تزوجت الإمبراطور كلاوديوس الأول. وقد اشتهرت بانحلالها وتهتكها.

الكهنوت والمني. أفتش في دفاتري وأجد مثلاً على ذلك في الكردينال الذي كتب عنه التقي أثورين: «ارتياحي مصفى، يضحك وحيداً من المهزلة التي يتحرك بها شخصه، ويستغرب أحياناً لعدم انتهاء البلاهة البشرية التي تتواصل بأموالها تلك الكوميديا البلهاء». أليست هذه هي، تقريباً، صورة مكبرة لكاردينال بارني الشهير، سفير القرن الثامن عشر الفرنسي في إيطاليا، الذي تقاسم في فينيسيا راهبتين سحاقيتين مع جيوفاني كازانوف (راجع مذكراته) واستضاف في روما المركيز دي ساد دون أن يعرف من يكون، حين كان هذا الأخير، هارباً من فرنسا بسبب تماديه في التهتك، وكان يجوب إيطالياً متخفياً تحت الاسم المزيف: الكونت دي مازان؟

ولكنني أرى أنك قد بدأت تتئعب، لأن هذه الأسماء التي قصفنكُ بها — آين راند، فايلان، أثورين، كازانوف، دي ساد، بيرني — هي بالنسبة إليك قعقة غير مفهومة، ولهذا فإنني سأتوقف وأضع نقطة النهاية لهذه الرسالة (التي لن أبعثها أيضاً، فاطمئن).
أتمنى لك الكثير من المآدب واليافطات أيها الروتاري.

رائحة الأرامل

في الليلة الرطبة، القلقة باضطراب البحر، استيقظ دون ريغوبيرتو فجأة وهو مستحم بالعرق: جردان معبد كارنيجي التي لا

حصر لها تهرع لوجبة المساء، مدعوة بأجراس البراهمة السعيدة. الجففات الضخمة والصواني المعدنية والطاسات الخشبية قد ملئت بقطع اللحم أو بحساء حليبي، هو طعامها المفضل. آلاف القوارض الرمادية الشرهة كانت تخرج من أعشاشها، من كل فتحات جدران المرمر المثقوبة من أجلها، والمزودة بحزم صغيرة من القش يوفرها الرهبان الرحيمون من أجل راحتها. كانت تتصادم، يمر بعضها فوق بعض، متعجلة باتجاه الصواني. وكانت تغطس فيها لتلثس السائل، وتضم قطع اللحم، وكان أكثرها استئثاره ينتزع بقواطعه البيضاء لقيمات من جلود الأقدام الحافية الخشنة والغليظة. وكان الرهبان يتركونها تفعل ذلك وهم سعداء بتقديم هذه الزوائد من جلودهم للمساعدة في لذة الجرذان التي هي تجسيد (تقمص) لرجال ونساء مختلفين.

لقد بنى المعبد خصيصاً من أجلها قبل خمسمئة سنة في هذا الركن الشمالي من الراجيستنان الهندوسي، تكريماً للاكهان، ابن الربة كارنيجي، الفتى الوجيه الذي تحول إلى جرد سمين. ومنذ ذلك الحين، وراء البناء العظيم ذي الأبواب الفضية، والأرضية الرخامية، والجدران والقباب المهيبة، يحدث هذا المشهد مرتين في اليوم. ها هو هناك الآن البراهما الأكبر تشوتو— دان، مختلفياً تحت عشرات الحيوانات الرمادية التي تصعد على كتفيه، ذراعيه، ساقيه، ظهره، متجهة إلى حوض الحساء الكبير الذي كان يجلس عند حافته. ولكن ما كان يقلب معدة دون ريغوبيرتو ويوصله إلى حافة التقية هو الرائحة. لقد كانت زخمة، شاملة، وأكثر تجريحاً من

روث الدابة، من أنفاس المزبلة، أو الجيفة المتفسخة، وقد كانت نتانة تلك الحشود الرمادية في داخله الآن. تجوب قفا جسده مع أوردته، مع إفرازات غدده، تغوص في ثقب غضاريفه وفي نخاع عظامه. لقد تحول جسده إلى معبد كارنجي. وقال مذعوراً: «إنني محشو برائحة الجرذان».

قفز من السرير بالبيجاما، دون أن يرتدي الروب، مكتفياً بالخف وحده، وهرع إلى مكتبه، ليرى إذا ما كانت صور أخرى تأتي لتعزّمه من صور الكابوس المتبقية إذا ما تصفح كتاباً، أو تأمل لوحة، أو استمع إلى موسيقى أو خربش شيئاً في دفاتره.

وقد حاله الحظ. ففي الدفتر الأول الذي فتحه، واجهته فقرة علمية توضح أن السمة المميزة لبعض أصناف البعوض هي الإحساس برائحة إناثها من مسافات لا تُصدق. «إنني واحد منها»، فكر بذلك وهو يفتح أنفه ويشم. «يمكنني الآن بالذات إذا أردت، أن أشم لوكريثيا وهي نائمة في بستان زيتون سان إيسيدرو، وأن أميز بوضوح إفرازات جلدها المغطى بالشعر، تحت إبطيها وفي عانتها». ولكنه التقى برائحة أخرى — رائحة لطيفة، أدبية، مُرضية، متخيلة — راحت تبدد نتانة الحلم الجردية، مثلما تبدد ريح الفجر الضباب الليلي. إنها رائحة صحية، لاهوتية، لطيفة جداً، تفوح من **مدخل إلى الحياة الورعة**، لفرانسيسكو دي ساليس، بترجمة كيفيدو: «المصاييح التي تنشر رائحة عطرة يتضوع منها عبير خفيف حينما ينطفئ ضوءها. وهكذا الأرامل، ممن كان حبهن نقياً خلال زواجهن، يتضوعن بأريج عابق ورائع من فضيلة

العفة، حين يتعرض ضوءهن، أي الزوج، للانطفاء بالموت». لقد أفلقه أريج الأرامل العفيفات هذا، تلك الكآبة غير الملموسة لأجسادهن المحكومة بالمناجاة الجسدية مع الذات، والتضوع النوستالجي لرغباتهن غير المشبعة. نبضت فتحنا أنفه بهمة، في محاولة إعادة بناء، التقاط، استخراج بعض أثر حضور تلك الرائحة في الجو. إن مجرد فكرة تلك الرائحة الأرمالية قد أفقده الاستقرار. لقد بخرت بقايا الكابوس حلمه وانتزعت، وأعدت إلى روحه طمأنينة صحية. ودفعته إلى التفكير — لماذا؟ — بأولئك السيدات الطافيات ما بين أنهر من نجوم، في لوحة لكليمت، نساء ينضن بالطيب، بوجوه خبيثة — وهناك كانت سمكة غولد فش أنثى — سمكة صغيرة ملونة، ودانايبه متظاهرة بالنوم وعارضة بسداجة مؤخرة كأنها الجيتار. ليس هناك رسام استطاع أن يرسم روائح النساء مثلما فعل ذلك البيزنطي الفييني: فنساؤه الجويات الرجراجات قد دخلن ذاكرته عبر العين والأنف في الوقت ذاته. (وبالمناسبة، ألم يحن الوقت للبدء بالقلق من التأثر البالغ الذي يمارسه الفييني الآخر، إيغون شيلي، على فونتشيتو؟ ربما، ولكن ليس في هذه اللحظة.)

أطلق جسد لوكريثيا هذه الرائحة الساليسية المقدسة منذ انفصلا؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنها ما تزال تحبه. لأن هذه الرائحة، على حد قول القديس فرانسيسكو دي ساليس، هي دليل إخلاص ووفاء في الحب يتجاوز القبر. إنها لم تستبدله إذن. أجل، فما زالت «أرملة». وكل الإشاعات، والخianات، والاثهات التي تصل

إليه — بما في ذلك تقولات فوننتشيتو — حول عشاق لوكريثيا، ليست إلا افتراءات. وابتهج قلبه بينما هو ينتشم المحيط بشراهة. أهي هناك؟ هل التقطها؟ أهي رائحة لوكريثيا؟ لا. لقد كانت رائحة الليل، الرطوبة، الكتب، اللوحات الزيتية، وأخشاب وأقمشة وجلود المكتب.

حاول أن يلتقط من الماضي والعدم، وهو مغمض العينين، تلك الروائح الليلية التي استنشقتها طوال عشر سنوات، روائح شذية كانت قد أمتعته كثيراً، عطور كانت تحميه من العفونة والنتانة السائدة. سيطر عليه الغم. وجاءت أبيات من شعر نيرودا لتعزیه حين قلب صفحة من الدفتر نفسه:

*ورؤيتك تبولين، في العتمة، في أقصى البيت،
كأنك تسكبين عسلاً رقيقاً، رجراجاً، فضياً، لجوجاً،
كم من المرات سأسلم كورال الظلال هذا الذي يملكني،
وجلبة السيوف غير المجدية التي تُسمع في روعي...*

أليس استثنائياً ورائعاً أن تُسمى القصيدة التي تتضمن هذه الأبيات **تانغو الأرملة**؟ ودون أي انتقال، رأى لوكريثيا، جالسة على مقعد المرحاض، وسمع ارتطام بولها المرح بقعر الوعاء الذي يستقبله مغرداً وشاكراً. وكان يقبع هناك أيضاً بالطبع، راعياً في الركن، مستغرقاً، مركزاً بتصوف، مستمعاً ومتشهماً، المستفيد السعيد من ذلك الإرسال وذلك الطقس السائل: مانويل الجراحة التجميلية! ولكن جليفر ما لبث أن ظهر عندئذ، وهو ينقذ إمبراطورة

ليليبوت في قصرها المحترق برغوة بولية. ففكر بجوناثان سويفت الذي عاش مؤرقاً يهجس بالتناقض القائم بين جمالية الجسد وفضاظة الوظائف الجسدية. ويذكر الدفتر أن سويفت يبين، في أشهر قصائده، كيف أن عاشقاً أوضح سبب هجره لمحبيبته بهذه الأبيات:

*Nor Wonder how I lost wits;
Oh! Celia, Celia, Celia shits*

وفكر: «يا لحماقته». فلوكريثيا أيضاً shited (تشخ) وهذا لا يحقرها، بل يزيدا واقعية في عينيه وأنفه. ولثوان، مع ابتسامة الليل الأولى المطبوعة على وجهه، تتشقت ذاكرته الأبخرة المتخلفة من مرور زوجته السابقة من المرحاض. وها هو عالم الجنس هافلوك إيليز يتدخل الآن، وقد كانت أكبر متعه الخفية، حسب ما هو وارد في الدفتر، تتمثل في سماع محبوبته تتبول، معلناً في رسائله أن أسعد أيام حياته هو ذلك اليوم الذي عمدت فيه زوجته اللطيفة، محتمية بتنانيرها الفيكتورية الواسعة، إلى التبول من أجله ما بين مارة غير مبالين، بصورة وقحة، عند قدمي تمثال الأميرال نيلسون، وتحت أنظار الأسود الحجرية الضخمة في ميدان الطرف الأغر.

ولكن مانويل لم يكن شاعراً مثل نيرودا، ولا أخلاقياً مثل سويفت، ولا عالماً تناسلياً مثل أيليز. بل مجرد خصي. أم من الأفضل القول، طواشي؟ الفارق عميق، ما بين هذين الممنوعين من الإخصاب. فأحدهما يملك القضيب والانتصاب والآخر فقد العدة والوظيفة التناسلية ويظهر له في الموضع عانة ملساء ومنحنية

وأنثوية. ما الذي كانه مانويل؟ طواشي. وكيف أمكن للوكريثيا أن تقدم له ذلك؟ أهو الكرم، أم الفضول، أم الشفقة؟ أم الفجور والمرض؟ أم أنها كل هذه الأشياء مجتمعة؟ لقد تعرفت عليه قبل الحادث الشهير، حين كان مانويل يعتمر خوذة لامعة وقناعاً بلاستيكياً، ويمتطي جواداً ميكانيكياً مزوداً بأنابيب وذراع قيادة وعجلات ويحمل على الدوام اسماً يابانياً (هوندا، كاواساكي، سوزوكي أو ياماها) محيطاً نفسه بضجة ضراط يبعث على الصمم في ميدان سباق — يسمونه موتوكروس — وإن اعتاد المشاركة كذلك في منافسات ذات أسماء غامضة مثل ترايل و إندورو، وهذه المسابقة الأخيرة تذكر بصورة مريبة بالطائفة الألبيجنسية⁽¹⁾ — حيث ينطلقون بسرعة مئتي أو ثلاثمئة كيلومتر في الساعة. وكان مانويل يفوز في تلك المنافسات وهو يجتاز المستنقعات طائراً فوقها، ويتسلق الجبال، ويعفر الرمال، ويقفز عن صخور أو أخاديد، وتظهر صورته في الصحف وهو يفتح زجاجات الشمبانيا مع فتيات جميلات يقبلن خديه. إلى أن حدث في إحدى تلك الحماقات الصرفة أن طار في الفضاء، بعد أن صعد مثل نيزك إلى رابية خاطئة، فكان ينتظره وراء قمته، ليس ما كان هو الطواشي يظنه منحدرًا رملياً ناعماً يمتص الصدمات، وإنما هاوية مليئة بالصخور. فسقط فيها وهو يصرخ بكلمة قديمة —

(1) - الألبيجنسية Albigenses أو الكاتارو Cataros: طائفة دينية انتشرت في القرن الثاني عشر في مناطق الألب الفرنسية، وقد شن البابا إنوسينسيو الثالث حرباً صليبية ضد أتباعها في عام 1209.

يا شرجي! — بينما كان يطير فوق حصانه المعدني باتجاه الهاوية التي وصل إلى قعرها بعد ثوان وصولاً مدوياً، في جلبة انسحاق وتهشم وتفتت عظامٍ وحديد. معجزة! فقد بقي رأسه سليماً، وأسنانه تامة، وسمعه وبصره لم يلحق بهما أي أذى؛ أما استخدام أطرافه فقد تأثر بعض الشيء بسبب العظام المهشمة والعضلات الممزقة والمصابة بالرضوض. وقد تركزت الإصابات بصورة تعويضية في أجهزته التناسلية التي احتكرت الأضرار كلها. فالبراغي، والمسامير، والمخارز ثقبت خصيتيه على الرغم من الواقية المطاطية التي كانت تحميها، وحولتهما إلى مادة هجينة، إلى خليط من المهلبية وصلصة البندورة، أما ذُنَيْبُ فحولته فقد بُتر من أصله بأداة حادة لم تأت — يا لسخریات الحياة — من دراجة حبه وانتصاراته. ما الذي خصاه إذن؟ إنه الصليب المدبب والحاد الذي كان يحمله لكي يستدعي الحماية الإلهية وهو يجترح مآثره على الدراجات النارية.

تمكن جراحو ميامي البارعون من لحم عظامه المكسورة، فمطوا العظام التي تقلصت، وقلصوا العظام التي تمددت، ورفوا ما كان ممزقاً من العضلات، ورمموا بقطع لحم من إلبته عضواً تناسلياً اصطناعياً، كان يبدو صلباً على الدوام، ولكن في المظهر فقط، لأنه لم يكن إلا مجرد آلة من جلد فوق رقعة تجميلية بلاستيكية. وفكر دون ريغويبيرتو بقسوة: «كثير من الجعجعة وقليل من الجوز، أو دون أي جوزة إذا توخينا الدقة». لم يكن ذلك العضو ينفع إلا للتبول، وليس حسب إرادته، وإنما كلما شرب سائلاً. وبما أنه لم تكن

لمانويل المسكين أي سلطة تحول دون أن تتبلل ملابسه بهذا التسرب الدائم لسوائله، فقد صار يعلق كيساً من البلاستيك، مثل قبة أو لازمة، تتجمع فيه سوائله. وباستثناء هذا الإزعاج، كان الخصي يعيش حياة طبيعية جداً — ولأن كل مجنون له هواه — فقد بقي متعلقاً بالدراجات النارية.

هل ستذهبين لزيارته مرة أخرى؟ — سأل دون ريغوبيرتو بشيء من الضيق.

فأوضحت له لوكريثيا:

— لقد دعاني لتناول الشاي، وأنت تعرف أنه صديق طيب وأني حزينة جداً من أجله. إذا كان ذهابي يضايقك فلن أذهب. فاعتذر منها:

— هيا، هيا اذهبي. وستروين لي كل شيء فيما بعد؟

لقد تعارفا منذ صغرهما. كانا من الحي نفسه، وكانا حبيبين في أيام المدرسة، أي أنهما كانا يتمشيان وكل منهما يمسك بيد الآخر في أيام الأحاد بعد قداس الحادية عشرة في حديقة ميرافلوريس المركزية، أو في حديقة سالازار بعد مشاهدة عرض سينمائي مسائي تقاطعه بعض القبلات ومداعبة خجولة ومهذبة في الصالة. وكانا خطيبين حين كان مانويل يقترف مآثره العجالاتية على الدراجات النارية وتظهر صورته في الصفحات الرياضية، والفتيات الجميلات يمتن من أجله. ولكن تقلبه العاطفي أضجر لوكريثيا، ففسخت الخطوبة. ولم يعودا إلى اللقاء حتى وقوع الحادث. فقد ذهبت هي لزيارته في المستشفى، وحملت إليه علبة

Cadbury. وجددا علاقة، هي حتى الآن علاقة صداقة — هذا ما كان يظنه دون ريغوبيرتو، إلى أن اكتشف الحقيقة السائلة — استمرت إلى ما بعد زواج لوكريثيا.

كان دون ريغوبيرتو قد لمحّه مرة أو اثنتين، من وراء زجاج محل تجارته المزدهرة في شراء وبيع الدراجات النارية المستوردة من الولايات المتحدة واليابان (فقد أضاف إلى الماركات اليابانية ذات الأسماء الهيروغليفية الماركات الأمريكية هارلي دافيدسون وترونف، والماركة الألمانية بي. أم. دبل يو.) وكان المحل يقوم على ضفة السبخة ويصل حتى شارع خافيير برادو. ومع أنه لم يعد إلى المشاركة في المنافسات كمتسابق، إلا أنه، وبسادية مازوشتية جليلة، بقي مرتبطاً بهذه الرياضة كمشجع وراعٍ لهذه المجازر والمذابح الشرعية. وكان دون ريغوبيرتو يراه يظهر في نشرات أخبار التلفزيون وهو يرفع راية ذات مربعات ويُزّلها بمظهر جديّ وكأنه يعلن بدء الحرب العالمية الأولى: عند خط بداية أو نهاية المسابقات، أو وهو يسلم للفائز كأساً مطلية بطبقة من الفضة المزيفة. وكان هذا الانتقال من مشارك إلى راعٍ للنشاطات، يهدئ — حسب قول لوكريثيا — ولع المخصي الإدماني بالدراجات النارية الصاخبة.

وماذا عن ذاك الشيء الآخر؟ ذلك النقص الآخر؟ هل يهدئه شيء؟ ففي الأمسيات المتباعدة التي اعتادا اللقاء فيها لتبادل الحديث، كان مانويل يحتفظ بتكتم كبير حول هذه المسألة التي لم تكن دونيا لوكريثيا تتهور بالإتيان على ذكرها بالطبع. كانت

أحاديثهما نوعاً من النميمة التذكيرية لطفولة أمضيها في ميرافلوريس وشباب في سان ايسيدرو، ولرفاق الحي القدماء الذين يتزوجون، و ينفصلون، ويتزوجون ثانية، ويمرضون، وينجبون، ويموتون أحياناً، وكانت تلك الأحاديث تترافق بلطخات من التعليقات الراهنة حول الفيلم الأخير، أو الاسطوانة الأخيرة، أو الرقصة الدارجة، الزيجات أو الانفصالات الكارثية، أو عملية النصب والاحتفال المكتشفة حديثاً، أو فضائح المخدرات والقرون والإيدز الأخيرة. إلى أن جاء يوم — يدا دون ريغوبيرتو ثقلبان بسرعة صفحات الدفتر بحثاً عن فقرة مدونة تتوافق مع محصلة الصور التي تتحرك بوضوح في ذهنه المحموم — اكتشفت فيه دونيا لوكرينثيا سره. هل اكتشفته حقاً؟ أم أن مانويل رتب الأمر بحيث تعتقد أنها اكتشفته، بينما هي في الواقع لا تفعل أكثر من وضع قدمها في الفخ الذي كان ينصبه لها؟ ماحدث في ذلك اليوم، وبينما هما يشربان الشاي في بيته في حي بلانيثي، محاطين بأشجار الاوكاليبتوس والغار، أدخل مانويل لوكرينثيا إلى مخدعه. والذريعة؟ ليربها صورة من مباراة بالكرة الطائرة في مدرسة سان أنطونيو منذ سنوات طويلة. وهناك التقت هي بالمفاجأة الكبرى. خزانة كاملة من الكتب المخصصة لموضوع الخفاء والخصيان! مكتبة متخصصة! بكل اللغات، وخصوصاً تلك اللغات التي لا يفهمها مانويل الذي لا يعرف إلا الاسبانية بلهجتها البيروية، وبتحديد أكثر: لهجة حي ميرافلوريس وسان ايسيدرو. ومجموعة من الاسطوانات والأقراص المكتفة بمقاربات أو تشابهات مع صوت المغنين

الخصيان!

وقد قالت لدون ريغوبيرتو وهي منفعلة لهذا الاكتشاف:

— لقد تحول إلى خبير في الموضوع.

واستنتج هو:

— الأسباب واضحة.

أكان ذلك جزءاً من استراتيجية مانويل؟ واهتز رأس دون ريغوبيرتو موافقاً في الدائرة الصغيرة التي يشكلها ضوء المصباح. بالطبع. لكي يخلق حميمية وعرة، تواطؤاً في المحرمات يتيح له، فيما بعد، طلب الخدمة المرهوبة. لقد اعترف لها — أيقون قد تظاهر وبالحياء أبدى تردد الخجول؟، أجل، هكذا بالضبط — بأنه منذ الجراحة الفظيعة، بدأ الموضوع يستحوذ على عقله، إلى أن تحول إلى همّ حياته المركزي. فصار عارفاً كبيراً، يمكنه التحاور لساعات حول الأمر، والإحاطة به من جوانبه التاريخية، والدينية، والجسدية، والسريرية، والنفسية. (هل سمع سائق الدراجات النارية السابق شيئاً عن فييني المتكأ؟ في السابق لم يكن قد سمع، أما فيما بعد فنعم. بل وقرأ شيئاً له، مع أنه لم يفهم كلمة واحدة.) في تلك المحادثات التي كانت تغرقهما كليهما أكثر فأكثر في شراكة حميمة أثناء لقاءات شرب الشاي البريئة ظاهرياً، شرح مانويل للوكريثيا الفرق ما بين الطواشي، وهو نوع إسلامي في الأساس كان يمارس منذ العصور الوسطى مع حراس السراري والحريم باستئصال عضوهم وخصياتهم دون رحمة لتحويلهم إلى متعفين، والخصاء بمعناه الغربي، لدى الكاثوليكية

الرسولية الرومانية، والذي يتلخص في حرمان ضحية العملية من خصيئته التوأمين — وترك ما سوى ذلك في مكانه — لأنه لا يراد حرمانه من النكاح، وإنما ببساطة، الحيلولة دون تحول صوت الطفل، عند بلوغه، إلى طبقة صوتية أخرى. وروى مانويل للوكريثيا النادرة، التي احتفلا بها كلاهما، عن المنشد الخصي كورتونا الذي كتب إلى الحبر الأعظم إنوسينسيو الحادي عشر طالباً منه الإذن بالزواج. متذرعاً بأن الخصاء قد تركه سالماً للتسخن. فكتب قداسته، الذي لم يكن فيه شيء من البراءة⁽¹⁾، بخط يده على الطالب: «فليتّم خصيه بصورة أفضل». (وقال دون ريغوبيرتو بمرح: «هؤلاء كانوا باباوات»).

هو، هو، مانويل، بطل الدراجات النارية، من كان يتظاهر في دعواته لشرب الشاي بأنه رجل حديث ينتقد الكنيسة، كان قد شرح للوكريثيا أن الخصاء دون دوافع حربية، ولأهداف جمالية، بدأت ممارسته في إيطاليا منذ القرن السابع عشر، وذلك بسبب تحريم الكنيسة لقبول الأصوات النسائية في الطقوس الدينية. وقد نشأت عن هذا الحظر الحاجة إلى التهجين، إلى الذكر ذي الصوت الأنثوي (وهو «صوت ماعزي» أو «زائف» «ما بين المتذبذب والمرتعش» مثلما يوضح الخبير كارلوس غوميث آمات في ملاحظة مدونة في الدفتر) وهو شيء يمكن تصنيعه بعملية جراحية عرضها مانويل بالوصف والتوثيق، ما بين فناجين الشاي والكعك. هناك

(1) - اسم البابا هو إنوسينسيو Inocencio أي البريء.

الطريقة البدائية، وتتم بتغطيس الأطفال ذوي الأصوات الجيدة في ماء جليدي للحيلولة دون حدوث نزف، ثم دق أعضائهم بحجارة العجن («آي، آي!») صرخ دون ريغوبيرتو، ناسياً الجرذان وبحر المتعة). وهناك الطريقة المتطورة، وهي كالتالي: كان الجراح — الحلاق يخذل الطفل بلودانوم الأفيون، ثم يشق عند أصل الفخذ بسكينه المشحوزة للتو، وينتزع من هناك العدة الطرية. ما هي التأثيرات التي تخلفها العملية على الأطفال المغنين الذين يبغون أحياء؟ السمنة، واتساع القفص الصدري، وصوت حاد وقوي جداً، وهذا يعني قدرة غير عادية في المد الصوتي دون أخذ نفس إلا لبرهة قصيرة؛ بعض هؤلاء الخصيان، مثل فارينللي، كانوا يستمرون في مد صوتي دون تنفس لأكثر من دقيقة. في سكون ظلمة المكتب، وبصوت البحر كخلفية، كان دون ريغوبيرتو يستمع بتسلية وفضول أكبر من المتعة، إلى تذبذب تلك الحبال الصوتية التي تتطاوّل في لحن مديد حاد لا ينتهي، مثل جرح طويل في ليل بارانكو. أجل، إنه يشم الآن رائحة لوكريثيا.

«مانويل العملية الجراحية التجميلية، المسمم بالموت»، فكر بذلك بعد قليل، سعيداً بهذه اللقبة. ولكنه تذكر في الحال أنه يستذكر قولاً لأحدهم. مسمم بالموت؟ وبينما يدها تبخثان في الدفتر، كانت ذاكرته تعيد تكوين ذلك المحل الضبابي الضيق في النادي الكريولي، حيث أخذته لوكريثيا في تلك الليلة الفريدة. لقد كانت واحدة من ليالي الغرق التاريخية القليلة في عالم اللهو الليلي، في هذا البلد الغريب الذي يبيعه بوليصات تأمين، والذي هو بلده إدارياً،

هذا البلد الذي أقام فيه وضده مقاطعته المستقلة، والذي تمكن أن يعرف عنه القليل جداً بجهود متكئة ولكنها هائلة. ها هي ذي أبيات فالس الشمم:

أسمو، مثل الآلهة
سأواصل النضال من أجل قدرتي
دون أن أصغي إلى الأصوات الهياية،
أصوات المسممين بالموت.

من دون الجيتار وصوت المغني الذي يكاد يغمى عليه، يضيع شيء من الجرأة الكئيبة والنجسية لمؤلف الكلمات الرمادي. ولكن الأبيات تحافظ، حتى دون الموسيقى، على العبقرية العامة والفلسفة السحرية. من الذي نظم كلمات هذا الفالس الكريولي «الكلاسيكي»، مثلما وصفته لوكريثيا حين أرادت تقصي ذلك؟ وقد تقصتُ ووجدت اسم ناظمه: إنه تيسكلايانى، واسمه ميغيل باث. تصورَ رجلاً بلدياً خشناً وليلياً، يضع لفاعاً حول رقبتة ويعلق جيتاراً في كتفه، ويعزف ألحان السيريناد، ويطلع عليه الفجر في مغاور الفولكلور، ما بين نشارة الخشب والقيء، وتكون حنجرته مجرحة من الغناء طوال الليل. مرعى له على كل حال. فلا بايخو ولا نيرودا⁽¹⁾ مشتركين أنتجا شيئاً يمكن مقارنته بهذه الأبيات التي هي، فضلاً عن ذلك، تنفع للرقص. راودته ضحكة صغيرة ثم عاد يمسك بمانويل

(1) - أهم شاعرين في أميركا اللاتينية في العصر الحديث، الأول تيسر بايخو من البيرو، والثاني بابلو نيرودا من تشيلي.

الجراحة التجميلية، الذي كان يتفقت منه.
بعد محادثات مسائية كثيرة مروية بالشاي، وبعد أن قلب على
دونيا لوكريثيا موسوعته المعلوماتية حول الخصيان الأتراك
والمصريين، والخصيان النابوليين والرومانيين، أقدم سائق الدراجات
النارية السابق («مانويل عملية التجميل الجراحية، مانويل البول
الدائم، المبلل، المنقط، مانويل كيس السوائل» ارتجل دون ريغوبيرتو
بمزاج كان يتحسن لحظة بعد أخرى) نقول إنه أقدم على الخطوة
الكبرى.

— وماذا كان رد فعلك حين أخبرك بذلك؟
كانا قد شاهدا للتو في تلفزيون غرفة النوم فيلم **صدور**، وهو
ميلودراما جميلة لفيسكونتي، وكان دون ريغوبيرتو يُجلس زوجته
على ركبتيه، هي بقميص النوم وهو بالبيجاما.

وردت دونيا لوكريثيا:

— أصبتُ بالبلادة. أتظن أن ما قاله ممكن؟

— إذا كان قد قاله وهو يحطم يديه ويبكي، فلا بد أن يكون
ممكناً. ولماذا سيكذب عليك؟

— لم يكن هناك أي سبب بالطبع — خرخرت وهي تتلوى —
إذا ما واصلت تقيلي هكذا من العنق فسوف أصرخ. ما لا أفهمه هو
لمماذا أخبرني بذلك.

— إنها الخطوة الأولى — وكان فم دون ريغوبيرتو يتسلق
الرقبة الدافئة حتى وصل إلى الأذن، فقبلها أيضاً، ثم أضاف: —
وفي الخطوة التالية، سيطلب منك أن تسمح لي بأن يراك، أو أن

يسمعك على الأقل.

— لقد روى لي ذلك لأنه سيشعر بالتحسن إذا ما أخبر أحداً
بسرّه — حاولت دونيا لوكريثيا أن تبعده عنها فاضطرب نبض
دون ريغوبيرتو، وأضافت هي: — فمعرفة أنه بأني أصبحت
أعرف، جعله يشعر بأنه أقل وحدة.

وألح زوجها على تقبيل أذنها ببطء:

— أتراهنين بأنه سيعرض عليك ذلك في دعوة الشاي

التالية؟

انتفضت دونيا لوكريثيا من بين ذراعيه، مقررة أن تقبله أيضاً:
— عندئذ سأغادر بيته وأصفق الباب. ولن أعود لزيارته
مطلقاً.

لم تفعل شيئاً من كل هذا. فقد طلب منها مانويل الجراحة
التجميلية ذلك بكثير من المذلة والعبودية وبكاء الضحية، وبكثير من
الاعتذار واللين، فلم تملك الشجاعة (ولا الرغبة أيضاً؟) في
إغضابه. أ قالت له «هل نسيت بأني سيدة متزوجة ومحترمة؟» لا.
وهل قالت «إنك تستغل صداقتنا وتحطم فكري الطيبة عنك؟» أيضاً
لا. لقد اكتفت بطمأننة مانويل الذي كان شاحباً، خجلاً، يتوسل إليها
ألا تسيء به الظن، وألا تغضب، وألا تحرمه من صداقتها العزيزة
على قلبه. إنها عملية عالية الاستراتيجية وناجحة، ذلك أن لوكريثيا
المشفقة على كل هذه الدراما النفسية، عادت لتناول الشاي معه —
أحس دون ريغوبيرتو بإبر وخز صينية في صدغيه — وانتهى
بها الأمر إلى إرضائه. لقد سمع المسمم بالموت تلك الموسيقى

الفضية، لقد تضمخ بإيقاع ذلك السائل المتدفق. هل سمع فقط؟ ألم يتفرج أيضاً؟

فاعترضت لوكريثيا وهي تلجأ إليه وتكلمه في صدره:
— أقسم لك أن لا. لقد فعلت ذلك في الظلمة التامة. كان هذا هو شرطي. وقد نفذه. وسمع.

كانا قد شاهدا وهما في الوضع نفسه شريط فيديو لكارمينا بورانا في أوبرا برلين، من إخراج سيجي أوساوا وكورال بكين.
— هذا ممكن — رد عليها دون ريغوبيرتو، وكانت مخيلته تتخيل الكلمات اللاتينية تتعالى من أفراد الكورال (أهناك خصيان أيضاً بين هؤلاء الكوراليين ذوي العيون الضيقة؟) وأضاف: — ومن الممكن أيضاً أن تكون قدرة مانويل البصرية قد تطورت بصورة استثنائية. ومن الممكن أنه كان يراك بينما أنت لا ترينه.

وواصلت دونيا لوكريثيا النقاش، ولكن دون قناعة كبيرة الآن:
— إذا بدأنا بوضع التكهّنات، فكل شيء يصير ممكناً. ولكن، حتى إذا كان قد رأى، فإن ما رآه لا يكاد يكون شيئاً يذكر.

كانت الرائحة هناك ولم يكن ثمة مجال للشك: مجيدة، حميمية، بحرية بعض الشيء مع ذكرى فاكهية. أغمض عينيه وتنشقها بشراهة بفتحتي أنفه الواسعتين. وفكر بحنان: «إنني أشم روح لوكريثيا». انسكاب ذلك التدفق المرح في مقعد المرحاض لم يكن يطغى على الرائحة، وكان لا يكاد يضيفي إلا لمسة فيسيولوجية خفيفة على ما كان شذى خفياً، رطوبة غدديّة، رشحاً غضروفيّاً، إفراز عضلات يتكاثف ويختلط في تضوع كثيف،

باسل، منزلي. فتذكر دون ريغوبيرتو أبعد لحظات طفولته — عالم من الحفاضات والبودرة، من القيء والبراز، من الكولونيا وقطع الإسفنج المبللة بماء دافئ، وثدي عجيب — وليالي تشابكه مع لوكريثيا. آه، أجل، كم يفهمُ الآن جيداً سائقَ الدراجات النارية المبتور. ولكن، لم يكن بحاجة إلى أن يكون متنافساً في سباق فارينيللي ولا أن يمر بمعاملة العملية الجراحية لكي يستوعب هذه الثقافة، ويتحول إلى هذه الديانة، وأن يشعر، مثل المتسمم مانويل، ومثل أرمل نيرودا، ومثل كثيرين من مجهولي السمع والشم والخيال (فكر برئيس وزراء الهند، التسعيني رارجي ديساي، الذي كان يقرأ خطاباته مع توقفات ليشرّب رشقات من بوله؛ «آي، لو أنه كان بول زوجته!»)، وأن يشعر بأنه ينتقل إلى السماء وهو يرى ويسمع كائنه المحبوب يقدم إليه هذا الطقس مقرفصاً أو جالساً، بمظهر غير مبال، عملي، لتفريغ مثانته، يسمو إلى استعراض، إلى رقصة غرامية، إلى مقدمة أو إلى ملحق (وبالنسبة إلى مقطوع الرأس مانويل، إلى مكافئ) لعملية ممارسة الحب. امتلأت عينا دون ريغوبيرتو بالدمع. فقد أعاد اكتشاف ليل بارانكو الصافي والوحدة التي هو فيها ما بين لوحات وكتب الانغلاق على الذات.

— لوكريثيا الحبيبة، بحق أحب شيء إليك — ترجى، توسل، مقبلاً شعر حبيبته المفلت — بولي من أجلي أنا أيضاً.

— أولاً، يجب أن أتأكد من أن الحمام سيكون مظلاً تماماً بعد إغلاق الأبواب والنوافذ — قالت دونيا لوكريثيا ببراعة متينة منفذ الوصايا —. وعندما تحين اللحظة، أناديك. فتدخل دون ضجة،

حتى لا تقطعني. وتجلس في الركن. لا تتحرك ولا تتطرق بكلمة. في أثناء ذلك تكون أربع كؤوس الماء قد بدأت مفعولها. لا أريد أي صوت، ولا أي نفس، ولا أي حركة يا مانويل. فإذا حدث غير ذلك سأذهب ولن أدوس هذا البيت بعدها. يمكنك أن تبقى في ركنك ريثما أمسح وأرتب ثوبي. وفي لحظة الخروج، تستطيع أن تقترب، زاحفاً، وتقبل قدمي شاكراً.

وهل فعل ذلك؟ بكل تأكيد. لقد زحف نحوها على الأرض المبلطة وقرب فمه من حذائها بامتنان كلبى. بعد ذلك سيغسل يديه ووجهه، وعيناه مضمختان، ويذهب للقاء لوكريثيا في الصالة، وسيقول لها، راشياً، إنه لا يجد كلمات الشكر المناسبة، وإن ما فعلته من أجله هو سعادة لا تقدر. وبعد أن يتقل عليها بالإطراء، سيخبرها بأنه كان في الواقع هكذا منذ صغره، وليس منذ سقوطه في الوهدة. وأن الحادث قد أتاح له أن يظهر أن مصدر متعته الوحيد هو ما كان يسبب له خجلاً كبيراً ويخفيه عن الآخرين وعن نفسه. لقد بدأ كل شيء وهو طفل صغير، حين كان ينام في غرفة أخته الصغيرة، وكانت المربية تنهض في منتصف الليل لتفرغ سوائلها. لم تكن تزعج نفسها بإغلاق الباب، فكان يسمع بوضوح الدفق الهامس، البلوري، المتردد، الذي كان يهدل له ويُشعره بأنه ملاك في السماء. لقد كان ذلك الصوت هو الأجل، والأكثر موسيقى، والأشد نداوة بين ذكريات طفولته. إنها تفهمه، أليس كذلك؟ لوكريثيا العظيمة تفهم كل شيء. لا شيء يُفزعها في لفافة متاهة النزوات البشرية المتشابكة. مانويل يعرف ذلك، ولهذا يقدرها، ولهذا تجرأ

أيضاً على الطلب منها. ولولا مأساة الدراجة النارية لما كان طلب شيئاً من ذلك على الإطلاق. لأن حياته كانت، حتى طيران دراجته نحو الهاوية الصخرية، مجرد كابوس فيما يتعلق بالحب والجنس. فما كان يلهبه هو شيء لم يتجرأ يوماً على طلبه من الفتيات المحترمات، وإنما كان يقتصر على مفاوضة المومسات بشأنه. وكم من الإذلال كان يتحمل، رغم أنه كان يدفع المقابل، وكم من الضحك، والسخرية، والنظرات المزدرية أو المستهزئة التي كانت تريكه وتُشعره بأنه مجرد قمامة.

وكان هذا هو السبب الذي دفعه إلى قطع علاقته بعشيقاته كثيرات. فجميعهن لم يتوصلن إلى منحه هذه الجائزة الاستثنائية التي منحته إياها دونيا لوكريثيا: دفقة البول. وهزت دون ريغوبيرتو قهقهة مشفقة. يا للتعيس البائس! من كانت تستطيع أن تتصور، بين الجميلات اللواتي يخرجن، ويضحكن، ويعشقن النجم الرياضي، بأن سائق الدراجة النارية المتألق، لا يريد مداعبتهن، أو تعريتهن، أو تقبيلهن، أو اختراقهن: وإنما يريد سماعهن وهن يتبولن وحسب. ولوكريثيا النبيلة العظيمة قد تبولت من أجل مانويل المنكوب! هذا التبول سيبقى مطبوعاً في ذاكرته مثل المآثر البطولية في كتب التاريخ، ومثل معجزات القديسين. لوكريثيا، الاسم الروماني الذي يعني المحظوظة! لوكريثيا؟! وقلبت يدها صفحات دفتر بسرعة، ولم تتأخر الإشارة في الظهور:

«لوكريثيا، سيدة رومانية، مشهورة بجمالها وفضائلها. اغتصبها سيكستو تاركينو، ابن الملك تاركينو المتكبر. وبعد أن أخبرت أباها

وزوجها بالإهانة وحرضتهما على الثأر لها، قتلت نفسها أمامهما بغرس خنجر في صدرها. وقد أدى انتحار لوكريثيا إلى طرد ملوك روما وإقامة الجمهورية في العام 509 قبل الميلاد. وقد تحولت صورة لوكريثيا إلى رمز للحياء والشرف، وصارت رمزاً للزوجية الشريفة قبل كل شيء.»

«إنها هي، إنها هي نفسها»، فكر دون ريغوبيرتو. فزوجته يمكن لها أن تثير كوارث تاريخية وأن تُخلد كرمز. أُنكون رمزاً للزوجة الشريفة؟ أجل بالطبع، طالما لم نفهم الشرف بمعناه المسيحي. فأبي زوجة كانت ستشاطر زوجها تخيلاته مثلما فعلت هي؟ ولا واحدة. وماذا عن مسألة فوننشيتو؟ حسن، من الأفضل الالتفاف حول هذه الرمال المتحركة. ثم، ألم يبق كل شيء ضمن الأسرة؟ وهل فعلت هي ما فعلته تلك المرأة الرومانية حين اغتصبها سيكستو تاركينو؟ واخترق جليد قلب دون ريغوبيرتو. وسعى بتكشيرة مرعبة إلى استبعاد صورة لوكريثيا ملقاة على الأرض وخنجر مغروس في قلبها. ولكي يتجنب تلك الصورة، استعاد صورة سائق الدراجة النارية المبهور باستقطارات المئات الأنثوية. أهي الأنثوية وحدها؟ أم الذكرية أيضاً؟ هل يتهيج بالطريقة نفسها لمشهد رجل يتبول؟

— على الإطلاق — اعترف مانويل فوراً، وقال ذلك بنبرة شديدة الصدق لم تجد لوكريثيا معها بدءاً من تصديقه. حسن، ولا يمكن أن يكون صحيحاً كذلك أن حياته قد كانت مجرد كابوس بسبب تلك الحاجة (وكيف نسميها إذا لم نقل تلك

الرديلة؟) فعلى الرغم من المشهد القاحل لعدم الرضا والخيبة، كانت هناك لحظات بلسمية جياشة، توفرها المصادفة على الدوام تقريباً، إنها تعويضات متواضعة لكربه. فمثلاً، تلك الغسالة التي يتذكر مانويل وجهها بالعاطفة التي يتذكر بها الخالات أو العرابيات الأكثر ارتباطاً بدفع الطفولة. كانت تأتي لتغسل الملابس مرتين كل أسبوع. ولا بد أنها كانت مصابة بالتهاب المثانة، لأنها كانت تهرع طوال الوقت من وراء حوض الغسيل أو طاولة الكوي إلى مرحاض الخدم المجاور للمطبخ. وهناك يكون الطفل مانويل، مستعداً على الدوام، متسلفاً السقيفة، ووجهه ملتصق بالأرضية، وشاحداً سمعه. ويأتي الكونشيرتو، الشلال المتدفق الغزير، الطوفان الحقيقي. لقد كانت تلك المرأة مثانة كروية، خزاناً حياً، بالنظر إلى حدة، وغزارة، وتعدد، ورنين تبولاتها. في إحدى المرات — ورأت دونيا لوكريثيا حدقتي سائق الدراجة النارية الابتر تفضحان تلذذهما —، رآها مانويل. أجل، رآها. حسن، لم يرها كلها. ففي عملية جريئة من خلال سياج الحديقة، تسلق حتى منور المرحاض، وبينما هو معلق في الهواء لثوان لذيذة، لمح كتلة الشعر، والكتفين، والساقين بجوربيها الصوفيين، والحذاء الذي دون كعب للمرأة الجالسة وهي تنزح سوائلها بصخب ودون مبالاة. أي، يا للسعادة!

وهناك أيضاً تلك الأمريكية الشقراء والبرونزية التي فيها شيء من الرجولة، فقد كانت تمضي على الدوام بجزمة وقبعة رعاة بقر، وقد جاءت للمشاركة في سباق الدوران حول جبال الأنديز. وكانت سائقة دراجة نارية جريئة كادت أن تكسب تلك البطولة.

ولكن مانويل لا يتذكر كثيراً مهارتها على الدراجة (وهي من ماركة هارلي دافيسون بالطبع) وإنما يتذكر أساليبها غير الحذرة، وعدم تصنعها، مما كان يتيح لها بعد كل مرحلة في السباق، أن تشارك المتسابقين في غرف النوم، وأن تستحم أمامهم إذا لم يكن هناك سوى حمام واحد، بل وكانت تدخل إلى المرحاض لقضاء حاجتها دون ارتباك إذا كان هناك في الغرفة نفسها عدد من المتسابقين، يفصلهم عنها حاجز رقيق. يا لتلك الأيام! لقد عاش مانويل فرفة مزمنة، وانتصاب مديد في العضو الذي ذهب، وهو يستمع إلى تلك الاستنزافات السائلة للمتحررة ساندي كانل التي حوّلت تلك المنافسة إلى حفلة متواصلة بالنسبة إليه. ولكن لم يكن هناك مجال لمقارنة الغسالة ولا ساندي كانل ولا أي واحدة أخرى من التجارب العرضية أو الارتزاقية لميثولوجياه بالمتعة الفائقة التي أحس بها الآن، وبالمنّ البولي الذي أشعرته فيه لوكرينثيا بأنه إله.

ابتسم دون ريغوبيرتو راضياً. لم يكن هناك أي جرد فيما حوله. فمعبد كارنيجي، وبراهمته، وجيوش القوارض وصواني الحساء الطلو كانت كلها فيما وراء محيطات وقارات وغابات. وهو هنا، وحيداً في الليل الذي بدأ ينتهي، في ملجئه ذي اللوحات والدفاتر. كانت تباشير الفجر قد بدأت تطل في الأفق. واليوم سينتأب أيضاً في المكتب. أهنك رائحة ما؟ رائحة الأرملة كانت قد تلاشت. ثمة رائحة؟ إنها الأمواج، وضاع بينها رنين سيدة تتبول.

وفكر باسمًا:

«أنا رجل لا يغسل يديه بعد التبول، وإنما قبله».

قائمة طعام مصغرة

أعرف أنك تحب أن تأكل القليل والصحي، شرط أن يكون لذيذاً، وأنا جُوهِزة لأن أرضيك أيضاً على المويئدة.

سأذهب في الصبيحة إلى السوق وأشتري الحليب الأكثر طزاجة، والخبيزات الناضجة للتو، والبرتقليات الأكثر رحيقاً. وسأوقظك وأنا أحمل طُبِقات الفطور، وزُهيرة عابقة ومعها قُبيلة. «ها هو عصيرك دون بُذيرات، وخبيزك المحمص مع مُريميلات

الفريز وفنيجان قهيوتك مع الحليب دون سُككرات يا سيّدي.»
ومن أجل غدائك، سُلِطة ولبن فقط، مثلما يروقك. سأغسل الخُسيسات حتى تلمع، وأقطع الطُيمطمات ببنية، مستلهمة لُويحات مكتبك. وأتبلها بزُبييت وُخليل وقُطيرات من لعابي، وبدلاً من المُلح سأكسب دُميعاتي.

وفي الليالي، سأعد كل يوم إحدى أُكيلاتك المفضلة (لدي قوائم وُجبيات لسُنّية كاملة، دون أن أكرر ولو مُريرة واحدة). يوكيشيتو مع المُرِقة، فاصولياء مصفاة، بيبانثيتو، سُلِطة بطاطا وبيض مسلوق مع الزيتون، خضار مشكلة، وشُريحات فيليه مع قُطيرات من نبيذ تشابيليتو، شُريحات على طريقة تشوريانا، سُميك كورفينا مطبوخ، سُلِطة البطاطا المسلوقة مع القريدس، أو قريدس على طُريقة ليما،

رز مع البط، رز مغطى، تاكوتاكوثيتو، روكوتو محشو، ودجاج بالثوم. ولكن، من الأفضل أن أتوقف، حتى لا أفتح شهيتك. وسيكون هناك بالطبع كويس نبيذك أو بيرتك الباردة جيداً لتختار.

أما الحلوى، فستكون غوارغوريتو الجدة، تنهدات على طريقة ليما، فطيرات مقلية بالعسل، وكعيكات بالعسل، وزلابية، وفصوص الراهبة، وعجينة اللوز بالسكر، وحلوى الجبن المجمد، والعسل المطبوخ والمجمد، وحلوى حبيبات اللوز على طريقة دونيا بيبا، والعصيدة وفطائر التين مع الكُعيك.

هل تقبلني طاهية لديك؟ إنني نظيفة، فأنا أستحم مرتين في اليوم على الأقل. لا أمضع عُليكات، ولا أدخن سُوجرات، ولا توجد شعيرات تحت إبطي، ويدي وقدمي تامة مثل نهدي وطوطي. ومستعدة لأن أعمل كل الساعات اللازمة لأُسعد دُويك وبُطينك. وإذا اقتضى الأمر، فأنا مستعدة لأن ألبسك، وأصوبنك، وأحلق دُفَنك، وأقلم أظفارك وأنظفك عندما تفعل يوم الاثنين. وفي الليالي، أغطيك بجُسيدي حتى لا تصيبك البردية في السرير. وفضلاً عن إعداد طعامك، سأكون حاميتك، ومدفأتك، وآلة حلاقتك، ومقصك، وورقتك الصحية.

هل تقبلني يا سيدي؟

لك، لك، لك،

الطاهية الكاملة.



VI. الرسالة المغفلة

بدل أن تغضب، مثلما حدث في الليلة السابقة حين ذهبت إلى الفراش وهي تحمل الورقة المجددة في قبضتها، استيقظت دونيا لوكريثيا بمزاج طيب وراضية. كان يسري فيها إحساس شهواني خفيف. مدت يدها وتناولت الورقة الحبيبية ذات اللون الأزرق الشاحب، ولطيفة اللمس.

«قبالة المرأة، فوق سرير أو أريكة...» لديها سرير، ليس من حرير الهند المنقوش يدوياً ولا من الباتيك الإندونيسي، وهكذا لن تتجز هذا المطلب الغرامي الذي دون وجه. أجل، يمكنها أن ترضيه بالاستلقاء على ظهرها، عارية، مفلتة الشعر، وتجذب ساقتها، وتبعد

رأسها مفكرة أنها داناييه لكلميت (وإن كانت لن تصدق ذلك) وتتظاهر بأنها نائمة. ويمكنها بكل تأكيد أن تنظر إلى نفسها في المرآة وهي تقول : «إنني مثيرة متعة وتقدير، إنني محط حلم ومحبوبة». وبابتسامة ساخرة وعينين تلمعان كحشرتين مضئتين تعكسهما مرآة خوان الزينة، أزاحت الملاءات ولعبت لعبة مواصلة تنفيذ التعليمات. ولكن، بما أنها لم تكن ترى سوى نصف جسدها، فإنها لم تعرف إذا ما كانت ستتوصل إلى بعض التشابه في محاكاة لوحة كلميت التي بعثها إليها المراسل الشبح في صورة سيئة على بطاقة بريدية.

وبينما هي تتناول الفطور، وتتحدث ساهية مع خوستينيانا، ثم وهي تحت الدوش بعد ذلك، وفي أثناء ارتداء ثيابها رازت مرة أخرى الأسباب لإعطاء اسم ووجه لمرسل الرسالة. أهو دون ريغوبيرتو؟ فونتشيتو؟ وماذا إذا كان أمراً حاكاه كلاهما؟ يا لهذا الخاطر السخيف! لا، هذه فكرة لا رأس لها ولا أساس. المنطق يجعلها تميل إلى التفكير بريغوبيرتو. إنها طريقة لجعلها تعرف بأنها، على الرغم مما حدث ومن انفصالهما، ما تزال حاضرة على الدوام في هذياناته. إنها طريقة لسبر إمكانية المصالحة. لا. فقد كان ما جرى شديد القسوة عليه. لن يستطيع أن يصلح مطلقاً المرأة التي خدعته مع ابنه بالذات، وفي بيته بالذات. فهذه الدودة الزنخة، هذا الاعتداد بالنفس، يمنعه من ذلك. إذا لم يكن زوجها السابق إذن هو مرسل الرسالة المغفلة، فإن مرسلها هو فونتشيتو. أليس مهووساً بالرسم مثل أبيه؟ أليس لديه العادة الجيدة والسيئة نفسها بخلط حياة

اللوحات مع الحياة الحقيقية؟ أجل، إنه هو. وقد كشف نفسه كذلك،
بذكره كلّيمت. ستجعله يعرف أنها تعرف وتخرجه. هذا المساء
بالذات.

بدأت ساعات الانتظار طويلة جداً لدونيا لوكريثيا. كانت تجلس
في صالة الطعام، تنتظر إلى الساعة، خائفة أن يتخلف عن المجيء
في هذا اليوم بالذات. «رباه، تبدين يا سيدتي وكأن حبيبك سيأتي
لزيارتك أول مرة»، قالت خوستينيانا ذلك مزحة. فتوردت هي حياء
بدل الاحتفال بالمزحة. ما إن ظهر بوجهه الجميل وجسده الرقيق
المحشور في الزي المدرسي المشعث، حتى رمى حقيبته على
السجادة وحيها بقبلة على خدها، فوجهت إليه دونيا لوكريثيا هذا
التحذير:

— علينا أن نتحدث في أمر مهم أيها الرجل الصغير.

رأت الملاح المستسلمة والعينين الزرقاوين تفتحان قلقتين.
كان قد جلس قبالتها، مقاطعاً ساقيه. ولاحظت دونيا لوكريثيا أن
رباط إحدى فرديتي حذائه كان مفلتاً.

— عمّ سنتحدث يا خالتي؟

— عن شيء قبيح جداً — رددت وهي تريه الرسالة
والبطاقة البريدية — عن أكثر الأشياء خسة وقذارة في الوجود:
إرسال رسائل مغلّة.

لم يتلعثم الطفل ولم يحمر وجهه ولم يرمش. بقي ينظر إليها
بفضول، دون أدنى تملل. فمدت إليه الرسالة والبطاقة البريدية ولم
ترفع عينيها عنه، بينما كان فونتشيتو يكتسي بالجدية، وطرف لسانه

بين أسنانه، وهو يقرأ الرسالة المغفلة كمن يتهجي. وكانت عيناه المتيقظتان تعودان إلى السطور مرة بعد أخرى.

— هناك كلمتان لا أفهماهما — قال أخيراً، وهو يحيطها بنظرة شفاقة —. هيلينية وباتيك. هناك فتاة في معهد الرسم تدعى هيلينة. ولكن الكلمة مستخدمة هنا بمعنى آخر، أليس كذلك؟ وكلمة باتيك هذه لم أسمع بها مطلقاً من قبل. ما معناها يا خالتي؟ انزعجت دونيا لوكريثيا:

— لا تتظاهر بالحماسة. لماذا كتبت لي هذه الرسالة؟ أكنت تظن أنني لن أنتبه إلى أنك أنت الفاعل؟

أحست بشيء من الضيق لحيرة فوننتشيتو التي بدت واضحة الآن، فبعد أن حرك رأسه مرتين بحيرة، أعاد رفع الرسالة إلى عينيه ليقرأها، محرراً شفثيه بصمت. وأحست بالمفاجأة تماماً حين رفع الطفل رأسه، ورأت ابتسامته تمتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى. فقد رفع ذراعيه بسعادة غامرة، وقفز نحوها وعانقها مطلقاً صرخات الانتصار:

— لقد كسبنا يا خالتي! ألم تلاحظي ذلك؟ فأبعدته جانباً:

— وما الذي سألاحظه أيها الجني الصغير. كان ينظر إليها برقة، مشفقاً عليها:

— ولكن، يا خالتي.. إنها خطتنا. إنها تتجح. ألم أقل لك إنه لا بد من جعله يحس بالغيرة؟ ابتهجي، إننا نتقدم جيداً. ألا تريدان المصالحة مع أبي؟

ترددت دونيا لوكريثيا:

— لست متأكدة بأي حال أن هذه الرسالة المغفلة هي من ريغوبيرتو. بل إنني كنت أشك بأنها منك أيها الذبابة الميتة. صممت، لأن الطفل كان يضحك وهو ينظر إليها بالأريحية الحانية التي يحتاج إليها فقراء الروح.

— ألا تعرفين أن كليمت كان أستاذ إيغون شيلي؟ — هتف فجأة، مستبقاً سؤالاً كان على شفيتها — وأن شيلي كان يقدره. وقد رسمه وهو على فراش الموت. لوحة جميلة بالفحم، احتضار، في عام 1912. ورسم في السنة نفسها لوحة «النسك المتعبون»، حيث يظهر هو وكليمت بمسوح رهبان.

— إنني مفتتحة بأنك قد كتبتها أنت أيها الصبي العجوز الذي يعرف كثيراً — عادت دونيا لوكريثيا إلى ثورتها، وكانت تشعر بأنها موزعة بين تكهنات متناقضة وكان يستفرها وجه فونتشيتو المطمئن وهو يتحدث سعيداً جداً من نفسه.

— ولكن يجب أن تفرحي يا خالتي بدل أن تسيئي التفكير هكذا. هذه الرسالة أرسلها لك أبي لكي تعرفي أنه قد سامحك، وأنه يريد المصالحة. كيف لم تنتبهي إلى ذلك.

— هراء. هذه رسالة مغفلة سفيهة وقذرة بعض الشيء، وليست أكثر من هذا.

فاعترض الطفل بحرارة:

— لا تكوني جائرة إلى هذا الحد. إنه يقارنك بلوحة لكليمت، يقول إنه حين رسم هذه الفتاة كان يحزر كيف ستكونين. أين هي

القدارة؟ إنه غزل جميل. وهي طريقة بحث عنها أبي لإعادة الاتصال بك. هل ستردين عليه؟

— لا يمكنني أن أرد عليه، فهو لا يشير بأي حال إلى أنه هو.

— وكانت دونيا لوكريثيا الآن أقل ارتياباً. أريد مصالحتي حقاً؟
وكرر الطفل بسعادة:

— ها أنت ترين، جعله يشعر بالغيرة يؤدي الهدف بصورة رائعة. منذ أن قلت له إنني رأيتك تتأبطين ذراع رجل وهو يتصور أموراً. لقد ارتعب كثيراً إلى حد أنه كتب لك هذه الرسالة. الستُ تحرياً جيداً يا خالتي؟

قاطعت دونيا لوكريثيا ذراعها مفكرة. فهي لم تكن تتطلع على الإطلاق بجدية إلى فكرة المصالحة مع ريغويرتو. لقد سايرت فونتشييتو في خطته لتتسلى. وفجأة، وللمرة الأولى، لم تعد فكرة المصالحة تبدو لها وهماً بعيد المنال، وإنما شيء يمكن أن يحدث. أهذا ما تريده؟ أتعود إلى البيت في بارانكو، مجددة الحياة السابقة؟
وألح الطفل:

— ومن سوى أبي يمكنه مقارنتك بلوحة لكلمت. ألا ترين ذلك؟ إنه يذكرك بالألعاب اللوحات التي كنتم تمارسها في الليالي. أحست دونيا لوكريثيا بأنها تختنق.

— ما الذي تقوله — تلعثمت، دون أن تكون لديها القوة على تكذيبه.

فرد الطفل مومناً:

— ولكن، يا خالتي. تلك الألعاب. حين كان يقول لك: أنت

اليوم كليوباترا، واليوم فينوس، واليوم أفروديت. وتبدئين أنت بمحاكاة اللوحات لكي ترضيه.

— ولكن، ولكن — في ذروة الخجل الخانق لم تكن دونيا لوكريثيا قادرة على إبداء الغضب، وكانت تشعر بأن كل ما تقوله يكشفها أكثر: — من أين تأتي بهذا الكلام، لديك مخيلة شديدة الانحراف، وشديدة.. شديدة...

فأجهز عليها الطفل:

— أنت نفسك أخبرتني بذلك. يا لعقلك يا خالتي. هل نسيت؟ أصابها البكم. هي التي قالت له ذلك؟ حكّت ذاكرتها، ولكن دون جدوى. لا تتذكر أنها تناولت هذا الموضوع مع فونتشييتو ولو بطريقة غير مباشرة. لم تفعل ذلك مطلقاً، طبعاً لم تفعل. ولكن، كيف عرف؟ أليكون ريغوبيرتو قد باح له بأسراره؟ مستحيل. فريغوبيرتو لا يحدث أحداً حول تخیلاته ورغباته. بل إنه لم يكن يتحدث معها هي نفسها في ذلك، خلال النهار. لقد كانت قاعدة حافظا عليها طوال عشر سنوات من الحياة الزوجية؛ فليس هناك أي إشارة، لا بالمزاح ولا بالجد، خلال النهار لما يقولانه ويفعلانه في الليل سراً في مخدعهما. حتى لا يمتنها الحب ويحافظا على هالته السحرية، المقدسة، كما كان يقول ريغوبيرتو. تذكرت دونيا لوكريثيا الأزمنة الأولى لزواجهما، حين بدأت تكتشف الجانب الآخر من حياة زوجها، وتلك المحادثة عن كتاب جوهان هوزينغا «الإنسان الضاحك»، أحد أول الكتب التي رجاها أن تقرأها، مؤكداً لها أن في فكرة اتخاذ الحياة لعبة وفكرة الحيز المقدس يوجد مفتاح

سعادتها المستقبلية. وفكرت: «تبين أن الحيز المقدس هو الفراش». وقد كانا سعيدين، يلعبان هذه الألعاب الليلية التي كانت تذهلها فقط في البدء، ولكنها راحت تسيطر عليها شيئاً فشيئاً وتبهّر أيامها — لياليها — بخيال متجدد على الدوام. إلى أن جاءت حماقتها مع هذا الطفل.

— من يضحك وحده، يكون قد تذكر شقاواته. — أخرجها من شرودها صوت خوستينيانا الطازج التي أحضرت صينية الشاي — مرحباً يا فوننشيتو.

— لقد كتب أبي رسالة إلى الخالة وقريباً سيتصلحان. مثلما قلت لك يا خوستيتا. هل صنعت لي بسكويتاً؟

— بسكويت محمص مع الزبد ومرجى الفريز — والتفتت خوستينيانا إلى دونيا لوكريثيا وهي تفتح عينيها: — هل سنتصلحين مع السيد؟ هل سنعود ثانية إلى بارانكو إذا؟ — مجرد حماقات. ألا تعرفينه؟ — قالت السيدة لوكريثيا. واحتج فوننشيتو وهو ينقض على البسكويت بينما دونيا لوكريثيا تسكب له الشاي:

— سنرى إذا كانت حماقات. هل تراهنين؟ ماذا ستعطيني إذا ما تصالحت مع أبي؟

فقالت السيدة لوكريثيا بخضوع:

— لقمة محروقة. وماذا ستعطيني أنت إذا خسرت؟

فضحك الطفل وهو يغمز بعينه:

— قبلة.

وأطلقت خوستينيانا فهقمة عالية:

— من الأفضل أن أذهب وأترك العاشقين وحدهما.

— اصمتي أيتها المجنونة. أنبتها دونيا لوكريثيا، حين لم يعد

بإمكان الفتاة التي ابتعدت أن تسمعها.

شربا الشاي بصمت. كانت لوكريثيا مشبعة بذكريات حياتها مع ريغوبيرتو، متألّمة لحدوث ما حدث. فهذه القطيعة لا سبيل إلى إصلاحها. لقد كان ما حدث فظيماً، ولم يعد يحتمل التراجع. وهل ستكون حياة الثلاثة معاً في البيت نفسه ممكنة؟ وفي هذه اللحظة خطر لها أن يسوع المسيح قد أذهل حكماء الهيكل وهو في الثانية عشرة حين حاورهم محاوراً الند للند في شؤون لاهوتية. أجل، ولكن فونتشييتو ليس طفلاً معجزة مثل يسوع المسيح. إنه مثل إبليس، أمير الظلمات. ليست هي، وإنما هو، هو، الطفل المزعوم من يتحمل الذنب في كل هذه القصة.

وأخرجها الطفل من خيالها:

— أتعرفين أن هناك أشياء أخرى أتشابه فيها مع إيغون

شيلي؟ فأنا وهو مصابان بالشيزوفرينيا.

لم تستطع كبح فهقمتها. ولكن الضحكة انقطعت فجأة، لأنها أحست كما في المرات الأخرى، بأنه قد يضيف شيئاً غائماً وراء ما يبدو شبيهاً بعبارة طفولية.

— وهل تعرف أنت ما هي الشيزوفرينيا؟

فبدأ فونتشييتو بترتيل درس محفوظ، بمبالغة:

— هي أن تكوني شخصاً واحداً وتظنين نفسك شخصين

مختلفين أو أكثر. لقد شرح لي أبي ذلك الليلة.

قدمت دونيا لوكريثيا:

— حسن، يمكن أن تكون كذلك. لأن فيك عجزاً وطفلاً.

ملاكاً وشيطاناً. وما علاقة هذا بإيغون شيلي؟

وتمدد وجه فوننتشيتو مرة أخرى بابتسامة راضية. وبعد أن تلعث بسرعة «انتظري يا خالتي»، بحث في حقيبته عن كتاب اللوحات الذي لا يغيب. أو بالأحرى الكتب، لأن السيدة لوكريثيا تتذكر بأنها رأت ثلاثة كتب على الأقل. هل يحمل واحداً منها على الدوام في حقيبته؟ إنه يتجاوز الحد في نزوته بالتطابق في كل شيء وطوال الوقت مع هذا الرسام. لو كان لها اتصال بريغوبيرتو لاقترح عليه أخذه إلى طبيب نفساني. ولكنها ضحكت على الفور من نفسها. يا للفكرة التي بلا رأس، أقدم نصيحة لزوجها السابق حول تربية الطفل الذي سبب قطيعتها الزوجية. إنها أخذت تتحول إلى الحماقة مؤخراً.

— انظري يا خالتي. ما رأيك.

تناولت الكتاب على الصفحة التي أشار إليها فوننتشيتو وتصفحته لبعض الوقت، محاولة أن تركز في هذه الصور الحارة، المتناقضة، في هذه الوجوه الرجولية التي تظهر أمامها في مجموعات ثنائية أو ثلاثية، تنظر إليها بتصميم، بملابس عادية، وبعباة، وعارية، وشبه عارية، بعضها تغطي عورتها وبعضها تكشف عن عضو منتصب، ضخم، بوقاحة تامة.

وقالت أخيراً لمجرد أن تقول شيئاً:

— طيب، إنها صور ذاتية. بعضها جيد. وأخرى ليس كثيراً.
فأوضح لها الطفل:

— لقد رسم أكثر من مئة صورة. فبعد رمبرانت، شيلي هو
أكثر رسام رسم نفسه.

— هذا لا يعني أنه كان مصاباً بالشيذوفرنيا. بل هو أقرب
إلى النرجسية. وهل أنت هكذا يا فونتشيتو؟

— أنت لم تنتبهي جيداً — قال الطفل وهو يفتح صفحة، ثم
أخرى، ويوجهها مشيراً: — ألم تلاحظي؟ هناك صور ثنائية،
وأحياناً ثلاثية. هذه مثلاً. راؤو أنفسهم، من عام 1911. من تظنين
هذه الشخص؟ إنها هو نفسه، مكرراً. و النبيان (صورة ذاتية
مزدوجة) من عام 1911. دققي فيها. إنه هو نفسه، عارياً
وبالملابس. وصورة ذاتية ثلاثية، من عام 1913. هو، ثلاث
مرات. وثلاث صور أخرى مصغرة، في الجهة اليمنى. لقد كان
يرى نفسه هكذا، كما لو أن هناك عدة إيغون شيلي في داخله.
أليس هذا هو الشيذوفرنيا؟

وبما أنه كان يتلثم وهو يتكلم وكانت عيناه تلمعان، فقد حاولت
دونيا لوكريثيا أن تهدئه، فسايرته:

— حسن، هناك شيء من الشيذوفرنيا، مثل فنانيين كثيرين.
فالرسامون، والشعراء، والموسيقيون، توجد في داخلهم أشياء
كثيرة، وأحياناً لا يتسع لها شخص واحد. أما أنت، فإنك الطفل
الأكثر طبيعية في الدنيا.

غضب ألفونسو:

— لا تكلميني كما لو كنت غيباً يا خالتي. إنني مثلما كان هو وأنت تعرفين هذا جيداً، لأنك قلته للتو. قلتِ إنني عجوز وطفل. ملاك وشيطان. أي أنه لدي شيزوفرينيا.

داعبتُ رأسه بتحبب. وكانت خصل الشعر الشقراء المشعثة تنزلق من يدها، وقد كبحت دونيا لوكريثيا رغبتها في احتضانه بين ذراعيها، وحمله على ركبتيها والهددة له.

— هل تشعر بافتقاد أمك؟ — أفلتت منها العبارة. وحاولت إصلاحها — أعني، هل تفكر فيها كثيراً؟

فقال فوننتشيتو باطمئنان كبير:

— لا أكاد أتذكرها. بل إنني لا أكاد أتذكر وجهها، إلا من الصور. ما أحتاجه هو أنتِ يا خالتي. ولهذا أريدك أن تتصالحي من جديد مع أبي.

— لن يكون ذلك سهلاً. ألا تلاحظ ذلك؟ هناك جراح من الصعب اندمالها. وما حدث لريغوبيرتو هو واحد من هذه الجراح. لقد أحس بإساءة كبيرة، وهو محق. فقد اقترفتُ حماقة لا يمكن غفرانها. لا أدري، ولن أدري مطلقاً ما جرى لي. فكلما فكرت أكثر، بدا لي الأمر أبعد عن أن يُصدق. كما لو أنني لست أنا، وكما لو أن واحدة أخرى كانت تعمل في داخلي، وتحل محلي.

فضحك الطفل مُظهراً مرة أخرى ملامح من أمسكها في خطأ: — أنت أيضاً لديك شيزوفرينيا إذاً يا خالتي.

— قليل منها، ليس كثيراً — وافقت هي —. من الأفضل ألا نتحدث في أمور حزينة. حدثني عن نفسك. أو عن أبيك.

فأبدى فوننتشيتو الوقار وبعض الأهمية:

— وهو أيضاً يفتقدك. ولهذا كتبَ إليك هذه الرسالة المغفلة.
لقد اندمل جرحه ويريد المصالحة.

لم تجد لديها الحماسة لمجادلته. فقد أحست الآن بأن الكآبة قد
تغلبت عليها وبأنها حزينة بعض الشيء.

— وكيف حال ريغوبيرتو؟ هل يعيش حياته كالمعتاد؟

فهز فوننتشيتو رأسه موافقاً:

— من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل، كل يوم. ويبقى
في مكتبه، يستمع إلى الموسيقى، ويتأمل لوحاته. ولكن هذا ليس
إلا ذريعة. إنه لا يحبس نفسه هناك ليقرأ ولا لرؤية الرسوم أو سماع
الموسيقى؟ وإنما ليفكر فيك.

— وكيف تعرف ذلك؟

— لأنه يتكلم معك — أكد الطفل ذلك وهو يخفض صوته
ويلقي نظرة نحو القسم الداخلي من البيت، لعل خوستينيانا تظهر، ثم
أضاف: — لقد سمعته. إنني أقترّب ببطء وألصق أذني ببابه. وهو
لا يتوقف عن ذلك مطلقاً. دائماً يتكلم وحيداً. ويذكر اسمك في كل
لحظة. أقسم لك.

— لست أصدقك أيها الكاذب.

— أنت تعرفين أنني لن أخترع لك أمراً كهذا يا خالتي.
أترين ما أقوله؟ إنه يريدك أن ترجعي.

كان يتكلم بثقة كبيرة بحيث وجدت صعوبة في عدم الانجرار
نحو عالمه هذا شديد الإغواء وشديد الزيف، عالم البراءة والخبث،

النقاء والقدارة، العفوية والحسابات. وفكرت دونيا لوكريثيا: «منذ وقعت تلك القصة لم أعد أشعر بالغم لأنني لم أنجب ابناً». وبدأ لها أنها تدرك السبب. وكان الطفل الجالس على الأرض، وكتاب اللوحات مفتوح عند قدميه، يتفحصها.

— أتعرف أمراً يا فوننتشيتو؟ — قالت دون ترو تقريباً —
أنا أحبك كثيراً.

— وأنا أيضاً أحبك يا خالتي.

— لا تقاطعني. ولأنني أحبك، فإنني أشعر بالحزن لأنك لست مثل الأطفال الآخرين. إنك تضيع، بتصرفك مثل الكبار، شيئاً لا يعاش إلا في مثل سنك. إن أروع ما يمكن أن يخطر لأي إنسان هو أن تكون له سنوات عمرك. وأنت تبدد هذه السنوات هباءً.
فقال فوننتشيتو متملماً:

— لست أفهمك يا خالتي. ولكنك قبل لحظة كنت تقولين إنني أكثر الأطفال طبيعية في العالم. هل قمت بتصرف سيئ؟
فقاطعته:

— لا، لا. أعني أنني أحب أن أراك تلعب بالكرة، أن تذهب إلى الملعب، أن تخرج مع صبيان الحي وصبيان مدرستك. وأن يكون لك أصدقاء في مثل سنك. وأن تنظم حفلات، ورقص، وأن تحب التلميذات. ألا تشعر برغبة في عمل شيء من هذا؟
هز فوننتشيتو كتفيه بازدراء، ودمدم دون أن يولي أي اهتمام لما سمعه:

— يا للأمر المملة. إنني لعب بالكرة في الفسحة بين

الدروس وكفى. وأخرج أحياناً مع صبيان الحي. ولكنني أضجر من الحماقات التي تعجبهم. أما البنات، فهن أكثر حماقة. هل يخطر لك أنني أستطيع أن أحدثهن عن إيغون شيلي؟ حين أكون مع أصدقائي أحس بأنني أضيع وقتي. أما معك بالمقابل، فأنا أكسب الوقت. أفضل ألف مرة أن آتي للتحدث معك هنا، على أن أدخن مع الصبيان عند كورنيس بارانكو. وما حاجتي إلى البنات إذا كنت أنت موجودة يا خالتي.

لم تدر ما تقول له. والابتسامة التي حاولت إظهارها بدت في أكبر قدر ممكن من الزيف. لقد كان الطفل، وهي متأكدة من ذلك، مدركاً للضيق الذي تشعر به. وبينما هي تنظر إلى وجهه المتقدم، بلامحه المتهيجة من الانشراح، وعينيه اللتين تلتهمانها ببريق رجولي، بدا لها أنه سينقض عليها فجأة ويقبلها من فمها. وفي هذه اللحظة بالذات أحست بالراحة وهي تلمح شبح خوستينيانا. ولكن إحساسها بالراحة لم يعمر طويلاً، لأنها أدركت الأمر حين رأت مغلفاً أبيض في يد الفتاة.

— لقد دسوا هذا المغلف من تحت الباب يا سيدتي.

فصفق فونتشيتو:

— أراهن أنها رسالة مغفلة أخرى من أبي.

امتداح للرهاب ودفاع عنه

من هذا الركن المعزول من الكوكب يا صديقي بيتر سيمبلون —
إذا كانت هذه هي كنيبتك الحقيقية ولم يبدلها بخسة أحد مجتهدى
الصحافة الأفغانية للسخرية منك —، أنقل إليك تضامني مرفقاً
بالتقدير. فمنذ أن سمعت، صباح اليوم، وأنا في الطريق إلى مكتبي،
من نشرة أخبار إذاعة صوت أميركا بأن محكمة سيراكوزا بولاية
نيويورك، قد حكمت عليك بالسجن ثلاث سنوات لأنك تسلفت عدة
مرات سطح بيت جارتك، بهدف التلصص عليها وهي تستحم، بدأت
أعدّ الدقائق لكي أرجع إلى البيت بعد انتهاء العمل، وأكتب لك هذه
السطور. وأسارع لأقول لك إن هذه العواطف المندفعة تجاهك قد
انفجرت في صدري (وهذا ليس مجازاً، فقد أحسست بأن رمانه
صداقة تنفجر بين أضلعي)، ليس لدى سماعي الحكم، وإنما حين علمت
بردك على القاضي (وهو رد اعتبره ذلك التعيس مهيناً): «فعلتُ ذلك
لأنني لا أستطيع مقاومة جاذبية خصل الزغب التي تحت إبطي
جارتى». (عند قراءة هذا الجزء من الخبر أظهر المذيع صوتاً عذباً
مستهزئاً لكي يجعل مستمعيه يعرفون بأنه أكثر حماقة مما تستدعيه منه
مهنته.)

يا صديقي المهووس: أنا لم أزر مطلقاً سيراكوزا، ولست أعرف
شيئاً عن هذه المدينة إلا كونها تتعرض لعواصف ثلجية وبرد قطبي
في الشتاء، ولكن، لا بد أن في أعماق تلك الأرض شيئاً خاصاً
حتى تنتج شخصاً له مثل رهافتك وخيالك، ويتمتع بالشجاعة التي
أظهرتها في تصديقك لفقدان الاعتبار، ويمكنني أن أتصور ضيفك
وسخريات أصدقائك ومعارفك في الدفاع عن حركة شذوك

الصغيرة (وأقول صغيرة وأنا أعني أنها غير مؤذية، وسليمة العاقبة، وصحية، ولطيفة بالطبع، فأنت وأنا نعرف أنه لا وجود لنزوة أو فوبيا خالية من العظمة، لأنها تشكل أصالة الكائن البشري، وأفضل تعبير عن سيادته).

بعد قلبي هذا أجد نفسي مضطراً، من أجل نقادي سوء التفاهم، إلى أن أعلمك بأن ما يمثل لك لذة بالغة، هو بالنسبة لي مجرد نفاية، وأنه في عالم الرغبات والأحلام الغني، فإن هذه التبرعات الزغبية في الإبطيين الأنثويين التي توصلك رؤيتها (وطعمها، ورائحتها، وملمسها كما أعتقد) إلى النشوة القصوى، تسبب لي الكآبة والقرف وتقلص شهيتي الجنسية. (إن تأمل لوحة المرأة الملتحية لريبيرا يسبب لي عجزاً يستمر ثلاثة أسابيع.) ولهذا فإن محبوبتي لوكريثيا كانت ترتب الأمر دائماً بحيث لا يظهر في إبطيها البضين أدنى أثر للزغب وتبدو بشرتها على الدوام لعيني ولساني وشفتي، ناعمة مثل مؤخرة ملاك. ففي موضوع الزغب الأنثوي، لا أجد لذة إلا في العانة، شريطة أن تكون مقصوصة ومشذبة جيداً وألا تفرط في كثافة خصلاتها أو مفارقها أو فتائلها مما يعرقل عملية الحب ويحول اللعق إلى عملية تتطوي على المجازفة بالاختناق.

وحيث إنني أباريك وأنافسك في هذه المصارحة الحميمية، فإنني أضيف بأنه ليس الإبط المسود من الزغب (والشعر هنا كلمة تزيد الواقع سوءاً بإضافتها إليه مادة دهنية وقشرية) هو وحده ما يسبب لي هذا الرعب المحبط للجنس، والذي لا يمكن مقارنته إلا

بالمشهد المخجل لامرأة تمضغ اللبان أو تقف في بوز أو برؤية كائن بشري من أي جنس كان يقلب أسنانه باحثاً فيها عن زوائد بهذا الشيء الدنيء الذي يسمونه كاشط الأسنان، أو رؤيته يقضم أظفاره، أو يأكل على مرأى العالم وسمعه دون وازع من خجل، ثمرة مانجا أو برتقالة أو رمانة، أو حبة دراقن، أو عنب أو أي ثمرة أخرى تتمتع بهذه الصلابة الفظيعة التي يسبب لي مجرد ذكرها (ولا أقول رؤيتها) قشعريرة وتتعفن روحي باحتدام وهياج الرغبة في إبادتها: عناقيد، أليافاً، بذوراً، قشوراً أو بقايا. ولست أبالغ بأي حال يا رفيق التفاخر بتخيلاتنا، إذا ما قلت لك بأنني كلما رأيت أحداً يأكل ثمرة ويُخرج من فمه أو يبصق بقايا لا تؤكل، أشعر بالغثيان وأصل إلى حد تمنّي الموت للفاعل. ومن جهة أخرى، كنت أنظر على الدوام إلى أي آكل يعمد عند رفع الشوكة إلى فمه، إلى رفع مرفقه في الوقت نفسه، على أنه آكل لحم بشري متوحش.

هكذا نحن، ولا نخجل، ولست أقدر أحداً مثلما أقدر من هو قادر على الذهاب إلى السجن والتعرض للفضيحة من أجل نزواته. أنا شخصياً لست من هؤلاء. فقد نظمتُ حياتي بصورة سرية وضمن الأسرة لكي أصل إلى المستويات الأخلاقية التي وصلت أنت إليها في العلن. فكل شيء في حالتي يتم بتكتم وتحفظ، دون حماسة تبشيرية أو استعراضية، أي بطريقة ملتوية لا تستثير الوسط المحيط بي، والناس الذين أنا مضطر إلى التعايش معهم لأسباب تتعلق بالعمل، أو بسبب القرابة أو العبودية الاجتماعية، ولا تسبب لي كذلك السخرية والعداوات. وإذا كنت تفكر بأنني جبان جداً —

خصوصاً بالمقارنة مع جرأتك في الوقوف أمام العالم مثلما أنت — فإنك قد أصبت الهدف. إنني الآن أقل جنباً مما كنت عليه في شبابي فيما يتعلق برهابي ونزواتي — ولست أحب أياً من هذه الصيغ بسبب الشحنة المهينة التي تتضمنها ولأنها تستدعي إلى ذهن الأطباء النفسانيين أو أسرة التحليل النفسي، ولكن، كيف يمكنني أن أسميها دون أن أجرحها: أقول غرابة أطوار؟، رغبات سرية؟ ويمكننا في الوقت الراهن أن نقول إن العبارة الأخيرة هي أقلها سوءاً. لقد كنت في شبابي كاثوليكياً جداً، وعضواً ثم مسؤولاً في جمعية العمل الكاثوليكي، ومتأثراً بمفكرين من أمثال جاك مريتاي؛ أي أنني كنت من أتباع اليوتوبيات الاجتماعية، وكنت مقتنعاً بأنه، من خلال تبشير نشط يستوحى كلمة الإنجيل، سيكون بالإمكان انتزاع روح الشر — وكنا نسميها عندئذ الخطيئة — والسيطرة على التاريخ البشري وبناء مجتمع متجانس، يركز على قيم الروح. ومن أجل تحقيق الجمهورية المسيحية، هذه اليوتوبيا الروحية الجماعية، عملت خلال أفضل سنوات شبابي مقاوماً، بغير المرند، التنفيذات الفظة التي كان يلاحقنا بها، لي ولرفاقي، دون هوادة واقع إنساني تائر على هذه الخرافات المتمثلة بكل المساعي الموجهة إلى إقامة هندسة متماسكة ومتساوية من هذا الدوار الذي لا يمكن مقاومة تفرده، ألا وهو الخليط البشري. وكان أن اكتشفت في تلك السنوات يا صديقي بيتر سيمبلون، من سيراكوزا، في البدء بشيء من الظرافة، ثم بعد ذلك بخجل وحياء، النزوات التي تميزني عن الآخرين وتجعل مني نموذجاً متفرداً. (لا بد من مرور

السنوات والتعرض لتجارب لا حصر لها حتى نفهم بأن كل واحد منا نحن البشر هو حالة مختلفة وأن هذا يتيح لنا أن نكون مبدعين ويضفي معنى على حريتنا.) كم كنت أشعر بالغرابة وأنا ألاحظ أنه يكفي أن أرى من كان حتى ذلك الحين صديقاً جيداً، يقشر برتقالة بيديه ويدس أجزاء لبابها في فمه، دون أن يهمله الفتات المثير للاشمئزاز الذي يبقى على شفثيه، ويصق ذات اليمين وذات اليسار بذورها البيضاء التي لا تؤكل، لكي يتحول التعاطف إلى استياء طاغ، ثم أستغل أي ذريعة بعد وقت قصير لأنهي صداقتي له. وكان كاهن اعترافي، الأب دورانتي، وهو يسوعي دمث من المدرسة القديمة، يأخذ مخاوفي ووساوسي دون قلق، معتبراً أن هذه «النزوات الصغيرة» هي خطايا ضئيلة مغتفرة، ونزوات لا بد منها لدى كل ابن أسرة ثرية، يعامله أبواه بتدليل مبالغ فيه. وكان يقول لي ضاحكاً: «أنت ستكون ظاهرة يا ريغوبيرتو. وباستثناء أذنيك الهائلتين وأنفك الذي مثل مخطم الدب آكل النمل، فإنني لم أر من هو أكثر طبيعية منك. ولهذا، إذا ما رأيت أحدهم يأكل فاكهة لها لباب أو بذور، انظر إلى الجهة الأخرى ونم مطمئناً». ولكنني لم أكن أنام باطمئنان، وإنما فزع وقلق. وخصوصاً بعد أن قطعت علاقتي بأوتيلا، متذرعاً بحجة تافهة، أوتيلا ذات الصفائر، وحذاء التزلج والأنف الأفطس، التي كنت مغرماً بها جداً وكنت قد لاحقتها طويلاً حتى تستجيب لي. لماذا تشاجرت معها؟ ما الجريمة التي اقترفتها أوتيلا الجميلة ذات الزي الأبيض الخاص بمدرسة بيبيا ماريا؟ لقد أكلت عنباً أمامي. كانت تدخل العنب إلى فمها حبة بعد

حبة، متلذذة، مقلبة عينيها، ومنتهدة لتسخر من تكثيرات الرعب التي كانت تظهر على وجهي — ذلك أنني أخبرتها برهابي. وكانت تفتح فمها وتكمل تلك القذارة بإخراج البذور المقرزة بيدها وترمي بها إلى حديقة بيتها — لقد كنا جالسين هناك، عند الحاجز الحديدي — بحركة متحدية. لقد كرهتها! مقتها! وذاب حبي الطويل مثل كرة من البوظة تعرضت للشمس، وتمنيت خلال أيام عديدة أن تصدمها سيارة، وأمواج كاسحة، وتصيبها الحمى القرمزية. وكان الأب دورانت يظن أنه يهدئني بالقول: «هذه ليست خطيئة يا فتى. هذا هياج جنوني. أنت لست بحاجة إلى كاهن اعتراف، وإنما إلى مُعالج مجانيين.»

ولكن كل ذلك يا صديقي ومنافسي من سيراكوزا، كان يُشعرنِي بأني غير طبيعي. وكانت هذه الفكرة تُثقل عليّ آنذاك، فقد كنت مثل كثيرين من البشر — وأحشى أن يكون معظمهم — لا أربط فكرة كوني مختلفاً باسترداد حريتي، وإنما فقط بالعقاب الاجتماعي الذي ينزل دائماً على النعجة السوداء في القطيع. فكون المرء موبوءاً، واستثناءً عن القاعدة، كان يبدو لي أنه أسوأ المصائب. إلى أن تبين لي أن ليس كل النزوات هي رهابات؛ فهناك بينها كذلك مصادر لذة سرية أيضاً. كما هي رُكب ومرافق الفتيات على سبيل المثال. كان رفاقي يبدون إعجابهم بالعيون الجميلة، والجسد الممشوق أو الممتلئ، بالخصر النحيل، وكان أكثرهم جرأة يعجبون بالمؤخرة البارزة أو السيفان المقوسة. وأنا وحدي كان يخطر لي تمييز تلك الالتحامات العظمية، والتي أعترف الآن دون خجل في حميمية دفاتري القبورية، بأنها

أثمن من كل الخصائص الجسدية الأخرى لدى أي فتاة. أقول هذا ولا أتراجع عنه. فركبة حسنة الليونة، مصقولة، دون نتوءات أو انحناءات؛ ومرافق مكورة، غير مخددة، ناعمة، لينة الملمس، مزودة بمواصفات الكيك الإسفنجية، تهيجني وتستثيرني. إنني أشعر بالسعادة لرؤيتها وملامستها؛ فإذا قبلتها أصد إلى مرتبة الملائكة. لن تتاح لك الفرصة لعمل ذلك، ولكن إذا استدعى الأمر شهادة حبيبتى لوكريثيا، فسوف تقول لك كم من الساعات الطويلة قد أمضيتُ — طويلة كتلك الساعات التي يمضيها طفل عند قدمي المصلوب — متأملاً، في صلاة من الفتنة والذهول، ركبتيها الهندسيتين ومرفقيها الرشيقين بنعومتها الفريدة، وفي تقبيلهما، وعضعضتهما مثل شبل يلعب بعظمته، مستغرقاً في النشوة، إلى أن أشعر بالخدر في لساني أو إلى أن يعيدني تشنج شفوي إلى الواقع المبتدل. لوكريثيا الغالية! بين كل الفضائل التي تزينها، أشعر بأشد امتنان إلى تفهمها لنقاط ضعفي، وحكمتها في مساعدتي على تجسيد تخيلاتني.

بسبب هذه النزوة وجدت نفسي خاضعاً لامتحان ضمير. فقد انتبه صديق من جمعية العمل الكاثوليكي كان يعرفني جيداً، إلى أكثر ما يجتذبني في الفتيات — أي ركبهن ومرافقهن —، فحذرنى من أن هناك شيئاً ليس على ما يرام في داخلي. وكان هاوياً للتحليل النفسي، ومما زاد الأمور سوءاً، أن هذا المترتم أراد أن يوفق التصرفات والدوافع الإنسانية مع تعاليم الكنيسة. تكلم عن انحرافات وتلفظ بكلمات الوثنية ووثن. وأنا أرى اليوم أنهما من أكثر الكلمات قبولاً في المعجم (فهذا ما نحن عليه، أنا وأنت وكل

الكائنات الحساسة)، أما في ذلك الحين، فكان لها وقع فاسد، ومعنى الرذيلة الفاحشة.

أنت وأنا يا صديقي السيركوزي نعرف أن الوثنية ليست «عبادة الأوثان» مثلما يقول بصورة بأئسة معجم مجمع اللغة، وإنما هي شكل امتيازي للتعبير عن الخصائص الإنسانية، ووسيلة يمتلكها الرجل والمرأة ليخطا مجالهما، لتحديد اختلافهما عن الآخرين، وتدريب مخيلتيهما وروحيهما المناهضة للقطيع، لكي يكونا حرين. يروقني أن أروي لك، ونحن جالسان في بيت ريفي في ضواحي مدينتك التي أتصورها مليئة بالبحيرات، وغابات الصنوبر، وهضاب بيضاء بالثلج، بينما نحن نتناول كأساً من الويسكي ونسمع فرقة الحطب في المدفأة، عن كيف أن اكتشاف الدور المركزي للوثنية في حياة الفرد، كان عاملاً حاسماً في خيبة أملي من اليوتوبيات الاجتماعية — فكرة أنه يمكن للجماعية أن تبني السعادة والطيبة، أو أن تجسد أي قيمة أخلاقية أو جمالية —، وفي انتقالي من الإيمان إلى اللادرية، وفي القناعة التي تشجعي الآن، والتي بمقتضاها، لا يمكن للرجل والمرأة أن يعيشا دون يوتوبيات، والطرق الواقعية الوحيدة لتجسيدها هي في نقلها من المستوى الاجتماعي إلى الفردي. فالجماعة لا يمكنها أن تنظم نفسها من أجل الوصول إلى أي شكل من الكمال دون أن تدمر حرية الكثيرين، ودون أن تكتسح الاختلافات الفردية الجميلة باسم التسميات المشتركة المرعبة. أما الفرد المتوحد فيمكنه بالمقابل — في ممارسة شهواته، نزواته، وثنياته، فوبياته أو أدواقه — أن يقيم عالماً خاصاً يقترب (أو يصل

إلى التجسيد، مثلما يحدث للقديسين وللأبطال الأولمبيين) ذلك المثل الأعلى، حيث يتوافق المعاش مع المرغوب. ومن الطبيعي أنه في بعض الحالات الامتيازية، يتيح هذا التوافق السعيد — ونقل توافق الحيوان المنوي مع البويضة الذي يُنتج التلقيح — لشخصين أن يحققا أحلامهما تماماً. وهذه هي حال الصحفي، والكوميدي، والناقد، ومنشط البرامج المحترف كينث يتنان (وقد قرأتها للتو في سيرة حياته التي كتبها أرملة) الذي كان مازوشياً مستتراً أوصله الحظ إلى التعرف على فتاة كانت سادية بالمصادفة، وكانت خجولة أيضاً، مما أتاح لكليهما التمتع بالسعادة مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع، في قبوٍ في كينسينغتون، فكان يتلقى الجلادات بالسوط وهي توجهها، في لعبة من الجلد تنقلهما إلى السماء. إنني أحترم — ولكنني لا أمارس — هذه الألعاب التي لا بد أن يليها المركوروكروم ودُخان الجبل⁽¹⁾.

وبما أننا دخلنا في رواية الطرائف — وهناك منها في هذا المجال ما يملأ محيطات — فإنني لا أستطيع مقاومة الرغبة في أن أشير إلى لعبة التخيل التي كانت تهيج حتى الارتعاش المرضي شهوة كاتشيتو أرنيبيا، البطل في مهنة بيع بوليصات التأمين التي تستدعي الهذر وكثرة الكلام، وهي تتلخص — وقد اعترف لي بها هو نفسه في واحدة من حفلات الكوكتيل البغيضة التي تقام في الأعياد الوطنية أو عيد الميلاد والتي لا أستطيع عدم حضورها —

(1) - دُخان الجبل: نبات يستخرج منه دواء تقليدي للرضوض.

في رؤية امرأة عارية ولكنها تنتعل حذاء بكعب رفيع، وهي تدخن وتلعب البلياردو. هذه الصورة التي يظن أنه قد رآها في طفولته في إحدى المجلات، كانت ترافق انتصباته الأولى، وقد أصبحت منذ ذلك الحين نجم قطب حياته الجنسية. يا لكاتشيتو اللطيف! وعندما تزوج من امرأة سمراء سريعة البديهة من قسم المحاسبة، قادرة — حسب اعتقادي الجازم — على مجاراته، أقدمتُ على مزحة وقحة بأن أهديت إليه باسم شركة بيريتشولي للتأمين — وأنا مديرها — طاولة بلياردو نظامية، حملتها شاحنة أتاث إلى بيته في يوم الزفاف. وقد بدت تلك الهدية للجميع حماقة جنونية؛ ولكنني حين رأيت نظرة كاتشيتو ولعابه المسبق وهو يشكرني، أدركت أنني قد أصبت الهدف تماماً.

ويا صديقي العزيز من سيراكوزا، يا من تحب المكناس الإبطية، إن استنارة الأهواء والفوبيات لا يمكن أن تكون غير محدودة. بل يجب الاعتراف بأن لها قيوداً وضوابط، من دونها تتفلت الجريمة وتكون العودة إلى بهيمية الغابة. أما في المجال الخاص الذي هو ميدان هذه الأشباح، فكل شيء يجب أن يكون مسموحاً بين البالغين الذين يتوافقون في اللعب وفي قواعد اللعب، من أجل متعتهم المتبادلة. وكون الكثير من هذه الألعاب، بالنسبة إلي، مفرطة في الإشمئزاز (مثل تلك الحبوب المسببة للضراط التي كان مغرماً بها عصر الغزل الفرنسي، وبصورة خاصة المركيز دي ساد الذي لم يكتف بالإساءة إلى النساء، بل كان يطلب منهن كذلك أن يدوخنه بإطلاقات مدفعية من ریح بطونهن) هو أمر صحيح مثلما هي في هذا العالم كل الاختلافات

التي تستحق التقدير والاحترام، إذ ليس هناك ما يعبر مثلها عن تعقيدات الشخصية الإنسانية التي لا يمكن الإحاطة بها.

هل تخرق حضرتك حقوق الإنسان وحریات جارتك ذات الشعر بتسلفك سطح بيتها لتعبر عن تقديرك لخصل شعر إبطيها؟ لا ريب في ذلك. وهل تستحق أن تُعاقب باسم التعايش الاجتماعي؟ آي، آي، أجل بالطبع. ولكنك كنت تعرف هذا كله وجازفت مع ذلك، مستعداً لدفع ثمن التلصص على إبطي جارتك الشعريين. وقد قلت لك إنني غير قادر على مجاراتك في هذه البطولات المتطرفة. فخشيتي من أن أكون مضحكاً وازدرائي للبطولة كبيران جداً، فضلاً عن بلادتي الجسدية، بحيث لا يمكنني أن أتجرأ على تسلق سطوح الغير لأرى في جسد دون شعر، الركبتين الأكثر استدارة والمرفقين الأكثر تكوراً في الجنس الأنثوي. إن جبني الطبيعي، الذي ربما يكون مجرد حالة مرضية تفرضها غريزة الشرعية، تقودني لأجد لنزواتي ورهابي موقعاً مناسباً ضمن ما هو متعارف على أنه مشروع. أبحرمني هذا من كنز من الشبق اللذيذ؟ هذا مؤكد. ولكن ما أملكه يكفيني، شريطة أن أستخلص منه المنفعة اللازمة، وهو ما أحاول عمله.

أرجو أن تكون شهور الحبس الثلاثة خفيفة عليك، وأن تخفف لياليك وراء القضبان أحلاماً فيها غابات من زغب الإبطين، واتوسترادات من الشعر الحريري، والأسود، والأشقر، والأحمر تطارد فيها، وتسبح، وتركض مجنوناً من السعادة. وداعاً يا مثيلي.

سروال الأستاذة الداخلي

فتح دون ريغوبيرتو عينيه: وهناك، ما بين الدرجتين الثالثة والرابعة من السلم، كان سروال الأستاذة الداخلي مرمياً، أزرق، لامعاً، بحواف مخرمة، مثيراً وشاعرياً. ارتعش مثل ممسوس. لم ينم، مع أنه كان قد أمضى وقتاً لا بأس به في الظلام، على السرير، يستمع إلى صخب البحر، غارقاً في تخيلات متسربة. إلى أن عاد ذلك الهاتف يرن ثانية، في تلك الليلة، ليُخرجه من أحلامه بعنف.

— ألو، ألو؟

— ريغوبيرتو؟ أهذا أنت؟

تعرف على صوت البرفسور العجوز، مع أنه كان يتكلم بصوت خافت، مغطياً السماعه بيده وخائفاً عباراته. أين كانا؟ في مدينة جامعية عريقة. في أي بلاد؟ في الولايات المتحدة. في أي ولاية؟ في فيرجينيا. أي جامعة؟ جامعة الدولة، الجامعة الجميلة المشيدة على الطراز الكلاسيكي الجديد، ذات الأعمدة البيضاء، التي صممها توماس جيفرسون.

— أهذا أنت يا برفسور؟

— أجل، أجل يا ريغوبيرتو. ولكن، تكلم ببطء. اعذرني لأنني أيقظتك.

— لا تقلق يا برفسور. كيف كان عشائك مع الأستاذة لوكريثيا؟ هل انتهى.

صوت الحقوقي والفيلسوف العجوز نيبوموثينو ريغا، انكسر في دممة هيروغليفية. فأدرك ريغوبيرتو بأن شيئاً جدياً قد حدث لأستاذه في مادة فلسفة القانون في الجامعة الكاثوليكية في ليما، والذي جاء لحضور ندوة في جامعة فيرجينيا، حيث كان هو يتابع دراساته العليا (في التشريع والتأمينات) وحيث أُتيحت له فرصة تقديم خدماته للبرفسور كدليل وسائق: فقد أخذه إلى المونتيسللو لزيارة بيت — متحف جيفرسون، وإلى المواقع التاريخية لمعركة ماناساس.

— المسألة يا ريغوبيرتو، واعدرنى لهذا الاستغلال، ولكنك الشخص الوحيد الذي أستطيع الثقة به هنا. ربما لأنك كنت تلميذي، ولأنني أعرف أسرتك وقد أبديتَ خلال هذا الأسبوع الكثير من الشهامة...

فقال له الشاب ريغوبيرتو مشجعاً:

— هذا أقل ما يمكن عمله. هل جرى لك شيء؟

جلس دون ريغوبيرتو في السرير مهتماً بالضحكة المغرضة. بدا له أن باب الحمام سيُفتح في أي لحظة ويظهر مرسوماً على عتبته شبح دونيا لوكريثيا، لتفاجئه بواحد من هذه السراويل الداخلية الخيالية المحكمة، السوداء، البيضاء، مع تطريزات وتخريمات، وحواف حريرية مزركشة أو ملساء، المشدودة لكي تبرز تكور قمة فينوس، والتي يطل من حوافها بعض زغب العانة. لقد كان واحداً

من هذه السراويل الداخلية ذاك الذي يقبع متوحداً، مثل أحد هذه الأشياء المثيرة في اللوحات السورالية للكتلاني جوان بونس أو الروماني فيكتور براونير، على السلم الذي سيصعد عليه إلى غرفة نومه ذلك العجوز الطيب، الروح البريئة، دون نيوموثينو ريغا، والذي اعتاد أن يمسح اللوح بربطة عنقه، في أثناء دروسه التاريخية، وهي الدروس الوحيدة الجديرة بأن تذكر طوال تلك السنوات السبع العجاف في دراسة القانون.

— لست أدري ما الذي علي عمله يا ريغوبيرتو. إنني أجد نفسي في ورطة. فأنأ، على الرغم من سني، لا أملك أدنى خبرة في هذه الشؤون.

— في أية شؤون يا برفسور. قل لي، لا تخجل.

لماذا أنزلوا دون نيوموثينو في بيت أستاذة القانون الدولي، للسنة الثانية، بدل إنزاله في فندق الهوليداي إن أو الهيلتون مثل بقية المشاركين في الندوة؟ إنه تمييز يلبق بسمعته دون ريب. أم لأنهما يرتبطان بصدقة تمتت من خلال النقائهما في كليات الحقوق في العالم الواسع، وفي المؤتمرات، والمحاضرات، والموائد المستديرة، وربما لأنهما قد عملا معاً في كتابة بحث مترع بمصطلحات لاتينية ونشراه مع فيض من الملاحظات والهوامش والمراجع الخانقة في مجلة متخصصة في بوينس آيرس أو توبينغن أو هلسنكي؟ ما حدث هو أن البرفسور اللامع دون نيوموثينو، وبدلاً من أن ينزل في المكعب غير الإنساني في الهوليداي إن، أمضى الليالي في بيت الأستاذة لوكريثا المريح

الذي يجمع ما بين العراقة والحداثة. وقد كان ريغوبيرتو يعرف الأستاذة لوكريثيا جيداً، لأنه كان يُعدّ تحت إشرافها في هذا الفصل الدراسي حلقة بحث القانون الدولي للسنة الثانية، وقد ذهب عدة مرات ليعيد إليها المراجع السمكية التي كانت تتلطف بإعارته إياها. أغمض دون ريغوبيرتو عينيه واقشعر جلده وهو يلمح، مرة أخرى، الردفين الموسيقيين للحقوقية ذات الجسد المتناسق وهي تبتعد.

— هل أنت بخير يا برفسور؟

— أجل، أجل يا ريغوبيرتو. الواقع أن ما يشغلني هو مجرد حماقة. سوف تضحك مني. ولكنني مثلما قلت لك، لا أملك أي خبرة. إنني حائر ومشوش يا فتى.

لم يكن بحاجة إلى قول ذلك؛ فقد كان صوته يرتعش وكأنه سيصاب بالبكيم، وكانت الكلمات تخرج منه وكأنها مسحوبة بملقط. ولا بد أنه كان يتعرق عرقاً جليدياً. أترأه يتجرأ على إخباره بما جرى له؟

— حسن، لاحظ أنت. الآن، بعد عودتنا من الكوكتيل الذي أقاموه لنا، أعدت الدكتورة لوكريثيا هنا، في بيتها، عشاء خفيفاً. لنا نحن الاثنين فقط، أجل، لقد كانت حركة لطيفة منها. عشاء لطيف جداً، تناولنا خلاله زجاجة من النبيذ. أنا لست معتاداً على الكحول، ولهذا ربما كان تشوشي بسبب هذه الأبخرة التي صعدت إلى رأسي. إنه نبيذ من كاليفورنيا كما يبدو. وهو جيد، مع أنه قوي بعض الشيء.

— دعك من كل هذا اللف والدوران يا برفسور، وقل لي ما الذي

أصابك.

— انتظر، انتظر. تصور أن الدكتورة أصرت بعد هذا العشاء وهذا النبيذ، على أن نتناول كأساً من الكونياك. لم أستطع أن أرفض بالطبع، إنها مسألة تهذب. ولكنني بدأت أرى نجوماً يا فتى. لقد كان الكونياك ناراً سائلة. وجاعني السعال وحسبت أنني سأصاب بالعمى. ولكن، يمكنني القول إنه لم يحدث شيء مضحك. لقد غفوتُ يا بني. أجل، أجل، هناك، على المقعد، في الصالة التي هي غرفة مكتبة في الوقت نفسه. وعندما استيقظتُ، لست أدري بعد مرور كم من الوقت، عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، لم تكن الدكتورة موجودة. وفكرت في أنها قد انسحبت لتتأهب لتنام. فتأهبت لأفعل ذلك أيضاً. عندما، عندما.. تصور أنني وأنا أصعد الدرج، زاك! سقطتُ على وجهي، ولن تتصور بماذا تعثرت. بسرور داخلي! سرور داخلي في طريقي، أجل. لا تضحك يا فتى، فمع أن الأمر مضحك، إلا أنني أجد نفسي في بحر من البلبلة. وأكرر لك بأنني لا أدري ماذا أفعل.

— لستُ أضحك بالطبع يا دون نيبوموثينو. ألا تعتقد حضرتك أن وجود هذا اللباس الداخلي هناك، هو مجرد مصادفة؟
— أي مصادفة وأي ثمانية أرباع يا فتى. ليست لدي خبرة، ولكنني لم أتحوّل إلى مترجرج بعد. لقد تركته الدكتورة هناك متعمدة، لكي أتعثر به. فليس هناك تحت هذا السقف سواي أنا وربة البيت. إنها هي من وضعته هناك.

— إن ما يحدث لك يا برفسور في هذه الحالة إذن هو أفضل

ما يمكن أن يحدث للضيف. فقد تلقيت دعوة من مضيفتك. الأمر واضح جداً.

وتكسر صوت البرفسور ثلاث مرات قبل أن ينطق بكلام مفهوم.

— أتظن ذلك يا ريغوبيرتو؟ حسن، هذا ما بدا لي أنا أيضاً، حين بدأت أفكر، بعد هذه المفاجأة. أنت تقول إنها دعوة، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة، فهذا البيت هو الترتيب مجسداً، مثلما هي الدكتورة. وقد وُضع هذا اللباس هناك مع سبق الإصرار. ثم إن الطريقة التي وضع بها على السلم ليست عرضية، إنه موضوع بطريقة مفخمة، استعراضية، أقسم لك.

— لقد وُضع هناك بترصد، إذا كنت تسمح لي بهذه المزحة الصغيرة يا دون نيبوموثينو.

— أنا أيضاً أضحك في داخلي يا ريغوبيرتو. أعني وسط كل هذه البلبلة التي أنا فيها. ولهذا أحتاج إلى نصيحتك. ما الذي علي عمله؟ فأنا لم أحلم يوماً بأن أجد نفسي في مثل هذا الموقف.

— ما عليك عمله واضح جداً يا برفسور. ألا تعجبك الدكتورة لوكرينثيا؟ إنها امرأة شديدة الجاذبية؛ وهذا ما أعتقد، وهو رأي زملائي أيضاً. إنها أجمل أستاذة جامعية في فرجينيا.

— لا ريب في ذلك، ومن يمكنه أن يشكك في الأمر. إنها جميلة جداً.

— لا تضيع الوقت إذن. اذهب واطرق باب حجرتها. ألا ترى أنها تنتظرك؟ اذهب إليها قبل أن تنام إذن.

— هل يمكنني أن أسمح لنفسي بذلك؟ أن أطرق باب حجرتها دون مقدمات؟

— أين أنت الآن؟

— وأين سأكون. إنني هنا، في الصلاة، عند أسفل الدرج. ولماذا تظنني أتكلم بصوت خافت. هل أذهب وأطرق باب غرفتها بأصابعي؟ دون أية مقدمات؟

— لا تضع دقيقة واحدة. لقد تركت لك إشارة، ولا يمكنك إبداء التجاهل. وخصوصاً إذا كانت تعجبك. لأن الدكتورة تعجبك، أليس كذلك يا برفسور؟

— طبعاً تعجبني. وهذا ما يجب علي عمله، أجل، معك حق. ولكنني أشعر ببعض الارتباك. شكراً على كل حال يا فتى. لا أريد أن أوصيك بأكثر قدر من التكتم، أليس كذلك؟ من أجلي، ومن أجل سمعة الدكتورة بوجه خاص.

— سأكون قبيراً للسرايا برفسور. لا تتردد. اصعد هذه الدرجات، التقط السروال الداخلي، واحمله.. اطرق الباب وابدأ معها بمزحة حول المفاجأة التي وجدتتها في طريقك. وكل شيء سيجري على ألف ما يرام، ستري. ستتذكر هذه الليلة إلى الأبد يا دون بيبوموثينو.

وقبل أن يغلق دون ريغوبيرتو سماعة الهاتف، تمكن من سماع دوي معوي، إنه تجشؤ مغموم لم يستطع الحقوقي العجوز أن يكبحه. كم سيكون عصبياً ومرتبكاً، في عتمة الصلاة المترعة بكتب الحقوق، في الليلة الربيعية الفيرجينية القوية، وهو موزع ما بين

وهم هذه المغامرة — أهي الأولى، في حياة من الجامعات الزوجية والتاسلية؟ — وجبته المتخفي وراء صرامة بعض المبادئ الأخلاقية، والقناعات الدينية والأعراف الاجتماعية. أي القوى المتصارعة في روحه ستتتصر؟ الرغبة أم الخوف؟

ودون أن ينتبه دون ريغوبيرتو إلى نفسه، وهو مستغرق في هذه الصورة الطوطمية: السروال المهجور على درج الأستاذة، نهض من السرير وانتقل إلى مكتبه دون أن يشعل الضوء. كان جسده يتفادى العوائق التي في طريقه — المقعد، المنحوتة النوبية، الطنافس، جهاز التلفزيون — بسهولة اكتسبها من الممارسة المتكررة، ذلك أنه منذ ذهاب زوجته، لم تمر ليلة إلا ودفعه الأرق فيها إلى النهوض في الظلام، للبحث في أوراق وكتابات مكتبه عن بلم لحنيه ووحده. كان رأسه ما يزال مثبتاً على شبح الحقوقي الموقر الذي طوحت به الظروف (مجسدة في سروال داخلي نسائي معطر وحسي مطروح في طريقه ما بين درجتين من سلم عالمة بالحقوق) إلى ارتياب هاملتي، ولكنه ما إن جلس وراء طاولة مكتبه الخشبية الطويلة وبدأ يتفحص دفاتره، حتى ارتعش دون ريغوبيرتو عندما كشف له مخروط ضوء المصباح الذهبي عن المثل الألماني الشائع الذي يتصدر هذه الصفحة: *Wer die Wahl hat, hat die Qual* («من يملك الخيار، يملك المعاناة») يا للروعة! ألا يجسد هذا المثل، الذي نسخه دون أن يدري من أين، الحالة المعنوية لدون نيوموثينو ريغا البائس والمحظوظ، والدكتورة لوكريثيا؟

يداه اللتان كانتا تقلابان دفترًا آخر اختاره مصادفة، ليرى إذا ما

كان سيصيب للمرة الثانية أو يتوصل إلى علاقة ما، بين ما يجده وما يحلم به، لتكون وقوداً لمخيلته، توقفنا فجأة («مثلما تقذف يدا المشرف على اللعب الكرة الصغيرة على الروليت المتحركة») وانحنى بجشع. كانت الصفحة ملطخة بفكرة حول **يوميات إيديث**، لباتريسيا هايسميث. رفع رأسه مرتبكاً. وسمع صوت أمواج البحر الصاخبة، عند أقدام هوة الشاطئ. باتريسيا هايسميث؟ هذه الروائية التي تكتب روايات جرائم مملة، يقترفها المجرم القاسي مستر ريبلي دون مبررات، لا تثير أدنى اهتمام لديه. لقد كان يرد دائما بنتائوبات (يمكن مقارنتها بتلك التي سببها له كتاب **الأموات والأحياء التيبتي** المشهور) على شعبية هذه الروائية الإجرامية التي (وأفلام ألفريد هتشكوك موجودة) أثارت منذ بضع سنوات حماس المئة قارئ الذين يشكلون الجمهور في ليما. ما الذي فعله هذه الكاتبة الثانوية لأتباع السينما في دفاتره؟ إنه لا يتذكر متى أو لماذا كتب ذلك التعليق حول **يوميات إيديث**، وهو كتاب لا يتذكره أيضاً:

«رواية رائعة من أجل معرفة أن الوهم هو تسرب من المخيلة يعدل الحياة. فالإحباطات الأسرية، والسياسية والشخصية لإيديث ليست مجانية؛ إنها تتجسد في ذلك الواقع الذي يسبب لها أكبر ألم: ابنها كلايف. وبدلاً من أن يظهر في الصحيفة مثلما هو — فتى ضعيف وفاشل، لم يُقبل في الجامعة ولا يعرف كيف يعمل — كان كلايف، في الصفحات التي تكتبها أمه، ينفصم عن الأصل ويظهر وهو يعيش الحياة التي تتمناها له إيديث: حياة صحفي لامع، متزوج من فتاة من أسرة راقية، له أبناء، ووظيفة محترمة،

وابن يملأ أمه بالاعتزاز .

«ولكن الوهم هو علاج أني فقط، ذلك أنه، وعلى الرغم من فائدته في تعزية إيديث وشغلها عن المصاعب، يبدأ بتثبيط هماتها في النضال من أجل الحياة، عازلاً إياها في عالم ذهني. فنقتصر علاقاتها بأصدقائها وتسوء؛ وتفقد عملها وتنتهي إلى الخذلان. ومع أن موتها يبدو مبالغاً فيه، إلا أنه متماسك من الوجهة الرمزية؛ فايديث تنتقل جسدياً إلى حيث كانت قد انتقلت وهي في الحياة: إلى اللواقع.

«الرواية مبنية ببساطة خادعة، يرسم تحتها نص آخر دراماتيكي، هو الصراع المتنقل ما بين الشقيقات العدوات، وما بين الواقع والرغبة، والمسافات الفاصلة بينهما التي لا يمكن تجاوزها، إلا في بهو معجزات الروح الإنسانية.»

أحس دون ريغوبيرتو بأن أسنانه تصطك ويديه تتعرقان. لقد تذكر الآن هذه الرواية العابرة وسبب فكرته التي كتبها. هل سينتهي مثلما انتهت إيديث، منزلقاً نحو الدمار بسبب إساءة استعماله للخيال؟ ولكن، على الرغم من ذلك، وتحت هذه الفرضية الكئيبة، كان السروال الداخلي، الوردة العابقة، ما يزال في قلب وعيه. ما الذي حدث لدون نيوموثينو؟ وما الذي كانت عليه حركاته ومعضلاته بعد محادثته الهاتفية مع الشاب ريغوبيرتو؟ هل عمل بنصيحة تلميذه؟

كان قد بدء صعود الدرج على رؤوس أصابعه، في ظلمة نسبية، يمكن فيها تمييز خزائن الكتب وحواف الأثاث. وعند الدرجة الثانية توقف، وانحنى، وأمسكت أصابعه المتصلبة بذلك الشيء الثمين

— أهو من الحرير؟ من الكتان؟—، رفعه إلى وجهه وشمه، مثل حيوان يتقصى إذا ما كان هذا الشيء المجهول صالحاً للأكل. ثم أغمض عينيه وقبله، شاعراً ببداية دوار جعله يرتجف، فأمسك بالدرابزين. لقد كان مصمماً، سيفعل ذلك. واصل صعود الدرج، وهو يحمل السروال الداخلي، وعلى رؤوس أصابعه، خوفاً من أن يفاجأ أو كما لو أن الضجة — كانت الدرجات تثن بخفوت — يمكن لها أن تُفسد السحر. كان قلبه ينبض بشدة إلى حد أنه فكر في كم سيكون غير ملائم، وسخيف، أن يصاب بنوبة قلبية في هذه اللحظة بالذات. لا لم تكن إغماءة، وإنما هو الفضول والإحساس (اللذين لا وجود لهما في حياته) بأنه يتذوق ثمرة محرمة مما سرّع جريان الدم في عروقه. كان قد وصل إلى الممر، ووقف أمام باب الحقوقية. ضغط على فكه بكلتا يديه لأن هذا الاصطكاك اللفظ سيؤثر تأثيراً سيئاً على مضيفته. تسلح بالشجاعة («جعل من أحشائه قلباً»، تلثم دون ريغوبيرتو الذي كان يتعرق بغزارة ويرتعش في الوقت نفسه) وطرق بأصابعه، ببطء شديد. انفتح الباب الذي كان مغلقاً فقط بصريير مُرحب.

وما رآه أستاذ فلسفة القانون الموقر من تلك العتبة المغطاة بالسجاد، بدل كل أفكاره عن العالم، والإنسان — وعن القانون بالتأكيد — وانتزع زفرة متعة من دون ريغوبيرتو اليائس. كان هناك ضوء ذهبي وأزرق نيلي (فان جوخ؟ بوتوشيلي؟ أحد التعبيريين من نوع إميل نولد؟) يرسله من سماء فيرجينيا المفعمة بالنجوم قمرٌ مستدير وأصفر، يسقط بالكامل، ربما بأمر من مصمم

مَشَاهِدٍ أو مهندس إضاءة بارع، على السرير، دون أي هدف آخر سوى إبراز جسد الدكتورة العاري. من كان يتصور أن تلك الملابس الصارمة التي تظهر فيها على منبر دروسها، وتلك البدلات المخيطة يدويًا التي تعرض بها حججها واقتراحاتها في المؤتمرات، وتلك العباءات المطرية التي اعتادت أن تتدثر بها في الشتاء، تخفي هذه التكرورات التي يمكن لها أن تتنازع براكسيتيليس⁽¹⁾ بتناسقها وريوار بأشكالها اللحمية المسبوكة؟ كانت مستلقية، الرأس يستند إلى الذراعين المتقاطعين، بحيث كان الوضع يجعلها تبدو أطول قامة، ولكن لم يكن كتفاها ولا لحم ذراعيها البضين («بضين بالمعنى الإيطالي»، حدد ذلك دون ريغوبيرتو الذي لم يكن يميل بأي حال إلى ما له علاقة بالموت وإنما كان يميل بالمقابل إلى الليونة⁽²⁾) ولا هذا الظهر المنحني هو الذي شدّ نظرات دون نيوموثينو الذاهلة ومغنطها. بل ولا الفخذان العريضان الحليبيان أو القدمان الصغيرتان بباطنهما الوردي. وإنما تلك الفلقتان المتماسكتان اللتان ترتفعان بسعادة وقحة وتلمعان مثل قمتي جبل ذي رأسين («من تلك القمم الجبلية التي تنتطح السحاب في اللوحات اليابانية من عصر ميجي» شارك دون ريغوبيرتو برضا). ولكن، هناك أيضاً روبينز، وتيزيانو، وكوربيه، وإنجريه ونصف دزينة أخرى من الرسامين المعلمين في سبك المؤخرات الأثوية ممن بدا كما لو أنهم قد شكلوا عصابة ليمنحوا

(1) - براكسيتيليس Praxiteles: نحات إغريقي اشتهر بتمثال أفروديت التي كان ينحتها.

(2) - الكلمة التي يستخدمها هي morbidو وتعني بالاسبانية البياض، بما في ذلك بياض الموت وشحوبه، بينما تعني الكلمة نفسها بالاطالية الليونة والنعومة.

الواقعية، والقوام، والوفرة، ثم في الوقت نفسه الرقة والنعومة والروح والتوتر الحسي لهذه المؤخرة التي يشع بياضها في العتمة. لم يعد دون بيومبوثينو قادراً على كبح نفسه، ودون أن يعرف ما الذي يفعله تقدم خطوتين إلى الأمام، وحين وصل إلى جانب السرير خر على ركبتيه. فأنَّ خشب الأرضية العتيق.

— اعذريني يا دكتورة، لقد وجدت شيئاً يخصك على الدرج —
— تلعثم وهو يشعر أن أنهاراً من اللعاب تسيل من زاويتي شفثيه.
كان يتكلم بصوت خافت جداً لا يمكنه هو نفسه أن يسمعه، أو ربما أنه كان يحرك شفثيه دون أن يُصدر أي صوت. لأنه لم ينبه الحقوقية لا بصوته ولا بحضوره. كانت تتنفس بهدوء، بانتظام، مستغرقة في حلم بريء. ولكن، هذا الوضع الذي هي فيه، وعريها، وتركها باب مخدعها مغلقاً دون إحكام، وإفلاتها شعرها، هذا الشعر — الأسود السبط الطويل — الذي يكنس كتفيها وظهرها، في تضاد بين قامته المائلة إلى الزرقة وبياض بشرتها، أيمن لكل هذا أن يكون بريئاً؟ «لا، لا»، أصدر دون ريغوبيرتو حكمه. «لا، لا» انقاد البرفسور المكروب وهو يمر بنظرته على هذا السطح المتموج الذي يغوص في الجانبين وينتصب مثل بحر مائج من اللحم الأنثوي، يمجده ضوء القمر (وصحح دون ريغوبيرتو: «من الأفضل القول: الضوء الزيتي في ظلال أجساد نيزانو»)، على بعد سنتمترات قليلة من وجهه المذهول: «ليست براءة ولا أي شيء من هذا القبيل. إنني هنا لأنها أرادت ذلك وخطت له».

ومع ذلك، لم يستخلص من هذه النتيجة النظرية القوة الكافية

للإقدام على ما كانت تطالبه به بعض الغرائز المستعادة: أن يمر برؤوس أصابعه على البشرة الملساء، وأن يضع شفثيه الزوجيتين فوق هذه الروابي والمنخفضات التي يشعر مسبقاً بدفئها، برائحتها، وبطعمها الذي يتجاور فيه الحلو والمالح دون أن يختلطاً. ولكنه لم يكن يجرؤ على عمل أي شيء، متجمداً من السعادة، باستثناء النظر، والنظر. وبعد أن ذهب وجاء مرات كثيرة من رأس تلك المعجزة إلى قدميها، وبعد أن جابها مرة بعد أخرى، بقيت عيناه جامدتين، مثل الذواقة المتلذذ الذي لم يعد يحتاج إلى مواصلة التذوق لأنه حدد الـ non plus ultra⁽¹⁾ في قبو الخمر، في المشهد الذي تشكله المؤخرة المكورة بحد ذاتها. فقد كانت تبرز فوق بقية الجسد مثل إمبراطور أمام بطانته، مثل زيوس أمام آلهة الأولمب الصغار. («تحالف سعيد ما بين رسام القرن التاسع عشر كوربييه والرسام المعاصر اوركولو»، شرف دون ريغوبيرتو المشهد بإشارات فنية.) وكان المعلم النبيل، الخارج من مداره، يتأمل تلك المعجزة ويؤهلها بصمت. ما الذي كان يقوله؟ إنه يكرر قولاً لكيتس («Beauty is truth, truth is beauty») وبماذا كان يفكر؟ «هذه الأشياء موجودة إذن. ليس فقط في الأفكار الخبيثة، وفي الفن وتخيلات الشعراء، وإنما هي موجودة كذلك في الحياة الواقعية. إن مؤخرة مثل هذه ممكنة الوجود في الواقع الذي من لحم وعظم، ولدى النساء اللواتي يملأن عالم الأحياء». أليكون قد استمنى؟ هل أشرف على تلويث سرواله الداخلي؟ ليس بعد. مع أن الحقوقي

(1) - باللاتينية في الأصل، وتعني: الأفضل، أو ما لا يعلى عليه.

العجوز كان يشعر في أسفل بطنه بأحاسيس جديدة، بعملية استيقاظ، ببروز أسروع يتمطى ويتمدد بعد النوم. أيفكر بشيء آخر؟ بهذا: «وكل هذا ما بين ساقي وظهر صديقتي وزميلتي المحترمة، هذه الصديقة الطيبة التي طالما تراسلت وإياها حول موضوعات عويصة في الفلسفة الحقوقية، والأخلاق التشريعية، والتاريخية المنهجية؟». كيف لم يخطر له قبل هذه الليلة رغم كثرة الندوات والمؤتمرات واللقاءات والمننديات التي التقيا وتحدثا وتناقشا وتجادلا فيها، لم يخطر له أن تحت تلك البدلات الرسمية ذات المربعات، والمعاطف الفرائية، والعباءات المبطنة، والواقيات المطرية التي بلون النمل، تختبئ مثل هذه الروائع؟ من كان بإمكانه أن يتصور أن ذلك الدماغ المتيقظ، ذلك الذكاء الحقوقي، تلك الموسوعة القانونية، تمتلك كذلك جسداً مبهراً في تنظيمه وتناسقه؟ وخيل إليه للحظة — ألا يكون قد رأى؟ — أن جبلي اللحم الساكنين، دون مبالاة بوجوده ووجومه المخدر، قد أفلتا ريحاً أصم ومرحاً انفجر قبالة أنفه وملاه بشذى حاد. لم يسبب له ذلك الضحك، ولم يزعجه («ولم يهيجه أيضاً»، فكر دون ريغوبيرتو). أحس بالتعرف على نفسه، مثلما هو، فهذه الضرطة هي بطريقة ما ولسبب معقد وعصي على الشرح (وفكر مقارناً: «مثل نظريات كلسين Kelsen، التي لم يكن هو نفسه يشرحها جيداً») نوع من الموافقة يشاركه بها هذا الجسد المهيب، مظهرًا أمامه هذه الحميمية الأشد حميمية، الغازات عديمة النفع الخارجة من حية معوية ذات تجاوير تصورها وردية ورطبة ونظيفة وشديدة الحساسية والتشكل مثل هاتين الإليتين المتحررتين الرابضتين على بعد ميليمترات من أنفه.

وعندئذ، وبرعب، عرف أن دونيا لوكريثيا كانت مستيقظة، ذلك أنه، رغم عدم تحركها، سمعها تقول:

— هل أنت هنا يا دكتور؟

لم يبد عليها الغضب، ولا الخوف كذلك. لقد كان صوتها بالطبع، ولكنه مشحون بحرارة إضافية. كان فيها شيء مماثل، إيحائي، وحسية موسيقية. وتمكن الحقوقي في حيرته، من التساؤل كيف أمكن لزميلته القديمة أن تتعرض في هذه الليلة إلى كل هذه التحولات السحرية.

— أعذريني، أعذريني يا دكتورة. أرجوك ألا تفسري وجودي هنا تفسيراً خاطئاً. يمكنني أن أوضح لك الأمر.

فطمأنته هي. وكلمته دون أدنى قدر من الانزعاج:

— هل ضايقتك الطعام؟ أتريد كأساً من الماء مع البيكربونات؟ كانت قد أمالت رأسها قليلاً، وأسندت خدها على ذراعها كوسادة، وراحت تتأمله بعينيها الواسعتين اللامعتين ما بين خصلات شعرها الأسود.

— لقد وجدت على السلم شيئاً يخصك يا دكتورة، وجئت لأعطيك إياه — تلعثم البرفسور. وكان ما يزال راكعاً، وقد بدأ يشعر الآن بألم شديد في عظام ركبتيه — طرقت الباب، ولكنك لم تردني عليّ. وبما إن الباب كان مغلقاً فقط، فقد تجرأت على الدخول. لم أشأ إيقاظك. أرجوك ألا تسيئي الظن بي.

هزت رأسها موافقة، صافحة عنه، منكاسلة، مشفقة على تعذبه.

— لماذا تبكي أيها الصديق الطيب؟ ما الذي جرى لك؟

وانكسر دون نيوموثينو الذي لم يستطع الصمود حيال هذا الاهتمام المؤثر، وسلسلة هذه الكلمات المداعبة، وحنان النظرة اللامعة في العتمة. وما كان حتى ذلك الحين مجرد دمعات بكاء تتحدر على خديه، تحول إلى تشيخ مدو، وتتهادت مؤثرة، وشلال من اللعاب والمخاط كان يحاول وقفه بكلتا يديه — ففي تشوشه الذهني لم يستطع العثور على المنديل، ولا الجيب الذي كان المنديل فيه — وبينما هو يختنق، توسع في هذا الاعتراف:

— آه، لوكريثيا، لوكريثيا، أعذريني، فلست أستطيع كبح نفسي. لا تنظري إلى الأمر على أنه إساءة، بل على العكس تماماً. لم أكن أتصور على الإطلاق شيئاً مثل هذا، بهذا الجمال، بهذا الكمال، مثل جسدك. أنت تعرفين كم أحترمك وأقدرك فكرياً، وأكاديمياً، وحقوقياً. ولكن رؤيتك بهذا الوضع هذه الليلة هو أفضل ما حدث طوال حياتي. أقسم لك يا لوكريثيا. إنني مستعد، مقابل هذه اللحظة، أن ألقى إلى القمامة بكل ألقابي، وكل درجات دكتوراه الشرف التي كرموني بها، وبكل الأوسمة والشهادات. (وقرأ دون ريغوبيرتو في دفتره قولاً للشاعر إنريكي دي بينيا : «لولا هذه السن التي أنا فيها، لأحرقت كل كتبي ومضيت لأجلس مثل متسول أمام باب بيتك. أجل يا مخلوقتي، واسمعي هذا جيداً: مثل متسول، أما باب بيتك.»). لم أشعر مطلقاً بمثل هذه السعادة العظيمة يا لوكريثيا. رؤيتي لك هكذا، وأنت دون ملابس، مثلما رأى أوليسيس نوزيكا، هي الجائزة الكبرى، والمجد الذي لا أظنني أستحقه. لقد تأثرت، وأفرطت. وأنا أبكي من التأثر والامتنان الذي

أشعر به. فلا تزدريني يا لوكريثيا.

وبدلاً من أن يفضفض كلامه عنه، فقد زاد من تأثره وبدأ الآن يشرق بدموعه. ترك رأسه يهوي على حافة السرير وواصل البكاء، وهو راعع طوال الوقت، متهدأً، وشاعراً بالحزن والسعادة، وبأنه مغموم ومحظوظ. وكان يتلعثم: «اعذريني، اعذريني». إلى أن أحس بعد ثوانٍ أو ساعات بيد لوكريثيا على رأسه، فاقشعر بدنه مثل مثل قط. وراحت يدها تداعب شعره الشائب، لتواسية، وترافقه. وجاء صوتها أيضاً ليهدئ جرح روحه المفتوح بمداعبة طازجة:

— اهدأ يا ريغوبيرتو. لا تبك يا حبيبي، يا روجي. كفى، لقد انقضى الأمر، ولم يتغير أي شيء. ألم تفعل ما أردته؟ دخلت، ورأيتني، اقتربت مني، وبكيت، وسامحتك. أيمكنني أنا أن أغضب منك؟ امسح دموعك، اعطس، ونم. نيني يا صغيري نيني.

كان البحر يتلاطم هناك في الأسفل صافعاً جروف بارانكو وميرافلوريس، ولم تكن طبقة الغيوم الكثيفة تتيح رؤية النجوم ولا القمر في سماء ليما. ولكن الليل كان يشرف على الانتهاء. وكان يمكن للفجر أن ييزغ في أي لحظة. يوم يمضي. يوم يجيء.

محظورات على الجمال

لن تري مطلقاً لوحة لآندي وارهول ولا لفريدا كاهلو، ولن تصفقي لخطاب سياسي، ولن تسمحني بتشقق بشرة مرفقيك وركبتك،

ولا بتيبس باطن قدميك.

لن تسمعي أبداً موسيقى ليغي نونو ولا أغنية احتجاجية
لميرثيدس سوسا ولن تري فيلماً لأوليفر ستون ولن تأكلي مباشرة
أوراق الخرشوف.

لن تحكي ركبتيك أبداً ولن تقصي شعرك ولن تصابي ببثور،
ولا بنخر ولا بالتهاب ملتحة العين ولا (وهذا أبعد احتمالاً)
بالبواسير.

لن تسيري أبداً حافية على الإسفلت، على الحجارة، على
الحصى، على البلاط، على المُشَمَّع، على التوتياء، على الاردوز،
أو على المعدن، ولن تركعي على سطح لا يلين مثل كعك التشانكاي
(قبل تحميصه).

لن تستخدمي أبداً في معجمك كلمات أرضي، خلاسي، توعية،
رؤيوية، تجميلية، بذور الثمار أو قشورها، أو اجتماعي.
لن تملكي أبداً هامستير⁽¹⁾ ولن تتغرغري ولن تتنأبي ولن تلعب
البريدج أبداً ولن تضعي قبعة، أو بيريه أو ضفيرة ملفوفة فوق
رأسك.

لن تخزني أي غازات على الإطلاق ولن تتقوهي بكلمات نابية
ولن ترقصي الروك أند رول.
لن تموتي أبداً.

(1) - هامستير Hamster: نوع من القوارض موطنها أميركا، وخصوصاً الاكوادور.



VII. إيهام إيغون شيلي

— جميع فتيات إيغون شيلي نحيلات وبارزات العظام، وهن
يبدون لي جميلات — قال فونتشيتو —. وأنتِ بالمقابل ممثلة،
ولكنك تبدين لي جميلة أيضاً. كيف أفسر هذا التناقض يا خالتي؟
شحب وجه دونيا لوكريثيا:
— أتقول إنني بدينة؟

كانت ساهية، تسمع صوت الطفل مثل خلفية هامسة، مركزة
تفكيرها في الرسائل المغفلة — ست رسائل في أقل من عشرة

أيام — وفي الرسالة التي كتبتها إلى ريغويرتو في الليلة السابقة وهي تضعها الآن في جيب روباها. إنها تتذكر فقط أن فونتشييتو كان يتكلم ويتكلم، عن إيغون شيلي كالعادة، إلى أن استرعت سمعها كلمة «ممنثلة».

فراح يعتذر مومناً بيديه:

— لم أقل بدينة. قلت ممنثلة يا خالتي.

وقالت متذمرة وهي تتفحص نفسها:

— أبوك المسؤول عن تحولي هكذا. لقد كنت نحيلة جداً عندما تزوجنا. ولكن خطر لريغويرتو أن موضة النحافة تدمر الجسد الأنثوي، وأن تقاليد الجمال العظيمة هي في الوفرة. هكذا كان يقول: «الشكل هو الوفرة». ولكي أرضيه، سمتت. ولم يعد بإمكانني أن أنحف من جديد.

— إنك رائعة هكذا، أقسم لك يا خالتي — واصل فونتشييتو الاعتذار —. قلت لك ما قلته عن نحيلات إيغون شيلي لأنه، ألا يبدو لك غريباً أنهن يعجبيني، وأنت أيضاً تعجبيني، مع أنك ضعفهن حجماً على الأقل؟

لا، لا يمكن أن يكون هو كاتب الرسائل المغفلة. لأن الرسائل تمتدح جسدها، بل إن إحداها تحمل عنوان «تمجيد جسد الحبيبة»، تشير إلى كل عضو من جسدها — الرأس، الكتفان، الخصر، النهدان، البطن، الفخذان، الساقان، الكاحلان، القدمان — وترفق ذلك باستشهاد من قصيدة أو من لوحة رمزية. المغرم الخفي بهيئتها الوافرة لا يمكن أن يكون إلا ريغويرتو. («هذا الرجل

مفتون بك حقاً»، هكذا قالت خوستينيانا بعد أن قرأت التمجيد، ثم أضافت: «كم يعرف جسدك يا سيدتي! لا بد أنه دون ريغوبيرتو. من أين سيأتي فوننشيتو بهذه الكلمات، مهما بدا أكبر من سنه. مع أنه هو أيضاً يعرف جسدك كله، أليس كذلك؟»

— لماذا أنت صامتة طوال الوقت، ولا تحدثيني؟ إنك تتظرين إلي وكأنك لا ترينني. أنت غريبة اليوم يا خالتي.

— بسبب هذه الرسائل المغفلة. لا أستطيع أن أنتزعها من رأسي يا فوننشيتو. فمثلما يتسلط إيغون شيلي على ذهنك، لدي أنا الآن هذه الرسائل اللعينة. إنني أقضي النهار في انتظارها، وفي قراءتها، وتذكرها.

— ولكن، لماذا تقولين إنها لعينة يا خالتي؟ أتراها تهينك أو تقول شيئاً قبيحاً؟

— لأنها تأتي دون توقيع. ولأنني أشعر أحياناً بأن مرسلها هو شبح، وليس أباك.

— أنت تعرفين جيداً أنها كلها منه. كل شيء يسير على ما يرام يا خالتي. لا تنزعجي. عما قريب ستأتي المصالحة، وسترين.

كانت مصالحة دونيا لوكريثيا ودون ريغوبيرتو قد تحولت إلى الهوس الثاني المتسلط على عقل الطفل. فهو يتحدث عنها بثقة كبيرة لا تملك الخالة معها الحماسة لدحض رأيه والقول له إنها مجرد أوهام لهذا الواهم المتماذي في الوهم الذي صار إليه. هل أحسنت صنعاً بعرض الرسائل المغفلة عليه؟ لقد كان بعضها جريئاً في الإشارة إلى حميمياتها لدرجة أنها كانت تعاهد نفسها بعد قراءتها:

«لن أريه هذه». وفي كل مرة كانت تنتهي إلى عرضها عليه، وترصد رد فعله، لعلها ترى إيماءة ما. ولكنه كان يبدي في كل مرة مظهر المفاجأة والاستثارة نفسه، ويستخلص على الدوام النتيجة نفسها: إنها من أبيه، وإنها دليل آخر على أنه لم يعد يحقد عليها. ولاحظت الآن أن فونتشييو قد استغرق في التفكير أيضاً، مبتعداً عن صالة بيتها في غابة أشجار الزيتون، سارحاً في ذكرى ما. كان ينظر إلى يديه، ويقربهما كثيراً من عينيه؛ يضمهما، يمدهما، يفتح أصابعهما، يخفي الإبهام، يقاطعهما ويفصلهما في أوضاع غريبة، مثل من يعرضون أشكالاً على الجدار بظل أيديهم. ولكن فونتشييو لم يكن يحاول تشكيل أية أشكال صينية في المساء الربيعي؛ وإنما كان يتفحص أصابعه مثل عالم حشرات يتفحص نوعاً مجهولاً منها بعدسة التكبير.

— أيمكنني أن أعرف ما الذي تفعله؟

لم يتوقف الطفل وواصل حركات يديه في الوقت الذي كان يرد عليها بسؤال آخر:

— أ يبدو لك أن يديّ مشوهتان يا خالتي؟

ما الذي يأتي به اليوم هذا الشيطان الصغير؟
ولعبت دور الطبيب الأخصائي:

— دعني أر. ضع يديك هنا.

لم يكن فونتشييو يلعب. فقد نهض بجدية، واقترب منها ووضع يديه فوق راحتيها الممدودتين. ولدى ملامسة تلك النعومة الملساء وحساسية عظام أصابعه، أحست دونيا لوكريثيا بالاختلاج. لقد كانت

يداه هشتين، وأصابعه نحيلة، وأظفاره وردية قليلاً ومشذبة بإتقان. ولكن كان هناك على رؤوس الأصابع لطخات من الحبر أو الفحم. وتظاهرت بأنها تفحص اليدين بينما هي تداعبهما، وانتهت إلى القول:

— ليس فيهما أي تشويه. ولكن قليلاً من الماء والصابون لن يكون سيئاً لهما.

— يا للأسف. قال الطفل ذلك دون أي أثر للمزاح وهو يسحب يديه من يدي دونيا لوكريثيا، ثم تابع: — لأنني لا أشبهه في هذا الأمر.

«ها هي ذي البداية. لا بد أن يصل.» إنها لعبة كل يوم.

— اشرح لي هذا.

واستعد الطفل لعمل ذلك. ألم تكن قد انتبعت إلى أن الأيدي هي نزوة إيغون شيلي؟ يداه، وكذلك أيدي الفتيات والرجال الذين كان يرسمهم. إذا لم تكن قد انتبعت من قبل، فلتلاحظ ذلك الآن. وخلال لحظة كان كتاب اللوحات على ركبتَي دونيا لوكريثيا. أترين القرف الذي كان إيغون شيلي يشعر به على نحو الإبهام؟

وانفجرت دونيا لوكريثيا في الضحك:

— الإصبع الإبهام؟

فألح الطفل بحماسة:

— لاحظي ذلك في رسومه. رسم آرثر روسلر مثلاً. أو هذه اللوحة: الصورة المزدوجة للمفتش العام هنريش بيش وابنه أوتو؛ وصورة إنريش ليدرير؛ وصوره الذاتية. إنه لا يُظهر فيها كلها إلا

أربعة أصابع. أما الإصبع الإبهام فيخفيه دائماً.
ما هو السبب؟ لماذا يخفيه؟ هل لأن الإبهام هو أقبح أصابع
اليد؟ لأنه يحب الأرقام المزدوجة ويؤمن بأن الأرقام الفردية تجلب
سوء الطالع؟ هل لأن إبهامه كان مشوهاً ويسبب له الخجل؟ لا بد أن
هناك شيئاً في يديه، وإلا ما هو السبب الذي يجعله يلتقط صوراً
ضوئية وهو يخفي يديه في جيوبه، أو يُظهرها في هيئة
مضحكة، بِلَيِّ أصابعه مثل ساحرة، أو برفعها أمام الكاميرا مباشرة،
أو بوضعها على رأسه وكأنه يريد أن تفلت منه، وتمضي طائرة؟
إنه يفعل هذا بيديه، وبأيدي من يرسمهم من الرجال والفتيات. ألم
تلاحظ ذلك؟ هؤلاء الفتيات ذوات الأجساد جيدة التناسق، ليس غريباً
أن تكون لهن مثل هذه الأصابع الرجولية، بمفاصلها العظمية
الخشنة؟ في هذه اللوحة المرسومة عام 1910 مثلاً، فتاة عارية
واقفة بشعر أسود، أليس هناك نشاز في هاتين اليدين الرجوليتين،
بأظفارهما المربعة، والمماتلتين تماماً لليدين اللتين كان يرسمهما
يغون في صورهِ الذاتية؟ أولم يفعل الشيء نفسه في كل النساء
اللواتي رسمهن؟ هذه اللوحة مثلاً، عارية واقفة، من عام 1913.
وأخذ فوننتشيتو نفساً:

— أو أنه كان نرجسياً، مثلما قلت أنت، يرسم يديه بالذات،
حتى ولو كان في اللوحة شخص آخر، رجل أو امرأة.
— أنت من اكتشفت هذا؟ أم أنك قرأته في مكان ما؟ —
كانت دونيا لوكريثيا مشوشة. فهي تتصفح الكتاب، وما تراه فيه
كان يؤكد أقوال فوننتشيتو.

هز الطفل كتفيه دون أن يولي المسألة أهمية:

— أي شخص يتأمل لوحاته كثيراً يلاحظ ذلك. ألا يقول أبي إن الفنان لا يكون عبقرياً إلا إذا كان له منهج يحدد هويته؟ ولهذا فإنني أدقق دائماً في نزوات الرسامين التي تتعكس في لوحاتهم. ويغون شيلي لديه ثلاث نزوات: وضع اليدين غير المتناسقتين نفسيهما لكل شخوصه، منتزعاً منها الإبهام. وأن تُظهر البنات والآنسات أشياءهن، برفع تنانيرهن وفتح أرجلهن. والثالثة، أنه كان يرسم نفسه وهو يضع يديه في أوضاع غير تلقائية تشد الانتباه.

— حسن، حسن. إذا كنت تريد أن تُدهشني، فقد توصلت إلى ذلك. أتعرف يا فونشيتو؟ أنت منهجي عظيم فعلاً. وإذا كانت نظرية أبيك صحيحة، فقد أصبح لديك أحد المتطلبات اللازمة للعبقرية.

— لا ينقصني إلا أن أرسم اللوحات — قال ذلك ضاحكاً. وعاد لينبطح على الأرض ويتفحص يديه. كان يحركهما وكأنه يقلد الأوضاع الشاذة التي تظهر بها الأيدي في لوحات وصور شيلي. وكانت دونيا لوكرينثيا تراقب إيماءاته بمرح. وفجأة اتخذت قرارها: «سأقرأ له رسالتي وأرى ما الذي سيقوله عنها». ثم إنها إذا قرأتها بصوت عال، فستعرف إذا كان ما كتبه جيداً وتقرر إذا كانت ستبعث بها إلى ريغوبيرتو أم تمزقها. ولكنها حين كادت أن تقول ذلك، تذكرت. وفضلت أن تقول له:

— إنني قلقة لأنك تفكر في شيلي ليلاً ونهاراً — فتوقف الطفل عن اللعب بيديه. — أقول لك هذا بكل الحب الذي أكنه لك. لقد كان يبدو لي جميلاً في أول الأمر أن تعجبك رسومه كثيراً،

وأن تتشبه به. ولكن محاولتك في التماثل معه في كل شيء،
تجعلك تتخلى عن كونك أنت نفسك.

— ذلك لأنني هو يا خالتي. وحتى لو اعتبرت الأمر مضحكاً،
فإنه هكذا. أنا أشعر بأنني هو.

ابتسم لها ليطمئننها. «انتظري لحظة»، دمدم بذلك وهو ينهض
ويتناول كتاب اللوحات، وراح يتفحصه باحثاً عن شيء ما، ثم أعاد
وضعه على ركبتيها مفتوحاً. ورأت دونيا لوكرينثيا لوحة ملونة؛ يمتد
فيها، فوق خلفية باهتة، رسم لسيدة مثلوية ترتدي ملابس تتكر
كرنفالية، مع صفوف من خطوط متعرجة حمراء وصفراء وسوداء.
وشعرها مغطى بصفيرة ملفوفة كالعمامة، وهي حافية القدمين،
وتتظر نظرة حزن باهتة بعينيها الواسعتين، بينما يداها مرفوعتان
فوق رأسها وكأنها تستعد للفرقة بصنّاجات الأصابع.

وسمعت فوننشيتو يقول لها بجديّة كاملة:

— حين رأيتُ هذه اللوحة أدركتُ أنني هو.

حاولتُ أن تجد العلاقة، ولكنها لم تتوصل إلى ذلك. ما الذي
يرمي إليه هذا الصبي؟ إخافتها؟ وفكرت: «إنه يلعب معي مثل قط
صغير يداعب فأرة كبيرة».

— هكذا إذن؟ وما الذي كشف لك في هذه اللوحة عن أنك

ايغون شيلي مجسداً؟

فضحك فوننشيتو:

— ألم تلاحظي يا خالتي. تأملي اللوحة من جديد، جزءاً
فجزءاً. وسترين أنه على الرغم من أن شيلي قد رسمها في

مرسمه في فيينا عام 1914، إلا أن البيرو تتكرر في صورة هذه السيدة خمس مرات.

عادت السيدة لوكريثيا إلى تأمل الصورة. من أعلى إلى أسفل. ومن أسفل إلى أعلى. وأخيراً انتهت إلى أنه في لباس المهرج الملون الذي ترتديه الموديل الحافية، كانت هناك خمس صور صغيرة جداً عند مستوى الذراعين، وفي خاصرتها اليمنى، وعلى الساق، وعلى إطار تنورتها. قربت الكتاب إلى عينيها وتفحصت بتمعن. أجل، تلك الأشكال تبدو مثل هندية صغيرات. وهن يرتدين مثل ملابس فلاحات كوسكو.

وقال فونتشيتو قارئاً أفكارها:

— أجل، إنهن كذلك، هنديات من الأنديز. أترين؟ البيرو موجودة في لوحات إيغون شيلي. ولهذا انتهت للأمر. لقد كان وجودهن بمثابة رسالة بالنسبة إليّ.

واصل التكلم محتفلاً بهذه المعلومة العجيبة حول حياة وأعمال الرسام إلى حد خيل معه لدونيا لوكريثيا بأنه عالم بكل شيء، وبدأت تشك بوجود مكيدة، أو كمين تحميّة. هناك تفسير لهذه الرسوم يا خالتي. فالآنسة التي في اللوحة تدعى فريديريك ماريا ببيرو. وهي المرأة الوحيدة التي رسمها أعظم رسامين في فيينا في عصرها: إيغون وكليمت. وكانت ابنة سيد ثري جداً، يملك كباريهات، وقد كانت سيدة عظيمة؛ تساعد الفنانين وتجد مشتريين لأعمالهم. وقبل أن يرسمها شيلي بوقت قصير قامت برحلة إلى بوليفيا والبيرو وأخذت من هنا أولئك الهنديات المصنوعات من

القماش، اشترتهن من أحد الأسواق الشعبية في ليما أو لاباز. وقد خطر لإيغون شيلي أن يرسمهن على فستان السيدة. أي أنه ليست هناك أي معجزة في وجود خمس هنديات في اللوحة. ولكن، ولكن...

— ولكن، ماذا؟ شجعته دونيا لوكريثيا المستغرقة في حكاية فوننتشيتو، منتظرة أن يكشف عن شيء عظيم.

— ولكن، لا شيء — أضاف الصبي وهو يقوم بحركة تدل على التعب — هؤلاء الهنديات وضعن هنا لكي أجدهن أنا في أحد الأيام. خمس بيرويات في لوحة لشيلي. ألا تلاحظين ذلك؟
— وهل تحدثن إليك؟ هل قلن لك إنك أنت من رسمتهن قبل ثمانين سنة؟ وإنك تجسيد لشخص آخر؟

— حسن، إذا كنت ستسخرين مني، فمن الأفضل أن نتحدث في موضوع آخر يا خالتي.

— لا يعجبني أن أسمعك تردد حماقات — قالت — ولا أن تفكر في حماقات، ولا أن تؤمن بحماقات. فأنت أنت وإيغون شيلي كان إيغون شيلي. أنت تعيش هنا في ليما، وهو عاش في فيينا في بدايات القرن. والتقمص أمر لا وجود له. ولهذا دعك من هذه الترهات، إذا كنت لا تريدني أن أغضب منك. اتفقنا؟

هز الطفل رأسه موافقاً على مضمض. وكان الأسف بادياً على وجهه، ولكنه لم يتجرأ على الرد عليها، لأنها كلمته بصرامة غير معتادة. وقد حاولت أن تصالحه، فدمدمت وهي تخرج مسودة الرسالة من جيبها:

— أريد أن أقرأ لك شيئاً كتبته.

— هل كتبتِ رداً لأبي؟ — قال الطفل بسعادة وهو يجلس

على الأرض ويقرب رأسه منها.

أجل، في الليل. ولكنها لا تعرف حتى الآن إذا ما كانت سترسلها. إن ست رسائل مغلقة هو عدد كبير. ومرسلها هو ريغوبيرتو. ومن سيكون سواه؟ من يمكنه أن يحدثها بهذه الطريقة العائلية والمثيرة؟ ومن الذي يعرفها بكل هذا التفصيل؟ لقد قررت وضع حد لهذه المسرحية. وتريد أن تعرف رأيه.

— هيا اقرئي يا خالتي. — قال الطفل بنفاد صبر. وكانت

عيناه تلمعان ووجهه يكشف عن فضول عظيم، وعن شيء... شيء، وبحث دونيا لوكريثيا عن الكلمة المناسبة، شيء من الابتهاج الخبيث؛ بل ومن الإثم. تتحننت قبل أن تبدأ، وقرأت دون أن ترفع عينها حتى النهاية:

حبيبي:

لقد قاومت إغراء الكتابة إليك مذ علمت أنك مرسل الرسائل الملتهبة التي ملأت، منذ أسبوعين، هذا البيت باللهيب، بالسعادة، بالحنين والأمل، وملأت قلبي وجواني بالنار العذبة التي تتوهج دون أن تحرق، وبالحب والرغبة متحدين في زواج سعيد.

ولماذا عليك أن توقع رسائل لا يمكن لأحد سواك أن يكتبها؟ من الذي تفحصني، وشكلني، واختر عني مثلما فعلت أنت؟ من يمكنه أن يتحدث عن النقاط الحمراء الصغيرة تحت إبطي، وعن العروق

الوردية في التجاوبف المخبأة بين أصابع قدمي، وعن هذا «الفم الصغير المزموم المحاط بدائرة منمنمة من تعرجات لحمية حية، ما بين الزرقاء والرصاصية، التي يجب الوصول إليها بالتسلق على أعمدة سافيك المرمريتين المصقولتين»؟ أنت وحدك القادر على ذلك يا حبيبي.

منذ السطور الأولى من الرسالة الأولى عرفت أنك أنت. ولهذا، وقبل أن أنتهي من قراءتها، نفذت تعليماتك. تعريت واتخذت ذلك الوضع من أجلك، قبالة المرأة، مقلدة لوحة دانايبه لكليمت. وعدت، كما في ليالي الشوق الكثيرة في عزلي الحالية، إلى التحليق معك في ممالك الوهم هذه التي كنا نرتادها معا على امتداد سنواتنا المشتركة التي كانت بالنسبة إلي مصدر عزاء وحياء أعود لأنهل منها في الذاكرة، لكي أتحمل الروتين والفراغ اللذين تليا ما كان معك مغامرة وكمالاً.

وبقدر ما تسمح به قواي، نفذت مطالبك بحرفيتها — ولست أقول اقتراحاتك وتوسلاتك — في رسائلك السبع. لقد لبست وخلعت، تنكرت وتفنعت، انبطحت، تمددت، انكشمت، قرفصت وجسدت — بجسدي وروحي — كل نزوات رسائلك، فأني متعة أكبر بالنسبة لي من إرضائك؟ لك ومن أجلك كنت ميسالينا وليدا، مجدلية وسالومي، ديانا مع قوسها وسهامها، والجميلة العارية، وسوزان العفيفة حين فاجأها المسنون الشيقون، وكنت الجارية التي رسمها إنجري في الحمام التركي. ومارست الحب مع مارس، ونبوخذنصر، وساردنالو، ونابليون، ومع شعراء، وساتورات، وعبيد

وعبدات، وبرزتُ من البحر مثل حورية، وأخدمت وأجبت أشواق أوليسيس. لقد كنت مركيزة لدى وايو، وغادة عند تيزيان، وإحدى عذرات مويللو، وسيدة عذراء عند بيير ديلافرانسيكا، وفتاة جيشا عند فوجيتا وشقية عند تولوز — لوتريك. وقد تكلفت جهداً في الوقوف على رؤوس أصابعي مثل راقصة ديغاس، وصدقني أنني حاولت أيضاً، لكي لا أخذلك، ورغم التشنجات التي أصابتني، أن أتحول إلى ذاك الذي تسميه أنت الانقلابات التكعيبية لخوان غريس.

اللعب معك مجدداً، ولو عن بعد، جعلني أفضل، جعلني أسوأ. أحسست من جديد بأنني لك وبأنك لي. وحين كنت أنهى اللعب، كانت وحدتي تزداد وأشعر بحزن أكبر. هل ضاع إلى الأبد ما قد ضاع؟

مذ تلقيت الرسالة الأولى عشت على انتظار التالية، تلتهمني الشكوك وأنا أحاول أن أحزر نواياك. أتريدني أن أرد عليك؟ أم أن أرسلالك لها دون توقيع يعني أنك لا تريد إقامة حوار، وإنما تريدني أن أسمع مونولوجك وحسب؟ ولكنني هذه الليلة، وبعد أن أدت بوداعة دور السيدة البرجوازية النشيطة لدى فيرنر، قررت أن أكتب إليك الرد. ثمة شيء، من أعماق شخصي المظلمة التي لم يسبرها أحد سواك، أمرني بتناول القلم والورقة. هل أحسنتُ صنعاً؟ ألم أخالف هذا القانون غير المكتوب الذي يحظر على أي صورة الخروج من اللوحة والتحدث إلى رسامها؟

أنت يا محبوبتي تعرف الجواب، فأطلعني عليه.

— عجيبة هذه الرسالة — قال فونتشيتو ذلك. وكانت حماسته تبدو طبيعية — أنت تحبين بابا كثيراً يا خالتي!

كان متورداً من الحياء ومشعاً، وقد لاحظت دونيا لوكريثيا — لأول مرة — بأنه كان مضطرباً أيضاً.

— لم أتوقف عن حبه مطلقاً. ولا حتى عندما حدث ما حدث. أظهر فونتشيتو على الفور تلك النظرة البيضاء، نظرة فقدان الذاكرة، التي تفرغ عينيه كلما أشارت دونيا لوكريثيا بطريقة ما إلى تلك المغامرة. ولكنها لاحظت أن تورد الحياء يختفي من خديّ الطفل ويحل محله شحوب صدفى.

— ورغم أننا أنا وأنت نرغب في لو أن ذلك لم يكن قد حدث، وحتى لو كنا لا نتحدث عن ذلك مطلقاً، إلا أن ما حدث قد حدث. ولا يمكن محوه — قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تبحث عن عينيه — وحتى لو كنتَ تنظر إليّ وكأنك لا تعرف عم أتحدث، إلا أنك تتذكر كل ما جرى جيداً مثلما أتذكره أنا. ولا بد أن تأسف لحدوثه مثلي أو أكثر مني.

لم تستطع مواصلة الكلام. فقد راح فونتشيتو يتأمل يديه من جديد، بينما هو يحركهما، مقلداً أوضاع شخوص شيلي المنكفة: يجعلهما متيبستين ومتوازيتين على مستوى كتفيه، مع إخفاء الإبهام وكأنه مقطوع، أو فوق رأسه، متقدمتين قليلاً، وكأنه انتهى من رمي رمح. فلم تجد دونيا لوكريثيا مناصاً من الضحك، وهتفت:

— لست شيطاناً صغيراً، وإنما أنت مهرج. كان من الخير لك أن تتجه إلى العمل في المسرح.

ضحك الطفل أيضاً وهو يواصل التمطي والتحايل وتحريك يديه. ثم، دون أن يتوقف عن حركاته القردية، فاجأ دونيا لوكريثيا بهذا التعليق:

— هل تعمدت كتابة الرسالة بأسلوب متحذلق؟ وهل تعتقدين مثل أبي أن الحذقة لا تنفصل عن الحب؟
فقلت دونيا لوكريثيا:

— لقد كتبتها محاكية أسلوب أبيك. فبالغتُ، محاولة أن أكون وقورة، انتقائية، قاسية. إنه يحب هذا. هل تراها شديدة التكلف؟
فأكد لها فونتشيتو وهو يهز رأسه عدة مرات:
— ستعجبه كثيراً. سيقروها ويعيد قراءتها مرات عديدة وهو محبوس في مكتبته. لن تفكري في التوقيع عليها، أليس كذلك يا خالتي؟

الحقيقة أنها لم تكن قد فكرت بهذا الأمر.
— هل علي أن أرسلها مغفلة؟
فقال الطفل مؤكداً:

— بالطبع يا خالتي. يجب عليك أن تجاريه في اللعبة.
ربما كان على حق. فإذا كان هو قد أرسل الرسائل دون توقيع، فلماذا توقع عليها هي. ودمدمت:

— أنت تعرف كل الألاعيب أيها الصغير. أجل، إنها فكرة جيدة. سأرسلها دون توقيع. وهو على أي حال سيعرف جيداً من كتبتها.

تظاهر فونتشيتو بأنه يصفق. وكان قد نهض واقفاً وبدأ يرتب

ملابسه لينصرف. لم يكن هناك اليوم بسكويت محمص، لأن خوستينيانا كانت قد خرجت. وتناول كتابه الذي يتضمن اللوحات كالعادة وخبأه في حقيبتة، وزرر قميصه الرمادي وشد ربطة عنق زيه المدرسي، بينما كانت تراقبه لوكريثيا التي يبهجها أن تراه يكرر الحركات نفسها كل مساء، عند المجيء والانصراف. ولكنه في هذه المرة، وعلى خلاف المرات الأخرى حيث يقتصر على القول لها «تشاو يا خالتي»، جلس على الأريكة قريباً جداً منها.

— أريد أن أسألك شيئاً قبل أن أنصرف. ولكنني أشعر بقليل من الحياء.

كان يتكلم بالصوت النحيل، العذب، والخجول الذي يلجأ إليه كلما أراد إيقاظ أريحتها أو شفقتها. وبالرغم من أن دونيا لوكريثيا لم تكن تتردد في اليقين من أن ذلك ليس إلا محض تهريج، فقد كان الأمر ينتهي على الدوام بإيقاظ أريحتها أو شفقتها.

— أنت لا تخجل من أي شيء، فلا تأتي بهذه الحكايات أو النظار بالبراءة — قالت له ذلك، وكانت تكذب قسوة كلماتها بمداعبته وهي تشد أذنه، ثم أضافت: — أسأل ما تريد.

فمال الطفل عليها وأحاط عنقها بذراعيه.

— لا أجرؤ على قول ذلك وأنا أنظر إليك — همس وهو يخفض صوته إلى أن تحول إلى تمتمة لا تكاد تُسمع — هذا الفم المزموم، المحاط بتجعدات في رسالتك، هو هذا الفم نفسه، أليس كذلك يا خالتي؟

وأحست دونيا لوكريثيا بالخد الذي التصق بخدها يتحرك،

وبشفتين نحيلتين تنزلان على وجهها وتلتصقان بشفتيها. كانتا باردتين في البدء، ثم تحمستا على الفور. أحست أنهما تضغطان وتقبلانها. فأغمضت عينيها وفتحت فمها: فدخلت إليه أفعى رطبة، مرت على لثتها، وعلى سقف حلقها، ثم تشابكت مع لسانها. بقيت مبهورة لوقت دون وقت، متحولة إلى حس، متراخية، سعيدة، لا تفعل شيئاً ولا تفكر بشيء. ولكنها حين رفعت ذراعيها لتضم فوننتشيتو، ابتعد الطفل عنها في واحدة من تبدلات المزاج المفاجئة التي هي من ملامحه المميزة. وراح يبتعد ملوحاً لها بيده تلويحة الوداع. وكان يبدو في أكثر الملامح طبيعية:

— إذا أردت، يمكنك تبييض الرسالة ووضعها في مغلف
— قال لها وهو عند الباب —. وغداً أعطني إياها لأضعها في صندوق بريد البيت دون أن يراني أبي. تشاؤ يا خالتي.

لا حصان من قصب

ولا ثور من بوكارا

أفهم أن مشهد العلم المرفرف مع الريح يبعث فيك خفقة
النشوة، وأن موسيقى وكلمات النشيد الوطني، تسبب لك تلك الدغدغة
في العروق والقشعريرة وانتصاب شعر البدن الذي يسمونه
انفعالاً. وكلمة وطن (التي تبدأ حضرتك كتابتها بحرف كبير على
الدوام) لا تتفق مع الأبيات الشعرية غير الوقورة لبابلو نيرودا

الشاب:

الوطن،

كلمة حزينة،

مثل كلمة ترمومتر أو مصعد

ولا تتفق كذلك مع حكم الدكتور جونسون القائل: Patriotism is the last refuge of a scoundrel⁽¹⁾ وإنما تتوافق مع هجمات الفرسان البطولية، والسيوف التي تُغرس في صدور بدلات عسكرية معادية، ومع صوت الأبواق، وأزيز الرصاص ودوي المدافع الذي هو ليس دوي فتح زجاجات الشمبانيا. أنت تنتمي، حسب كل المظاهر، إلى خليط الذكور والإناث ممن ينظرون بإجلال إلى هؤلاء الأشخاص البارزين الذين يزينون الساحات العامة، ويتأسفون لأن الحمائم تشخ عليهم، وأنت مستعد لأن تستيقظ باكراً جداً وتنتظر لساعات كي لا تضيع مكاناً جيداً في معسكر مارتي من أجل مشاهدة العرض العسكري في الأيام التذكارية، وهو مشهد يثير فيك التقدير وتتطاير فيه الكلمات الحربية والوطنية والرجولية. سيدي، سيدتي: في أعماقك يقبع وحش ضار يشكل خطراً على الإنسانية.

أنت ثقل زائد تجرجه الحضارة منذ زمن أكل اللحم البشري الموشوم ومنقوب الأذنين والشفنتين الذي كان يحمل عضوه في قراب، والساحر ما قبل العقلاني الذي كان يتقافز ليجتذب المطر

⁽¹⁾ بالإنكليزية في الأصل «الوطنية هي ملاذ الأوغاد الأخير».

ويأكل قلب خصمه ليستولي على قوته. الحقيقة أنه وراء خطاباتكم الحماسية وبيارقكم في تمجيد هذه القطعة من الجغرافية المدنسة بعلامات وحدود تعسفية، والتي ترى فيها حضرتك تجسيدا لشكل أرقى من التاريخ والميتافيزيقيا الاجتماعية، لا يوجد سوى حالة أخرى من العصرنة الماكرة للوسيلة البدائية القديمة للاستقلال عن القبيلة، لتخلي المرء عن الكتلة، عن كونه جزءاً من كل، وتحوله إلى فرد، وهذه هي لهفة ذلك السلف الذي كان العالم بالنسبة إليه يبدأ وينتهي ضمن حدود ما هو معروف، ضمن البقعة المحدودة في الغابة، والكهف المظلم، والهضبة المائلة، تلك البقعة الصغيرة التي يتقاسم فيها مع الآخرين اللغة، والسحر، والصخب، والأعراف، وقبل كل ذلك جهل جماعته وخوفها، ليستمد الشجاعة ويشعر بأنه يجد الحماية من الرعد ومن الوحش ومن القبائل الأخرى على الكوكب. وبالرغم من أنه قد انقضت منذ تلك الأزمان البعيدة قرون وقرون، ومن أن حضرتك تعتقد، لأنك ترندي البدلة وربطة العنق أو التنورة الضيقة وتجري عمليات شد البشرة في ميامي، قد أصبحت أرقى بكثير من ذلك السلف الذي كان يغطي عورته بلحاء الجذوع ويلق مشابك في شفته وأنفه، إلا أنك هو، وهو أنت. الحبل السري الذي يصل بينكما عبر الأجيال يدعى الخوف من المجهول، أو مقت ما هو مختلف، أو رفض المغامرة، أو الهلع من الحرية ومن مسؤولية إبداع الذات كل يوم، أو ميل إلى عبودية الروتين، إلى الجماعية، ورفض أي فض للشراكة حتى لا يضطر إلى مواجهة القدر اليومي المتمثل بالسياسة الفردية. في تلك

الأزمان كان آكل اللحم البشري الأعزل غارقاً في جهلٍ
ميتافيزيقي وفيزيائي حيال ما يجري وما يحيط به، وكان له
بعض التبرير لرفض تحوله إلى كائن مستقل ومبدع وحر؛ أما في
هذه الأزمنة، حيث يعرف الإنسان كل ما يلزم معرفته وأكثر، فليس
هناك ما يبزر مواصلة السعي لأن يكون عبداً وغير عقلائي. قد
يبدو لك هذا الحكم صارماً ومتشديداً حيال ما لا يدعو أن يكون
بالنسبة إليك شعوراً فاضلاً ومثالياً من الحب والتضامن تجاه مسقط
الرأس والذكريات (أي تجاه «الأرض والأموات»، حسب رأي
الأنثروبولوجي الفرنسي السيد موريس باريه)، هذا الإطار من
المرجعيات البيئية والثقافية التي يشعر الإنسان من دونها بالخواء.
أنا أؤكد لك أن هذا هو أحد وجهي عملة الوطنية، أما الوجه الآخر،
المعاكس لتمجيد ما هو خاص، فيتمثل في إهانة الآخر، وفي
إرادة إذلال وهزيمة الآخرين، من هم مختلفون عنك لأن لون
بشرتهم مختلف، ولهم لغة أخرى، وإله آخر، بل وأزياء أخرى
ونظام غذائي آخر.

الوطنية التي تبدو في الواقع شكلاً رحيماً من أشكال التعصب
القومي — ذلك أن «الوطن» يبدو أكثر قدماً، وتجانساً واحتراماً
من «الأمة» —، هي أداة سياسية — إدارية صغيرة ومضحكة
صنّعها رجال الدولة الطامحون إلى السلطة والمتقفون الباحثون عن
سيد لهم، أي عن راعٍ للأدب والفن، أي عن ضرعٍ مانحةٍ
يتمصونها، وهي ذريعة فعالة للحروب التي عاثت دماراً بالكوكب لا
أدري كم من المرات، في سبيل الدوافع الاستبدادية التي كرس

هيمنة القوي على الضعيف، وهي ستارة دخان من المساواة لا تكثرت سحبها السامة بالكائنات البشرية وتستعمرهم، فارضة عليهم الانتساب إلى أكثر التسميات صُدْفِيَّة على أنها الأكثر جوهرية وثباتاً: مكان الميلاد. وراء الوطنية والتعصب القومي يتأجج على الدوام وهم الهوية الجماعي الخبيث، وهي أونطولوجيا مسيجة بالأسلاك ترمي إلى أن تدمج، في أخوية لا مفر منها ولا لبس فيها، جميع «البيرويين»، «الإسبان»، «الفرنسيين»، «الصينيين» الخ. أنت وأنا نعرف أن هذه المقولات هي أكاذيب دنيئة أخرى تلغي قروناً من التاريخ وتعيد الحضارة إلى تلك الأزمنة البربرية السابقة لخلق الوحداية، أي العقلانية والحرية: وهي ثلاثة أمور لا يمكن الفصل بينها، فاعلم.

ولهذا عندما يتكلم أحد في محيطي عن «الصيني»، «الزنجي»، «البيرويين»، «الفرنسيين»، «النساء» أو أي تعبير مشابه بنية تحديد كائن بشري من خلال انتماؤه إلى جماعة من أي نوع وليس كحالة محتقرة، تراودني الرغبة في سحب المسدس و — بوم بوم — إطلاق النار. (وهذه مجرد صورة شعرية بالطبع، فأنا لم أحمل في يدي سلاحاً نارياً على الإطلاق، ولم أمارس أي نوع من الرماية باستثناء إطلاق المنى، وهذا أمر أصرح به باعتزاز وطني). وليكن واضحاً أن فرديتي لا تقودني إلى الإطراء على مناجياتي الذاتية الجنسية باعتبارها الشكل الأكثر كمالاً للمتعة؛ فأنا أميل في هذا الميدان إلى الحوار بين شخصين أو بين ثلاثة أشخاص كحد أقصى، وأعتبر نفسي بالطبع عدواً لدوداً للاختلاطات

شبه الحزبية التي هي في مجال السرير والجماع معادل للجماعية السياسية والاجتماعية. والاستثناء هو في ممارسة الأحادية الجنسية مع رفقة — مثلما هو موضح في لوحة مائية وفحمية صغيرة لبيكاسو (من عام 1902/1903) والتي يمكنك أن تستمتع برؤيتها في متحف بيكاسو في برشلونة، حيث يظهر فيها السيد المحترم أنخل فيرنانديث دي سوتو، وهو بملابسه ويدخن الغليون، وزوجته السامية عارية، ولكنها تلبس جورباً وحذاءً، وتمسك بكأس شمبانيا وهي جالسة على ركبتَي زوجها، وكلاهما يمارس العادة السرية بالتبادل، وأقول بصورة عابرة، ودون نية في استفزاز أحد (وخصوصاً بيكاسو) إنني أعتبر هذه اللوحة أرقى من **غيرنيكا** ومن **أنسات آفينيون**.

(إذا ما بدا لك أن هذه الرسالة بدأت تفتقد إلى نوع من التماسك، فتذكر المونسنيور تيسست دي فاليري: «عدم التماسك في أي خطاب يعتمد على من يسمعه. فالروح لا تبدو لي مفهومة بطريقة يمكنها فيها أن تكون غير متماسكة مع نفسها بالذات»)

أتريد أن تعرف من أين تأتي كل هذه الحملة الشعواء ضد الوطنية التي تتضمنها رسالتي؟ إنها آتية من خطبة حماسية ألقاها رئيس الجمهورية، وأبرزتها صحف هذا الصباح، وحسب قولها، فقد أكد في افتتاح معرض الفنون التقليدية بأنه من واجبنا الوطني نحن جميع البيرويين أن نعتز بعمل الفنانين الحرفيين المجهولين الذين شكلوا تماثيل الخزف في تشافين، ونسجوا ولونوا الأقمشة في باراكاس، أو حاكوا العباءات من الريش في ناسكا، حرفيي

كوسكو القدماء أو الصانعين المعاصرين لرسوم أياكوتشو التقليدية،
وثيران بوكارا، وأطفال مانويليتوس، وسجاد سان بيدرو دي
كاخاس، وخيول من قصب بحيرة تيتيكاكا، ومرايا كاخاماركا، لأن
— وأورد ما قاله الرئيس — «الحرف التقليدية هي الفن الشعبي
بكل معنى الكلمة، والتعبير الأرقى لإبداع الشعب وبراعة الفنية،
وأحد أهم رموز الوطن، وإذا كان كل عمل منها لا يحمل توقيع
الفرد الذي صنعه فلأنها كلها تحمل توقيع الجماعة، توقيع الأمة».

إذا ما كنت حضرتك ذكراً أو أنثى تتمتع بحسن الذوق — أي
أنك محب للتحديد —، فلا بد لك من أن تكون قد ابتسمت حيال هذا
الإسهال الفني-الوطني لرئيس دولتنا. أما أنا، فضلاً عن أنه بدا لي،
مثلما بدا لك، خاوياً ومتحذلقاً، فقد نورني. إذ إنني أعرف الآن لماذا
أمقت كل أشكال المنتجات الحرفية التقليدية في العالم بصورة
عامة، وفي «بلدي» (وأستخدم هذه الصيغة حتى نتمكن من
التفاهم) بصورة خاصة. لقد فهمت الآن لماذا لم يدخل إلى بيتي ولن
يدخل مطلقاً تمثال خزفي بيروي أو قناع فينيسي أو ماتريوشكا
روسية أو دمية ذات ضفائر وبقاب خشبي هولندية أو مصارع
ثيران خشبي أو عجرية صغيرة ترقص فلانكو أو دمية فتى
متحرك المفاصل إندونيسية، أو دمية ساموراي أو لوحة اياكوتشية
أو شيطان بوليفي أو أي صورة أو شكل من صلصال، أو خشب،
أو خزف، أو حجر، أو قماش أو من لباب الخبز تصنع بالجملة
وبصورة متماثلة وغفل من التوقيع، تستغل — ولو بصورة منافقة
من خلال تسميتها فن شعبي — طبيعة الفن الذي هو حكر مطلق

على المجال الخاص، وتعبير عن التطرف الفردي وهو بالتالي دحض ورفض لكل ما هو تجريدي وتمائلي، وكل ما يتطلع بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى تبرير نفسه باسم سلالة «اجتماعية» مزعومة. ليس هناك فن غير ذاتي أيها السيد الوطني (ولا تحدثني من فضلك عن الكاتدرائيات القوطية). والحرف التقليدية هي مظهر بدائي، غير متبلور، وجنيني لما يمكن له أن يستحق أن يُقبل يوماً — عندما يبدأ أفراد خاصين منفصلين عن الكل بوضع لمستهم الشخصية على هذه الأشياء ويسكبون فيها حميمية غير قابلة للتحويل — ضمن مرتبة الفن. وكونها تُحدث دويًا وتردهر وتسود لدى «أمة» ما، يجب ألا يكون مصدر الفخر لأحد وخصوصاً للوطنيين المزعومين. لأن ازدهار الحرف التقليدية هو علامة تأخر وارتداد، وإرادة غير واعية بعدم التقدم في هذا الإعصار الكاسح من الحدود، ومن العادات الحالمة، ومن اللون المحلي، ومن الاختلافات الريفية والروح الفلاحية، التي هي الحضارة. إنني أعرف يا سيدتي الوطنية يا سيدي الوطني أنك تكره هذه الكلمة، أو مضمون هذه الكلمة الكاسحة. وهذا من حقا. مثلما من حقي أيضاً أن أحبها وأدافع عنها ضد العوائق حتى وأنا أعرف أن المعركة شاقة وأنه يمكن لي أن أكون — والمؤشرات كثيرة — ضمن فريق المهزومين. ولكن ليس مهماً. فهذا هو الشكل الوحيد من البطولة المتاح لنا أن نمارسه نحن أعداء البطولة الإجبارية: أن نموت ونحن نوقع باسمنا وكنيتنا، وأن نحصل على ميتة فردية. واعلم دفعة واحدة ولترتعد هولاً: إن الوطن الوحيد الذي أوقره

هو الفراش الذي تتقلب عليه زوجتي لوكريثيا (نورك، أيتها السيدة السامية/ يهزم ليأتي العمياء والكئيبة هذه، يقول فراي لويس دي ليون) وجسدها الباهر هو رايتي أو رمزي الوطني الوحيد القادر على جرّي إلى أشد المعارك هولاً، وأما التشيد الوحيد الذي يمكن له أن يبعث في التهيج إلى حد البكاء فهو الأصوات التي يصدرها لحم الحبيبة: كلامها، ضحكها، بكائها، زفرتها، وكذلك بالطبع (أغلق أذنيك وأنفك) فواقها، تجشؤها، ضراطها وعطاسها. أيمكنني بهذا أم لا يمكنني أن أكون وطنياً حقيقياً، على طريقي؟

ملعون أونيتي! مبارك أونيتي!

استيقظ دون ريغوبيرتو باكياً (وهذا ما صار يحدث له بكثرة مؤخراً). كان قد انتقل من النعاس إلى الأرق، وكان وعيه يتعرف في العتمة على أشياء غرفته، ومسمعاها يتعرفان على رتابة البحر، وأنفه ومسامات جسمه على الرطوبة الأكلة. ولكن الصورة الرهيبة كانت ما تزال هناك، طافية في مخيلته، خارجة من مخبأ ناء، تبعث فيه الغم مثلما فعلت قبل لحظات في لا وعي الكابوس. «دعك من البكاء أيها الأحمق» ولكن الدموع تسيل على خديه ويجهش وهو منكمش من الفرع. وماذا إذا كان ذلك تخاطراً؟ وماذا إذا كان قد تلقى إشعاراً؟ وإذا ما كانت هناك دودة في قلب التفاحة بالفعل، وقد كشفت لها أمس، أو هذا المساء، عن الكتلة المنذرة

بالكارثة في صدرها، وفكرت لوكريثيا على الفور فيه، واثقة منه، ملتجئة إليه ليشاطرها غمها وقلقها؟ لقد كان نداء في اللحظة الأخيرة. فموعد العملية الجراحية قد تحدد. لقد أصدر الطبيب حكمه: «ما زلنا ضمن الوقت المناسب، شريطة أن نستأصل هذا الثدي، وربما الثديين، فوراً. إنني تقريباً، تقريباً، أمد يدي إلى النار: الداء لم ينتشر بعد. وستجبن، شريطة أن تُجرى العملية خلال ساعات قليلة.» كان ذلك البأس قد بدأ بشحذ المبضع، وعلامات المتعة السادية تلمع في عينيه. عندئذ، في هذه اللحظة بالذات، فكرت لوكريثيا به، وتمنت بحرقه أن تتكلم معه، أن تخبره، أن يسمعها ويقدم لها المواساة والمرافقة. واختلج دون ريغوبيرتو: «رباه، سأذهب لأزحف مثل دودة عند قدميها وأطلب منها الصفح».

صورة لوكريثيا مستلقية على طاولة عمليات جراحية، خاضعة لعملية استئصال فظيعة، حملت إليه صدمة جديدة من ألم المحنة. أغمض عينيه، حابساً أنفاسه، وتذكر نهديها الصليبين، الممثلين، المتماثلين، وتوجيههما القاتمين بحبيباتهما، والحلمتين اللتين تهدل لهما وترطبهما شفتاه، فتنصبان برشاقة، متحديتين، عند ممارسة الحب. كم من الدقائق، ومن الساعات، أمضى في تأملهما، وفي روزهما، تقبيلهما، في لحسهما واللعب معهما ومداعبتهما، متخيلاً أنه تحول إلى مواطن من ليليبوت⁽¹⁾ يتسلق هاتين الرايبيتين الورديتين للوصول إلى أعلى برج القمة، أو إلى طفل حديث الولادة يمتص

(1) - ليليبوت Liliputh: جزيرة الأقزام في رواية جوناثان سويتف الشهيرة «رحلات جلفر».

نسغ الحياة الأبيض، ويتلقى من هذين النهدين، فور خروجه من محبس الأمومة، أول دروسه في اللذة؟ تذكر كيف اعتاد، في بعض أيام الأحاد، الجلوس على المقعد الخشبي الصغير في الحمام، ليتأمل لوكريثيا في حوض البانيو، مغطاة بالرغوة. لقد كانت تضع على رأسها منشفة على شكل عمامة، وتواصل حمامها باستغراق شديد، مقدمة له بين حين وآخر ابتسامة رحيمة، بينما هي تفرك جسدها بقطع الإسفنج الصفراء الكبيرة المشبعة بالماء الرغوي، وتمر بها على كتفيها أو ظهرها أو ساقها البديعتين اللتين كانت تخرجهما من أجل ذلك من الأعماق الرغوية لثوان قصيرة. في تلك اللحظات، كان نهذاها هما اللذان يجتذبان كل اهتمام دون ريغوبيرتو وحميته الدينية. فقد كانا بيرزان فوق سطح الماء، ويلمع تكورهما الأبيض وحلمتهما المائلتان إلى الزرقة بين فقاعات رغوة الصابون، ومن أجل ملاطفته ومكافأته (وفكر دون ريغوبيرتو بهدوء أكبر: «مداعبات ساهية تقوم بها السيدة لكلبها الوديع المستلقي عند قدميها»)، كانت دونيا لوكريثيا تمسكها بين حين وآخر، وتداعبهما بقطعة الإسفنج بحجة ذلكهما بالصابون وتنظيفهما أكثر. كانا جميلين، كانا تامين. فقد كانت لهما الاستدارة والتماسك والحرارة التي تقعم إلهاً ماجناً بالشهوات. «والآن ناولني المنشفة، كن خادمي، — تقول ذلك وهي تنهض وتنشف جسدها بالدوش اليدوي —. فربما أسمح لك بتنشيف ظهري إذا ما أحسنت التصرف.» لقد كان نهذاها هناك، يلمعان في عتمة الحجرة وكأنهما يضيئان وحدته. ولكن، أيكون ممكناً أن يقسو السرطان

الجائر على هذه المخلوقات التي تسمو بالشرط الأثوي، وتبرر الألوهية الغزلية للمرأة، والعبادة المريمية؟ وأحس دون ريغوبيرتو بالغضب يلي اليأس الذي كان يعانيه قبل قليل، وبإحساس تمرد وحشي ضد المرض.

وعندئذ فقط تذكر. «ملعون أونيتي!» وانفجر في ضحكات مقهقهة. «ملعونة من رواية! اللعنة على سانتا ماريا! اللعنة على خيرترويديس!» (أهذا هو اسم الشخصية؟ خيرترويديس؟ أجل، هذا هو اسمها.) من هنا جاءه الكابوس، وليس هناك أي تخاطر. وكان ما يزال يضحك، متحرراً، منفعلًا، سعيداً. وقرر، للحظات، أن يؤمن بالرب (كان قد دون في أحد دفاتره عبارة كيفيدو في النصاب: «كان واحداً من هؤلاء الذين يؤمنون بالرب بدافع التهذب») لكي يتمكن من توجيه الحمد إلى أحد على أن نهدي لوكريثيا الحبيبين سليمان، معافيان من مكائد السرطان، وعلى أن هذا الكابوس لم يكن إلا تذكراً لتلك الرواية التي جعلته بدايتها الرهيبة يقفز من الذعر، ففي الشهور الأولى لزواجه من لوكريثيا، داهمه الاشمزاز من أنه يمكن في يوم ما لنهدي زوجته الجديدة العذيين اللذيين، أن يكونا ضحية إهانة جراحية (وحضرت العبارة في ذهنه بسلاستها القبيحة: «استئصال الثدي») مماثلة لتلك التي يصفها، أو بالأحرى يختلقها في الصفحات الأولى، براوسين، الراوي في هذه الرواية المقلقة للملعون أونيتي. وصلى: «الشكر لك يا ربي، لأن ذلك ليس صحيحاً، ولأن ثدييها سليمان». ودون أن ينتعل خفيه أو يرتدي الروب، خرج في الظلام متعثراً، ليتفحص الدفاتر في مكتبه. إنه

وائق من أنه ترك شهادة من تلك القراءة المقلقة التي — لماذا؟
— طفت في هذه الليلة من لاوعيه لتفسد أحلامه.

الملعون أونيتي! أهو أرغوائي؟ أرجنتيني؟ إنه من منطقة ريوبلاتا على أي حال. يا للحظة العصبية التي جعله يمر بها. كم هي غريبة توجهات الذاكرة، إنها منعطفات متقلبة الأهواء، وتعرجات باروكية، فجوة غامضة. لماذا تعود إلى الظهور الآن، في هذه الليلة، تلك القصة المتخيلة، بعد عشر سنوات لم تخطر لباله خلالها يوماً واحداً أو مرة واحدة؟ وعلى ضوء مصباح طاولة المكتب الذي ينشر نوره الذهبي على السطح الخشبي، راح يراجع متعجلاً كومة الدفاتر التي قدّر أنها تتوافق مع الفترة التي قرأ فيها رواية **الحياة القصيرة**. وكان ما يزال يرى في الوقت نفسه نهدي لوكريثيا، وهما يزدادان وضوحاً، بياضاً، نهوضاً، حرارة، في الفراش الليلي، في الحمام الصباحي، يطلان من بين ثنايا قميص النوم أو الرداء الحريري أو من فتحة صدر الفستان. وكان يعود، يرجع بالذكري في صفاء متزايد إلى الانطباع الرهيب الذي سببته له الصورة الأولية، القصة التي تشير إليها **الحياة القصيرة**، كما لو أن تلك القراءة طازجة وحديثة العهد.

لماذا **الحياة القصيرة** بالتحديد؟ ولماذا في هذه الليلة بالذات؟
وأخيراً وجد ضالته. في أعلى الصفحة وفوق خط تشديد: **الحياة القصيرة**. وبعد ذلك: «هندسة شامخة، بناء دقيق وماكر: نثر وتقنية أكبر بكثير من شخصياته المسكينة وقصته التافهة». لم تكن العبارة شديدة الحماسة. لماذا إذن كل هذا الانفعال لدى تذكرها؟ هل لمجرد أن

تداعي الخواطر في عقله الباطن قد ربط ما بين ثدي خيرترويديس المستأصل بالمبضع في الرواية ونهدي لوكرينثيا؟ لقد كان المشهد الأول واضحاً في ذهنه، الصورة التي عادت تزعزعه. فالموظف المتوسط في وكالة إعلانات في بوينس آيرس، خوان ماريا براوسين، راوي القصة، يتعذب في حجرته الضيقة بفكرة استئصال ثدي زوجته خيرترويديس في اليوم السابق أو صباح اليوم، بينما هو يسمع في الجانب الآخر من الجدار الخشبي الثرثرة السخيفة لجارة جديدة هي عاهرة سابقة أو حالية تدعى كيكيا، وترسم مخيلته بغموض فكرة قصة سينمائية كان قد طلبها منه صديقه ورئيسه في العمل خوليو ستين. وفي أثناء ذلك كان هذا الوصف المؤثر: «... فكرتُ في كيفية النظر دون استياء إلى الندبة الجديدة في صدر خيرترويديس، ندبة مستديرة ومعقدة، ذات بروزات حمراء أو وردية ربما يحولها الزمن إلى الشحوب، لتصبح في مثل لون الندبة الأخرى الناعمة التي بدون حواف، والرشيقة مثل توقيع، الموجودة في بطن خيرترويديس، والتي طالما تعرّفتُ عليها بطرف لساني». ثم الوصف الأكثر إيلاماً الذي يستيق الطريقة الوحيدة الواقعية التي يمكنه بها أن يقنع زوجته بأن ذلك الثدي المستأصل لم يكن مهماً: «لأن الدليل المقنع الوحيد، المصدر الوحيد المناسب الذي يمكنه أن يبعث فيها السعادة والثقة، هو أن أنهض وأخرّ في الضوء الغامر على الثدي المُستأصل، بوجه متجدد الشباب شبقاً، وأن أقبل موضعه بجنون».

وفكر دون ريغويرتو: «إن من يكتب مثل هذه الجمل التي تجعل شعر البدن ينتصب، وتملاً الجسم بالنوازل رغم مرور عشر

سنوات على قراءتها، هو مبدع دون شك». وتصور نفسه عاريا مع زوجته في السرير، يتأمل الندبة غير المرئية تقريبا في المكان الذي كانت تملؤه وتتوجه تلك القمة من اللحم الدافئ، ذلك التقبُّب الحريري، ويوسّسها بجشع مبالغ فيه، متصنعاً اشتتارة وتهيجا لا يشعر بهما ولن يعود إلى الشعور بهما، وأحس بيد حبيبته في شعره — أهي شاكرة؟ راضية؟ —، تُشعره بأن هذا يكفي. وأنه لا حاجة إلى التصنع. ولماذا عليهما، هما اللذان عاشا في كل ليلة حقيقة رغباتهما وأحلامهما حتى النخاع، أن يكذبا الآن ويقولوا إن ما حدث غير مهم، مع أنهما يعلمان كلاهما بأنه مهم جداً، وأن ذلك الثدي الغائب سيُنقل على كل لياليهما المتبقية؟ اللعنة على أونيته!

— ستكون مفاجأة حياتك — ضحكت دونيا لوكريثيا وهي تتنحى مثل مغنية أوبرا تستعد للخروج إلى المنصة، وأضافت: — مثلما حدث لي عندما أخبرتني بالأمر. بل إن مفاجأتي كانت أكبر عندما رأيتهما. وستكون مفاجأة حياتك!

فوجئ دون ريغوبيرتو:

— أتعنين نهدي السفارة الجزائرية الشامخين؟ أهما تركيبيان؟

وصححت له دونيا لوكريثيا:

— بل هي زوجة سفير الجزائر. لا تتظاهر بالبلاهة، أنت تعرف جيداً ماذا أعني. لقد ظللتَ تنتظر إليهما طوال الليل أثناء العشاء في السفارة الفرنسية.

— صحيح. إنهما بديعان — قال دون ريغوبيرتو موافقاً،

وخجلاً. وبينما هو يداعب، ويقبل، وينظر بورع إلى نهدي دونيا
لوكريثيا، صاغ حماسته في عبارة غزلية: — ولكنهما ليسا
بجمال نهديك.

فقالت وهي تشعث شعره:

— هذا لا يهمني. إنهما أفضل من نهدي، وماذا في ذلك.
أصغر قليلاً، ولكنهما أكثر كمالاً. وأشد صلابة.

وبدأ دون ريغوبيرتو بابتلاع لعابه:

— أكثر صلابة؟ وكأنك قد رأيتها عارية. أو كأنك قد
لمستهما.

ساد صمت مترصد، كان يتعائش رغم ذلك مع دوي أمواج
البحر التي تلمم الجرف هناك في الأسفل، تحت المكتب.
— لقد رأيتها عارية، ولمستهما — قالت زوجته متهجبة
الكلمات ببطء شديد —. هذا لا يهمك، أليس كذلك؟ ولكن ليس هذا
هو الموضوع، وإنما كونهما اصطناعيين. هذه هي الحقيقة.

وتذكر دون ريغوبيرتو الآن أن نساء رواية الحياة القصيرة
— كيكاً وخيرترويديس وإيلينا سالا — كن يستخدمن مشدات من
الحرير، إضافة إلى السراويل الداخلية، لكي يثبتن خصورهن
ويُظهرن حسن قوامهن. ما هو زمن رواية أونيتي تلك؟ فليس هناك
امرأة تستخدم مشدأ الآن. وهو لم ير لوكريثيا تضع مشدأً حريرياً
على الإطلاق. ولم يرها كذلك متتكرة بزي قرصان، أو راهبة، أو
جوكي، أو مهرج، ولا كفراشة أو كزهرة. ولكنه رآها متتكرة
كعجرية، بمنديل على رأسها، وقرطين كبيرين في أذنيها، وبلوزة

منتفخة الأكام وتتورة واسعة كثيرة الألوان، وحول عنقها وفي ذراعيها سلاسل من الخرز. تذكر أنه وحيد، في فجر بارانكو الرطب، وأنه منفصل عن لوكرينيا منذ سنة تقريباً، وضمخه التشاؤم الروائي الفظيع لخوان ماريا براوسين. وأحس أيضاً بما كان يقرؤه في الدفتر: «اليقين الراسخ بأنه ليس هناك في أي مكان امرأة، أو صديق، أو بيت، أو كتاب، أو حتى رذيلة، يمكنها أن تجعلني سعيداً». لقد كانت هذه الوحدة الفظيعة، وليس مشهد صدر خيرترويديس السرطاني، هي التي نبشت عن هذه الرواية في لاولعيه؛ إنه مستغرق في وحدة فظة وفي تشاؤم أسود مثلما كان براوسين.

— ما الذي يعنيه نهدان تركيبيان؟ — تجراً على توجيه السؤال بعد فاصل من البليلة.

فأخبرته دونيا لوكرينيا بفضافة جراحية:

— يعني أنها أصيبت بالسرطان واستأصلوا نهديهما. وبعد ذلك، وشيئاً فشيئاً، أعادوا ترميمهما، في المستشفى الأكبر في نيويورك. ست مداخلات جراحية. هل تلاحظ؟ واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست. على امتداد ثلاث سنوات. ولكنهم جعلوهما أكثر اكتمالاً من السابق. بل إنهم أعادوا تصنيع حلمتيهما، مع التجعدات وكل شيء. وكانا مطابقين تماماً. وأستطيع أن أؤكد لك هذا لأنني رايتهما. لأنني لمستهما. هذا لا يضايقك، أليس كذلك يا حبي؟

وسارع دون ريغوبيرتو في الرد:

— بالطبع لا — ولكن تسرعه خانه، وكذلك تلون ورنين

وتورط صوته، فأضاف: — أيمكنك أن تخبريني متى حدث ذلك؟
وأين؟

فزنقته دونيا لوكريثيا بحكمة مهنية:

— أين رأيتهما؟ أين لمستهما؟

فتوسل متخلياً عن الشكليات:

— أجل، أجل. إذا أنتِ شئتِ. فقط ما تُقدِّرين أنه يمكنك أن

تخبريني به بالطبع.

«بالطبع!»، تنهد دون ريغوبيرتو. إنه يفهم ذلك. لم يكن ذلك
الصدر الرمزي، ولا ذلك السواد الجوهري لدى راوي الحياة
القصيرة؛ بل كانت الطريقة الماكرة التي وجدها خوان ماريا
براوسين للنجاة، هي التي أثارت الانبعاث المفاجئ، عودة زورو أو
طرزان أو دارتتيان، بعد عشر سنوات. بالطبع! مبارك أونيتي!
وابتسم براحة، بل وبسعادة تقريباً. الذكرى لم تأت لإغراقه، بل
لمساعدته، أو حتى لإنقاذه مثلما كان يقول براوسين وهو يقيم خياله
المحموم. ألم يكن يقول ذلك حين كان ينتقل من بوينس آيرس
الواقعية إلى مدينة سانتا ماريا المبتدعة، متخلياً أنه الطبيب الفاسد
دياث غراي، الذي كان يحقن إيلينا ساللا الغامضة بالمورفين مقابل
الحصول على المال؟ ألم يكن يقول إن هذا الانتقال، هذا التقلب، هذا
الانهماك، هذا المنهج في التخيل، ينفذه؟ وما هو هنا، مدون في
دفتره: «إنها علبة صينية. ففي قصة أونيتي المتخيلة هناك
شخصية، هي براوسين، يخترع قصة متخيلة فيها طبيب منسوخ
عنه يدعى دياث غراي، وامرأة هي نسخة عن زوجته خيرترويديس

(ولكن نهديها ما يزالان كاملين) تدعى إيلينا سالاً، وهذه الحالة المتخيلة هي أكثر من الفكرة السينمائية التي طلبها منه خوليو ستين: إنها وسيلة لحماية نفسه من الواقع بمواجهته بالحلم، وبإفناء حقيقة الحياة بكذبة الوهم المشرقة». كان مستمتعاً ومفتوناً باكتشافه. كان يشعر بأنه براوسين، يشعر بأنه منعتق، ناج، حين ألقاه استشهد آخر في دفتره، وارد في هامش الحياة القصيرة. وقد كان بيتاً من أشعار كيبلينغ، من قصيدته *If* :

*If you can dream-and not
make dreams your master*

إنه تحذير مناسب. أما زال يتحكم بأحلامه، أم أن الأحلام هي التي صارت تتحكم به لكثرة ما أساء استعمالها منذ انفصاله عن لوكريثيا؟

— لقد تصادقتُ وإياها منذ تلك المأدبة في السفارة الفرنسية — كانت زوجته تروي له —. دعنتي إلى منزلها، إلى حمام بخاري. وهذه عادة شائعة جداً في البلدان العربية كما يبدو. حمامات البخار. إنها ليست مثل حمامات الساونا بالضبط، فهذه حمامات جافة. لقد شيدوا حماماً في أقصى حديقة المنزل في أورانيا.

كان دون ريغوبيرتو ما يزال يتصفح بنزق صفحات دفتره، ولكنه لم يعد هناك بالكامل؛ فقد كان أيضاً في تلك الحديقة الوارفة بأشجار الفلوريبونديو وشجيرات غار ذات أزهار بيضاء ووردية، ورائحة زخمة من زهرة العسل التي تتسلق أعمدة تستند إليها

الشرفة. وكان يتجسس مبهوراً على المرأتين — لوكريثيا بثوبها الربيعي المزين برسوم أزهار، وصندل يكشف قدميها المرشوشتين بالبودرة، وزوجة السفير الجزائري بعباءة حريرية ذات ألوان لطيفة يجعلها الصباح المشرق براقاً — وهما تتقدمان ما بين أزهار جرانيوم حمراء، وكروتو خضراء وصفراء، وعشب مقصوص بدقة، متوجّهتين نحو بناء خشبي تغطي نصفه أغصان شجرة فيكو ورافة. «إنه حمام البخار»، قال ذلك لنفسه وهو يهجم بقلبه. كان يرى المرأتين من الخلف ويعجب لتشابه هينئتيهما، للحركة الإيقاعية لمؤخرتيهما العريضتين المتحررتين، وظهريهما المتباهيين، وحركة وركيهما اللذين يرسمان لدى المشي ثنيات في ملابسهما. كانت كل منهما تتأبط ذراع الأخرى، مثل صديقتين حميمتين، وتحملان المناشف في أيديهما. وفكر: «إنني هناك، أنقذ نفسي، وأنا هنا في مكتبي، مثل خوان ماريا براوسين في حجرته الضيقة في بوينس آيرس يتحول إلى القواد آرسي الذي يستغل جارته كيكيا، وينفذ نفسه بالتحول إلى الدكتور دياث غراي في مدينة سانتا ماريا الوهمية.» ولكنه سها عن المرأتين. فما إن قلب صفحة من دفتره حتى وجد فقرة أخرى من الحياة القصيرة: «أنت سميت نهديك بالمفوضين».

«إنها ليلة الصدور»، فكر بتأثر. «ألا نكون أنا وبرأوسين مجرد زوج من الشيزوفرينيين؟» لم يهمه ذلك على الإطلاق. كان قد أغمض عينيه وصار يرى الصديقتين وهما تتعريان دون تكلف، بانطلاق، وكأنهما قد مارستا هذا الطقس مرات كثيرة من قبل، في

الردهة الخشبية الصغيرة قبل الدخول إلى حجرة البخار. علقتا الملابس على خطافات في الجدار والنقتا بالمناشف الكبيرة، وهما تتحدثان بحماسة عن شيء لم يكن دون ريغوبيرتو يفهمه ولا يرغب في أن يفهمه. ودفعنا الآن بوابة خشبية صغيرة دون مزلاج، وانتقلنا إلى الحجرة المشبعة بسحب من البخار. وأحس بلفحة حرارة رطبة في وجهه، ضمخت بيجامته وأصقتها بجسده في ظهره وصدره وساقيه. وراح البخار يدخل إلى جسمه من أنفه وفمه وعينييه، مثل عطر بدا وكأنه عطر الصنوبر، الصندل، النعناع. كان يرتعش خائفاً أن تكتشفه الصديقتان. ولكنهما كانتا لا توليانه أدنى اهتمام، كما لو أنه ليس موجوداً هناك أو أنه غير مرئي.

وأوضحت له دونيا لوكريثيا:

— لا تظن أنهم استخدموا في الجراحة أي شيء اصطناعي مثل السليكون أو هذه القذارات. لا شيء من هذا. لقد استخرجوا قطعة من معدتها، وأخرى من إلتها، وأخرى من فخذها. دون أن يخلفوا أدنى أثر. إنها متقنة، متقنة، أقسم لك.

وكان ما تقوله صحيحاً، وكان يتأكد منه. فقد خلعتا عنهما المناشف وجلستا متقاربتين بسبب ضيق المكان، على مقعد من ألواح خشبية متصل بالجدار. تأمل دون ريغوبيرتو الجسدين العاريين من خلال الحركات المتموجة لسحب البخار الساخن. لقد كان المشهد أفضل من لوحة الحمام التركي لإنجري، ذلك أن تراكم العاريات في تلك اللوحة يشئت الانتباه — وسبباً قائلًا: «لعنة الجماعية» — أما هنا، فيمكن التركيز بتحديد، وإحاطة الصديقتين بنظرة

واحدة، وإعادة تركيبهما دون فقدان أدنى إيماءة من حركاتهما، وامتلاكهما في نظرة شاملة. ثم إن الأجساد في الحمام التركي جافة، بينما هنا، وخلال ثوانٍ قليلة، كانت بشرة دونيا لوكريثيا والسفيرة مغطاة بقطرات صغيرة ولامعة من العرق. وفكر منفِعلاً: «كم هما جميلتان. وهما معاً أكثر جمالاً، كما لو أن جمال إحداهما يزيد من جمال الثانية.»

وكانت دونيا لوكريثيا تقول بالحاح:

— لم يتركوا ظلاً لأي ندبة. لا في البطن، ولا في الإلية، ولا في الفخذ. ولا في النهدين الاصطناعيين بالطبع. أمر لا يُصدق يا حبي.

ولكن دون ريغوبيرتو كان يصدق الأمر بحذافيره. وكيف لا يصدق وهو يرى هذين النهدين الكاملين قرييين جداً، إلى حد أنه يمكنه لمسهما إذا ما مدَّ يده؟ (وقال مشفقاً: «آي، آي»). كان جسد زوجته أكثر بياضاً، وجسد السفيرة أكثر سمرة، كما لو أنه قد نما وتشكل في العراء؛ وكان شعر لوكريثيا أملس وأسود بينما شعر صديقتها مجعد ومائل إلى الحمرة، ولكن على الرغم من تلك الاختلافات، كانتا تتشابهان في ازدرائهما للموضة الحديثة في النحافة والأسلوب الرُمحيّ، وفي أبيهتهما المستمدة من عصر النهضة، وفي الوفرة البديعة لأثرائهما، وأفخادهما، وأردافهما، وأذرعهما، وفي هذه التكرورات التي كانت — لم يكن بحاجة إلى مداعبتها ليعرف — صلبة و متماسكة ومشدودة، ومضغوطة وكأن هناك صُدَيْرِيَّات ومشدات وأربطة غير مرئية تقولبها. واحتفل بذلك

مفكراً: «النموذج الكلاسيكي للتقاليد العظيمة».

وقالت دونيا لوكريثيا مشفقة:

— لقد عانت كثيراً من كل تلك العمليات الجراحية، وكل تلك النقاها الطويلة. ولكن تدلُّها، وإرادتها بعدم الرضوخ، وإصرارها على هزيمة الطبيعة، وعلى البقاء جميلة ساعدتها على التحمل. وأخيراً كسبت الحرب. ألا يبدو لك هذا جميلاً؟

فرتل دون ريغوبيرتو:

— وأنت أيضاً تبدين لي كذلك.

كان الحر والتعرق قد هيجاهما. وكلتاهما كانتا تتنفسان بعمق، بحركات بطيئة وعميقة ترفع وتُخفض صدريهما مثل تموجات البحر. وكان دون ريغوبيرتو مشدوهاً. ما الذي تقولانه؟ لماذا ظهر هذا الوميض الماكر في زوجي العيون تلك؟ ارهف سمعه وسمعهما.

— لا أستطيع أن أصدق — كانت دونيا لوكريثيا تقول وهي

تتنظر إلى نهدي السفيرة، وتبالغ في دهشتها: — إنهما يسببان الجنون لأي شخص. ولكن، لا يمكن أن يكونا أكثر طبيعية.

— هذا ما يقوله لي زوجي — قالت السفيرة ذلك ضاحكة،

وتعمدت رفع صدرها قليلاً بحيث يبرز النهدان. كانت تحرك يديها وهي تتكلم بلكنة فرنسية، ولكن الخاءات والراءات كانت عربية النبرة (وقرر دون ريغوبيرتو: «أبوها ولد في وهران، ولعب كرة قدم مع ألبير كامو»)، ثم أضافت: — وهو يقول أيضاً إنهم قد جعلوهما أفضل من السابق، وإنهما يعجبانه الآن أكثر. ولا تظني أن

الجراحة تُفقدُهما الإحساس. أبدأ، ولا بأي حال.
ضحكت متصنعة الحياء، وضحكت دونيا لوكريثيا كذلك وهي
تربت لها برفق على فخذها بطريقة فاجأت دون ريغوبيرتو. ثم قالت
بعد برهة:

— أمل ألا تسيئي الظن بي وألا تفكري بأمرٍ أخرى. هل
يمكنني لمسهما؟ ألا يضايقك ذلك؟ إنني أموت لهفة لأعرف إذا ما
كان ملمسهما حقيقياً مثل مظهرهما. قد أبدو لك مجنونة وأنا أطلب
منك هذه. ألا تتضايقين؟

— بالطبع لا يا لوكريثيا — ردت السفيرة بألفة. وكانت
إيماءاتها قد ازدادت وأخذت تبتسم بغم مفتوح على مصراعيه،
مظهرة باعتزاز مشروع أسنانها الناصعة — أنت تلمسين نهديّ
وأنا ألمس نهديك. نقارن. ليس هناك أي ضرر في مداعبة بين
صديقتين.

— أجل، أجل — هتفت دونيا لوكريثيا بحماسة. ألقت نظرة
بطرف عينها إلى حيث يوجد دون ريغوبيرتو (فتتهده هو: «لقد
عرفتُ منذ البدء أنني هنا») — لست أعرف ما رأي زوجك، ولكن
زوجي تفتته هذه الأشياء. فلنلعب، فلنلعب.

كانتا قد بدأتا الملامسة، في البدء بحذر شديد وبصورة
سطحية؛ وبعد ذلك بجرأة أكبر؛ والآن صارتا تداعبان حلمات
أثدائهما دون موارد. راحتا تتقاربان. تعانقتا، واختلط شعراهما.
وكان دون ريغوبيرتو لا يكاد يميزهما. فقد كانت قطرات العرق
— أو ربما الدموع — تهيج حدقتيه بطريقة يضطر معها إلى أن

يرمش دون توقف وأن يغمض عينيه. «إنني سعيد، إنني حزين»، كان يفكر بذلك وهو مدرك للتناقض. أيمن أن يكون ذلك محتملاً؟ ولم لا. مثلما يمكن للمرء أن يكون في بوينس آيرس وفي سانتا ماريا، أو أن يكون في هذا الصباح وحيداً في عزلة مكتبه، محاطاً بالدفاتر واللوحات، وفي تلك الحديقة الربيعية، ما بين سحب البخار، متعرقاً بغزارة.

وأوضحت له دونيا لوكريثيا:

— بدأ ذلك على أنه لعب. لقضاء الوقت بينما نحن نطرح سموم العرق. وعلى الفور فكرتُ فيكَ. وفيما إذا كنت ستوافق. وإذا ما كان سيهيجك. إذا ما كنت ستتضايق. وإذا ما كنت ستؤنّبني عندما أخبرك.

ووفياً لوعده بتخصيص الليلة كلها لعبادة نهدى زوجته واسعي الصلاحيات، جثا على الأرض، ما بين ساقي لوكريثيا المنفصلتين وهي جالسة على حافة السرير. وكان يمسك أحد النهدين في كل يدٍ من يديه بعناية محبة، متطرفاً في الحرص، وكأنهما من الزجاج الهش ويمكن لهما أن ينكسرا. كان يقبلهما بطرف شفّته، مليّتر بعد آخر، وكأنه مزارع مُدقّق لا يترك بقعة من الأرض دون حرث.

— أي أنني استُثرت عندما لمستهما لكي أعرف، باللمس، إذا ما كان نهداها مركبين. وفعلت هي مثلي على سبيل الملاطفة، وحتى لا تبقى ساكنة، بفتور. ولكن ذلك كان لعباً بالنار طبعاً.

— بالطبع. وافق دون ريغوبيرتو الذي لم يمل البحث عن التشابه، قافزاً، بالعدل، من صدر إلى آخر —. الأنكما تهيجتما؟

ألأنكما انتقلتما من لمس النهود إلى تقبيلها؟ إلى مصها؟
وندم على الفور. لقد خرق ذلك الاتفاق الصارم الذي يُقر عدم
جواز الجمع ما بين اللذة واستخدام الكلمات المبتذلة، وخصوصاً
الأفعال (مص، رضع) التي تجرح أي وهم.
وقال معتزراً، ومحاولاً استعادة الماضي وتصحيحه:
— لم أقل «مصها». فلنبق عند تقبيلها. أي واحدة هي التي
بدأت؟ أكنت أنت يا حياتي؟

سمع صوتها الخافت جداً، ولكنه لم يتمكن من رؤيتها، لأنها
كانت تتلاشى بسرعة كبيرة، مثلما يتلاشى البخار عن المرأة عند
دلكتها أو حين تتلقى جرعة من الهواء البارد: «أجل، أنا. ألم يكن هذا
هو ما طلبت مني عمله، وما كنت تريده؟». وفكر دون ريغوبيرتو:
«لا. ما أريده هو أن تكوني هنا من لحم وعظم، وليس شبحاً. لأنني
أحبك.» كان الحزن قد انهال عليه مثل وابل، وجرفت مياه إعصاره
العاتية تلك الحديقة، وذلك المنزل، ورائحة الصندل والصنوبر
والنعناع، وحمام البخار والصدیقتين المتلاطفتين. وكذلك الحر
الرطب الذي كان قبل لحظة، وحلمه. كانت برودة الفجر تتغلغل
في عظامه. والبحر الرتيب يلطم الجروف بسخط.

وعندئذ تذكر أن كيكاً والبدينة، في الرواية — ملعون
أونيتي! مبارك أونيتي! — تتبادلان القبلات والمداعبات خفية عن
براوسين، وأرسي المزيف، وأن العاهرة أو العاهرة السابقة كيكاً،
التي يقتلونها، كانت تعتقد أن شقتها تعص بالمسوخ، بالعاريت،
بالمخلوقات والبهائم الخرافية الخفية التي تأتي لمضايقتها. وفكر:

«كيكا والبدينة، لوكريثيا والسفيرة.» إنه شيزوفريني مثل براوسين. لم يعد بإمكان الأشباح أن تتفذه، بل إنها سوف تدفنه كل يوم في عزلة أشد عمقاً، تاركة مكتبه مزروعاً بالوحوش الضارية، مثل شقة كيكا. هل عليه أن يحرق البيت؟ وهل يفعل ذلك وهو وفوننتشيتو بداخله؟

ولمع في الدفتر حلم ايروتيكي لخوان ماريا براوسين («مستقى من لوحات لبول ديلفو لم يكن بإمكان أونيتي أن يعرفها حين كتب الحياة القصيرة، لأن الفنان السورياتي البلجيكي لم يكن قد رسمها بعد»، هذا ما تقوله ملاحظة صغيرة بين قوسين) «أسلم نفسي إلى مسند الكرسي، إلى كتف الفتاة، وأتخيل أنني أبتعد عن مدينة صغيرة مؤلفة من بيوت دعارة؛ عن قرية صامتة فيها أزواج من الناس العراة يتجولون في جنائن، وعلى أرصفة طحلبية، يحمون وجوههم بأكفهم المفتوحة عندما تضاء أنوار، عندما يمرّون بصبيان لواط...». هل سينتهي مثل براوسين؟ أيكون قد صار مثل براوسين؟ وسطي مفلس، فشل كمثالي كاثوليكي، وكمصلح اجتماعي إنجيلي، ثم فشل بعد ذلك أيضاً كماجن فردي ومتلذذ لأدريّ، وصانع لمقاطع فردية خاصة ذات مخيلة عالية وذوق فني رفيع، فتهدم كل شيء وانهار: الزوجة التي يحبها، والابن الذي أنجبه، والأحلام التي أراد أن يدخلها في الواقع، وهو ينحدر كل يوم، كل ليلة، وراء القناع المقرز لمدير شركة تأمين ناجح، متحولاً إلى هذا «اليائس المحض» الذي تتحدث عنه رواية أونيتي، إلى شبيهه مضحك للماسوشي في الحياة القصيرة. ولكن

براوسين كان يرتب أمره مع ذلك ليهرب من بوينس آيرس، بركوب القطارات أو السيارات، أو السفن أو الحافلات، ويتمكن من الوصول إلى سانتا ماريا، المستوطنة الوهمية التي ابتدعها. ودون ريغوبيرتو ما يزال يتمتع بكثير من الصحو وصفاء الذهن بحيث لا يمكنه التوغل خلسة في الخيال، أو القفز إلى الحلم. فهو لم يصبح براوسين بعد. هنالك متسع من الوقت، للقيام برد فعل، لعمل شيء. ولكن، ماذا، ماذا، ماذا.

ألعاب الإخفاء

أدخلُ إلى بيتك من مدخنة المدفأة، مع أنني لستُ سانتا كلوز، وأطفو حتى أصل إلى غرفة نومك، وحين ألتصق بوجهك، ابدأ بتقليد طنين الناموسة. فتبدأ، وأنت نائم، بتوجيه صفعات في الظلام إلى برغشة مسكينة لا وجود لها.

وعندما أتعب من لعبة البعوضة، ارفع الدثار عن قدميك، وأنفخ عليهما تيار هواء بارد يخدر عظامك. فتبدأ بالارتعاش، تنكمش على نفسك، تحرك الدثار، تصطك أسنانك، تغطي نفسك بالوسادة وتداهمك كذلك موجة عطاس ليست من النوع التحسسي.

وعندئذ أتحول إلى حر بيوراني، أمازوني، بيللك بالعرق من رأسك حتى قدميك. فتبدو مثل فروج صغير مبلل، تلبط الملاءات إلى الأرض، وتخلع قميص وسروال البيجاما. إلى أن تبقى عارياً،

متعرقاً، متعرقاً وتلهث مثل أكواديون.

بعد ذلك أتحوّل إلى ريشة وأدغدغك، في باطن قدميك، في أذنك، تحت إبطيك. ها ها ها ها ها ها، تضحكُ دون أن تستيقظ، مكشراً وجهك بيأس ومتحركاً، إلى اليمين، إلى اليسار، لكي تتخلص من تشنجات القهقهة. إلى أن تستيقظ أخيراً، بخوف، دون أن تراني، ولكنك تشعر بأن هناك من يطوف في الظلام.

وعندما تنهض لتذهب إلى مكتبك، لتتسلى بلوحاتك، أضع لك الشراك في طريقك. أحرك كراسي وزينات وطاولات من أماكنها، لكي تصطدم بها وتصرخ «آي آي آي ي ي!» وأنت تفرك قصبتي ساقيك. وأحياناً أخبئ روبك البيتي، أو خفيك. وأحياناً أريق لك كأس الماء الذي تضعه على الكوميدينو لتشربه حين تستيقظ. وكم تغضب عندما تفتح عينيك وتلمس باحثاً عنه وتكتشف أنه وسط بركة من الماء على الأرض!

هكذا نلعب نحن مع من نحب.

لك، لك، لك،

الشبحية العاشقة



VIII. وحش ضار في المرأة

«لقد ذهبُ هذه الليلة»، أفلتت العبارة من دونيا لوكريثيا. وقبل أن تنتبه تماماً لما قالته، سمعت فوننتشيتو يسألها: «إلى أين يا خالتي؟» فاحمرتُ حياءً حتى جذور شعرها، ونهشها الخجل.

— أعني أنني لم أستطع أن أغمض عيني — قالت ذلك كاذبة، لأنها منذ زمن طويل لم تنم بمثل هذا العمق، وإن كان حلمها مشوشاً باضطرابات الرغبة وأشباح الحب، ثم أضافت: — لم أعد أعرف ما الذي أقوله من الإرهاق.

عاد الصبي إلى التمعن في تلك الصفحة من الكتاب الذي

يتحدث عن رسام هواه، الصفحة التي تظهر فيها صورة لإيغون شيلي ينظر في مرآة مرسمه الكبيرة. كان يظهر بكامل قامته واضعاً يديه في جيبه، وكان شعره القصير مشعثاً، وقامته الشابة محشورة في قميص أبيض بياقة مركبة، مع ربطة عنق، ولكن دون سترة، أما اليدان فمخبأتان بالطبع في جيبى بنطال يبدو مشمراً من أجل الخوض في نهر. منذ أن وصل فوننتشيتو لم يفعل شيئاً سوى الحديث عن تلك المرأة، محاولاً مرة بعد أخرى فتح حديث حول هذه الصورة؛ ولكن دونيا لوكرينثيا المستغرقة في أفكارها، لم توله أي اهتمام؛ فقد كانت ضحية التهيج المضطرب، والشكوك والآمال التي أغرقها فيها منذ الأمس التطور المفاجئ لمراسلاتها المغفلة. نظرت إلى رأس فوننتشيتو ذي التجعيدات الذهبية، ورأت بروفيل وجهه، والتمعن الشديد الذي يُخضع إليه تلك الصورة، وكأنه يريد أن ينتزع منها سراً. وفكرت: «لم ينتبه، لم يفهم ما قلته.» بالرغم من أنه لا يمكن التأكد من أي شيء معه. ربما يكون قد فهم جيداً وأخفى ذلك، لكي لا يزيد من إحراجها.

أم أن كلمة «ذهبت» لا تعني الشيء نفسه عند الطفل؟ وتذكرت أنها في زمن سابق كانت قد دخلت هي وريغوبيرتو في واحدة من تلك المناقشات الشائكة التي لم يكن القانون الذي يحكم حياتيهما يبيحها إلا في الليل وفي السرير فقط. كان زوجها قد أكد لها أن أبناء الجيل الجديد لم يعودوا يقولون «ذهبت» وإنما يقولون «جئت»، مما يوضح تأثير اللغة الإنكليزية في المجال الغرامي أيضاً، ذلك أن الغرينغيين والغرينغيات حين يمارسون الحب «يأتون» (to come)

ولا يذهبون إلى أي مكان، مثلما هو الحال لدى اللاتينيين. مهما كان الأمر، فإن دونيا لوكريثيا قد ذهبت أو جاءت أو انتهت (وهذا هو الفعل الذي كانت تستخدمه هي وريغوبيرتو طوال عشر سنوات من الحياة الزوجية، بعد أن اتفقا على ألا يشيرا مطلقاً إلى النهاية الجميلة لالتقاء جسد بجسد ايروتيكياً بالكلمة الفظة والسريرية «رعشة» وأسوأ منها كلمة «قذف» الماطرة والحربية) في الليلة الماضية، مستمتعة برحابة، بمتعة قصوى، تكاد تكون مؤلمة — استيقظت مستحمة بالعرق، وأسنانها تصطك، ويدها وقدمها ترتعش — حاملة بأنها قد ذهبت إلى الموعد السري الذي حدده العشيق، منفذة كل التعليمات الشاذة، وعلى أثر ذلك، وبعد تتقل عشوائي في شوارع مركز وضواحي ليما المظلمة، أُدخلت — وهي معصوبة العينين بالطبع — إلى بيت رائحته معروفة، وأُصعدت على درج إلى طابق ثانٍ — أحست بيقين منذ اللحظة الأولى أنه بيت بارانكو —، وعُريت وأُخذت إلى سرير حددته كذلك بأنه سريرها المعهود، إلى أن أحست بأنها تُعانق، تُحتضن، تُداهم، تُعنلى من جسد، هو بالطبع جسد ريغوبيرتو. وكانا قد انتهيا — ذهبا أو جاءا — معاً، وهو شيء لم يكن يحدث لهما بكثرة. وبدا ذلك لكليهما علامة طيبة، وفألاً سعيداً للمرحلة الجديدة التي ستفتح بعد المصالحة الجامحة. عندئذ استيقظت، مبللة، خامدة، مضطربة، وكان عليها أن تتاضل لكي تتقبل أن تلك السعادة الزخمة لم تكن إلا حلمًا.

— هذه المرأة أهدتها إلى شيلي أمه — أعادها صوت فونتشيتو إلى بيتها، إلى رمادية سان إيسيدرو، إلى صرخات

الصبيان الذين يتقاذفون كرة في بستان الزيتون؛ وكان الطفل يتوجه بوجهه نحوها: — لقد توصل وتوصل إلى أمه لكي تهديه إياها. البعض يقولون إنه قد سرقها. وإنه كان يموت لهفة لامتلاكها، وفي أحد الأيام، ذهبَ إلى بيت أمه وأخذ المرأة سطواً. وقد رضخت الأم وتركتها في مرسمه. وكانت أول مرآة يملكها. وقد احتفظ بها دوماً، فانتقل إلى كل المراسم ومعه هذه المرأة، حتى موته.

وبذلت دونيا لوكريثيا جهداً لكي تبدي اهتمامها:

— ولماذا كانت هذه المرأة على هذا القدر من الأهمية؟ لقد كان نرجسياً، وهذا أمر صرنا نعرفه. وفي هذه الصورة يظهر بكامل قامته، متأملاً نفسه، مغرماً بذاته، مبدياً على وجهه ملامح الضحية. من أجل أن يحبه الجميع ويقدرونه مثلما كان يحب نفسه ويقدرها.

صاح:

— يا للمخيلة يا خالتي! لهذا السبب أحب التحدث إليك؛ فأنت تخطر لك أشياء، مثلما يحدث لي. إنك تستخلصين قصة من أي شيء. نحن متشابهان، أليس كذلك؟ عندما أكون معك لا أشعر بالملل على الإطلاق.

— وأنا أيضاً لا أشعر بالملل معك — وأرسلت له قبلة طائفة — ها أنا قد أبديت لك رأيي، فأعطني أنت الآن رأيك. لماذا هي مهمة جداً؟

— إنني أحلم بهذه المرأة — اعترف فونتشيوتو، ثم أضاف

وهو يبتسم ابتسامة ميفيستوفيليسية: — لقد كان إيغون مهتماً بها كثيراً جداً. كيف تظنينه رسم صورته الذاتية المئة؟ بالاستعانة بهذه المرأة. وقد استخدمها كذلك لرسم موديلاته، منعكسات فيها. لم تكن نزوة، وإنما كانت، كانت...

كشر قليلاً باحثاً، ولكن دونيا لوكريثيا انتبهت إلى أنه لم يكن يبحث عن كلمات، وإنما كان يحاول تحديد فكرة ما تزال مبهمة لديه، فكرة ما زالت تجول في ذلك الرأس الناضج قبل أوانه. إنها واثقة الآن من أن ميل الطفل إلى هذا الرسام هو ميل مرضي. ولكن، ربما أمكن لهذا السبب نفسه أيضاً أن يخط لفوننشيتو مستقبلاً استثنائياً، بأن يكون مبدعاً متفرداً، وفناناً شاذاً. إذا ما ذهب إلى الموعد وتقابلت مع ريغوبيرتو، فسوف تحدثه في هذا الأمر. «أتروك فكرة أن يكون لك ابن عبقرى ومختل؟» وستسأله عما إذا لم يكن هناك خطر على صحة الطفل النفسية في إحساسه بالتطابق بهذه الطريقة مع رسام ذي ميول غير سوية مثل إيغون شيلي. ولكن ريغوبيرتو سيرد عليها عندئذ: «ماذا؟ أكنت تقابلين فوننشيتو؟ تقابليه ونحن منفصلان؟ بينما أنا أكتب لك رسائل حب، ناسياً ما حدث، متسامحاً مع ما حدث، كنت أنت تلتقين به خفية؟ تلتقين بالطفل الذي أفسدته بإدخاله إلى سريرك؟». وفكرت لوكريثيا: «رباه، رباه، لقد جننت تماماً». إذا ما ذهب إلى الموعد فلا يمكنها أن تذكر اسم ألفونسو إلا مرة واحدة.

— أهلاً خوستيتا — حيا الطفل الفتاة التي دخلت الصالة بملابس فاخرة، وبمريلة منشاة، حاملة صينية الشاي والبسكويت

المحمص مع الزبد والمربي — لا تذهبي، أريد أن أريك شيئاً.
ماذا ترين هنا؟

— وماذا سيكون سوى قذارة أخرى من القذارات التي تعجبك
— أمعنت خوستينيانا النظر بعينها المتحركتين في الكتاب: —
رجل متهتك يستمتع برؤية فتاتين عاريتين، بجوارب وقبعات،
تعرضان نفسيهما من أجله.

— هكذا تبدو، أليس كذلك؟ — هتف فوننتشيتو بمزاج ظافر.
ثم مدّ الكتاب إلى دونيا لوكريثيا لكي تتفحص اللوحة التي تحتل
صفحة كاملة وهو يقول: — ليستا اثنتين، وإنما هي واحدة فقط.
لماذا تبدو وكأنها اثنتان، أحدهما من الأمام والثانية مديرة ظهرها؟
بسبب المرأة! هل انتبهت يا خالتي؟ والعنوان يوضح كل شيء.

شيلي يرسم موديلاً عارية أمام المرأة (1910) (غرافيك
شاملونغ ألبيرتينا، فيينا). قرأت دونيا لوكريثيا ذلك بينما هي تتأمل
اللوحة مذهولة بشيء لا تعرف ما هو، اللهم إلا أنه ليس في
اللوحة نفسها: حضور ما، أو بكلمة أدق غياب ما، وكانت تسمع
بإحدى أذنيها فوننتشيتو وهو في تلك الحالة الانفعالية المتصاعدة
التي يتحول إليها كلما تكلم عن شيلي. كان يشرح لخوستينيانا أن
المرأة «موجودة حيث نوجد نحن الذين نرى اللوحة». وأن فتاة
الموديل التي يظهر وجهها ليست الفتاة التي من لحم وعظم، وإنما
الصورة المطبوعة في المرأة، وبالمقابل فإن الرسام والموديل
نفسها التي تدير ظهرها، هما حقيقيان وليسا صورة معكوسة. وهذا
يعني أن شيلي كان قد بدأ برسم موا وهي تدير ظهرها، قبالة المرأة،

ولكنه انجذب فيما بعد إلى الجزء الذي لا يراه منها مباشرة وإنما هو معكوس في المرأة، قرر أن يرسمها بتلك الصورة أيضاً. وهكذا فقد رسم، بفضل المرأة، موا مكررة هي في الواقع واحدة: إنها موا الكاملة، موا بنصفها، موا التي لا يمكن لأحد أن يراها في الواقع «لأننا لا نستطيع أن نرى إلا ما هو أمامنا، وليس الجزء الذي وراء هذا الأمام». هل فهمت لماذا كانت هذه المرأة مهمة جداً بالنسبة إلى شيلي؟

— ألا ترين أن هناك خلافاً في طبقتة العليا يا سيدتي؟ —

قالت خوستينيانا ذلك بمبالغة وهي تلمس صدغها.

— إنه كذلك منذ زمن بعيد — وافقت دونيا لوكريثيا. ثم

توجهت إلى فونتشيتو: — ومن هي موا؟

تاهيته. جاءت إلى فيينا واستقرت للعيش مع رسام، كان هو الآخر إيحائياً ومجنوناً: ابروين دومينيك أوسيه. وسارع الطفل إلى قلب الصفحات ليُري دونيا لوكريثيا وخوستينيانا عدة رسوم للتاهيتية موا، وهي ترقص، متلذذة بعباءة متعددة الألوان يبرز من خلال ثناياها نهداها بحلمتيهما المنتصبتين، والشعر الذي مثل عنكبوتين رابضين تحت إبطيها. لقد كانت ترقص في الكباريهات، وكانت ملهمة الشعراء والرسامين، وكانت عشيقة إيغون شيلي، فضلاً عن كونها موديله.

وعلقت خوستينيانا:

— هذا ما فكرت فيه منذ البداية. لقد كان اللعين يضاجع كل

موديلاته بعد أن يرسمهن، هذا صرنا نعرفه.

— أحياناً قبل أن يرسمهن، وأحياناً في أثناء رسمهن —
أكد فوننتشيتو بهدوء — مع أنه لم يكن يضاجعهن كلهن. ففي
بطاقته لعام 1918، سنته الأخيرة في الحياة، زارت مرسمه 117
فتاة موديل. هل كان بإمكانه مضاجعتهن كلهن في ذلك الوقت
القصير؟

فقالت خوستينيانا باحتفالية:

— لن يستطيع حتى ولو أصيب بالسل. هل مات بمرض
رئوي؟

وأوضح لها فوننتشيتو:

— مات بالأنفلونزا الإسبانية وهو في الثامنة والعشرين من
عمره. وهكذا سأموت أنا أيضاً إذا كنت لا تعرفين.
فأنبته الفتاة:

— لا تقل هذا الكلام ولو مازحاً، إنه يجلب سوء الطالع.
وقاطعتهما دونيا لوكريثيا:
— ولكن هناك شيء لا يتطابق هنا.

كانت قد انتزعت من الطفل كتاب اللوحات وراحت تتفحص
باهتمام ذلك الرسم، بخطوطه النحيلة المحددة، على خلفية حَبَّارية،
حيث يظهر الرسام مع الموديل المزدوجة (أم من الأفضل القول
الموديل المشطورة؟) بواسطة المرأة، وتبدو عينا الراقصة موا ذات
الرموش الزرقاوية، الكئيبتان، الحريريتان، اللتان تطلقان شرراً
وكأنهما تردان على عيني شيلي المركزتين، وشبه العدائيتين. لقد
كان يقلق السيدة لوكريثيا شيء تمكنت من تحديده للتو. آه، أجل، إنها

القبعة المرئية من الخلف. باستثناء هذا التفصيل هناك توافق متقن في كل شيء في الصورة الدقيقة، المقسومة، الحسية للتأهينية ذات الشعر الشبيه بالعناكب في العانة والإبطين؛ وحين ينتبه الناظر إلى وجود المرأة، يتعرف على نصفي الشخصية نفسها في الصورتين اللتين تتأملان الرسام. ولكن التوافق غير موجود في القبعة. فالتى تدير ظهرها تضع على رأسها شيئاً لا يشبه القبعة من هذا المنظور، بل يشبه شيئاً غامضاً، مُقلِّقاً، نوعاً من القلنسوة، بل هو أشبه برأس حيوان ضار. أجل، ما يشبه النمر. وليست له أي علاقة بالقبعة النسائية اللطيفة التي تزين وجه موا في الرسم الوجهي.

كررت الخالة:

— يا للغرابة. هذه القبعة تتحول من الخلف إلى قناع. إلى رأس نمر.

— أهو مثل ذلك القناع الذي كان أبي يطلب منك أن تضعيه أمام المرأة يا خالتي؟

تجمدت ابتسامة دونيا لوكريثيا. وأدركت فجأة سبب الكدر الغامض الذي سيطر عليها منذ عرض الطفل لوحة شيلي يرسم موديلًا عارية أمام المرأة.

أعانتها خوستينيانا:

— ماذا أصابك يا سيدتي؟ كم شحب لونك!

فتلعثمت دونيا لوكريثيا وهي تنظر إلى فونتشيتو غير مصدقة:

— إنك أنت إذن. أنت من أرسلت لي الرسائل المغفلة يا شقفة

المهرج.

إنه هو، بالطبع هو. لقد كانت الإشارة في الرسالة ما قبل الأخيرة، أو في سابقتها. لم تكن بحاجة إلى الذهاب للبحث عنها، فالعبارة تتبعث بنقاطها وفواصلها في ذاكرتها: «ستتعين أمام المرأة المجزأة وتبقين بجوربيك، تخفين رأسك البديع في قناع وحش ضار، من الأفضل أن يكون نمرة أو لبوة. تميلين بردفك الأيمن، وتمدين ساقك اليمنى، وتسندين يدك إلى الردف الآخر، في أشد الأوضاع اثارة. وعندئذ سأراك، وأنا جالس على كرسي، بالتوقيع المعتاد». أليس هذا ما تراه في اللوحة؟ هذا الصغير المخاطي اللعين يلعب بها على هواه! تناولت كتاب اللوحات وقد أعماها الغضب، ورمته نحو فونتشييتو. لم يستطع الطفل تقاديه. فتلقى الكتاب في منتصف وجهه وهو يطلق صرخة، تلتها صرخة أخرى أطلقتها خوستينيانا المذعورة. وبسبب شدة الصدمة وقع الطفل على السجادة وهو يمسك وجهه، وبقي ينظر إليها من الأرض بذهول. لم تفكر دونيا لوكريثيا في أنها قد أساءت التصرف بسماعها للغضب بأن يسيطر عليها. فقد كانت هيمنة الغضب قد بلغت حداً لا مجال فيه للندم والتراجع. وبينما كانت الفتاة تساعد على النهوض، واصلت هي الصراخ خارجة عن طورها:

— كاذب، منافق، ذبابة ميتة. أتظن أنه لك الحق باللعب معي هكذا، وأنا المرأة الكبيرة بينما أنت طفل مخاطي لم تكذ تخرج من البيضة؟

— ماذا أصابك، ما الذي فعلته لك؟ — قال فونتشييتو ذلك

متلعثماً وهو يحاول الإفلات من بين ذراعي خوستيتا.

وقالت خوستينيانا:

— اهديني يا سيدتي، لقد آذيتَه، انظري، إن أنفه ينزف. وأنتَ، ابق هادئاً يا فونتشيتو، دعني أر.

وعنفته دونيا لوكريثيا بغضب متزايد:

— كيف تقول ما الذي فعلتَه لي أيها المهرج. أتظن ما فعلته

قليلاً؟ كتابة الرسائل المغفلة؟ وجعلي أعتقد أنها من أبيك؟

— ولكنني لم أبعث إليك بأي رسالة مغفلة — اعترض

الطفل، بينما الخادمة جاثية على ركبتيها تمسح الدم عن أنفه بمنديل ورقي: «لا تتحرك، لا تتحرك، إنك تلوث كل شيء».

وصرخت دونيا لوكريثيا بصوت أعلى:

— لقد فضحتك مرأتك اللعينة، وفضحك إيغونك شيلي اللعين.

تظن نفسك ذكياً جداً، أليس كذلك؟ لست كذلك أيها الأحمق. كيف تعرف أنه طلب مني أن أضع قناع وحش؟

— أنتِ أخبرتني بذلك يا خالتي — بدأ فونتشيتو يقول ذلك

متلعثماً، ولكنه صمت حين رأى دونيا لوكريثيا تنهض واقفة. وأخفى وجهه بكلتا يديه وكأنها ستضربه.

وانفجرت الخالة الغاضبة:

— لم أحدثك مطلقاً عن هذا القناع أيها الكاذب. سأحضر لك

هذه الرسالة المغفلة، سأقرأها لك. وستبتلعها وتعتذر مني. ولن أسمح

لك بدخول هذا البيت بعد اليوم. هل تسمعني؟ لن تدخل هذا البيت مطلقاً!

مرت مثل نيزك من أمام خوستينيانا وفونتشيتو، وقد سيطر عليها الغيظ. ولكنها قبل أن تذهب إلى خوان الزينة، حيث تخبئ الرسائل، دخلت إلى الحمام لتغسل وجهها بالماء البارد وتمسح صدغها بالكولونيا. ولم تتمكن من استعادة هدوئها. هذا المخاطي، هذا المخاطي. إنه يلعب بها، أجل، لعبة القط الصغير مع الفأرة الكبيرة. يبعث لها رسائل مستهترة ومنتقاة لجعلها تعتقد أنها من ريغوبيرتو، ويحيي فيها الأمل بالمصالحة. ما الذي يريده؟ أي مكيدة يدبر؟ لماذا هذا التهريج؟ أيتسلى، يتسلى بالتلاعب بعواطفها وبحياتها؟ إنه شرير، سادي. يستمتع بإيهامها، وبرؤيتها تنهار بعد ذلك بخيبة الأمل.

عادت إلى غرفتها دون أن تكون قد هدأت تماماً، ولم تضطر إلى البحث طويلاً عن الرسالة في الصندوق الموجود في خوان زينتها. لقد كانت الرسالة السابعة. وفيها كانت العبارة التي نبهتها، وهي مثلما تحفظها في ذاكرتها تقريباً: «... ستخفين رأسك البديع تحت قناع وحش ضار، ومن الأفضل أن يكون الوحش هو النمرة الهائجة في ديوان أزرق لروبين داريو⁽¹⁾... أو لبوة سودانية. وستميلين بردفك...» إلى آخره، إلى آخره. إنها صورة التاهيتية موا في لوحة شيلي دون زيادة ولا نقصان. يا للداهية المبكر، يا للماكر الدساس الصغير. لقد وصلت به الوقاحة إلى حد

(1) - روبين داريو شاعر نيكاراغوي (1867-1916) راند الحداثة في الشعر الناطق بالإسبانية، وكان أول أمريكي لايتيني يمتد تأثيره إلى شعراء إسبانيا نفسها، وقد تبلور اتجاهه بصورة خاصة في ديوانه «أزرق» الصادر عام 1888.

إعداد مسرحية متكاملة عن مرآة شيلي، بل وأن يعرض عليها اللوحة التي فضحته. ليست نادمة لأنها رمته بالكتاب، حتى ولو نزف أنفه دماً. صنيع جيد! أولم يدمر حياتها هذا الشيطان الصغير؟ لأنها لم تكن المُفسدة، بالرغم من أن فارق السن يدينها، وإنما كان هو نفسه المُفسد. إنه ميفيستوفليس، إبليس بشخصه، على الرغم من سنوات عمره القليلة، ومن وجهه الملائكي. ولكن هذا كله قد انتهى. ستجعله يبتلع هذه الرسالة، أجل، وستطرده من البيت. ولن يعود مطلقاً، لن تسمح له بالتدخل في حياتها مطلقاً بعد اليوم.

ولكنها لم تجد في الصالة سوى خوستينيانا التي عرضت عليها بتأثر المنديل الورقي المبلل بالدم.

— لقد انصرف باكياً يا سيدي. لم يكن يبكي بسبب الضربة على أنفه. وإنما لأنك، وأنت تطردينه، مزقت كتاب ذلك الرسام الذي يحبه كثيراً. لقد كان حزيناً جداً.

انهارت السيدة لوكريثيا على الأريكة منهوكة:

— أيوه. إنه يُحزنك الآن. ألا ترين ما الذي فعله بي؟ هذه الرسائل المغفلة هو الذي أرسلها، هو.

— لقد أقسم لي بأنه لم يفعل ذلك يا سيدتي. أقسم بأقدس ما لديه، بأن السيد هو الذي يرسلها.

— كاذب. كانت دونيا لوكريثيا تشعر بتعب قرون من الزمان. هل سيغمى عليها؟ كم هي راغبة في الذهاب إلى الفراش، في إغماض عينيها، في النوم أسبوعاً متواصلاً. — لقد كشف نفسه بنفسه، بقصة القناع والمرآة.

اقتربت منها خوستينيانا وكلمتها بصورة سرية تقريباً:

— أنت متأكدة من أنك لم تقرئي له هذه الرسالة؟ وأنك لم تخبريه بأمر القناع؟ فونتشيتو مثل سنجاب في معرفة كل شيء يا سيدتي. أتظنين أنه سيفضح نفسه بحماقة؟

— لم أقرأ له الرسالة، ولم أحدثه أبداً عن القناع — قالت دونيا لوكريثيا مؤكدة. ولكنها في هذه اللحظة بالذات أحست بالريبة.

ألم تفعل ذلك؟ أمس، أو أول أمس؟ لقد كان رأسها مشوشاً جداً في هذه الأيام. منذ بدأ شلال هذه الرسائل المغفلة وهي تمضي تائهة في غابة من التكهانات، والشروذ، والشكوك، والأشباح. ألا يمكن أن تكون قد فعلت؟ أن تكون قد أخبرته، أو ذكرت أمامه، أو حتى قرأت له هذه التعليمات الغريبة للوقوف وهي عارية، بجوربين وقناع وحش ضار، أمام مرآة؟ إذا كانت قد فعلت ذلك، فسيكون إقدامها على شتمه وضربه ظلماً كبيراً.

— لقد مللت — تلعثمت وهي تسعى لكبح دموعها —. مللت يا خوستيتا، مللت. ربما أكون قد أخبرته ونسيت. لم أعد أعرف أين عقلي. ربما فعلت ذلك. أريد أن أغانر هذه المدينة، هذه البلاد. أن أذهب إلى حيث لا يعرفني أحد. بعيداً عن ريغوبيرتو وفونتشيتو. لقد وقعت بسببهما في بئر ولن أتمكن من الخروج ثانية إلى الهواء الطلق.

وضعت خوستينيانا يدها على كتفها، وداعبت جبهتها:

— لا تحزني يا سيدتي. لا تكنثبي. ثم إن الأمر غير مهم.

هناك طريقة بسيطة جداً لمعرفة ما إذا كان فونتشيتو أم دون ريغوبيرتو هو الذي كتب هذه الازعاجات. رفعت دونيا لوكريثيا بصرها. وكانت عينا الخادمة مفعمتان بالشرر.

— طبعاً يا سيدتي — كانت تتكلم بيديها، بعينيها، بشفتيها، بأسنانها —. ألم يحدد لك موعداً في الرسالة الأخيرة؟ انتهى الأمر. اذهبي إلى المكان المذكور، وافعلي ما يطلبه منك. تظاهرت دونيا لوكريثيا بالاستياء:

— أتفكرين بأنني سأفعل هذا التهريج كما في فيلم مكسيكي؟

فقلت خوستينيانا متممة كلامها السابق:

— وهكذا ستعرفين من هو مرسل الرسائل المغفلة. وأنا سأرافك إذا رغبت. لكي لا تشعرني بأنك وحيدة. ولأن الفضول يقتلني كذلك. أهو الابن أم الأب؟ من منهما؟

ضحكت بوقاحة وظرف كعادتها، وانتهى الأمر بدونيا لوكريثيا إلى الابتسام أيضاً. ربما كانت هذه المجنونة على حق في نهاية الأمر. إذا ما ذهبت إلى هذا الموعد القاسي، فستمكن أخيراً من نزع هذا المسمار.

— لن يحضر، وسيسخر مني مرة أخرى — تذرعت دون حماسة وهي تعرف في قرارة نفسها أنها قد حسمت أمرها. ستذهب، وستفعل كل التهريج الذي يطلبه الأب أو الابن. وستواصل لعب اللعبة التي تلعبها، راضية أو غير راضية، منذ بعض الوقت.

وكانت خوستينيانا متحمسة جداً:
— أتريدين أن أعدّ لك حماماً دافئاً مع أملاح، لكي تتخلصي
من الغضب.
وافقت دونيا لوكريثيا. يا للحنة، إنها تشعر الآن بأنها قد
تسرت، وبأنها قد أجدفت كثيراً بحق فوننشيتو المسكين.

رسالة إلى قارئ «بلايبوي» وأطروحة موجزة في الجمال

بما أن الايروتيك هو الأنسنة الذكية والحساسة للحب الجسدي،
والبورنوغرافيا هي التي تُلحق به الرخص والمهانة، فإنني أتهمك
يا قارئ بلايبوي أو بيتهاوس، يا من ترتاد الأوكار التي تعرض
أفلام بورنو قاسية، ومحلات السكس شوب حيث تُقنّتى وسائل
ارتعاش كهربائية، وأدوات تسلية مطاطية، وواقيات ذكرية لها
أعراف ديكة أو تيجان أسقفية، بالمساهمة في العودة السريعة
نحو النكاح الحيواني المحض والتخلي عن السمة الأكثر فاعلية
الموهوبة للرجل والمرأة ليشابها مع الآلهة (وقد كانوا وثنيين
بالطبع، ولم يكونوا عفيفين ولا متأنقين في المسائل الجنسية
مثلما نعرف)

إنك ترتكب جريمة سافرة كل شهر، بتخليك عن ممارسة تخليك
الخاص الذي توججه رغباتك، مستسلماً لخشبة النجاة البلدية في

السماح بأن تكون أكثر نبضاتك فطنة، نبضات الشهوة الجنسية، ملجومة بمنتجات مصنعة بطريقة تهريجية، تقوم تحت دعوى إرضاء الحاجات الجنسية الملحة، باستعباد هذه الحاجات وإفسادها وتحويلها إلى ممارسة متماثلة بالجملة، وتحبسها ضمن الكاريكاتير الذي يبتذل الجنس، ويجرده من الأصالة والسحر والجمال، ويحوّله إلى مهزلة، إذا لم يكن إلى إهانة دنيئة للذوق الجيد. ولكي تعرف أين يجب البحث، ربما يوضح لك تفكيري (وأنا أحادي الزواج، مع أنني أترفق بأمر الزنا) أن أشهى مصادر رغباتي الايروتيكية تأتي من الحكومة الإسرائيلية المتوفاة غولدا مائير أو من سيدة المملكة المتحدة الصارمة مرغريت تاتشر التي لم تهتز لها شعرة حين كانت رئيسة للوزراء، أكثر مما تأتي من تلك الدمى المضمخة بالكافور، ذوات النهود المنفوخة بالسيليكون، والعانات المغشوشة والمصبوغة التي تبدو قابلة للتبديل، واللواتي يشكلن الأكذوبة نفسها متعددة في قالب وحيد، ويظهرن — لكي تصبح الحماسة مضحكة تماماً — في هذه المجلة المعادية لإيروس المدعوة بلايبوي على صفحة مزدوجة بأذنين وذيل من وبر متباه على أنهن «أرنبه الشهر».

إن كراهيتي لبلايبوي و بينهاوس ومثيلتهما ليست مجانية. فهذه المجالات هي رمز للإسفاف في الجنس ولاختفاء المحرمات التي اعتادت أن تحيط به، والنعم التي كان يمكن للروح الإنسانية أن تتمرد عليها لتمارس الحرية الفردية، وتؤكد الشخصية المنفردة لكل شخص، وتخلق الفرد ذا السيادة شيئاً فشيئاً في خضم الممارسة السرية والخفية للطقوس والسلوك والتخيلات والعبادات والأوهام

والشعائر التي تسمو أخلاقياً بممارسة الحب وتمنحها مرتبة جمالية، وتتزع عنها البهيمية باطراد إلى أن تحولها إلى عمل إبداعي. وهو عمل، يمكن بفضل لرجل وامرأة في المخدع (وأنا أكتفي بذكر الصيغتين الأصوليتين، مع أنه يمكن بالطبع أن يكون ذلك بين رجل وكف يد، أو بين امرأتين، أو بين رجلين أو ثلاثة بكل التوافقات التي يمكن تخيلها طالما لا تزيد القائمة على ثلاثة أشخاص، أو عن زوجين من الأفراد كحد أقصى من التسامح) أن ينافس هوميروس، أو فيدياس، أو بوتيشلي أو بيتهوفن. أعرف أنك لا تفهمني، ولكن هذا غير مهم؛ وإذا كنت تفهمني، فلن تكون أحق إلى حد توقيت انتصباتك وارتعاشاتك وفق ساعة (وهي من الذهب الخالص المصمت بكل تأكيد؟) سيد يدعى هيوغ هيفنر.

المسألة جمالية قبل أن تكون أخلاقية أو فلسفية أو جنسية أو سيكولوجية أو سياسية، مع أن هذا الفصل غير مقبول بالنسبة إلي، لأن كل ما هو مهم هو جمالي على المدى القريب أو البعيد. إن البورنوغرافيا تجرد الايروتيكية من المضمون الجمالي، وتفضل ما هو عضوي على ما هو جمالي وذهني، كما لو أن البطولة في الشهوة واللذة هي للقضبان والأرحام، وكما لو أن هذه الأجهزة ليست إلا مجرد خدم للأشباح التي تحكم أرواحنا، وتفصل الحب الجسدي عن بقية التجارب الإنسانية. أما الايروتيكية بالمقابل، فتضمه إلى كل ما نحن عليه وما نملكه. وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي يُحسب لديك، أيها البورنوغرافي، على أنه ممارسة للحب، مثلما لدى الكلب أو القرد أو الحصان، هو قذفمني. أما لو كريتيا

وأنا، ولك أن تحسدنا، فإننا نمارس الحب أيضاً ونحن نتناول
الطور، وحين نلبس، وحين نستمع إلى موسيقى ماهر، وأثناء
التحدث إلى الأصدقاء أو تأمل الغيوم أو البحر.

وعندما أقول جمالية، يمكن لحضرتك أن تفكر — إذا كان
بالإمكان الجمع ما بين البورنوغرافية والتفكير — بأنني، عبر
هذا السبيل، أسقطُ في شرك الجماعة، هكذا أصير أنا أقل «أنا»
وأكثر «هم»، أي أنني أصير جزءاً من القبيلة. أعترف بأن الخطر
قائم، ولكنني أقاومه دون هوادة، نهاراً وليلاً، مدافعاً عن حرיתי
في مواجهة المصاعب المحدقة عن طريق الاستخدام الدائم
لحرיתי.

فاطلع واحكم إذا لم يكن الأمر كذلك، من خلال هذا النموذج
الصغير لأطروحتي في الجمالية الخاصة (وآمل ألا يشاطرنى إياها
أناس كثيرون لأنها مرنة وتتحل وتتركب مثلما الصلصال بين يديّ
خزّاف ماهر).

كل ما يلعب قبيح. هناك مدن لامعة، مثل فيينا وبوينس آيرس
وباريس؛ وكتّاب لامعون، مثل أومبيرتو إيكو وكارلوس فوينتس
وميلان كونديرا وجون أوبديك؛ ورسامون لامعون، مثل آندي
وارهول وماتا وتاييه. ومع أن هذا كله يلعب، إلا أنه في رأيي لا
غنى عنه. وجميع المهندسين المعماريين المعاصرين دون استثناء
لامعون، ولهذا أقصيتُ هندسة العمارة من الفنون وتحولت إلى فرع
من فروع الإعلان والعلاقات العامة، مما يجعل من المناسب
الاستغناء عن المهندسين كلياً واللجوء فقط إلى البنائين ومعلمي

الورش وإلهام الدنيويين غير المتضلعين. وليس هناك موسيقيون لامعون كذلك. مع أن مؤلفين موسيقيين من أمثال موريس رافيل، وايريك ساتيه قد ناضلوا من أجل ذلك وتوصلوا إليه. أما السينما فإنها مسلية مثل لعبة البرجيس أو المصارعة الحرة، وهي ما بعد فنية ولا تستحق ضمها إلى تقديراتي حول الجمالية، على الرغم من بعض الحالات الاستثنائية الغربية (سأنفذ هذه الليلة فيسكونتي، واورسون ويلز، وبونويل، وبيرلانغا، وجون فورد) وحالة يابانية واحدة (كيروساوا).

كل شخص يكتب كلمات: «نووياتي»، «أطرح»، «توعياتي»، «تبصري»، «جمعي»، أو كلمة «أرضيي» بصورة خاصة، هو ابن (أو ابنة) قحبة. ومثلهم كذلك من يستخدمون عيدان الأسنان في العفن، مسببين للغير هذا المشهد المنفر الذي سيشوه مناظر الطبيعة. ومثلهم أولئك المقرفين الذين يستخرجون لباب الخبز، ويعجنونه إلى أن يحولوه إلى كرات صغيرة فوق الطاولة. لا تسألني لماذا أرى أن من يقدمون على هذه القباحت هم أبناء (أو بنات) قحبة؛ فهذه المعارف تُعرف بالبديهة وتُستوعب بالإلهام؛ إنها وحي ومن غير الممكن دراستها. والشعار نفسه ينطبق بالطبع على الفاني، من أي جنس كان، الذي يحاول أن يؤسب كلمة ويسكي، فيكتبها غويسكي أو ينيريل أو أوخايبول. وهؤلاء الأخيرون، أو الأخيرات، يجب أن يموتوا أيضاً، لأنني أظن أن حياتهم فائضة عن الحاجة. إن واجب الفيلم أو الكتاب هو تسليتي. فإذا ما سهوت في أثناء القراءة أو المشاهدة، أو نعست أو نمت، فإنهما لم ينجزا

واجبهما، وهما كتاب سيئ وفيلم سيئ. والأمثلة البارزة على ذلك نجدها في كتاب **الإنسان الخالي من الصفات** لموسيل، وكل أفلام هؤلاء المحتالين المدعويين أوليفر ستون أو كينتين تارانتينو.

أما فيما يتعلق بالرسم والنحت، فإن تقييمي الفني بسيط جداً: كل ما أستطيع عمله في موضوع الرسم أو النحت هو براز. وبالتالي فإن الفنانين الوحيدين الجديرين بهذه الصفة هم أولئك الذين تكون أعمالهم بعيدة عن تناول قدراتي الإبداعية العادية، أولئك الذين لا أستطيع استساخهم. وقد أتاحت لي هذه الرؤية أن أعتبر، منذ النظرة الأولى، أن أعمال «فنانين» مثل آندي وار هول أو فريدا كاهلو هي مجرد نفاية، وبالمقابل، فإن أي خطوط لجورج غروس أو تشيلدا أو بالتوس هي أعمال عبقرية. وإضافة إلى هذه القواعد العامة، فإن واجب أي لوحة هو أن تهيجني (وهذا تعبير لا يعجبني، ولكنني أستخدمه لأن إعجابي أقل بالعبارات المجازية المحلية «توصلني إلى شفا الكراميل»، لأنها تُدخل عنصراً باسمًا إلى أمر شديد الجديّة). وإذا ما أعجبتني، فإنها تسبب لي البرود، ما لم تستثر تخيلات تسيطر عليها الرغبات المسرحية-النكاحية وهذه الدغدغة التي تسري في الخصيتين قبل الانتصابات الناعمة، وستكون لوحة غير مهمة، حتى ولو كانت الموناليزا، أو الرجل ذا اليد على الصدر، أو غيرنيكا أو الجوقة الليلية. وهكذا، سيفاجئك أن تعرف أن الشيء الوحيد الذي يعجبني في غويا، وهو مسخ آخر مقدس، هو الأحذية ذات الأربطة المذهبة والكعوب الرفيعة، مع الجوارب البيضاء المطرزة، التي كان يُلبسها لمركزاته في لوحاته الزيتية،

ولست أنظر برفق (بمتعة أحياناً) في لوحات رينوار إلا إلى المؤخرات الوردية لفلاحاته، وأتجنب بقية أجسادهن، وخصوصاً وجوههن التنايرية وعيونهن المشعة كالحشرات المضيئة، والتي أعتبرها سابقة — *vade retro!*⁽¹⁾ — لأرينات بلايوي. أما في أعمال كوربيه فتعجبني السحاقيات وتلك المؤخرة الضخمة التي سببت الحياء للإمبراطورة أوجينيا المقطبة.

وواجب الموسيقى بالنسبة إليّ هو أن تغرقني في دوامة من الأحاسيس الصافية التي تجعلني أنسى الجزء الأكثر إضجاراً في، أي الجزء المتحضر والبلدي، وتتقيني من القلق، وتعزلني في محمية لا رابط يربطها بالواقع المحيط الفذر، وهكذا تتيح لي أن أفكر بوضوح في التخيلات (وهي تخيلات ايروتيكية على العموم ودور النجومية فيها على الدوام لزوجتي) التي تجعل الحياة محتملة. أقدر أنه إذا كانت الموسيقى شديدة الحضور، وإذا شغلنتني عن أفكاري واستدعت انتباهي وفرضت نفسها عليّ، لأنها بدأت تعجبني كثيراً أو لأنها صاخبة جداً — وأذكر هنا كل أعمال غارديل، وبيريت برادو، وماهله، وكل موسيقى الميرينغي وأربعة أخماس الأوبرات — فهي موسيقى سيئة ومستبعدة من مكتبي. وهذا المبدأ يستدعي بالطبع أن أحب فاغنز، على الرغم من الترومبيتات والأبواق المزعجة، وأن أحترم شوينبرغ.

وآمل أن تكون هذه الأمثلة السريعة، التي لا أتطلع بكل تأكيد

(1) - باللاتينية في الأصل، وهي اختصار لعبارة *vade retro, Satana!* وتعني : تراجع أيها الشيطان، ويستخدمها المؤمنون عادة لاستبعاد غواية الشيطان.

(ولا أرغب بالطبع) إلى أن تشاطرنى إياها، كافية لأن تطلعك على ما أعنيه عندما أؤكد أن الايروتيكية هي لعبة (بالمدلول العالي الذي يمنحه جوهان هوزينغا العظيم للكلمة) خاصة، لا يمكن أن يشارك فيها سوى الأنا والأشباح واللاعبين، ويعتمد نجاحها على طابعها السري، والمنتكم حيال الفضول العام، ورغم نفوري من الشعر في الإبط الأنثوي، إلا أنني أحترم العاشق الذي يفتع رفيقه أو رفيقته بريّ ذلك الشعر ورعايته لكي يلعب به بشفتيه وأسنانه حتى الوصول إلى الغيبوبة والعواء بصوت مثل صوت مغني الدو. ولكنني لا أكن أي احترام على الإطلاق، وإنما تأخذني الشفقة على ذلك البائس متعفن الصدر الذي يزيّف ميول خياله، بأن يشتري — من دكاكين أدوات البورنو، مثلاً، التي زرعتها الطيارة السابقة بياتي أو هيس في كل أنحاء ألمانيا — شعور إبطين وعانة اصطناعية (وهي من «الشعر الطبيعي»، كما يفاخر أغلاها ثمنًا)، من تلك التي تباع هناك بأشكال وأحجام وطعوم وألوان مختلفة.

إن إضفاء الشرعية على الايروتيكيا والاعتراف العام بها، يجعلها بلدية ويلغنها ويحولها إلى سلوك وغد، وإلى بورنوغرافيا، مما يجعلني أرى فيها إيروتيكيا محزنة لفقراء الجيب والروح. فالبورنوغرافيا سلبية وجماعية، بينما الإيروتيكيا خلاقية وفردية، حتى عندما تُمارس بين شخصين أو ثلاثة أشخاص (وأكرر لك بأنني معاد لزيادة عدد المشاركين حتى لا تفقد هذه المهمات توجهها لأن تكون حفلات فردية، وتمارين على السيادة، ولا تتلوث بمظهر الاجتماعات السياسية أو الرياضية أو السيرك). ولهذا، لا أجد سوى

الفقهات الضبعية للرد على حجج الشاعر الهامشي آلان غينيسبيرغ (انظر مقابلته مع آلان يونغ في مجلة قنصل سدوم) ودفاعه عن الجامعات الجماعية في عتمة المسابح، بذريعة أن هذه الظلمة هي ديمقراطية وعدالة، لأنه بفضل ظلام المساواة، يتاح للقيحة والجميلة، للنحيفة والبدينة، للشابة والمسنة، أن تتال الفرصة نفسها من المتعة. يا للتبرير السخيف الذي يسوقه هذا المفوض الناظم! إن الديمقراطية هي أمر لا علاقة له إلا في البعد المدني للشخص، بينما الحب — الشهوة واللذة — ينتمي، مثل الدين، إلى البعد الخاص، حيث المهم هو الاختلافات بصورة خاصة، وليس التوافقات مع الآخرين. لا يمكن للجنس أن يكون ديمقراطياً، إنه نخبوي وأرستقراطي، ووجود جرعة من الطغيان (المتبادل بالتبادل) هو أمر لا بد منه عادة. أما الجماعية البذرية في الحمامات المظلمة التي يدعو إليها الشاعر الهامشي كنمط إيروتیکی تشبه إلى حد بعيد معاشرة الأحصنة والأفراس في المراعي، أو وطء الديوك العشوائي لدجاجات المداجن الصاخبة، ولا يمكن مقارنتها بهذا الإبداع الجميل من الأخيلة المتحركة، من التخيلات الجسدية التي يشارك فيها على السواء كل من الجسد والروح، المخيلة والهرمونات، السامي والمنحط في الشرط الإنساني، أي الأيروتیکی مثلما يفهمها هذا الشهواني المتواضع والفوضوي المتخفي في الجسد المواطن لموظف تأمين على الممتلكات.

إن الجنس الذي يمارس على طريقة بلايبوي (وأعود وسأعود إلى هذا الموضوع إلى أن يمنعني من ذلك موتي أو موتك) يلغي

حسب فهمي، عنصرين جوهريين من الإيروس: المجازفة والحياء. فلنتفاهم. الرجل الصغير الذي يتغلب على خجله وعلى خوفه في الحافلة، فيفتح معطفه، ويعرض عضوه المنتصب لأربع ثوانٍ على السيدة خالية الذهن التي اختارها القدر لتجلس قبالتها، هو مستهتر جسور. يفعل ما يفعله وهو يعلم أن ثمن نزوته العابرة يمكن أن يكون تلقيه الضرب، أو اللنشينغ، أو السجن والفضيحة بنشره أمام الرأي العام سراً كان يريد حمله معه إلى القبر، وإدانته على أنه فظيع، ومضطرب عقلياً، وخطر اجتماعياً. ولكنه يجازف بالإقدام على ذلك لأن المتعة التي توفرها له هذه الاستعراضية الصغيرة لا يمكن فصلها عن الخوف وعن مخالفة للحياء. يا للمسافة الكوكبية التي تفصل بينه — إنها المسافة ما بين الايروتيكية والبورنوغرافيا تحديداً — وبين الإداري المترع بالعطور الفرنسية ذي المعصم المقيد بساعة رولكس (وماذا يمكن أن تكون سوى ذلك؟)، الذي يسهر في بار رائج على موسيقى البلوز، يفتح العدد الأخير من بلايبوي ويستعرض نفسه به، ويعرضه مقتنعاً بأنه يعرض عضوه أمام العالم، مظهراً أنه رجل دنيوي، غير متوهم، حديث، مستمتع. يا للأحمق البائس! إنه لا يعرف أن ما يعرضه هو سر خضوعه إلى المكان المشترك، إلى الإعلان، إلى موضة إلغاء التفرد، وتنازله عن الحرية، وتخليه عن الانعتاق، وعن نعم أطيافه الشخصية، وخضوعه للعبودية الجمعية السلفية.

ولهذا، فإنني أتوجه إليك وإلى المجلة المذكورة ومثيلاتها، وإلى كل من يقرؤها — أو حتى يتصفحونها — ممن يريدون تغذية

— أعني قتل — الليبدو لديهم بهذا الغذاء مسبق الصنع، وأتهمكم بأنكم رأس الحربة في هذه العملية الضخمة لتسفيه وتنقيه الجنس التي تتبدى فيها البربرية المعاصرة. فالحضارة تخفي الجنس وتبالغ في التبصر فيه من أجل أفضل إفادة منه، وتحوله إلى طقوس وقوانين تغنيه إلى حدود لا يمكن للرجل والمرأة ما قبل الايروتيكيين، النكاحيين، أن يتصوراها. فبعد أن اجتزنا طريقاً طويلاً جداً، كان التقطير المتزايد للعبة الايروتكية هو عمودها الفقري بطريقة ما، نرتد الآن عبر طريق غريب — مجتمع الإباحية، ثقافة الإباحة — إلى نقطة البداية السلفية: فممارسة الحب عادت لتكون رياضة جسدية وشبه علنية، تمارس دون أي طقوس على إيقاع المهيجات المصنعة، ليس باللاوعي وبالروح، وإنما على يد محلي السوق، وهي مهيجات بلهاء مثل رحم البقرة ذلك الذي يمرّون به في الإسطبلات أمام أنوف الثيران لتتهيجها والحصول بهذه الطريقة على منيها وتخزينه لاستخدامه في التلقيح الصناعي.

هيا اذهب، واشتر وأقرأ عددك الأخير من بلايبوي أيها المنتحر الحي، ضع حبة رمل أخرى في خلق عالم المخصيين والمخصيات المتناحكين الذي ستخفي منه ركائز الحب المتمثلة في المخيلة والأشباح السرية. أما أنا من ناحيتي، فإنني سأمارس الآن بالذات الحب مع ملكة سبأ وكيليوبترا معاً، في مشهد لا أفكر في أن أشاطر أحداً في سيناريوهات، وخصوصاً أنت.

قدم صغيرة

«إنها الرابعة فجراً يا لوكريثيا العزيزة»، فكر دون ريغوبيرتو. وكان قد استيقظ في رطوبة الفجر الكئيبة، مثل كل يوم تقريباً، لكي يحيي الطقس الذي يكرره بصورة نشاز مذ غادرته دونيا لوكريثيا لتعيش في بستان الزيتون في سان ايسيدرو: أن يحلم مستيقظاً، وأن يبدع ويعيد إبداع زوجته مستعيناً بهذه اللوحات التي تشتهي فيها أوهامه. «وحيث أنت ملكة ومعلمة منذ اليوم الذي عرفناك فيه».

ومع ذلك، وعلى خلاف صباحات كئيبة أو متأججة أخرى، لم يكتف اليوم بتصورها واشتهائها، وبالتحدث مع غيابها، وممارسة الحب معها بمخيلته وبقلبه اللذين لم يتبعد عنهما مطلقاً؛ فقد كان يحتاج اليوم إلى تواصل أكثر مادية وتأكيداً، تواصل ملموس بصورة أوضح. وفكر دون غم: «اليوم يمكنني أن انتحر». وماذا إذا كتب إليها؟ وماذا إذا رد أخيراً على رسائلها المغفلة اللادعة؟ سقط القلم من يده فور أن أمسك به. لن يستطيع الكتابة، وهو لن يستطيع على أي حال أن يبعث الرسالة.

ومن الدفتر الأول الذي فتحه، قفزت إليه وعضته عبارة مناسبة تماماً: «استيقاظاتي الشرسة في الفجر يكون محرضها على الدوام صورة من صورك، واقعية أو متخيلة، تضخم رغباتي، وتبعث الجنون في حنيني، وتتهضني مؤرقاً وتجرنني إلى هذه الطولة

لأحمي نفسي من التلاشي في كنف ترياق دفاتري ولوحاتي وكتبي. فهذه الأشياء وحدها هي دوائي». صحيح. ولكن الدواء المعتاد لا مفعول له اليوم كما في صباحات أخرى. إنه يشعر بالاضطراب والقلق. لقد أيقظته مشاعر مختلطة يمتزج فيها تمرد شامل شبيه بذلك الذي قاده، وهو في الثامنة عشرة، إلى جمعية العمل الكاثوليكي وملاً روحه باندفاعات تيشيرية وبرغبة عارمة في تجديد العالم بسلاح الأناجيل، وحنين إلى قدم صغيرة لامرأة آسيوية رآها لدى مروره، من فوق كتف رجل عابر توقف إلى جانبه لبضع ثوان عند ضوء إشارة المرور الحمراء في أحد شوارع مركز المدينة، واستحضر ذاكرته لكاتب فرنسي من القرن الثامن عشر يدعى نيكولا إيدمييه ريسنيف دي لا بريتون، يملك في مكتبته كتاباً واحداً له — سيبحث عنه ويجده قبل أن يطلع الصباح —، وهو من طبعة أولى اشتراه منذ سنوات طويلة من محل عاديات في باريس، وكان قد كلفه مبلغاً باهظاً. «يا لهذا الخليط».

لم تكن لأي شيء من هذا كله، في الظاهر، علاقة بلوكريثيا. لماذا إذن هذا التسرع في التواصل معها، وإخبارها بصوت عالٍ، وبأدق التفاصيل، بكل ما يجيش في ذهنه؟ وفكر: «إنني أكذب يا حبيبتي. فأنت لك علاقة بكل هذا بالطبع.» فكل ما يفعله، بما في ذلك الإدارة السخيفة التي يمارسها من الاثنين إلى الخميس وتبقيه ثماني ساعات في شركة تأمين في مركز ليما، لها علاقة عميقة بلوكريثيا وليس بأحد سواها. ولكن قبل ذلك كله، وبطريقة أكثر خضوعاً، فإن ليلاليه، والتهيجات والتخيلات والعواطف التي تملؤها،

مكرسة لها بكل الإخلاص النبيل. وهناك كان الدليل حميماً، راسخاً، مؤلماً، في كل صفحة من الدفاتر التي يتصفحها الآن.

لماذا فكر إذن في التمرد؟ إن ما أيقظه قبل لحظات قليلة هو تضخم هذا السخط والذعر اللذين أحس بهما في الصباح حين قرأ في الجريدة الخبر الذي لا بد أن لوكريثيا قد قرأته أيضاً، والذي راح ينسخه على الصفحة البيضاء الأولى التي وجدها:

ويلنغتون (رويتير). حكم قاض في هذه المدينة على معلمة مدرسة نيوزيلندية، في الرابعة والعشرين من عمرها، بالسجن أربع سنوات بتهمة الاغتصاب الجنسي، وذلك بعد أن ثبت أن المعلمة كانت تقيم علاقة جسدية مع طفل عمره عشر سنوات، هو صديق ابنها وزميله في المدرسة. وقد أكد القاضي بأنه قد أصدر بحقها الحكم نفسه الذي كان سيصدره على رجل يغتصب طفلة قاصر.

«حبيبتي، لوكريثيا العزيزة، لا تري في هذا أي ظل تأنيب لما حدث بيننا» هكذا فكر. «ولا أي إشارة إلى الاستياء، ولا أي شيء يمكن أن يكون له علاقة بالماضي، أو بالغضب التافه». لا. يجب أن ترى ما هو نقيض ذلك تماماً. لأنه عندما ارتسمت سطور هذه البرقية القليلة أمام عينيه هذا الصباح، بينما هو يتناول قهوة الفطور المرة (ليس لأنه يتناولها دون سكر، وإنما لأن لوكريثيا غير موجودة بجانبه ليتحدث معها حول أخبار الصحيفة) لم يشعر دون ريغوبيرتو بالغم أو الألم، وأقل من ذلك كان إحساسه بالامتنان والحماسة لحكم القاضي. ولكنه أحس بالمقابل بتضامن مندفع وجامح مع هذه المعلمة

النيوزلندية المسكينة التي عوقبت بقسوة لأنها عرّقت ذلك الطفل المحفوظ على لذائذ الفردوس.... (وهو الأكثر حسية بين الفراديس المعروضة في سوق الأديان حسب علمه).

«أجل، أجل أيتها الحبيبة لوكريثيا.» إنه لا يتجاوز الحد، لا يكذب، لا يبالغ. لقد أعاظه طوال اليوم سخط الصباح نفسه من غباوة ذلك القاضي، المُضَيِّع في آلية التماثلات الحيوية لدى بعض الأيديولوجيات النسائية. فكيف يمكن أن يكون إقدام رجل ناضج على اغتصاب طفلة قاصر في العاشرة، وهي جريمة تستوجب العقاب، مماثلاً لإقدام سيدة في الرابعة والعشرين على كشف السعادة الجسدية ومعجزات الجنس لفتى في العاشرة بدأ انتصاباته الخجولة وإفرازاته المذوية المقتضبة؟ فإذا كان افتراض لجوء الجاني في الحالة الأولى إلى استخدام العنف مع الضحية هو أمر حتمي (حتى ولو كانت الطفلة على قدر من الوعي يتيح لها أن تعطي موافقتها، فإنها تعتبر ضحية اعتداء جسدي ضد بكراتها)، إلا أنه في الحالة الثانية أمر غير مفهوم، لأنه إذا كان هناك نكاح، فلا يمكن له أن يتم إلا بموافقة الطفل وحماسه، ودون تلك الموافقة والحماسة ما كان يمكن للعملية الجسدية أن تتحقق. تناول دون ريغوبيرتو القلم وكتب وهو محموم من الغضب: «مع أنني أكره اليوتوبيات وأعرف أنها كارثية على الحياة البشرية، إلا أنني أمل الآن أن تتحقق هذه اليوتوبيا: أن يجري تجريد كل أطفال المدينة من حياتهم عند بلوغهم العاشرة على يد سيدات متزوجات في العقد الثالث من أعمارهن، ويفضل أن يكن عمات أو معلمات أو خالات». وتتفس بشيء من الراحة.

لقد عذبه طوال النهار مصير تلك المعلمة التي من ويلنغتون،
وآلمه الاستهزاء العام الذي تعرضت له، والسخریات المهينة التي
تعانيها، فضلاً عن فقدانها عملها، ومعاملتها كمنحطة ومفسدة قاصرين
من قبل هذا الدنس غير المكتوب والإلكتروني، والرقمي الآن، في
الصحافة المسماة وسائل اتصال. لم تكن تكذب، ولم تقم بتهريج
ماسوشتي. «لا يا لوكرينثيا الحبيبة، أقسم لك أن لا.» خلال ذلك النهار
وتلك الليلة بدا له عدة مرات وجه المعلمة المتجسد في زوجته
السابقة. والآن، الآن، يشعر بالضرورة الملحة لجعلها تعرف («جعلك
تعرفين يا حبي») ندمه وخجله. لأنه كان عديم الإحساس، وفضلاً،
وغير إنساني، وشديد القسوة مثل هذا القاضي من ويلنغتون، المدينة
التي لن يزورها إلا ليغمر بأزهار حمراء شذية قدمي هذه المعلمة
المحترمة والجديرة التي تدفع ثمن كرمها وعظمتها بالحبس مع قاتلات
أبناء، وسارقات، ومحتالات، ونشالات (إنكليزيات ونيوزيلنديات).

كيف هما قدما هذه المعلمة النيوزلندية؟ وفكر: «إذا ما وصلت
إلى يديه صورة لها فلن يتوانى عن إشعال الشموع وإحراق البخور
لها». تمنى ورغب في أن تكونا جميلتين ورقيقتين مثل قدمي دونيا
لوكرينثيا، ومثل القدم التي رآها ظهر اليوم على ورق صفحة صقيلة
في مجلة تايم، من فوق كتف أحد المارة، عندما أوقفته إشارة
المرور الضوئية عند ناصية كولمينيا، وهو متوجه إلى صالون ميغيل
غراو في النادي الوطني، حيث ضرب له موعداً أحد هؤلاء
الحمقى ذوي رباطات العنق الذين يضربون المواعيد في النادي
الوطني، والذين يعتاش عليهم أمثاله الحمقى ممن يكسبون لقمة

عيشهم من التأمين على البيوت والعقارات. لقد كانت رؤية لثوان وحسب، ولكنها لامعة ومتألثة، راعشة وجبهية مثلما كانت دون شك رؤية تلك الفتاة الجليلية للملاك جبرائيل وهو يخبرها بالحدث الذي سبب الكثير من الآلام للبشرية.

لقد كانت قدماً واحدة فقط، مأخوذة بصورة جانبية، لها كعب مكور وظاهر ناعم، مرفوع بكبرياء فوق باطن دقيق الحواف، ينتهي بأصابع صغيرة مرسومة بانقان، إنها قدم أنثوية لا تشوبها ثآليل ولا تصلبات ولا بثور أو نتوءات عظيمة قبيحة، ولا يبدو فيها أي نقص أو زيادة على الكمال في الكل والجزء، قدم مرفوعة قد فوجئت كما يبدو بالمصور المتأهب قبل لحظات من استرخائها على السجادة الوثيرة. لماذا هي قدم آسيوية؟ ربما لأن الإعلان الذي تزينه هو لشركة طيران من تلك المنطقة من العالم — سنغابور آيرلاينز — أو ربما لأن دون ريغوبيرتو، في تجربته الزوجية المبتورة، كان يظن أنه قادر على التأكيد بأن نساء آسيا يملكن أجمل أقدام في الكوكب. هزه التأثر وهو يتذكر المرات التي كان يقبل فيها قدمي حبيبته اللذيتين قائلاً «قدمين فيليبينيتين»، «كعبين ماليزيين»، «كاحلين يابانيين».

وما جرى طوال اليوم، فضلاً عن انشغاله بتعاسة هذه الصديقة الجديدة من ويلنغتون، هو أن قدم الإعلان الأنثوية في التايم قد شوشت وعيه، ونبشت من أعماق ذاكرته ذكرى ساندريللا، هذه القصة التي عندما رُويت له في طفولته، وخصوصاً حذاء البطلة الرمزي الذي لا يتسع إلا لقدمها الصغيرة، قد أيقظت فيه أول تخيلاته

الايروتيكية («أي أول السيلانات الرطبة والانتصابات المتوسطة إذا كان لا بد من التحديد»، قال ذلك بصوت عالٍ مع أول تحسن في مزاجه هذا الفجر). هل تناقش يوماً مع لوكريثيا في نظريته بأن ما أضافته الجميلة ساندريليا في تكوين فرق من الذكور المهووسين هو أكبر، دون شك، مما أضافته جماعة البورنوغرافيا المتعفة المناهضة للايروتيكية في القرن العشرين؟ لا يذكر ذلك. إنها فجوة في علاقته الزوجية عليه أن يستدركها يوماً. كانت حالته قد تحسنت كثيراً منذ أن أستيقظ قانطاً ومتشوقاً، يكاد يموت من الغضب والوحدة والحزن. بل إنه سمح منذ عدة ثوانٍ — وكانت هذه هي طريقته لتجنب السقوط في يأس كل يوم — ببعض التخيلات التي ليست لها علاقة بعيني لوكريثيا، ولا بشعرها، ولا بنهديها أو فخذها أو وركيها، وإنما بقدميها وحسب. لقد صارت بجانبه — بعد أن وجد مشقة في العثور عليها في خزائن المكتبة — تلك الطبعة الأولى، في ثلاث مجلدات، من رواية نيكولا إيدمييه ريسنيف دي لا بريتون (وبخط يده كان قد سجل تاريخ ميلاد الكاتب ووفاته: 1734—1806)، الرواية الوحيدة بين عشرات وعشرات الروايات التي خطها ذلك القلم: **قدم فرانشيت أو اليتيمة الفرنسية. قصة طريفة وأخلاقية** (باريس، همبلوت كيللاو، 1769، جزآن في ثلاثة مجلدات، 160—148—192 صفحة) وفكر: «الآن أتصفحه. الآن ستطلين أنت يا لوكريثيا، حافية أو منتعلة، في كل فصل، في كل صفحة، في كل كلمة».

لم يكن هناك سوى شيء واحد في هذا الكاتب المكثّر، ريسيف دي لا بريتون، يستحق التعاطف معه والربط بينه وبين لوكريثيا في

هذا الفجر ذي الرذاذ المطري، مقابل آلاف الأشياء (حسن، ربما أقل) التي تجعله منسياً، عابراً، وربما منفراً. هل حدث وتكلم عنه معها يوماً؟ هل أطل اسمه مرة في حفلاتهما الزوجية الليلية؟ دون ريغوبيرتو لا يتذكر ذلك. «ولكن، حتى لو كان الوقت قد فات يا غاليتي، فإنني سأعرفك عليه، وأقدمه وأضعه عند قدميك (لم يكن التعبير مناسباً على الإطلاق أفضل مما هو الآن).» لقد ولد وعاش في مرحلة توترات ضخمة، في القرن الثامن عشر الفرنسي، ولكن من غير المحتمل أن يكون نيكولا إيدمييه الطيب قد انتبه إلى أن العالم بأسره كان يتفكك ويتركب من حوله في التوترات الثورية، لأنه كان مستغرقاً في ثورته الخاصة، وليس في ثورة المجتمع أو الاقتصاد أو النظام السياسي — «هذه التي تتمتع عموماً بتناول واسع في الصحافة» — وإنما الثورة التي تخصه شخصياً: ثورة الشهوة الجسدية. هذا هو ما يجعله لطيفاً، وهو ما دفع دون ريغوبيرتو إلى شراء الطبعة القديمة من **قدم فرانشيت**، الرواية ذات المصادفات القاسية والمظالم المضحكة، والتشابكات العبثية والحوارات السخيفة التي يمكن لأي ناقد معتبر أو أي قارئ حسن الذوق أن يجدها بعيدة عن التصديق، ولكنها بالنسبة إلى دون ريغوبيرتو تتمتع بالمزية العليا في إبراز حق الكائن البشري إلى حد قتل الآلهة، في التمرد ضد ما هو سائد بناء على رغباته، وفي تغيير العالم مستقيماً من الخيال، حتى ولو لم يستمر ذلك إلا خلال فترة القراءة أو الحلم العابرة.

قرأ بصوت عال ما كان قد دونه في الدفتر عن ريستيف بعد أن قرأ **قدم فرانشيت**: «لست أظن أن هذا الريفيني، ابن الفلاحين، الذي

تتقف ذاتياً رغم مروره بمدرسة جانسينية الدينية، وعلم نفسه بنفسه لغات ومعتقدات، وكلها بصورة سيئة، وكسب لقمة عيشه من العمل كطابع وصانع كتب (بالمعنى الحرفي للكلمة، ذلك أنه كان يكتب الكتب ويصنعها، مع أنه كان ينجز العمل الثاني بفنية أكبر من الأول) لست أظن أنه كان يشك في الأهمية العابرة لكتاباته (وهي أهمية رمزية وأخلاقية، وليست جمالية)، عندما كان يكتبها، وسط استكشافاته الدائمة للأحياء العمالية والحرفية في باريس التي كانت تبهره، أو لفرنسا الريفية والقروية التي وثّقها كسوسيولوجي، مختلساً الوقت من مخالطاته الغرامية — خيانات زوجية، زنا محارم، أو غراميات ارتزاقية مأجورة، ولكنها سوية على الدوام، لأن الشذوذ الجنسي كان يبعث فيه رعباً كرملياً — فقد كان يكتبها بسرعة يقوده فيها الإلهام، يا لهول الأهوال، دون أن ينقحها، في نثر يخرج مندفعاً وعامياً، محملاً بكل فتات اللغة الفرنسية، مشوشاً، مكروراً، تيهياً، عادياً، مسطحاً، عاقراً من الأفكار، دون حساسية، وبكلمة أخرى يمكن لها أن تحدده خيراً من أي كلمة أخرى: **نثر متخلف**».

لماذا إذن، بعد ذلك الحكم القضائي القاسي، ضاع في فجر هذا اليوم في استنكار أسلوب أدبي فج، وكاتب ظريف وصل به الأمر إلى ممارسة مهنة الوشاية؟ إن الدفتر يتضمن معلومات مسهبة عنه. فقد أنتج ما يقارب المئتي كتاب، جميعها غير مقروءة أدبياً. لماذا إذن يسعى إلى مقاربته من نقيضته دونيا لوكريثيا، التي هي الكمال مجسداً في امرأة؟ ورد على التساؤل بأنه يفعل ذلك لأنه لم يكن هناك أحد، مثل هذا المثقف البري، قادراً على فهم تأثره في

الظهيرة حين رأى بصورة عابرة، في إعلان إحدى المجلات، قدم الفتاة الآسيوية الصغيرة المجنحة التي استدعت إلى ذهنه في هذه الليلة الذكرى والرغبة في قدمي لوكريثيا الملكيتين. لا، ليس هناك من هو قادر مثل ريتسيف الغزلي، العارف الأعلى لهذه العبادة التي تطلق عليها السلالة البغيضة من علماء النفس والمحللين النفسيين اسم الوثنية، على فهمه ومرافقته ومساعدته في هذا التكريم والحمد للقدمين المعبودتين. ورنل بورع: «شكراً يا لوكريثياي على ساعات المتعة التي أدين لك بها، منذ تلك المرة التي اكتشفتهما فيها على شاطئ بوكوسانا، وقبلتهما تحت الماء والأمواج.» وعاد دون ريغوبيرتو المنهوك إلى الإحساس بطعم الأصابع الصغيرة المالحة الرشيقة وهي تتحرك في مغارة فمه، وبالماء البحري الذي ابتلعه.

أجل، هذه هي فضيلة السيد نيكولا إيدمييه ريسيف دي لا بريتون: القدم الأنثوية. ويمكننا أن نضيف كذلك، مع بعض التوسع **والتعاطف** — مثلما كان يمكن لخيميائي أن يقول — كل ما يحيط بالقدم ويغطيها: الجORB، الحذاء، الصندل، الجزمة. وبالغفوية والبراعة التي كان عليهما، كمهاجر ريفي إلى المدينة، مارس وأعلن إيثاره لهذا الطرف الحساس ولما يغطيه دون حياء. وبتعصب المرئدين استبدل في كتاباته المتناظرة العالم الحقيقي بعالم لا يقل خيالية ورتابة وتوقّعاً وتشوشاً وحماسة عن ذلك، والفارق الوحيد هو أن ما كان يلمع في العالم المعجون بنثره السيئ وتقرّد موضوعه الأحادي الجانب، وما كان يبرز ويستثير عواطف الرجال لم يكن وجوه السيدات الجميلة، ولا شعورهن الشلالية، ولا خصورهن

النحيلة، وأعناقهن العاجية أو رؤوسهن الشامخة، وإنما جمال أقدامهن وحده ولا شيء سواه. (وخطر له: لو أن الصديق ريسنيف ما يزال موجوداً لكان أخذه، بعد موافقة لوكرينثيا بكل تأكيد، إلى بيتها في بستان الزيتون، وكان أخفى كل جسدها، وأظهر له قدميها فقط، محبوستين في جزمة بديعة من طراز جزمات الجدات، وكان سمح له كذلك بأن يخلع عنها ذلك الحذاء. كيف سيكون رد فعل ذلك السلف؟ هل سيخر فاقداً الوعي؟ هل سيرتعش ويصرخ؟ هل سيسارع مثل كلب صيد سعيد، لسانه متدل وأنفه متوسع، ليشم ويلحس هذه اللذائذ؟)

ألم يكن محترماً، رغم سوء كتابته، من يتراعى بهذه الطريقة عن اللذة ويدافع بهذه القناعة والتماسك عن تخيله؟ أولم يكن ريسنيف الطبيب، رغم نثره عسير الهضم، «واحدًا من جماعتنا»؟ لقد كان كذلك بكل تأكيد. ولهذا تمثل له هذه الليلة في الحلم، منجذباً إلى تلك القدم الاضطرارية البورمية أو السنغافورية، لكي يرافقه في هذا الفجر. وهزت دون ريغوبيرتو لفحة إحباط مفاجئة. لقد نفذ البرد إلى عظامه. ولكم رغب في تلك اللحظة في أن تعرف لوكرينثيا كل الندم والألم اللذين يعذبانه، بسبب حماقته وسوء فهمه اللفظ الذي دفعه قبل سنة إلى التصرف معها مثلما تصرف ذلك القاضي المنحط في ويلنغتون ما وراء البحار حين حكم بالسجن أربع سنوات على هذه المعلمة، هذه الصديقة («واحدة أخرى من جماعتنا») لأنها أرت ذلك الطفل المحظوظ — ولم تُسكنه — الفردوس السماوي، ذلك الطفل، ذلك الفونتشيتو النيوزلندي. «بدل المعاناة وتأنيك، كان علي

أن أشكرك أينها المربية المعبودة». وسيفعل ذلك الآن، في هذا الفجر ذي الأمواج الصاخبة والمزبدة والرذاذ غير المرئي، مثنياً على رأي ريستيف المفضل وروايته ذات العنوان اللذيذ: قدم فرانشيت، والعنوان الفرعي الرائع: أو اليتيمة الفرنسية. قصة طريفة وأخلاقية (فهي تستحق بعد كل شيء أن تسمى أخلاقية) وقد كانت الرواية على ركبتيه، يداعبها بكلتا يديه وكأنها زوجة بديعة القدمين.

عندما كتب كيتس⁽¹⁾ Beauty is truth, truth is beauty (وهذه العبارة ترد في كل دفتر يفتحه دون استثناء) هل كان يفكر بقدمي دونيا لوكريثيا؟ أجل، حتى ولو كان ذلك البائس لا يعرف ذلك. وعندما كتب ريستيف دي لا بريتون وطبع (ربما بالسرعة نفسها) رواية قدم فرانشيت في عام 1769، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، فعل ذلك أيضاً مستلهماً، من المستقبل، امرأة سنأتي إلى العالم بعد حوالي قرنين من ذلك، في جهة بربرية من أميركا المسماة (أهذا جدي؟) اللاتينية. وبفضل ملاحظات الدفتر راح دون ريغوبيرتو يتذكر قصة الرواية. إنها عادية ومُتوقَّعة إلى أبعد الحدود، مكتوبة بالأقدام (لا، هذا أمر يجب عدم التفكير فيه أو قوله)، والبطل الرئيسي فيها ليس المراهقة اليتيمة الجميلة فرانشيت فلورانجي، وإنما قدما فرانشيت فلورانجي الصغيرتان المقلقتان، فهما ترفعان الرواية وتمنحانها التقرّد والحيوية والقدرة على الإقناع التي تميز أي عمل فني. ليس بالإمكان تصور التقلبات التي تسببها قدما الشابة فرانشيت العاجيتان، ولا

(1) - بالانكليزية في الأصل: الجمال حقيقة، الحقيقة جمال.

العواطف التي تتأجج حولهما. فالعجوز الوصي عليها، المونسنيور اباتيون، كان يتلذذ في أن يشتري لهما أحذية متقنة وينتهز أي ذريعة لكي يداعبهما، وهما تلهبانه إلى حد الإقدام على محاولة اغتصاب ربيبته، ابنة صديقه العزيز جداً. أما الرسام دولسان، وهو شاب طيب، فقد فنتاه مذراًهما في حذاء أخضر مزين بزهرة مذهبة، وجعلتاه مجنوناً ساخطاً يطفح بمشاريع إجرامية تؤدي به إلى فقدان حياته. والشاب الثري المحظوظ لوسانفيل، وقبل أن يمتلك بين ذراعيه وفمه فتاة أحلامه الجميلة، كان يسعد بفردة من أحذيتها الصغيرة كان، هو الهاوي أيضاً، قد سرقها. فكل بنطال حي يراها — متمولون، تجار، ذوو إيرادات، مركيزات، أوغاد — يخضع لسحرهما، ويصيبه سهم الحب الجسدي ويكون مستعداً لعمل أي شيء مقابل امتلاكهما. ولهذا فإن الراوي محق في التأكيد على العبارة التي استسخها دون ريغوبيرتو من الرواية: «Le joli pied les rendait tous

«criminels»⁽¹⁾. أجل، أجل، يمكن لهاتين القدمين أن تحولا الجميع إلى مجرمين. وقد كانت صنادل وأخفاف وأحذية وجزومات فرانشيت الجميلة أشياء سحرية، تتجول في القصة فتضيئها بنور مني مبهر. ومع أن الحمقى يعتبرونها حالة من الشذوذ، إلا أنه هو، ولوكريثيا بالطبع، يمكنهما أن يفهما ريسستيف، أن يحتفلا بامتلاكه الجراً والوقاحة ليعرض أمام الآخرين حقه في أن يكون مختلفاً، وفي أن يعيد تشكيل العالم على صورته وهيئته. أولم يفعل ذلك هو ولوكريثيا في كل ليلة، طوال عشر سنوات؟ أولم يفككا ويركبا

(1) - بالفرنسية في الأصل، ومعناها: «كانت القدم الجميلة تجعلهم جميعهم مجرمين».

الحياة وفق رغباتهما؟ هل سيعودان إلى عمل ذلك يوماً؟ أم أن كل شيء سيبقى محتجزاً في الذكرى، مع الصور التي تخزنها الذاكرة كي لا تنهزم أمام يأس الواقع، هذا اليأس الذي هو يأس حقيقي؟

في هذه الليلة — الفجر، أحس دون ريغوبيرتو بأنه واحد من الذكور الذين أربكتهم قدم فرانثيت. إنه يعيش خاوياً، مستعيضاً كل ليلة، كل فجر، عن غياب لوكرينثا بأشباح لا تكفي لمنحه العزاء والسلوى. وهل هناك حل؟ أيكون قد فات أوان التراجع وإصلاح الخطأ؟ ألا يمكن لمحكمة عليا، لمحكمة دستورية أن تعيد النظر، في نيوزيلندا، بحكم قاضي ويلنغتون الفظ، وتبرئ المعلمة؟ ألا يمكن لحاكم نيوزلندي غير متعصب أن يعفو عنها، بل وأن يقلدها أوسمة البطولة المدنية لتفانيها المجرب في سبيل الطفولة؟ ألا يمكنه هو نفسه أن يذهب إلى بيت بستان الزيتون في سان ايسيدرو ليقول للوكرينثا إن العدالة البشرية الحمقاء قد أخطأت بإدانتها دون أن يكون لها الحق بذلك، وأنه سيعيد إليها الشرف والحرية من أجل... من أجل؟ من أجل ماذا؟ تردد، ولكنه واصل كيفما اتفق له.

أكانت هذه يوتوبيا؟ أهي يوتوبيا مثل تلك اليوتوبيات التي تخيلها أيضاً الموهوس ريسنيف دي لابريتون؟ نعم، مع أنها ليست كذلك، فيوتوبيا دون ريغوبيرتو، عندما تحمله عبوة الخمول أحياناً للشرد فيها، هي يوتوبيات خاصة، لا يمكن إدخالها في كتب الآخرين. أليست هذه اليوتوبيات مشروعة، ومختلفة جداً عن اليوتوبيات الجماعية المعادية بتطرف للحرية، والتي تحمل معها على الدوام بذور الكارثة؟

لقد كان هذا أيضاً هو الجانب الضعيف والخطر لدى نيكولا
إيدميه؛ وداء العصر الذي أذعن له، مثل جزء كبير من معاصريه.
لأن الشهية لليوتوبيات الاجتماعية، هذا الوقف الأكبر لعصر الأنوار،
إلى جانب آفاق جديدة وجريئة للمطالبة بالحق في اللذة، قد حمل
معه الكوارث التاريخية. دون ريغوبيرتو لا يتذكر شيئاً من هذا، أما
دفاثره فتتذكر. وفيها كانت المعطيات الاتهامية والصواعق
المدمية.

ففي المعجب الرقيق بالأقدام الصغيرة والأحذية الأنثوية الذي
كانه ريسيف — «فليباركة الرب على ذلك، إذا كان موجوداً» —
كان هناك أيضاً مفكر خطير، مبشر، مصلح مؤسسات، ومنقذ النواقص
الاجتماعية، خصص بين جبال الورق التي كتبها بعض الهضاب
والتلال لبناء تلك السجون، اليوتوبيات العامة، لتنظيم الدعارة وفرض
السعادة على المومسات (هذا المسعى المريع ظهر في كتاب خادع
ذي عنوان جميل : **البورنوغرافيا**)، وضبط عمل المسارح وعادات
الممثلين (**الميموغرافيا**)، ومن أجل تنظيم حياة النساء، بفرض
واجبات عليهن وتنشيت حدودهن، بحيث يكون هناك انسجام بين
الجنسين (وكان المسخ المرهوب يحمل كذلك عنواناً يبدو وكأنه يبشر
بالمتع — **Les Gynogrphes** — بينما هو يفرض في الحقيقة
أصفاداً وأغلالاً على الحرية). وقد كان أكثر طموحاً وتهديداً بالطبع،
مسعاه من أجل تنظيم — والواقع من أجل خنق — سلوك
(**L'Andrographe**) الجنس البشري بإدخال شرعية دخيلة ومعتدية
على الحميمية، كان يمكن لها أن تضع حداً للمبادرة الحرة والاستعداد

البشر الحر في رغباتهم: Le Thermographe. وحيال هذه التدخلات المفرطة لتوركيمادا العلماني⁽¹⁾، يمكن النظر إلى وصول ريستيف في هوسه التنظيمي إلى حد اقتراح إصلاح شامل لقواعد الكتابة والإملاء (Glossographe) على أنه مجرد شقاوة طفولية. وقد جمع هو نفسه هذه البيوتوبيات في كتاب أسماه: أفكار فريدة *Idees singulieres* (1769)، وقد كانت كذلك دون شك، ولكن بالمعنى المشؤوم والإجرامي لفكرة التفرد.

الحكم المدون في الدفتر لم يكن يقبل الاستئناف ووافق عليه دون ريغوبيرتو: «ليس هناك من ريب في أنه لو قيض لهذا الطابع، والموثق، والمولع المهذب بالأطراف الأنثوية أن يصل إلى امتلاك سلطة سياسية، لكان حوّل فرنسا، وربما أوروبا كلها، إلى معسكر اعتقال منضبط تماماً، حيث يمكن لشبكة ناعمة الثقوب من المحظورات والواجبات أن تقتنص أصغر ذرة من الحرية. ولحسن الحظ أنه كان شديد الأنانية إلى حد لا يطمع معه بالسلطة وهو مستغرق في عملية إعادة البناء الروائية للواقع البشري، وتركيبها حسب منفعته، بحيث لا تكون القيمة العليا، مثلما في قدم فرانسيت، والرغبة القصوى للذكر ذي الساقين هي اجتراح مآثر بطولية في الغزوات العسكرية، ولا في بلوغ القداسة، ولا في اكتشاف أسرار المادة والحياة، وإنما في تلك القدم الأنثوية اللذيذة، الشهية مثل طعام الآلهة الذي كان يتغذى عليه أرباب الأولمب». إنها قدم مثل تلك التي

(1) - توركيمادا Tomas de Torquemada: رجل دين إسباني (1420-1498). اشتهر بسعة علمه وورعه. ولكنه عندما عُيّن في منصب قاضي التفتيش الأول عام 1482، سن قوانين محاكم التفتيش الصارمة، وتولى منصبه بقسوة وتعصب لا مثيل لهما.

رأها دون ريغوبيرتو في إعلان التاييم وذكرته بقدمي لوكرينيا، وأبقتة هنا حيث بدأت تقاجئه أول أنوار الصباح، ليرسل إلى محبوبته هذه القارورة التي سيقذف بها إلى البحر، وهو يعلم جيداً أنها لن تصلها، إذ، كيف يمكن أن يصلها ما هو غير موجود، ما هو مصاغ بقلم أحلامه الخفي؟

انتهى دون ريغوبيرتو من توجيه هذا السؤال اليائس، وهو مغمض العينين، وبينما شفتاه تهمسان بالنداء المحبب «آه يا لوكرينيا!»، أوقعت ذراعه اليسرى أحد الدفاتر على الأرض. التقطه وألقى نظرة على الصفحة التي انفتحت لدى السقوط. وارتعش جسده: إن للمصادفة تفاصيل رائعة، وهو ما أتيح له ولزوجته فرص للتأكد منه، في هذياناتها في الغالب. ماذا وجد؟ لقد وجد ملاحظتين مكتوبتين منذ سنوات بعيدة. الأولى إشارة منسية إلى لوحة صغيرة مجهولة الرسام يأمر فيها ميركور الحورية كالبيسو بأن تطلق سراح أوديسيوس — وكانت قد وقعت في غرامه واحتجزته في جزيرتها — وأن تتركه يواصل رحلته إلى بينيلوبي. والملاحظة الثانية، يا للروعة، تأملات مؤثرة عن: «التميمية الرقيقة لدى جوهانس فيرمير الذي، في لوحته ديانا ورفيقاتها، يزجي التكريم التشكيلي إلى هذا العضو التافه من الجسد الأنثوي، مظهراً حورية مستغرقة في المهمة المحببة بغسل — مداعبة بكلمة أصح — قدم ديانا باسفنجة، بينما حورية ثانية مستغرقة في شرود عذب، تداعب قدمها. كل شيء رقيق وشهواني، بحسية لطيفة تداري اكتمال الأشكال والضباب الخفيف

جداً الذي يغطي المشهد بتزويد الأشخاص بذلك الوضوح السحري الذي تمتلكينه أنت، يا لوكريثيا، بلحمك وعظمتك، وكذلك في أشباحك عندما تزورين أحلامي». كم هو صحيح هذا الكلام، وكم هو راهن، وكم هو ساري المفعول.

وماذا إذا ما رد على رسائلها المغفلة؟ وماذا إذا كتب إليها حقاً؟ وإذا ذهب ليطرق بابها، هذا المساء بالذات، فور انتهاء الدورة الأخيرة لناعورة امتهانه التأميني والإداري؟ وماذا إذا ما خر لدى رؤيتها على ركبتيه وتذلل لكي يقبل الأرض التي تدوسها، طالباً منها الصفح، ومنادياً إياها إلى أن يجعلها تضحك، «يا مربيتي الحبيبة»، «معلمتي النيوزلندية»، «فرانشيتي»، «دياناي»؟ هل ستضحك؟ هل سنلقي بنفسها بين ذراعيه وتقدم له شفيتها، ونشعره بجسدها، وبأنهما قد خلفا كل شيء وراءهما، وأنه يمكنهما البدء من جديد، وهدهما، في بناء يوتوبياهما السرية

زينة نمر

معك أمارسُ غراميات هاوايية ترقصين لي فيها رقصة أوكيليلي في ليالٍ مكتملة القمر، مع جلاجل على الردفين والكاحلين، مقلدة دوروثي لامور.
وغراميات أزيكية، أقدمك فيها قرباناً لآلهة نحاسية وشرهة، لأفاع ومجنحات، على قمة هرم أحجار صدئة، تحيط بها الأدغال

المتشابكة المغلقة.

غراميات اسكيمالية، في بيوت باردة من الجليد، مضاءة
بمشاعل من شحم الحوت، وغراميات نرويجية نمارس الحب فيها
ونحن مثبتان على ألواح التزلج، ننزلق بسرعة مئة كيلومتر في
الساعة على سفوح جبل أبيض ذي بثور طوطمية عليها كتابات
عامية.

نزوتي في هذه الليلة يا حبيبتي حدائثة ودامية وأفريقية.
ستتعرين أمام المرأة المجزأة، مستبقية الجوربين الأسودين
والأربطة الحمراء، وستخفين رأسك البديع تحت قناع وحش ضار،
من الأفضل أن يكون الوحش هو النمرة الهائجة في ديوان أزرق
لروبين داريو... أو لبوة سودانية.

ستميلين بردفك الأيمن، وتثنين ساقك اليسرى، وتسندين يدك إلى
الردف الآخر، في أشد الأوضاع وحشية وإثارة.
وعندئذ سأراك بخضوعي المعتاد وأنا جالس على كرسي،
مستنداً بظهري إلى المسند.

لن أحرك جفنًا واحدًا، ولن أصرخ بينما أنت تُتشبين مخالباك
في عيني، وأنيابك البيضاء تنتزع حنجرتي، وتلتهمين لحمي،
وتروين ظمأك بدمي العاشق.

إنني الآن في جوفك، إنني الآن أنتِ أيضاً، أيتها الحبيبة
المختلطة بي.



IX. موعد في الشيراتون

— لكي أتجراً، ولكي أملك الشجاعة، تناولت
كأسين من الويسكي الصافي — قالت دونيا لوكريثيا —
أعني، قبل أن أبدأ التتكر.

فعلقت خوستينيانا بمرح:

— لا بد أنك قد سكرت تماماً. فرأسك في تحمل الشراب
مثل رأس الدجاجة.
أنبتها دونيا لوكريثيا:

— ولكنك كنت هناك يا قليلة الحياء. متهيجة لما يمكن أن
يحصل. كنت تقدمين الشراب، وتساعديني في التكر وتضحكين
على هواك بينما أنا أتحول إلى واحدة من أولئك.
— واحدة من أولئك الفتيات — أعادت الخادمة كالصدي
وهي تضبط لها أحمر الشفاه.

«إنه أسوأ جنون أقدمت عليه في حياتي — فكرت دونيا
لوكريثيا —. أسوأ مما فعلته مع فوننتشيتو، وأسوأ من زواجي من
المجنون ريغوبيرتو. إذا ما أقدمت على ذلك فسوف أندم حتى مماتي.»
ولكنها ستقدم عليه. باروكة الشعر الحمراء كانت مناسبة لها تماماً —
لقد جربتها في المحل الذي أوصته عليها — وتسريحتها العالية
والباروكية ذات الخصل والتجعيدات بدت وكأنها أسنة لهيب. ولم تكذب
تتعرف على هذه المرأة المتوهجة ذات الرموش الاصطناعية المعقوفة
والقرطين التروبيكاليين المستديرين، والطلاء الأحمر المتوقد الذي
يضاعف الحجم الطبيعي للشفتين، وشامات وازرقاق عيني امرأة
مشؤومة، من طراز نساء الأفلام المكسيكية في الخمسينيات.

هتفت خوستينيانا مذهولة وهي تغطي فمها:

— يا للعجب! لا يمكن لأحد أن يقول إنك أنت نفسك. لست
أدري من تشبهين يا سيدتي.

فأكدت دونيا لوكريثيا:

— أشبه واحدة من هؤلاء.

كان الويسكي قد بدأ مفعوله. والتردد الذي كان قبل لحظة راح يتلاشى، وصارت الآن تتأمل تحولها في مرآة الحجرة بذهول وامتعة. وكانت خوستينيانا المفتونة أكثر فأكثر تقدم لها الملابس الموضوععة فوق السرير: التتورة القصيرة الضيقة جداً بحيث تجد صعوبة في التنفس، والجوربين الأسودين اللذين ينتهيان متصلين بأربطة حمراء مع زركشات مذهبة، والبلوزة الخيالية التي تعرض نهديها حتى حافة الحلمتين. وساعدتها كذلك في انتعال الحذاء الفضي ذي الكعب الرفيع. ابتعدت عنها بعد أن تأملتها من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، ثم عادت تهتف مبهورة:

— لست أنت نفسك يا سيدتي. إنك أخرى، أخرى. هل

ستخرجين هكذا حقاً؟

فأكدت دونيا لوكريثيا:

— بالطبع. إذا أنا لم أرجع حتى الغد، اتصلني بالشرطة.

ودون أي شيء آخر، طلبت سيارة أجرة إلى محطة عذراء البيلار وأمرت السائق بتسلط: «إلى فندق الشيراتون». أول أمس، وأمس، واليوم، بينما كانت تهيب ملابسه التنكرية، أحست ببعض التردد. وكانت قد قالت إنها لن تذهب، وإنها لن تقدم على مثل هذا التهريج الذي لن يكون بكل تأكيد سوى مزحة قاسية؛ ولكنها ما إن صارت في التاكسي حتى أحست بالثقة وبالعزم على خوض المغامرة حتى نهايتها. مهما كان ما سيحدث. نظرت إلى

الساعة. التعليمات تقول إن الموعد سيكون ما بين الحادية عشرة والنصف والثانية عشرة ليلاً، وكانت الساعة لا تزال الحادية عشرة، ولهذا ستصل مبكرة. وبهدوء، ومتحولة بعيداً عن شخصيتها المعتادة بفضل الكحول، بينما سيارة التاكسي تتقدم عبر الثانخون شبه المقفر باتجاه مركز المدينة، تساءلت عما ستفعله في الشيراتون إذا ما تعرف عليها أحدهم بالرغم من تنكرها. ستنكر ذلك مغيرة صوتها، مستخدمة نبرة التغمج المستهترة التي تستخدمها أولئك الفتيات المعروفات: «أقول لوكريثيا؟ لا، أنا اسمي عايدة. هل أشبهها؟ ربما تكون إحدى قريباتي البعيدات». ستكذب بكل وقاحة. لقد تلاشى خوفها تماماً. وفكرت وهي سعيدة بنفسها: «إنك مفتونة بأداء دور العاهرة لليلة واحدة». ولاحظت أن سائق التاكسي يرفع بصره كل لحظة ليتفحصها في المرآة العاكسة.

قبل أن تدخل إلى الشيراتون، وضعت النظارة القاتمة ذات الإطار الصدفي المنتهي بثلاثة رؤوس وكانت قد اشترتها مساء اليوم بالذات من أحد المحلات في شارع لاباز. وقد اختارتها لمظهرها الفج ولأنها، بسبب حجمها، تبدو مثل قناع. اجتازت البهو بخطوات سريعة نحو البار، خائفة أن يقترب منها أحد البوابين ذوي الزي الموحد الذين يراقبونها، ويسألها من تكون، وماذا تريد، أو يرمي بها خارجاً دون أسئلة بسبب مظهرها الصاخب. ولكن أحداً لم يقترب منها. صعدت الدرج نحو البار دون تسرع. وقد أعادت لها العنمة الخفيفة الطمأنينة التي أوشتت أن تفقدها تحت أنوار المدخل

الساطعة، تلك الصالة التي تنتصب فوقها ناطحة السحاب التعسفية بطوابقها وجدرانها وممراتها ودرابزيناتها وغرفها التي تشكل الفندق. وعلى الضوء الخافت، ما بين سحب الدخان، رأت أن الطاولات المشغولة كانت قليلة. وكانت تُعزف موسيقى إيطالية، مع مغن مما قبل التاريخ — دومينيكو مودوغنو — ذكرها بفيلم قديم لكلوديا كاردينالي وفيتوريو غاسمان. وكانت هناك ظلال مطموسة تصطف على الكونتوار، على خلفية زرقاء صفراوية تشكلها الكؤوس وصفوف قوارير المشروبات. ومن إحدى الموائد كان يتعالى صراخ سكرة في بدايتها.

استعادت حماسها من جديد، واجتازت المحل وهي واثقة من قدرتها على مواجهة أي طارئ، واتخذت مجلساً على أحد مقاعد الكونتوار المرتفعة. وأظهرت لها المرأة المقابلة صورة مخلوق قبيح، رأت أنه يستحق العطف وليس القرف أو الضحك. وكان استغرابها دون حدود حين سمعت النادل، وهو خلاصي له شعر دهني قاس، يرتدي صدرية واسعة وربطة عنق تبدو وكأنها تشنقة، يكلمها بخشونة وفظاظة:

— إما أن تشربي شيئاً أو تنصرفي.

كانت على وشك أن تثير له فضيحة، ولكنها تروت وكافأت نفسها بالقول إن هذه الإهانة هي دليل على نجاح تنكرها. ودشنت صوتها الجديد المتصنع والمُحلى بأن طلبت منه:

— بطاقة سوداء⁽¹⁾ مع الثلج من فضلك.

بقي الرجل يتأملها مرتاباً ومفكراً إذا كان ما يسمعه جدياً. واختار أن يدمدم «مع الثلج، مفهوم»، وابتعد عنها. وفكرت في أن تتكرها كان سيبدو أكثر كمالاً لو أنها أضافت إليه ميسم تدخين طويل. لأنها كانت ستطالب عندئذ سجائر منعنة من ماركة كول ذات الطول الفاخر، وتدخن منها مطلقاً دوائر من الدخان نحو السماء الصافية ذات النجوم التي تغمز لها.

أحضر لها النادل كأس الويسكي مع الحساب، فلم تهتم أيضاً لهذا الدليل على عدم الثقة؛ فدفعت الثمن دون أن تترك إكرامية. وما إن شربت الرشفة الأولى حتى أحست بأن هناك من جلس بجانبها. أحست برعشة خفيفة. لقد بدأت اللعبة تصبح جدية. ولكن لا، لم يكن القادم الجديد رجلاً، وإنما امرأة فتية جداً، ترتدي بنطالاً وكنزة قاتمة ذات ياقة عالية ودون أكمام. وكان شعرها مفلتاً، متهدلاً، ووجهها طازجاً، له مظهر الرذيلة، مثل فتيات إيغون شيلي.

وبدا لها الصوت الناعم الذي يحمل رنة حي ميرافلوريس مألوفاً حين سمعته يقول:

— مرحباً. نحن نعرف بعضنا، أليس كذلك؟

فردت دونياً لوكريثيا:

— لا أعتقد.

وقالت الفتاة:

(1) - المقصود هو ويسكي من نوع جوني ويكر ذي البطاقة السوداء

— ظننت ذلك، المعذرة. الحقيقة أن ذاكرتي سيئة جداً. هل تأتئين كثيراً إلى هنا؟

— بين حين وآخر — ترددت دونيا لوكريثيا. هل تعرفها؟
— لم يعد الشيراتون مأموناً كالسابق — قالت الفتاة بأسف.
ثم أشعلت سيجارة وأطلقت نفثة من الدخان تأخرت في التلاشي،
وأضافت: — يوم الجمعة كانت هناك مدهامة كما قيل لي.
وتصورت دونيا لوكريثيا نفسها تصعد دفعاً إلى شاحنة الشرطة،
وتقتاد إلى المخفر، ويدرج اسمها في ملفات المومسات.

— إما أن تشربي شيئاً أو تتصرفي — قال النادل محذراً
جارتها، ومهدداً إياها برفع إصبعه عالياً.

فقالت الفتاة حتى دون أن تتنازل بالنظر إليه:

— هيا، انصرف إلى الخراء أيها الخلاسي النتن.

فابتسم النادل مظهراً أسناناً أيقنت دونيا لوكريثيا من أنها
مخضرة بالقلح، وقال:

— إنك جارحة دائماً يا أديليتا. ابقِ وحسب. إنك في بيتك.
يحق لك أن تتعسفي، فأنت نقطة ضعفي.

في هذه اللحظة تعرفت دونيا لوكريثيا عليها. إنها أديليتا
بالطبع! ابنة إستيرثيتا! ياه، ياه، ليست إلا ابنة التقية إستير.

وقهقهت خوستينيانا وهي تتحني على نفسها:

— أهي ابنة السيدة إستيرثيتا؟ أكانت أديليتا؟ أكانت الصغيرة
أديلينا؟ أهي ابنة عرابة فونتشيوتو؟ وكانت تلتقط الزبائن في

الشيراتون؟ لا أستطيع أن أبتلع هذا يا سيدتي. لا يمكنني أن ابتلعه مع كوكا كولا ولا حتى مع شمبانيا. فأكدت لها دونيا لوكريثيا:

— بل هي نفسها، ولن تصدقي كيف كانت تفعل ذلك. بكل تهتك. مطلقاً البذاءات، ومتحركة مثل السمكة في الماء، هناك، في البار. وكأنها المومس الأوسع خبرة في ليما كلها. — أولم تتعرف هي عليك؟

— لا، لحسن الحظ. ولكنك لم تسمعي شيئاً بعد. فبينما كنا نتحدث هناك، لست أدري كيف نزل علينا ذلك الرجل. وقد كانت أديلينا تعرفه كما يبدو.

كان طويلاً، قوياً، بديناً بعض الشيء، ومخموراً بعض الشيء، وفيه بعض الشيء من كل ما هو ضروري للإحساس بأنه مرهوب وأمر. يرتدي بدلة وربطة عنق براقية مزركشة بأشكال هندسية وخطوط متعرجة، ويتنفس مثل كبير. لا بد أنه في الخمسين من عمره. دس نفسه بين الاثنتين، ووضع ذراعيه على كتفيهما، وقال على سبيل التحية وكأنما يعرفهما منذ الأزل:

— هل تأتيان إلى جناحي في الفندق؟ هنالك مشروب فاخر و⁽¹⁾ something for the nose. وكذلك مبلغ من الدولارات للفتيات اللواتي يحسنّ التصرف.

(1) - العبارة بالانكليزية في الأصل، وتعني: وهناك شيء للأنف. والمقصود مخدرات الشم بالطبع.

أحست دونيا لوكريثيا بالدوار. كانت أنفاس الرجل تصفع وجهها. فقد كان قريباً منها إلى حد يمكنه معه بحركة صغيرة أن يقبلها.

سألته الفتاة بغنج:

— هل أنت وحيد يا ابن العم؟

— وما حاجتي إلى أشخاص آخرين — قال الرجل ذلك وهو يمص شفثيه، ثم أضاف ملامساً جيبه الذي لا بد أنه يحمل المحفظة فيه: — مئة خضراء للرأس، أوكي؟ وسأدفع سلفاً.

فقال آديلايتا على الفور:

— إذا كنت لا تملك أوراقاً من فئة العشرة أو الخمسين دولاراً فإنني أفضل السولات⁽²⁾. فأوراق المئة دولار مزيفة على الدوام. ووعدها الرجل:

— أوكي، أوكي، لدي أوراق من فئة الخمسين. هيا يا بنات.

— إنني أنتظر شخصاً. أسفة — اعتذرت دونيا لوكريثيا.

فقال الرجل بقنوط:

— ألا يمكنه أن ينتظر؟

— لا يمكنني، حقاً.

فتدخلت آديلايتا وهي تتأبط ذراعه:

— إذا أردتَ يمكننا أن نصعد أنا وأنتَ. سأمتعك يا ابن العم.

ولكن الرجل أبعدها وقد خاب أمله:

(2) - السول sol: وحدة النقد الأساسية في البيرو.

— أنت وحدك لا. إنني أكافئ نفسي هذه الليلة. لقد كسبتُ حميري ثلاثة أشواط والشوط المزدوج. هل أخبركما؟ إنني سأحقق نزوة تراودني منذ أيام. أقول لكما ما هي؟ — نظر إليهما بجديّة كبيرة، وأرعى ربطة عنقه، ثم تابع دون أن ينتظر ردهما: — أن أخوزق واحدة بينما أنا أكل الأخرى. وأراقبهما في المرآة وهما تتبادلان المداعبة والقبلات، جالستين على العرش، وهذا العرش هو أنا.

«مرآة إيغون شيلي»، فكرت السيدة لوكريثيا. وكانت تشعر بتناقص استيائها من فجاجة الرجل ومن بريق عينيه الفاسيتين وهو يشرح نزوته.

وضحكت أديليتا وهي توجه إليه لكمة مزيفة:

— ستحتاج إلى مرآة تحيط بك من كل الجهات لكي ترى كل هذه الأشياء دفعة واحدة يا ابن العم.

— إنها نزوتي. وبفضل الحمير سأتمكن من تحقيقها هذه الليلة — قال الرجل ذلك باعتزاز وهو يودعهما: — من المؤسف أنك مشغولة أيتها المهرجة الجميلة، لأنك تعجبيني على الرغم من أصبغتك الكثيرة. تشاو يا ابنتي العم.

عندما ضاع بين الطاولات — كان هناك أناس في البار أكثر من ذي قبل، وكان الدخان قد تكاثف، وتضاعفت ضجة الأحاديث وصارت موسيقى مكبرات الصوت تصدح الآن بلحن ميرنغي لخوان لويس غيرًا — تقدمت أديليتا منها متأثرة:

— هل صحيح هذا الذي قلته عن الموعد؟ لقد كانت صفقة

جيدة مع هذا العجوز. ما قاله عن الخيول هو مجرد كلام. إنه تاجر مخدرات. الجميع يعرفونه. وهو ينتهي فوراً، بسرعة مئة في الساعة. ما يدعونه سرعة القذف. إنه سريع جداً جداً إلى حد أنه لا يكاد يبدأ في بعض الأحيان. لقد كان نعمة يا ابنة العم.

حاولت دونيا لوكريثيا أن ترسم ابتسامة حكيمة، لم تخرج منها. كيف يمكن لابنة إستير أن تقول مثل هذه الأشياء؟ تلك السيدة المتكبرة، الغنية، المعتدة بنفسها، المتأنقة، والكاثوليكية جداً. أستيرثيا، عرابة فوننتشيتو. وكانت الفتاة تواصل تعليقاتها الساخطة وتذمراتها التي أذهلت دونيا لوكريثيا:

— من الحماسة إضاعة فرصة كسب مئة دولار في نصف ساعة، بل في خمس عشرة دقيقة. أنا أرى أن صعودي وإياك للعمل مع هذا العجوز هو مثل الحلوى، أقسم لك. كل شيء سيتم على ما يرام، وفي ثوانٍ قليلة. لست أدري ما رأيك أنت، أما أنا فإن ما يزعجني هو التعامل مع زوجين معاً. الزوج المتفرج، بينما يكون عليك تحمية الزوجة. إنني أكره هؤلاء يا ابنة العم! لأن الزوجة تكاد تموت دائماً من الخجل. الضحكات، التصنع، يجب تقديم كأس لها، ملاطفتها. ياه، أقول لك إنني أشعر بالغثيان منهن. وخصوصاً عندما يبذل بالبكاء وينتابهن الندم. إنني مستعدة لقتلهن عندئذ، أقسم لك. وتمضي أنصاف الساعات، والساعات في هذه السخريات. يردن، لا يردن، ويسببن لك خسارة كومة من النقود. لم يعد لدي صبر عليهن يا ابنة العم. ألم يحدث لك مثل هذا؟

— ومن لم يحدث لها مثل ذلك أحياناً — وجدت دونيا

لوكريثيا نفسها مضطرة إلى قول ذلك مجاهدة لكي توافق كل كلمة على الخروج من فمها.

— والأسوأ هو التعامل مع صديقين معاً، ثوريّ النير، الشريكين، ألا ترين ذلك؟ — تتهدت آديليتا. وكان صوتها قد تبدل، ففكرت لوكريثيا بأنها قد مرت دون ريب بتجربة فظيعة، مع ساديين أو مجانين أو متوحشين —. كم يشعرون بأنهم فحول حين يكونون اثنين معاً. ويبدوون بطلب كل أنواع الحماقات الجوفاء. البوق، السندويش، التشيكييتو. لماذا لا تذهب وتطلب هذا من أمك يا صغيري؟ لست أدري ما رأيك أنت يا ابنة العم، أما أنا فلا أريد ممارسة التشيكييتو بأي ثمن. لا أحب هذه الطريقة. إنها تقرفي. وهي تؤلمني أيضاً. ولهذا لا أمارسها ولو دفعوا لي مئتي دولار. وأنت؟

فتلعثمت دونيا لوكريثيا:

— وأنا مثلك. قرف وألم، مثلك تماماً. لا أقبل التشيكييتو لا بمئتي ولا بألف دولار.

ضحكت الفتاة:

— حسن، بألف دولار، من يعرف. ألا ترين؟ إننا متشابهتان. حسن، ها هو ذا زبونك الموعود على ما أظن. ربما نستطيع في المرة القادمة إنجاز عمل مع معتوه الحمير. تشاؤ، وتمنياتك لك بالتمتع.

ابتعدت جانباً، تاركة مكانها للشبح النحيف الذي كان يقترب. وعلى ضوء الردهة الخافت، رأت دونيا لوكريثيا أنه شاب، أشقر

إلى حد ما، ذو تقاطيع طفولية، وبه شبه غامض بمن؟ بفونتشيتو! إنه فونتشيتو أكبر بعشر سنوات، نظرته قد تصلبت، وجسده طال ونحل. كان يرتدي بدلة زرقاء أنيقة ويضع في جيب السترة منديلاً وردياً من لون ربطة العنق نفسه.

قال لها على سبيل التحية بصوت صارم:

— مخترع كلمة فردية هو أليكسيس دي توكفيل. هل هذا

صحيح أم خطأ؟

— صحيح. بدأت دونيا لوكريثيا تتعرق عرقاً بارداً: ما الذي سيحدث الآن؟ ولأنها كانت مصممة على الوصول إلى النهاية، فقد أضافت: — أنا أدونزا، أندلسية روما. قحبة، منجمة ورقاء، رهن إشارتك.

— الكلمة الوحيدة التي أفهمها هي قحبة — قالت خوستينيانا وهي دائخة مما تسمع — أكان جدياً؟ ألم تفلت منه أي ضحكة؟ أعذريني لمقاطعتك يا سيدتي.

— اتبعيني — قال الرجل دون أي أثر للسخرية. وكان

يتحرك مثل روبوت.

نزلت دونيا لوكريثيا عن مقعد الكونتوار وفهمت نظرة النادل الخبيثة وهو يراها تتصرف. لحقت بالشاب الأشقر الذي كان يتقدم بسرعة ما بين الطاولات المزدحمة، مخترقاً الجو الدخاني باتجاه مخرج البار. ثم اجتاز بعد ذلك الممر نحو المصعد. رآته دونيا لوكريثيا يضغط زر الطابق الرابع والعشرين وأحست بقلبها يقفز مع

خواء في بطنها بسبب السرعة التي صعدا بها. وما إن خرجا إلى الممر حتى انفتح باب. كانا في ردهة جناح فسيح: ووراء زجاج النافذة كان يمتد تحت أقدامهما بحر من الأنوار مع لطخات مظلمة وكتل من الضباب.

— يمكنك خلع الباروكة والتعري في الحمام — وأشار لها الفتى إلى غرفة في أحد جانبي الصالة. ولكن دونيا لوكريثيا لم تقو على التقدم خطوة واحدة، مبهورة بالوجه الفتى ذي النظرة الفولاذية والشعر المشعث — كانت قد حسبته أشقر وكان فاتحاً، يميل إلى السواد — في جبهته، يكشفه مخروط ضوء يرسله مصباح. كيف يمكن ذلك؟ يبدو وكأنه هو، بشخصه.

— كيف يكون إيغون شيلي؟ — اعترضتها خوستينيانا — أهو الرسام الذي يهدس به فونتشيتو؟ ذلك البارد الذي كان يرسم موديلاته وهن يقمن بحركات لا حياء فيها؟

— ولماذا تظنني بقيت مبهورة لولا ذلك؟ لقد كان هو نفسه. — أعرف أنني أشبهه — أوضح لها الفتى، بالنبرة الجدية والعملية وغير الإنسانية نفسها التي واجهها بها منذ اللحظة الأولى — أهذا هو ما يشوشك؟ حسن، إنني أشبهه. وماذا في ذلك؟ أم أنك تظنني إيغون شيلي منبعثاً؟ لست حمقاء إلى هذا الحد، أليس كذلك؟

واعترفت دونيا لوكريثيا:

— لقد أذهلتني تماماً. فليس الوجه وحده، وإنما كذلك الجسد

الطويل، الضعيف. واليدان الكبيرتان. والطريقة التي تلعب بها بأصابعك، مخفياً الإبهام. إنك مشابه، مطابق تماماً لكل صور إيغون شيلي. أيمن هذا؟

فقال الفتى ببرود وبإيماءة نزق:

— يجب ألا نضيع الوقت. انزعي هذه الباروكة المقرفة وهذه العقود والأقراط الفظيعة. سأنتظرك في غرفة النوم. تعالي عارية. كان في وجهه شيء من التحدي والهشاشة. وفكرت دونيا لوكرينثيا بأنه يبدو مثل صبي سيئ التربية وعبقري، وأنه على الرغم من كل شيطنته وعجرفته، جسارته وترهيبه، يفتقد أمه كثيراً جداً. أكانت تفكر في إيغون شيلي أم في فوننتشيتو؟ لقد كانت دونيا لوكرينثيا واثقة تماماً من أن ذلك الفتى هو تشخيص مسبق لما سيكون عليه ابن دون ريغوبيرتو بعد بضع سنوات.

«منذ هذه اللحظة سيبدأ الأصعب»، قالت ذلك لنفسها. وكانت موقنة من أن الفتى الذي يشبه فوننتشيتو وإيغون شيلي قد أقفل الباب بقفل مزدوج، وأنها لن تستطيع الهرب من الجناح حتى لو أرادت ذلك. يجب عليها أن تبقى هناك بقية الليل. وإلى جانب الخوف الذي سيطر عليها، كان ينهشها الفضول، وشيء من الاستثارة أيضاً. فالاستسلام إلى هذا الشاب النحيل ذي الملامح الباردة والقاسية بعض الشيء سيكون مثل ممارسة الحب مع فوننتشيتو — شاب — رجل — تقريباً، أو مع ريغوبيرتو متجدد الشباب والجمال، ريغوبيرتو — شاب — طفلاً — تقريباً. وجعلها هذا خاطر تبسم. وأبدت لها مرآة

الحمام ملامحها المسترخية، والسعيدة تقريباً. وجدت مشقة في خلع ملابسها. وكانت يداها محتقنتين وكأنهما وضعتا في الثلج. وحين نزعت الباروكة السخيفة، وتحررت من التنورة القصيرة التي تقيدها، تنفست بعمق. استبقت السروال الداخلي وحمالة الصدر ذات التخريجات السوداء، وقبل أن تخرج أفلتت شعرها ورتبته — وكانت قد ثبتته بشبكة —، وتوقفت لحظة عند الباب. الرعب مرة أخرى. «قد لا أخرج حية من هنا» ولكن هذا الخوف لم يجعلها تندم على مجيئها وتمثيلها هذه المهزلة القاسية لكي تمتع ريغوبيرتو (أم فونتشيوتو؟). حين خرجت إلى الردهة، لاحظت أن الفتى قد أطفأ كل أنوار الغرفة، باستثناء مصباح صغير في ركن قصي. ومن خلال النافذة الواسعة كانت تتلألأ آلاف الأضواء الصغيرة في سماء مقلوبة. لقد كانت ليما تبدو متكرة بزي مدينة كبيرة؛ فالعتمة تمحو أسماها وقذارتها، بل ورائحتها الكريهة أيضاً. وكانت تغمر الظلمة موسيقى فيثارات وكمانات ناعمة. وبينما هي تتقدم خائفة باتجاه الباب الذي كان الفتى قد أشار إليه، أحست بموجة جديدة من التهيج صلبت حلمتي نهديها («هذا ما يروق ريغوبيرتو كثيراً»). كانت تتسلل ببطء على السجاد. طرقت الباب بأصابعها. لم يكن مقفلاً، فانفتح دون أي صرير.

— هل كان هناك الشخصان السابقان؟ — هتفت خوستينيانا غير مصدقة — كيف يمكن هذا. الاثنان السابقان؟ كانت هناك أديليتا ابنة السيدة استير؟

فأكدت دونيا لوكريثيا:

— ومعها رجل الخيول، أو تاجر المخدرات أو ذلك الذي لا أدري من هو. أجل، كلاهما كانا في السرير. وأطلقت خوستينيانا ضحكة وهي ترفع يدها إلى فمها وتقلب عينيها بوقاحة:

— وكانا عاريين بالطبع. بانتظارك يا سيدتي.

بدأت الغرفة أوسع مما هو معتاد في الفنادق، بل وأكبر من جناح فاخر، ولكن دونيا لوكريثيا لم تستطع أن تنتبه إلى أبعادها، لأنه لم يكن مضاء سوى مصباح الكوميدينو الصغير، وكان النور الدائري الذي بلون العقرب لا يضيء بوضوح كامل إلا الرجل والمرأة المستلقين مختلطين على الفرشة الحمراء، مع لطخات بلون الخوخ القاتم، التي تغطي السرير المزدوج. أما بقية الغرفة فكان غارقاً في الظلام.

— ادخلي يا حبي — رحب بها الرجل وهو يهز إحدى يديه، دون أن يتوقف عن تقبيل آديليتا التي كان يمتطيها تقريبا، ثم أضاف: — تناولتي كأساً. هناك شمانيا على الطاولة. وكوكائين في هذه اللعبة الفضية.

مفاجأة اللقاء هناك بآديليتا ورجل الخيول لم تنسها الشاب ذا الفم القاسي. هل اختفى؟ أهو يتجسس من العتمة؟

وبرز وجه آديليتا الطفولي الخبيث من فوق كتف الرجل:

— أهلاً يا ابنة العم. لحسن الحظ أنك تخلصت من موعذك.

أسرعي، تعالي. ألا تشعرين بالبرد؟ المكان هنا دافئ.

انزاح عنها الخوف تماماً. ذهبت إلى الطاولة وسكبت كأساً من الشمبانيا من زجاجة غاطسة في سطل من الثلج. وماذا لو أخذت جرعة من الكوكائين أيضاً؟ وبينما هي تشرب، في رشفات متتالية، في العتمة، فكرت: «هذا سحر أو شعوذة. ولكنه لا يمكن أن يكون معجزة». كان الرجل أسمن مما بدا عليه وهو بملابسه، وكان لجسده الأبيض ذي الشامات تجعدات لحمية مترهلة في البطن، وإليتان ناعمتان، وساقان قصيرتان جداً يغطيهما شعر أسود. أما آديليتا بالمقابل فكانت أنحف مما صورتها؛ جسد متطاوّل أسمر، وخصر شديد الضيق تبرز فيه عظام الردفين. كانت تسمح لتاجر المخدرات والخيول بتقبيلها ومعانقتها، وتعانقه هي بدورها، ولكن على الرغم من تظاهرها بالاهتمام، فقد لاحظت دونيا لوكريثيا أنها لا تقبله، بل إنها تتفادى فمه أيضاً.

توسل الرجل فجأة باندفاع:

— تعالي، تعالي، لم أعد أستطيع الصبر. نزوتي، نزوتي. إما

الآن وإما لن أفعلها إلى الأبد يا بنات!

على الرغم من أن تهيجها الذي كان قبل لحظات قد اختفى وصار إحساسها أقرب إلى القرف، إلا أن دونيا لوكريثيا انصاعت له. وبينما هي تتقدم نحو السرير، رأت مرة أخرى من النافذة أرخبيل الأنوار هناك في الأسفل، وفي الأعلى أيضاً، حيث تبدأ سلسلة الجبال. جلست في أحد أركان السرير، دون خوف، ولكنها كانت مشوشة وأشد قرفاً في كل لحظة. أمسكتها يد من ذراعها، وشدتها وأجبرتها على الاستلقاء تحت جسد ضئيل ومترهل.

استرخت، وأسلمت نفسها متلاشياً، قانطة، مخذولة. وكانت تردد مثل إنسان آلي: «لن تبكي يا لوكريثيا، لن تبكي». احتضنها الرجل بذراعه اليسرى واحتضن آديليتا بذراعه اليمنى بينما رأسه يلتفت من واحدة إلى أخرى، ويقبلهما على العنق، على الأذن، ويبحث عن الفم. رأت دونيا لوكريثيا قريباً جداً منها وجه آديليتا المشعث، المحققن، ورأت في عينيها علامة تواطؤ، وسخرية واستهتار، تشجعها. التصقت شفتاه وأسنانه بشفتيها وأجبرتها على فتح فمها. ودخل لسانه فيه مثل أفعى.

سمعته يتضرع بينما هو يعضعض ويداعب نهديها:

— أنت سأخوزقك. هيا امتطيني، هيا، بسرعة، إنني أذهب. وبما أنها كانت مترددة، فقد ساعدتها آديليتا على الصعود فوقه، وقرصت الفتاة أيضاً مارة بإحدى ساقها فوق الرجل لتصبح في وضع يكون فيه فمه عند مستوى عضوها منزوع الشعر، حيث لم تلمح دونيا لوكريثيا سوى خط خفيف من الزغب. وفي هذه الأثناء أحست بأنها قد اخترقت. سيكون قد كبر إلى هذا الحد بعد أن دخل فيها ذلك الشيء الضئيل، نصف المتصلب، الذي كان يحثك قبل لحظات بساقها؟ إنه الآن حربة، مكبس يرفعها، يتقبها ويجرحها بقوة إحصارية.

وكان رجل الحمير يلهث:

— تبادل القبلات، تبادل. لست أراكما جيداً، يا للجنة. كنا بحاجة إلى مرآة!

مبللة بالعرق من شعرها حتى قدميها، مذهولة، متألّمة، دون أن

تفتح عينيها، مدت ذراعيها باحثة عن أدليتنا، ولكنها حين وجدت الشفتين النحيلتين، أبقتها الفتاة مطبقتين، وإن كانت قد ألصقتهما بشدة بشفتيها. لم تفتحا حين ضغطت عليهما هي بلسانها. وفي أثناء ذلك، ما بين رموشها وقطرات العرق التي تقطر من جبهتها، رأت الشاب المختفي ذا العينين المتصلبتين، هناك في الأعلى، قريباً من السقف، يتوازن فوق سلم عال. شبه مختف وراء ما يشبه برافاناً مطلياً بالللك ومزيناً بكتابة صينية، وكانت أذناه شبه منتصبين، وعيناه متوقدتين، وفمه القاسي مزموماً، لقد كان يرسمها، يرسمهم، باحتدام، مستخدماً قلم فحم طويلاً وقطعة كرتون ناصعة البياض. وكان يشبه بالفعل طائراً جارحاً وهو في أعلى السلم المزدوج، يراقب، يتأمل، يرسمهم بخطوط طويلة، نشطة، بينما عيناه القاسيتان، الحيويتان تقفزان من قطعة الكرتون إلى السرير، ومن السرير إلى قطعة الكرتون، دون أن توليا أدنى اهتمام إلى أي شيء آخر، غير مباليتين بأضواء ليما المنثورة عند أقدام النافذة ولا بعضوه الذي كان قد شق طريقه خارج البنطال جاعلاً الأزرار تتفزر، وامتد ونما مثل بالون ينفخون فيه الهواء. إنه حية طائرة تتأرجح الآن فوقها، يراقبها بعينه الوحيدة مثل السيكلوب. لم تفاجأ ولم تهتم. لقد كانت ممطية، مترعة، ثملة، ممتنة، معلبة، وهي تفكر مرة بفوننشيتو ومرة بريغوبيرتو.

— لماذا تواصلين الاهتزاز، ألا ترين أنني ذهبت؟ — تباكي رجل الخيول. وكان وجهه يبدو وكأنه من رماد في العتمة الخفية. وكان يكشر مثل طفل سيئ المزاج — يا لحظي اللعين،

دائماً يحدث لي الشيء نفسه. عندما يحلو الأمر أذهب وأنتهي. لا أستطيع منع نفسي. لا توجد طريقة، لا توجد. ذهبت إلى الاختصاصي، فوصف لي حمامات الطين. مجرد براز. كانت تسبب لي آلاماً في المعدة وتقيؤات. المساجات. إنها براز آخر. ذهبت إلى مداوٍ شعبي في حي فيكتوريا فأُنزلني في برميل أعشاب، له رائحة الخراء. وماذا أفادني ذلك؟ لا شيء. إنني أنتهي الآن أسرع من السابق. لماذا هذا الحظ الكلب، يا للعنة؟

أُفلتت منه اجهاشة وبدأ ينتحب.

— لا تبك يا صاحبي، ألم تحصل على نزوتك؟ — واسته آدليتا وهي تسحب ساقها من فوق رأس الرجل الباكي وتسنقي إلى جواره.

يبدو أن أياً منهما لم ير إيغون شيلي، أو بديله، الذي يتوازن على ارتفاع متر عنهما، في أعلى السلم ويسعى لكي لا يسقط إلى الحفاظ على مركز توازنه بفضل عضوه الضخم الذي يتأرجح برفق فوق السرير، مُظهِراً في الضوء الخافت ثناياه الوردية الحساسة وأوردة ظهره المرحة. ولم يكونا يسمعانه كذلك. أما هي فكانت تسمعه. فقد كان يكرر الترتيلة نفسها من بين أسنانه بصوت صارخ، محارب: «إنني المرهوب بين المرهوبين. إنني إلهي».

وقالت لها آدليتا برفق:

— استريحي يا ابنة العم، ما الذي تفعلينه هناك، لقد انتهت الحفلة.

— لن تذهبا، اضربهما قبل ذلك. لا تتركهما تذهبان.

اضربهما، اضرب الاثنتين بقوة!

لقد كان فونتشيتو بالطبع. لا، ليس الرسام المستغرق في رسمهم. إنه الطفل، ربيها، ابن ريغويرتو. هل كان هناك هو أيضاً؟ أجل. أين؟ في مكان ما، بين أشباح غرفة العجائب. نظرت دونيا لوكريثيا إلى اليمين وهي هادئة، منكمشة، خامدة الشهوة، مرتعبة، مغطية نهديةا ببديها، وبحثت إلى اليسار. وأخيراً وجدتهما، منعكسين في مرآة كبيرة متعددة الأجزاء، حيث رأت نفسها أيضاً، مكررة مثل إحدى موديلات إيغون شيلي. لم يكن الضوء الخافت يخفيهما، بل كان يُظهر الأب والابن جالسين أحدهما إلى جانب الآخر — الأول يراقبهم بأريحية ودودة، والثاني مستثار بإفراط، ووجهه الملائكي محنقن لكثرة صراخه «اضربهما، اضربهما» — على كرسي يبدو وكأنه شرفة معلقة فوق مقدمة السرير.

— أتعنين أن السيد وفونتشيتو قد ظهرا هناك أيضاً؟ —
علقت خوستينيانا بنبرة جافية وبخيبة أمل صريحة — هذا لا يوجد من يستطيع أن يصدقه.

فأكدت دونيا لوكريثيا:

— كانا جالسين يراقباننا. ريغويرتو في وضع وقور جداً، يبدو متفهماً ومتسامحاً. والطفل جامح، يقوم بشيطنته المعتادة.

فقلت خوستينيانا فجأة، مقاطعة روايتها دفعة واحدة وناهضة:

— لا أدري ما هو حالك يا سيدتي. أما أنا فأحتاج في هذه اللحظة بالذات إلى دش ماء بارد جداً. لكي لا أقضي ليلة أخرى مؤرقة ومكدرة. هذه الأحاديث مع حضرتك تفتنني. ولكنها تسبب لي

الضيق وتشحنني بالكهرباء. إذا كنت لا تصدقين، ضعي يدك هنا وستزين الصعقة الكهربائية التي سنتلقينها.

لُعاب الدودة

مع أنني أعرف جيداً أنك شر لا بد منه، ولا يمكن للحياة الجماعية أن تعاش بدونك، إلا أنه يتوجب علي أن أقول إنك تمثل كل ما أمقته في المجتمع وفي شخصياً. ذلك أنني منذ ربع قرن على الأقل، ومن الاثنين حتى الجمعة من كل أسبوع، منذ الثامنة صباحاً حتى السادسة مساءً، مع بعض النشاطات الإضافية (حفلات كوكتيل، ندوات، حفلات تدشين، مؤتمرات) التي لا يمكنني التهرب منها دون أن أعرض وسيلة عيشي إلى الخطر، أكون أيضاً نوعاً من البيروقراطي، مع أنني لا أعمل في القطاع العام وإنما في الخاص. ولكنني مثلك وبسببك أضعت في هذه السنوات الخمس والعشرين طاقتي ووقتي وموهبتي (كانت لي موهبة ما) وابتلعت معظمها المعاملات، والمراجعات، والطلبات، والعرائض، والإجراءات التي اخترعتها حضرتك لكي تبرر الراتب الذي تتقاضاه والمكتب الذي يترهل عليه كفلك، دون أن تترك لي سوى فتات من الحرية للمبادرة والقيام بعمل يمكن القول عنه إنه إبداعي. أعرف أن العمل في التأمين (وهو مجالي المهني) والإبداع هما أمران متباعدان بعد كوكبي بلوتو وزحل في الفضاء الكوني، ولكن

هذا البعد لن يكون مدوياً جداً لو أنك لم تجعله هوة سحيقة الغور يا أفعوان اللوائح، يا يريقة الإجراءات الشكلية، يا ملك الأوراق المختومة. لأنه، حتى في صحراء شركات التأمين وإعادة التأمين الفاحلة، يمكن تقليب مخيلة الكائن البشري والخروج منها بمحرضات فكرية، بل ومتعة أيضاً، لولا أنك، وأنت محبوس في الشبكة الكثيفة من الأنظمة الخائقة — المكرسة لإضفاء طابع الضرورة الملحة على العوائق البيروقراطية التي تفتت التقسيمات العامة وتخلق أعداداً لا حصر لها من الحجج والتبريرات لابترازاتها، وعاهراتها، وتجارتها وسرقاتها — لم تحول مهمة شركة تأمين إلى روتين مُعرقَلٍ شبيه بماكينات جان تينغلي المعقدة والمدققة التي تحرك سلاسل وبكرات وسككاً ومجارف ورفوشاً ومكابس تنتهي كلها بتوليد كرة بونغ بونغ صغيرة. (أنت لا تعرف من هو تينغلي، ولا يناسبك كذلك أن تعرفه، مع أنني واثق من أنك قد اتخذت كل الاحتياطات لكي لا تفهم وتتفه السخریات القاسية — إذا ما وضعها القدر في طريقك — التي تنبعث من أعمال هذا النحات، وهو أحد الفنانين المعاصرين القلائل الذين يفهمونني.)

إذا ما قلت لك إنني قد دخلت للعمل في هذه الشركة بعد تخرجي من دراسة المحاماة، في وظيفة تافهة في قسم الشؤون القانونية. وإنني تدرجت خلال هذه السنوات الخمس والعشرين في السلم الوظيفي إلى أن وصلت إلى منصب مدير وعضو مجلس الإدارة ومالك كمية لا بأس بها من أسهم الشركة، فسوف تقول إنه ليس هناك، في مثل هذه الظروف، ما يدعوني إلى الشكوى، وإنني

شخص جاحد. ألسنت أعيش حياة جيدة؟ ألسنت ضمن تلك الفئة الميكروسكوبية من المجتمع البيروني التي تملك بيتاً خاصاً وسيارة وإمكانية السفر مرة أو مرتين في السنة إلى أوربا أو الولايات المتحدة في إجازات، والعيش في ظروف وطمأنينة مستحيلة وبعيدة عن أحلام أربعة أخماس مواطنينا؟ كل هذا صحيح. وصحيح كذلك أنه بفضل هذا النجاح المهني (هكذا تسمونه أنتم، أليس كذلك؟) استطعتُ أن أملأ مكتبتي بكتب ورسوم ولوحات تحصني ضد التفاهة والابتذال السائدين (أي ضد كل ما تمثله حضرتك) واستطعتُ أن أقيم مقاطعة خاصة من الحرية والخيال، حيث أمكنني كل يوم، وبكلمة أدق كل ليلة، أن أتخلص من سموم القشرة الكثيفة من التوافقات الكاذبة، والروتين الدنيء، والنشاطات المخصصة والجماعية التي تفتعلها حضرتك وتتغذى عليها، وأن أعيش، أعيش حقاً، بأن أكون أنا نفسي، وأن أفتح للملائكة والشياطين الذين يسكنونني الأبواب الحديدية التي عليهم — بسببك أنت — أن يخبثوا وراءها بقية اليوم.

وستقول لي أيضاً: «إذا كنت تكره إلى هذا الحد الدوام في المكتب، والرسائل والبوالص، والتقارير القانونية والبروتوكولات، والمطالبات، والتصاريح، والتعاليل، فلماذا لم تمتلك الجرأة على نفص هذا كله عن كاهلك لتعيش الحياة الحقيقية، حياة تخيلاتك ورغباتك، ليس في الليل فقط، وإنما كذلك في الصباح والظهيرة والمساء؟ ولماذا تنازلت عن أكثر من نصف حياتك للحيوان البيروقراطي الذي يستعبدك أيضاً مع ملائكتك وشياطينك؟». إنه

سؤال وجيه — وقد طرحته على نفسي مرات كثيرة —، ولكن جوابي عليه وجيه أيضاً: «لأن عالم الخيال، عالم اللذة، عالم الرغبات بحرية، وهو موطني الوحيد العزيز، لا يمكن له أن يستمر في الندرة، في التقشف، في الضائقات الاقتصادية، وتحت وطأة الديون والفقير. فالأحلام والرغبات لا تؤكل. وإلا لكان وجودي قد افترق، وتحول إلى صورة كاريكاتيرية لنفسه». لست بطلاً، ولست فناناً عظيماً، وأنا أخلو من العبقرية، بحيث لا يمكن أن يعزيني الأمل — «عمل» ربما ييقيني حياً. إن تطلعاتي وكفاءتي لا تصل إلى ما هو أبعد من معرفة التفريق — وأنا في هذا متفوق عليك يا من قلص شرطك العرضي إلى العدم حسك في التمييز الأخلاقي والجمالي —، ضمن نزوة الاحتمالات المحيطة بي، بين ما أحبه وما أكرهه، بين ما يجمل حياتي وما يقبحها ويلطخها بالتفاهة، بين ما يستثيرني وما يضايقني، بين ما يمتعني وما يؤلمني. ولكي أكون على الدوام في ظروف تتيح لي التمييز ما بين هذه الخيارات المتناقضة أحتاج إلى الاطمئنان الاقتصادي الذي يوفره لي هذا العمل المهني المدنس بثقافة الإجراءات الشكلية، بأبخرة العفونة الوبيبة التي تولدها حضرتك مثلما تولد الدودة للعباب، والتي تحولت إلى الهواء الذي ينتفسه العالم بأسره. إن التخييلات والرغبات — تخيالاتي ورغباتي على الأقل — تتطلب لكي تتبدى حداً أدنى من الطمأنينة والأمان. وهي دون ذلك تنزوي وتموت. وإذا أردت أن تستنتج من ذلك أن ملائكتي وشياطيني هم برجوازيون بصورة غير قابلة للاحتراق، فهذه هي الحقيقة الصارمة.

لقد ذكرتُ من قبل كلمة **طفيلي** ولا بد أنك قد تساءلت إذا ما كان لي الحق في أن أستخدمها ضد أي كان، وأنا المحامي الذي يطبق منذ حوالي خمس وعشرين سنة علوم القانون — أفضل غذاء مغذٍ للبيروقراطية وأول مولدٍ للبيروقراطيين — على ميدان التأمين. أجل، لي الحق في استخدامها، وذلك لأنني أطبقها على نفسي أيضاً، على نصفي البيروقراطي. وذروة الشرور بالفعل، هي أن الطفيلية القانونية كانت أول اختصاصاتي، إنها المفتاح الذي فتح لي أبواب شركة بيريتشولي — أجل، هذا هو الاسم المضحك لشركتي المحلية — وأتاح لي الترفيعات الأولى. وكيف لا يكون الأكثر عبقرية في تعقيد الحجج القانونية وحلها من اكتشاف منذ درسه الحقوقي الأول أن ما يدعى تشريعاً هو، إلى حد بعيد، غابة متشابكة حيث يحقق تقنيو التعقيد، والمكر، والمكايد، والشكليات، والتحايل الشرعي صفقاتهم الراححة؟ وأنه ليس لهذه المهنة أي علاقة بالحقيقة والعدالة، وإنما بفبركة المظاهر غير القابلة للجدل، والمغالطات والتعقيدات غير القابلة للحل وحسب. صحيح أنها مهنة طفيلية من حيث الجوهر، مارستها بالكفاءة اللازمة لكي أصدع إلى القمة، ولكن دون أن أخدع نفسي مطلقاً، واعياً أنني دُمِّل يتغذى على عجز وضعف وخذلان الآخرين. وخلافاً لحضرتك، فأنا لا أسعى لأن أكون «دعامة للمجتمع» (ولا فائدة من إحالتك إلى لوحة جورجيس غروز التي تحمل هذا الاسم نفسه؛ فأنت لا تعرف هذا الرسام، أو ربما أنك — وهذا هو الأسوأ — تعرفه من خلال المؤخرات التعبيرية الرائعة التي رسمها وليس من خلال رسومه

الكاريكاتيرية المميّنة لزملائك في ألمانيا فيمر): إنني أعرف ما أنا وما أفعله وأزدرى هذا الجزء مني بالذات مثلما أزدريك أو أكثر. ونجاحي كقانوني ناجم عن هذا اليقين — إن القانون هو تقنية غير أخلاقية تخدم المتهتك الذي يتقنها أكثر من سواه — وهو ناجم عن اكتشافي، المبكر أيضاً، بأن النظام القانوني في بلادنا (في كل البلاد؟) هو شبكة عنكبوتية من المتناقضات كل قانون فيها أو تدبير بقوة القانون يمكن أن يتعارض مع قانون أو قوانين أخرى تعدّله وتلغيه. ولهذا فإننا جمعينا هنا، نخرق على الدوام قانوناً ما أو نرتكب جرماً بطريقة ما ضد النظام (وهو الفوضى في الواقع) القانوني. وبفضل هذه المتاهة تواصل حضرتك العيش، والتكاثر، والتناسل، والتفريخ بصورة دوارية. وبفضلها أيضاً نعيش نحن المحامين ويزدهر بعضنا.

والآن حسن، بالرغم من أن حياتي كلها كانت عذاباً تانتالياً⁽¹⁾، صراعاً يومياً وأخلاقياً ما بين بيروقراطية وجودي المثقل من جهة، وملائكة وشياطين كينونتي، إلا أنك لم تقنعني. فقد استطعت على الدوام حيال ما أفعله من الاثنين إلى الجمعة، ومنذ الثامنة حتى السادسة مساءً، أن أحتفظ بالسخرية الكافية لازدراء هذا العمل وازدراء نفسي لأنني أقوم به، بحيث يمكن لساعات اليوم الأخرى أن تتصفني وتنفذني، أن تعوضني وتؤنسنني (وهو ما يعني بالنسبة إليّ

(1) - نسبة إلى تانتال: ملك فريجيا أوليديا الذي غضب منه زوس وفرضت عليه الآلهة عذاب الحرمان من الطعام والشراب، فكان الماء يصل إلى شفتيه ولكنه يهرب منه حين يهم بالشرب، وتتدلى فوقه الثمار فإذا ما هم بقطفها ابتعدت عنه.

على الدوام ابتعادي عن الجماعة أو القطيع). إنني أتصور الحكمة التي أصابتك، هذا الفضول الصفراوي الذي تتساءل به: «وما الذي يفعله في هذه الليالي ويحصنه ضدي، وينقذه من أن يكون مثلي؟». أتريد معرفة ذلك؟ بما أنني الآن وحيد — أعني أنني منفصل عن زوجتي — فإنني أقرأ، وأتأمل لوحاتي، وأراجع وأغذي دفاتري برسائل مثل هذه الرسالة، ولكنني أولاً وقبل كل شيء أتخيل، أحلم، أشيد واقعاً أفضل، نظيفاً من أي طفح أو زوائد — منك ومن لعابك — تجعل الحياة شديدة الشؤم والقذارة إلى حد حثنا على تمنى حياة أخرى مختلفة. (أتكلم بصيغة الجمع وأنا نادم؛ وهو ما لن يتكرر.) في هذا الواقع الآخر الذي أشيده لا وجود لك. وإنما توجد فيه المرأة التي أحببتها وسأحبها إلى الأبد — لوكريثيا الغائبة — وابني ألفونسو وبعض الأشخاص المتحركين والعابرين الذين يظهرون ببلاهة، في الوقت الذي يكونون فيه مفيدين لي. وحين أكون في هذا العالم فقط أكون موجوداً، لأنني أستمتع وأشعر بالسعادة.

حسن، هذه النتف من السعادة لن تكون ممكنة دون الإحباط الهائل، والملل القاحل، والروتين الذي يثقل حياتي الواقعية. بكلمات أخرى، دون حياةٍ منزوعةٍ الإنسانية بسببك وبسبب ما تحوكة وتستهله من خيوط ضدي في كل تروس ومسننات السلطة التي تمسك بها. أتفهم الآن لماذا سميتك منذ البداية بالشر الذي لا بد منه؟ أنت تعتقد يا سيد الطباعة والمكان المشترك، أنني صنفتك هكذا لأنني أفكر في أنه لا بد للمجتمع من أن يدور، وأن يكون له نظام، وشرعية،

وخدمات، وسلطة، حتى لا يغرق في الفوضى. وأنت تظن أن هذا المنظم، هذه العقدة، هذه الآلية المنقذة والمنظمة لمملكة النمل، هو حضرتك، الضروري الذي لا بد منه. لا يا صديقي الفطيع. فمن دونك يدور المجتمع أفضل مما هو عليه الآن بكثير. ولكن، دون وجودك هنا، تُعَهَّرُ، وتسمم، وتفتطع الحرية البشرية، لن تحظى هذه الحرية بكل هذا التقدير من جانبي، ولن تصبح مخيلتي بمثل هذه الرفعة، ولن تكون رغباتي بمثل هذا الاندفاع، لأن هذا كله يولد كتمرد ضدك، كرد فعل من إنسان حر وحساس ضد من هو نفي للحساسية والمشية الحرة. انتبه إذن من أين، وعبر أي طريق وعبر، أصير من دونك أقل حرية وحساسية، وتصير رغباتي أكثر ابتدالاً وحياتي أشد خواء.

أعرف أنك لن تفهم هذا أيضاً، ولكن ما همّ إذا كانت عيناك الضفدعيتان المتورمتان لن ترى مطلقاً هذه الرسالة.
إنني أشتمك وأشكرك أيها البيروقراطي.

الحلم حياة

دون أن يخرج من الحدود النحيلة التي يختلط فيها النعاس والأرق، بقي دون ريغوبيرتو يرى روساورا مستحمة بالعرق، ومرتدية سترة بدلة رجالية وربطة عنق، وتنفيذ تعليماته: دنت من الكونتوار وانحنت على الظهر العاري للخلاسية الجذابة التي كانت

تتخصصها مذ دخلا حانة اللقاءات السرية تلك.

كانا في مدينة مكسيكو، أليس كذلك؟ أجل، فبعد أن أمضيا أسبوعاً في اكابولكو، توقفا هناك وهما في طريقهما إلى ليما، بعد انتهاء تلك الإجازة القصيرة. ولقد راودت دون ريغوبيرتو نزوة جعل دونيا لوكريثيا تنتكر بزى رجل ويذهب معها وهي بذلك الزي إلى ملهى ترتاده العاهرات. همست روساورا-لوكريثيا بشيء للمرأة وهما تبتسمان — ورأى دون ريغوبيرتو كيف تضغط بتسلط على ذراع الخلاسية التي كانت تنتظر بعينين متيقظتين ومتبهنيتين — وأخيراً اقتادتها إلى الرقص. كانت الجوقة تعزف لحن مامبو لبيريث برادو بالطبع — **لاعِب الروليت** —، وفي حلبة الرقص الضيقة، المدخنة، المزدهمة التي تغتصب ظلمتها حزماً منقطعة من أنوار ملونة، أكد دون ريغوبيرتو لنفسه: روساورا-لوكريثيا تؤدي دورها بصورة جيدة. لم تكن تبدو عرضية بهذا الزي الرجولي، ولا مختلفة بقصة شعرها الصببانية، ولا مرتبكة وهي تقود زميلتها في الرقص، بعد تعبهما من التصنع، إلى لحظات من الارتباط. وبينما هو في حالة من النشوة المتعاطمة، امتلأ دون ريغوبيرتو بالتقدير والامتنان تجاه زوجته، وكان عليه أن يصمد لتشنج العنق كي لا تغيبا عن نظره ما بين الرؤوس والأكتاف الكثيرة العارضة. عندما انتقلت الجوقة الموسيقية الناشزة — إنما الهبابة — من المامبو إلى لحن بوليرو — **روحان**، الذي ذكره بليو ماريني — أحس بأن الآلهة معه. ورأى تجسيد رغبته السرية حين شدت روساورا على الفور الخلاسية إليها مطوقة خصرها بذراعيها ومجبرة إياها

على وضع ذراعيها فوق كتفيها. ومع أنه لم يكن قادراً في تلك الإضاءة الشاحبة أن يميز بدقة، فقد كان واثقاً من أن امرأته المعبودة، الرجل المزيف، كانت قد بدأت بتقبيل وعض عنق الخلاسية برفق، وأنها تحتك ببطنها وتديها مثلما يفعل أي رجل حقيقي تنخسه الإثارة.

لقد كان مستيقظاً دون أي ريب، ولكن على الرغم من تيقظ كل حواسه، فقد كانت الخلاسية وروساورا-لوكريثيا ما تزالان هناك، متعانقتين وسط تلك البشرية الليلية الماخورية، في ذلك المحل الخارق والقاسي لنساء مطلبات بأصبغة كبغاوات وذوات أرداف تروبيكالية وزبائن ذكور من النمط ذي الشوارب المتهذلة، والحدود الممتلئة، والنظرات الماريجوانية، أيقونون مستعدين لسحب المسدسات والافتتال لدى أول سهو؟ وانتابته قشعريرة سعادة وهو يفكر: «في هذه الرحلة إلى العالم السفلي لليالي المكسيكية، يمكن لي ولروساورا أن نفقد حياتينا». واستيق ما ستقوله عناوين الصحافة الدنيئة: «جريمة قتل مزدوجة: رجل أعمال وزوجته المتنكرة بزي رجل يُذبحان في ماخور مكسيكي»، «الصنارة كانت خلاسية»، «الرزيلة كانت السبب في ضياعهما»، «ذبح زوجين من مجتمع ليما الراقي في عالم مكسيكو السفلي»، «وصمة بيضاء: يدفعان دمهما ثمناً لشططهما». تقياً ضحكة أشبه بالتجشؤ: «حين يكونون قد قتلونا، فلن تهتم ديداننا بالفضيحة».

رجع إلى المحل، وكانت الخلاسية وروساورا — الذكر المزيف — ما تزالان ترقصان. ولسعادته، فقد كانتا الآن تتبادلان

المداعبات والقبلات على الفم. ولكن، كيف ذلك؟ ألا تمتنع المحترفات عن تقديم أفواههن إلى الزبائن؟ أجل، ولكن هل هناك عائق لا تستطيع روساورا-لوكرينثيا أن تتجاوزه؟ كيف تمكنت من جعل هذه الخلاسية العظيمة تفتح فمها ذا الشفتين الممتلئتين الضاربتين إلى الحمرة وتتلقى زيارة لسانها الأفعواني الناعم؟ أتكون قد منحتها نقوداً؟ أتكون قد هيجتها؟ ليس مهماً كيف فعلت ذلك، المهم أن ذلك اللسان العذب الأبيض، شبه السائل، كان هناك، في فم الخلاسية، يبلىه باللعاب ويرشف لعاب تلك المرأة الوافرة، وتخيله لعاباً كثيفاً وذا رائحة.

وعندئذ شغله السؤال: لماذا روساورا؟ فروساورا هو اسم امرأة أيضاً. وإذا كان ما يريده هو إخفاءها تماماً، مثلما فعل بجسدها حين أخفاه بملابس رجل، فمن الأفضل أن يسميها كارلوس، خوان، بيدرو، نيكانور. لماذا اختار اسم روساورا؟ ودون وعي تقريباً نهض من الفراش، وارتدى الروب وانتعل الخف وانتقل إلى المكتب. لم يكن بحاجة إلى النظر في الساعة ليعرف أنه عما قريب ستطل من الظلمة، وكأنها تخرج من البحر، أول أنوار الفجر. أترأه يعرف امرأة من لحم وعظم تدعى روساورا؟ بحث وكان الرد حاسماً: لا يعرف أي واحدة. إنها إذن روساورا متخيلة، جاءت لتسكن حلمه عن لوكرينثيا وتتصهر بها في هذه الليلة، آتية من صفحات رواية منسية أو من لوحة زيتية أو لوحة غرافيك لا يتذكرها أيضاً. ولكن الاسم المستعار ما يزال هناك، ملتصقاً بلوكرينثيا، مثل هذه البدلة الرجالية التي اشتراها عصر هذا اليوم

بالذات من أحد محلات المنطقة الوردية، ما بين الضحك والوشوشات، بعد أن سأل لوكريثيا إذا ما كانت توافق على تجسيد تخيله ذلك، وكان ردها («كالعادة، كالعادة») نعم. والآن، روساورا هو اسم واقعي تماماً مثل هذا الثنائي — الخلاسية ولوكريثيا اللتين لهما طول القامة نفسه تقريباً — الذي توقف عن الرقص وراح يدنو من الطاولة. نهض ليستقبلهما، ومد يده باحتفالية إلى الخلاسية: — أهلاً، أهلاً، تشرفنا، تفضلي بالجلوس.

وقالت الخلاسية وهي تهوي ببديها:

— أكاد أموت من الظمأ. هل نطلب شيئاً؟

فقالت لها روساورا-لوكريثيا وهي تداعب ذقنها وتستدعي النادل:

— اطلبي ما تشائين يا حبي. اطلبي، اطلبي أنت.

وأمرت الخلاسية بابتسامة ظافرة:

— زجاجة شمبانيا. هل صحيح أنك تدعى ريغوبيرتو؟ أم إنه

اسم مستعار؟

— هذا هو اسمي. إنه اسم غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟

— بل غريب جداً — قالت الخلاسية وهي تنتظر إليه وكأنها

بدلاً من العينين تملك جمرتين ملتهبتين في وجهها المستدير.

وأضافت: — حسن، إنه اسم أصيل على الأقل. والحقيقة أنك أنت

أيضاً لا تقل أصالة. أتريد أن تعرف أمراً؟ لم أر في حياتي أذنين

وأنفاً مثل أذنك وأنفك. أماء، كم هي كبيرة! أتسمح لي بأن ألمسها؟

أتركني أفعل؟

طلب الخلاسية — وهي طويلة القامة، متلوية، لها عينان متألفتان، وعنق طويل، وكتفان قويتان، وبشرة لامعة يبرزها الفستان الأصفر الكناري ذو الفتحة الواسعة حول العنق — جعل دون ريغوبيرتو يصاب بالبهمة، وفقد القدرة حتى على الرد بمزحة على ذلك الطالب الذي بدا جدياً جداً. فهرعت لوكريثيا-روساورا إلى نجدته، قائلة للخلاسية وهي تداعب أذنها:

— ليس بعد يا حبي. حين نلتقي معاً على انفراد في الغرفة، سنلمسين كل ما نشائين فيه.

ضحكت الخلاسية وهي تقلب عينيها ذات الرموش الحريرية:

— وهل سنجتمع الثلاثة معاً في غرفة واحدة؟ شكراً لإخباري بذلك. وما الذي أفعله وحدي معكما أنتما الاثنين، يا ملاكي؟ لست أحب الأرقام الفردية. آسفة. يمكنني أن أستدعي صديقة لي فنكون زوجين مناسبين. لن أذهب أنا وحدي مع اثنين ولو ميتة.

ولكن حين أحضر النادل زجاجة ما أسماه شمبانيا، وكان شراباً رغوياً حلواً يذكر بطعم الراتينج والكافور، بدا أن الخلاسية (قالت إن اسمها إستريا) قد تحمست من تلقاء نفسها لفكرة قضاء بقية الليل مع هذين الشخصين المختلفين، وأطلقت بعض المزاح، وبعض الضحكات، ووزعت مداعبات لطيفة بيديها ما بين ريغوبيرتو وروساورا-لوكريثيا. وكانت تعود بين حين وآخر، مثل لازمة، إلى السخرية من «أذني وأنف الرجل المحترم»، وتتنظر إليها بافتتان مضمخ بجشع غريب.

كانت تقول:

— لا بد أن المرء يمثل هاتين الأذنين يسمع أكثر من الأشخاص العاديين. ويشم بمثل هذا الأنف ما لا يشمه عامة البشر. «هذا ممكن»، فكر دون ريغوبيرتو. وماذا إذا كان ذلك صحيحاً؟ وماذا إذا كان هو، بفضل أريحية هذين العضوين، يرى أكثر ويشم أفضل من أبناء جنسه؟ لم يرق له الإلحاح الكوميدي الذي بدأت تتخذه القصة — فرغبته التي انتعشت منذ لحظة، أخذت تتراجع، ولم يعد يتوصل إلى تجديدها، فبسبب سخريات إستريّا، كان اهتمامه يبتعد عن لوكريثيا-روساورا والخلاسية ليتركز في عدم تناسب حجم جهازي السمع والشم لديه. حاول أن يحرق المراحل، قافزاً فوق التفاوض مع إستريّا الذي استمر ما استمرته تلك الزجاجة من الشمبانيا المزعومة، وفوق الإجراءات لجعل الخلاسية تخرج من الملهى — كان عليه أن يدفع مقابل فيشة خاصة بذلك ورقة من فئة الخمسين دولاراً —، وكذلك فوق التكسي المختق الذي يشكو من ارتعاشات حمية، وفوق التفتيش في الفندق النتن — فندق السماء البديعة مثلما تقول اللوحة المضيئة بالأحمر والأزرق على واجهته — وفوق التفاوض مع موظف الاستقبال الأحوال الذي يحرك أنفه، لكي يسمح لهم بالنزول في غرفة واحدة. وقد دفع دون ريغوبيرتو خمسين دولاراً أخرى لتهدئة مخاوفه من قيام الشرطة بمداهمة مفاجئة وتغريم المحل لتأجيريه غرفة واحدة لثلاثة أشخاص.

وفي اللحظة التي اجتازوا فيها عتبة الغرفة، وتحت الضوء

الواهن المنبعث من المصباح الوحيد، ظهر سرير مزدوج مغطى بشرشف ذي لون مائل إلى الزرقة، وكانت إلى جانبه مغسلة، وطشت ماء، ومنشفة، ولفافة ورق صحي، ومبولة مشققة — وكان الأحوال قد انصرف للتو بعد أن سلمهم المفتاح وأغلق الباب وراءه —، عندئذ تذكر دون ريغوبيرتو: بالطبع! روساورا! إستريًا! وضرب جبهته مرتاحاً. بالطبع! هذا الاسمان جاء من ذلك العرض المديدي لمسرحية الحياة حلم لكالديرون دي لباركا. وأحس مرة أخرى في أعماق قلبه بتدفق إحساس رقيق من الامتنان، مثل دفقة ماء زلال، تجاه عمق الذاكرة التي توفر له ما لا ينضب من المفاجآت، والصور، والتخيلات، والإيحاءات، من أجل منح التجسيد والمشهد والحكاية لأحلامه التي يصد بها الوحدة في غياب لوكريثيا.

وتقول روساورا وهي تنهض، وتعود للجلوس:

— فلنتعري يا إستريًا. ستكون مفاجأة حياتك الآن، فاستعدي.

فردت إستريًا، بحزم هذه المرة:

— لن أخلع ثوبي قبل أن ألمس أنف وأذني صديقك. لست

أدري لماذا، ولكن الرغبة في لمسها تكلني وأنا حية.

وبدل أن يغضب دون ريغوبيرتو، أحس هذه المرة بالافتتان.

لقد كان عرضاً مسرحياً شاهداً هو ودونيا لوكريثيا في أحد مسارح مدريد، في رحلتها الأولى إلى أوروبا بعد شهور قليلة من زواجهما، إنه عرض من الطراز القديم للحياة حلم إلى حد كانت تسمع معه ضحكات غير مستترة في عتمة الصالة خلال العرض.

فالممثل النحيل والطويل الذي يجسد شخصية الأمير سيخسموندو كان سيئاً جداً، وصوته مصطنع ويبدو عليه الضيق الشديد من الدور لدرجة أن المشاهد — «حسن، هذا المشاهد»، حدد دون ريغوبيرتو — يشعر بالميل إلى الرفق بأبيه القاسي والمؤمن بالخرافات، الملك باسيلييو، لتكبيله إياه بالأغلال طوال طفولته وشبابه، مثل وحش ضار، وحبسه في ذلك البرج المنعزل، خوفاً من أن تتحقق على يد ابنه، إذا ما اعتلى العرش، الكوارث التي تنبأ بها المنجمون وعلومه الرياضية. لقد كان كل شيء في ذلك العرض بائساً، ومرعباً وبلدياً. ومع ذلك، فقد تذكر دون ريغوبيرتو بوضوح شديد أن ظهور الشابة روساورا، وهي ترتدي ملابس الرجال في المشهد الأول، ثم وهي تحمل سيفاً على خصرها بعد ذلك، مستعدة لدخول المعركة، قد وصل إلى عمق روحه. أجل، إنه متأكد الآن من أنه قد أحس عدة مرات منذ ذلك الحين بالرغبة في رؤية لوكريثيا يوماً بجزمة وقبعة ذات ريش وسترة محارب، عند ممارستهما الحب. **الحياة حلم!** على الرغم من سوء ذلك العرض، وانعدام إبداعية مخرجة، وضعف ممثليه، إلا أن ذاكرته لم تحتفظ فقط بتلك الممثلة الصغيرة التي ألهبت حواسه عدة مرات، بل هناك كذلك شيء ما أدهشه في العمل، ودفعه — الذكري كانت مؤكدة — إلى قراءته بعد بعض الوقت. لا بد أن هناك بعض الملاحظات من تلك القراءة. كان دون ريغوبيرتو يقعي على أربع فوق سجادة المكتب، وراح يقلّب الدفاتر ويستبعدها واحداً بعد آخر، ليس هذا، ولا هذا. يجب أن يكون هذا. فهذه هي السنة.

وقالت الخلاسية إستريًا:

— ها أنا ذا قد تعريت يا بابيتو. دعني أمسك أذنيك وأنفك مرة واحدة. لا تجعلني أتوسل. لا تجعلني أتألم، لا تكن جلاداً. ألا ترى أنني أموت من الرغبة؟ امنحني هذه المتعة يا حبي، وسأسعدك.

بدا جسدها ممتلئاً ووافراً، حسن التكوين، رغم بعض الرخاوة في البطن، وبدء تهدل نهديها الرائعين، ووجود بعض الخطوط المستجدة في الوركين. ولم يبد عليها أنها قد انتبهت إلى أن روساورا-لوكريثيا، التي تعرت كذلك واستلقت في السرير، لم تكن رجلاً وإنما امرأة جميلة بارزة التقاطيع. لم تكن عينا الخلاسية تريان أي شيء سواه، أو سوى أذنيه وأنفه بكلمة أدق، وكان دون ريغوبيرتو قد جلس الآن على حافة السرير ليسهل عليها العملية — فكانت تداعب الأذنين والأنف بشراهة، بغضب. أصابعها الملتهبة تلمس، تضغط، تقرص ببيأس أذنيه أولاً، ثم أنفه بعد ذلك. أغمض هو عينيه مغموماً، لأنه أدرك أن وجود تلك الأصابع في أنفه سيسبب له عما قريب نوبة من نوبات الحساسية التي لن تتركه إلا بعد — الرقم الشهواني — سبع وتسعين عطسة. وتنتهي تلك المغامرة المكسيكية المستوحاة من مسرحية كالديرون دي لباركا بتعسف أنفي مضحك.

أجل، ها هو ذا — وجد دون ريغوبيرتو الدفتر على ضوء المصباح: صفحة من الاستشهادات المنتقاة والملاحظات، كان قد كتبها في أثناء القراءة، تحت عنوان الحياة حلم (1638).

الاستشهادان الأولان المأخوذان من محاورات سيخسومونو كان لهما عليه أثر ضربتي سوط: «لا شيء يبدو لي عادلاً/ فيما هو مناقض لذوقي». والاستشهاد الثاني: «وأعلم أنني/ مركب من بشر ووحش». هل كانت هناك علاقة سبب-نتيجة ما بين العبارتين اللتين استنسخهما في تلك المرة؟ أكان مركباً من بشر ووحش لأنه ليس هناك ما يبدو له جميلاً فيما هو مخالف لذوقه؟ ربما. ولكنه حين قرأ ذلك العمل، بعد تلك الرحلة، لم يكن الرجل العجوز، المتعب، المتوحد، المحزون الذي يبحث بيأس عن ملاذ في التخيلات ليحمي نفسه من الغرق في الجنون أو الانتحار الذي صار إليه؛ لقد كان آنذاك خمسينياً سعيداً، مفعماً بالحيوية، وكان يكتشف بين ذراعي زوجته الثانية الباهرة أن السعادة موجودة، وأنه بإمكانه وهو إلى جانب الحبيبة، أن يبني مدينة فريدة، مسورة ضد الحماقة، والقبح، والوسطية، والروتين السائد في تلك المدينة الأخرى التي يقضي فيها بقية اليوم. لماذا أحس بضرورة تسجيل هذه الملاحظات وهو يقرأ عملاً، لم يكن يشير بأي حال آنذاك إلى وضعه الشخصي؟ أم أنه كان كذلك؟

هتفت الخلاسية وهي تنتهد بعمق:

— مع رجل مسلح بمثل هاتين الأذنين وهذا الأنف، أكون مستعدة لفقدان عقلي والتحول إلى عبدة له. أوفر له المتعة في نزواته. أكنس الأرض بلساني من أجله.

كانت جالسة على عقبها وهي تمسك بالوجه المحترق، المتعرق

كما لو أنها قد ثبتته فوق وعاء حساء يغلي. وكان كل ما فيها يبدو وكأنه يرتعش. تتكلم وهي تمر بلسانها بشهية على شفثيها الرطبتين اللتين انتهت بهما للتو من تقبيل جهازي سمع وشم دون ريغوبيرتو وعضهما ولحسهما. وقد استغل هو استراحتها تلك ليستنشق الهواء ويخرج منديله ويمسح أذنيه. وينف بعد ذلك أنفه مصدراً دويماً هائلاً.

قالت روساورا-لوكريثيا بحزم:

— هذا الرجل لي، وأعيرك إياه هذه الليلة فقط.

— ولكن، هل أنت صاحب هذه الروعة؟ — سألت إسترياً دون أن تولي الحوار أدنى اهتمام. فقد أمسكت يداها بوجه دون ريغوبيرتو المرعوب وتقدم فمها الغليظ من جديد، حازماً، نحو فريسته.

فاحتجت روساورا-لوكريثيا بغیظ:

— ألم تنتبهي بعد؟ أنا لست رجلاً، إنني امرأة. انظري إليّ على الأقل.

ولكن الخلاسية استخفت بها بحركة خفيفة من كتفيها وواصلت مهمتها متأججة. كانت قد أدخلت في فمها الضخم الدافئ أن دون ريغوبيرتو اليسرى، فلم يعد يستطيع كبح نفسه وأطلق فهقهة هستيرية. لقد كان عصبياً جداً في الحقيقة. فقد كان يخشى أن تنتقل إسترياً في أي لحظة من الحب إلى الحقد وتنتزع أذنه بعضة واحدة. وفكر بحزن: «لن تحبني لوكريثيا وأنا بأذن مصلومة»، وزفر زفرة عميقة، مبحوحة، كئيبة، مثل تلك الزفرات التي كان يطلقها الأمير سيخسموندو الملتحي والمقيد في برجه

السري، وهو يسأل السماء بصرخات محمومة عن الجريمة التي ارتكبها في حقها بمولده.

قال دون ريغوبيرتو: «هذا سؤال أحمق». لقد كان يحتقر على الدوام الرياضة الأمريكية اللاتينية في الإشفاق الذاتي، وانطلاقاً من هذه الرؤية، فإن أمير كالديرون دي لباركا الباكي هذا (وهو جيزويتي فوق ذلك) الذي يقدم نفسه إلى الجمهور منتحباً «يا لبؤسي، يا لحظي العاثر»، لا يوجد فيه ما يشده إليه أو يوحد به. لماذا إذن بنت تخيلاته، في الحلم، هذه القصة مقدمة له اسمي روسورا وإسترياً والتتكر الرجولي لتلك الشخصية في الحياة حلم؟ ربما لأن حياته قد تحولت إلى حلم محض منذ أن ذهبت لوكريثيا. وهل هو يعيش في تلك الساعات الكثيرة القاتمة التي يقضيها في الشركة مناقشاً الميزانيات، والبوليصات، وإعادات التأمين، والمحاکمات، والاستثمارات؟ الركن الوحيد من الحياة هو ذلك الذي يوفره له الليل، عندما يغفو وتفتح في وعيه بوابة الأحلام، مثلما كان يحدث لسيخسموندو في برجه الحجري المعزول في تلك الغابة التائهة. وهو الذي كان قد وجد هناك أن الحياة الحقيقية، الحياة الغنية، الحياة الرائعة التي تتطوي وتتشكل حسب نزواته، هي الحياة الأكذوبة، التي يُسرِّبها ذهنه ورغباته — سواء وهو مستيقظ أو نائم —، لإخراجه من زنزانتة والهرب إلى رتابة حبسه الخائفة. بعد كل هذا، لم يكن ذلك الحلم الفريد مجانياً: فهناك تقارب، تشابه ما بين كلا الحالمين البائسين.

وتذكر دون ريغوبيرتو نكتة تصغيرية كانت، بحماقة محضة، قد

أضحتكه هو ولوكريثيا مثل صبيين صغيرين: «اقترب فييل
ليشرب الماء من بحيرة، فعض له تمساح خرطوممه وانتزعه. فبكى
الفيل الأفطس محتجاً: «يا للنكتة الخرائية».

— أفلي أنفي وسأعطيك ما تشائين — تضرع بصوت
أخن، صوت كانتينفلاسي، لأن أسنان إسترياً الضارية كانت تمنع
تنفسه، وأضاف: — سأعطيك ما تشائين من المال. أفليتي،
أرجوك!

— اصمت، إنني أنتهي — تلعثت الخلاسية، مفلتة أنف دون
ريغوبيرتو لحظة، ثم عادت تقبض عليه بصفي أسنانها الجارحة.
إنها فرس مجنح عنيف، أجل إنها تنتهي بسرعة الريح، مرتعشة
بكاملها، بينما دون ريغوبيرتو غارق في الرعب، يرى بطرف
عينه روساورا-لوكريثيا مغمومة، مشوشة، وقد استوت جالسة في
السرير وأمسكت الخلاسية من خصرها محاولة إبعادها برفق، دون
مماحكة، وهي تخشى بكل تأكيد أن تعدم إسترياً المندفعة إلى انتزاع
أنف زوجها بأسنانها كإجراء عقابي. بقوا على هذا الحال لبعض
الوقت، وادعين، متشابكين، بينما الخلاسية تجمع وتنن، لاعقة
بمجون جهاز دون ريغوبيرتو الأنفي، وكان هذا بدوره، وسط
ضباب الجزع، يتذكر مسخ باكون، رأس إنسان، تلك اللوحة الزيتية
المؤثرة التي كانت هاجساً مسلطاً على عقله لوقت طويل، وقد صار
يعرف الآن السبب: فهكذا ستتركه أنياب إسترياً بعد أن تعضه. لم
يكن وجهه المشوه هو ما يربعه، وإنما السؤال: هل ستبقى لوكريثيا
على حبها لزوجها مصلوم الأذنين ومجدوع الأنف؟ هل ستهجره؟

قرأ دون ريغوبيرتو في دفتره هذا المقطع:

ماذا كان

هذا الذي حدث

لمخيلتي وأنا نائم،

ووصلت إلى رؤيته هنا؟

وهو ما كان سيخسموندو يردده لدى استيقاظه من ذلك الحلم الاصطناعي الذي كان يُغرقه فيه (بمركب من الأفيون والخشخاش والبنج) الملك باسيليو والعجوز كلوتالدو، ويمثلون له تلك المهزلة الدنيئة، بنقله من برج سجنه إلى البلاط، لكي يتولى الحكم لوقت قصير، جاعلينه يعتقد أن هذا الانتقال هو حلم أيضاً. وفكر: «ما جرى لمخيلتك وأنت نائم، أيها الأمير المسكين، هو أنهم نوّموك بمخدر وقتلوك. أعادوك للحظة إلى شرطك الحقيقي، جاعليناك تعتقد بأنك تحلم. لذلك بادرت إلى ممارسة الحريات التي يمارسها أحدنا وهو يستمتع بتهور الأحلام الخالي من العقاب. أفلت العقل لرغباتك، فألقيت برجل من الشرفة، وكدت تقتل العجوز كلوتالدو والملك باسيليو نفسه. وهكذا وجدوا الذريعة اللازمة — فأنت عنيف، وأنت نزق، وأنت غير جدير — لكي يعيدوك إلى الأغلال وإلى عزلة سجنك.» ومع ذلك، فقد أحس بالحسد تجاه سيخسموندو. فهو أيضاً مثل الأمير التعس الذي حكمت عليه الرياضيات والنجوم بالعيش حالماً كي لا يموت من الحبس والعزلة، كان يمثل ما كان قد دونه في دفتره: «هيكل عظمي حي»،

«متحرك ميت»، ولكنه على العكس من ذلك الأمير، لن يأتي أي ملك مثل باسيليو أو نبيل مثل كلوتالدو لإخراجه من هجرانه ووحدته، ولتتويمه بالأفيون والبنج، إيقاظه بين ذراعي لوكريثيا. — وتتهد: «لوكريثيا، لوكريثياي»، منتبهاً إلى أنه كان يبكي. يا للبكاء الذي تحوّل إليه في هذه السنة الأخيرة!

وكانت عينا إسترياً تدمعان أيضاً، ولكن من اللذة والسعادة. فبعد رعشتها الأخيرة، التي أحس ريغويرتو خلالها بهزة موازية في كل تلافيف جسده العصبية، فتحت فمها، وأفلتت الأنف وانهارت على ظهرها فوق السرير المغطى بشرشف أزرق، مطلقة صرخة سعادة طوباوية: «كم كان لذيذاً انتهائي يا أيتها العذراء المقدسة!» وبقيت ممتنة دون أي حماسة لمزيد من تدنيس المقدسات.

فقال دون ريغويرتو متذمراً:

— لذيذ بالنسبة إليك، أما بالنسبة إلي فقد كدت تتركيني دون أنف ودون أذنين أيتها اللصة.

كان واثقاً من أن مداعبات إسترياً قد جعلت وجهه مثل وجه شخصية ارسيمبولدو تلك التي لها درنة جزر مكان الأنف. وبإحساس متزايد بالإذلال، رأى من بين أصابع يديه التي تفرك كدمات أنفه أن روساورا-لوكريثيا، ودون أي ذرة من شفقة أو اهتمام به، كانت تنظر إلى الخلاسية (وهذه تتمطى راضية فوق السرير) بفضول، ثم تسألها وابتسامة إعجاب تطفو على وجهها:

— وهل هذا هو ما يعجبك في الرجال يا إسترياً؟

وقالت الخلاسية موافقة:

— إنه الشيء الوحيد الذي يعجبني — ثم حددت وهي تلهث وتطلق نفساً نباتياً زحماً: — أما ما سوى ذلك فليدسوه حيث لا تضيئه الشمس. وأنا عموماً أكبح نفسي وأخفي رغبتني، خوفاً مما يقال. ولكنني في هذه الليلة أطلقت لنفسي العنان. فأنا لم أر من قبل أذنين وأنفاً مثل أذني زوجك وأنفه. لقد جعلتmani أشعر بالثقة يا صاحبتني.

تفحصت لوكريثيا من أعلى إلى أسفل بنظرة عارفة وبدا عليها الإعجاب بها. فمدت إحدى يديها ووضعت إصبعها الإبهام على الحلمة اليسرى (وخيل لدون ريغوبيرتو أنه يرى كيف أن زر زوجته راح يتصلب) لنهد روساورا-لوكريثيا وقالت ضاحكة برقة: — لقد اكتشفتُ أنك امرأةٌ حين كنا نرقص في الحانة. أحسست بنهديك وانتبهت إلى أنك لا تعرفين كيف تحركين رفيقتك في الرقص. فقد كنت أنا التي أقود خطواتك بدل أن تقوديني أنت.

فهناًها دونيا لوكريثيا:

— لقد أخفيت ذلك جيداً، فظننتُ أنني قد خدعتك. أحس دون ريغوبيرتو الذي كان ما يزال يواصل فرك أنفه المرضض وأذنيه المنكمشتين بنفحة تقدير جديدة لزوجته. كيف يمكنها أن تكون سريعة التقلب والتأقلم إلى هذا الحد! لقد كانت المرة الأولى التي تقوم فيها لوكريثيا في حياتها بهذه الأشياء — ارتداء زي الرجال، والذهاب إلى وكر مومسات في بلد أجنبي، ثم الدخول إلى فندق سيئ السمعة مع عاهرة —، ولكنها لا تبدي مع

ذلك أدنى قدر من القلق أو التردد أو الاستياء. ها هي هناك، تتحدث دون تكلف مع الخالسية المتخصصة بالأنف والأذن، وكأنها مثلها، من أجوائها ومهنتها. كانتا تبدوان صديقتين حميمتين تتبادلان التجارب في لحظة راحة خلال يوم عملهما المتعب. وكم تبدو جميلة وشهية! ولكي يستمتع بمنظر زوجته هذا وهي عارية إلى جانب إستريّا، على هذا السرير الظريف ذي الشرف الأزرق، في الضوء الزيتي الشاحب، أغمض دون ريغوبيرتو عينيه. كان مستلقياً على جنبه، وجهه مستند إلى يده اليسرى، في شرود تحفته تلقائية وضعه الممتع. كانت بشرتها تبدو أكثر بياضاً بكثير في هذا الضوء الخافت، وشعرها القصير أشد سواداً وكذلك حزمة الزغب الداكنة في العانة. وبينما هو يتابع بحب انحناءات فخذيها وظهرها الناعمة، ويتسلق ردفها، ونهديها وكتفيها، بدأ دون ريغوبيرتو ينسى أذنيه المتألمتين وأنفه المتضرر، وكذلك إستريّا والفندق سيئ السمعة الذي التجؤوا إليه في مدينة مكسيكو: فقد راح جسد لوكريثيا يستعمر وعيه، ويشغله، مزيحاً أي صور أو تقديرات أو هموم أخرى.

ولم يبد على روساورا-لوكريثيا ولا على إستريّا أنهما قد انتبهتا — أو ربما لم يكن يهمهما ذلك — إلى أنه راح يخلع، بصورة آلية، ربطة عنقه، وسترته، وقميصه، وحذاءه، وجوربيه، وبنطاله، وسرواله الداخلي، ويلقي بها إلى أرضية مشمع اللينوليوم الخضراء المشفقة. وحتى عندما ركع على ركبتيه عند قدم السرير، وبدأ يداعب بيديه ويقبل باحترام ساقَي زوجته، لم تولياه أي اهتمام.

وواصلتا حديثهما الهامس ونمائهما غير مباييتين به، وكأنهما لا تريانها، وكما لو أنه كان الشبح.

«إنني كذلك»، فكر وهو يفتح عينيه. وكان التهيج حاضراً هناك على الدوام، يضرب ساقيه، دون قناعة كبيرة، ودون سعادة أو حزم، مثلما تضرب مدقة جرس صدئة ناقوساً قديماً ناشراً بفعل الزمن والروتين في كنيسة دون راع.

وعندئذ أعادت له الذاكرة الاشمزاز العميق — الطعم الكريه في الفم، في الحقيقة — الذي خلفته لديه تلك النهاية البلاطية، المتذللة بدناءة لمبدأ السلطة وللاأخلاقية دولة القانون، في تلك المسرحية لكالدديرون دي لباركا، فالجندي الذي بدأ التمرد ضد الملك باسيليو، وبفضله تمكن الأمير سيخسموندو من اعتلاء عرش بولونيا، يحكم عليه الملك الجديد الجاحد والوغد بأن يتعفن حياً في البرج الذي كان هو نفسه محبوساً يعاني فيه، وذلك بالحجة التي دون أبياتها المرعبة في دفتره: «**الخائن لم يعد ضرورياً لنا/ بعد أن مضت الخيانة.**»

«فلسفة مريعة، وأخلاق مقرفة»، فكر دون ريغويرتو، ناسياً بصورة مؤقتة زوجته الجميلة العارية التي ما زال مع ذلك يداعبها بطريقة آلية. «الأمير يعفو عن باسيليو وكلوتالدو اللذين ظلماه وعذباه، ويعاقب الجندي المجهول الشجاع الذي حرض القوات على الثورة ضد الملك الجائر، وأخرج سيخسموندو من مغارته وجعله ملكاً، لأنه لا بد من الاستجابة قبل أي شيء إلى متطلبات السلطة السائدة، التي تقضي بمعاقبة مبدأ وفكرة التمرد ضد الملك. يا

للقرف!»

أيستحق مثل هذا العمل المسمم بهذا المعتقد غير الإنساني المعادي للحرية أن يحتل أحلامه ويغذيها، وأن يؤثث رغباته؟ ومع ذلك، لا بد أن هناك سبباً جعل أشباح تلك المسرحية تسيطر، في هذه الليلة، بحزم وتفرد على أحلامه. وعاد إلى مراجعة دفاتره بحثاً عن تفسير.

لقد كان العجوز كلودالدو⁽¹⁾ يدعو المسدس «الصل المعدني»، وروساورا المتكثرة كانت تتساءل عما «إذا كان النظر لا يعاني الخداع/ صانعاً الخيال،/ في الضوء الخجول الذي ما زال يملكه النهار». تطلع دون ريغوبيرتو إلى البحر. وهناك في البعيد، عند خط الأفق، كان ضوء خجول يعلن قدوم اليوم الجديد، هذا الضوء الذي يدمر بعنف كل صباح، عالمه الصغير من الأحلام والأشباح، حيث هو سعيد (سعيد؟ لا، حيث هو أقل شقاءً بقليل) ويعيده إلى روتين الحبس خمسة أيام في الأسبوع (استحمام، فطور، مكتب الشركة، غداء، الشركة، عشاء) حيث لا تكاد تبقى له فجوة صغيرة لتنتقية ابتكاراته. كانت هناك أبيات شعر قصيرة محددة بعلامة على الهامش تقول «لوكريثيا» وسهم صغير يشير إلى الأبيات: «خالطة بين زينات ديانا الفاخرة وسروج/ بالاسي». إنهما الصيادة

(1) - قد يخيل إلى القارئ أن كلودالدو clodoaldo هو شخصية جديدة، ولكن الحقيقة أن هناك خطأ مطبعي على ما يبدو في كتابة اسم كلوتالدو clotaldo ، لأن تسمية المسدس بالصل المعدني ترد في المشهد الثالث من الفصل الأول في مسرحية الحياة حلم على لسان كلوتالدو، عندما يعتقل روساورا وكلازين.

والمحاربة⁽¹⁾ مجتمعتين في محبوبته لوكريثيا. ولم لا. ولكن، لا ريب في أن هذا لم يكن هو السبب في ترسخ قصة الأمير سيخسموندو في عقله الباطن ولا في إخراجها إلى تخيلاته هذه الليلة. فما هو السبب إذن؟

«لا يمكن لحلم/ أن يتسع لكل هذه الأشياء»، هذا ما يقوله الأمير مذهولاً. ويرد عليه دون ريغوبيرتو: «إنك أحمق. فحلم واحد يمكنه أن يتسع لكل الحياة». وقد أثر فيه أن سيخسموندو، عند نقله وهو تحت تأثير المخدر، من سجنه إلى القصر، يرد عليهم حين يسألونه عما كان له أشد الوقع عليه لدى عودته إلى الحياة: «لم يدهشني أي شيء/ فكل شيء حسبت له حساباً؛ غير أنني لو عجبت/ لشيء في العالم، لكان الجمال/ في المرأة». وفكر دون ريغوبيرتو: «وتقول هذا مع أنك لم تر لوكريثيا». أما هو فيراها الآن، رائعة، خارقة، مسكوبة على ذلك الشرشف الأزرق، تخرخر برقة لمداعبات شفتي زوجها المحب وهو يقبلها من إبطيها. كانت إسترياً اللطيفة قد نهضت، تاركة لدون ريغوبيرتو مكانها على السرير إلى جوار روساورا-لوكريثيا، ومضت لتجلس في الركن الذي كان يجلس فيه دون ريغوبيرتو من قبل، بينما هي تتأمل أذنيه وأنفه. احتفظت بالتكتم والسكون، غير راغبة في شغلها أو مقاطعتها، وكانت تراقبهما بفضول لطيف بينما هما يتعانقان، يتشابكان ويبدأان الحب.

(1) - ديانا وبالاسي: الأولى إلهة الصيد والثانية إلهة الحرب في الأساطير الإغريقية.

ما هي الحياة؟ مجرد جنون.
ما هي الحياة، مجرد وهم،
مجرد ظل، مجرد خيال،
وأعظم خير فيها ضئيل؛
فالحياة كلها حلم،
والأحلام هي مجرد أحلام.

«هذا كذب»، قالها بصوت عال وهو يضرب بقبضته طاولة مكتبه. الحياة لم تكن حلماً، فالأحلام كذبة واهنة، خديعة عابرة تتفح فقط للهرب المؤقت من الإحباط والوحدة، ومن أجل تقدير أفضل، بغم أشد ألماً، للجمال والجوهر الذي كانت عليهما الحياة الحقيقية، الحياة التي تؤكل وتلمس وتُشرب، هي أرقى بكثير وأشد اكتمالاً بالمقارنة مع التصنع الذي تلتسمه الرغبات والمخيلة. ومتقلاً بالغم — كان النهار قد طلع، وبدأ ضوء الفجر يكشف جروف الساحل الرمادية، والبحر الرصاصي، والغيوم المكرشة، والقرميد المخرب والرصيف الأجنم — تشبث بجسد لوكريثيا-روساورا العاري بيأس، ليستغل هذه الثواني الأخيرة، في السعي إلى متعة مستحيلة، يورقه الهاجس المضحك بأنه في أي لحظة، ربما في لحظة الذروة، سيشعر بيدي الخلاسية المفاجئتين تحطان على أذنيه.

الرقطاء وحيّة الماء

وأنا أفكر فيك قرأتُ *المتزوجة الفاضلة* لفراي لويس دي ليون، وفهمت لماذا فضل ذلك الشاعر المرهف، في فكرة الزواج التي بشر بها، الزهد ومسوح أتباع القديس أغوستين، على المخدع الزفافي. ومع ذلك، وفي تلك الصفحات من النثر الجميل المكتظة بسخریات غير إرادية، وجدت هذا المقطع لغبطة القديس باسيليوس الذي ينطبق مثلما ينطبق قفاز على اليد، احزري أي يد عاجية لامرأة استثنائية، وزوجة نموذجية وحببية مشتهاة؟:

الحية الرقطاء هي حيوان شرس بين الثعابين، تمضي مسرعة للزواج من الحية البحرية؛ تصل، تصفر، وكأنها تعطي إشارة لوجودها هناك، لكي تجتذبها بهذه الطريقة من البحر وتتعانق معها عناقاً زوجياً. وتتصاع حية البحر، وتلتقي مع تلك الضارية السامة دون خوف. ماذا أقول في هذا؟ ماذا؟ أقول إنه مهما كان الزوج فظاً وشرس الطباع لا بد للمرأة أن تتحمله، وألا تسمح لأي فرصة بأن تقوض الوئام بينهما. آه! أهو جلد؟ ولكنه زوجك! أهو سكير؟ ولكن رابطة الزواج وحدته بك. أهو فظ، خشن! ولكنه صار عضواً منك، وعضواً أساسياً كذلك. ولأن الزوج يسمع ما يناسبه أيضاً: فإن الرقطاء، آخذة بعين الاحترام الجماع الذي تمارسه، تبعد عن حية البحر سمها، وأنت، ألن تتركي جفاء طبعك غير الإنساني، في سبيل تشريف زواجك؟ هذا من باسيليوس».

فراي لويس دي ليون، *الزوجة الفاضلة*، الفصل الثالث.

تعانقي عناقاً زوجياً مع هذه الرقطاء، يا حية البحر الحبيبة.



خاتمة

أسرة سعيدة

— على الرغم من كل شيء، لم تكن النزهة كارثية تماماً —
قال دون ريغوبيرتو ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة — لقد أفادتنا
في تعلم درس جديد: في البيت نكون خيراً من أي مكان آخر،
وخيراً من الذهاب إلى الريف على وجه الخصوص.

احتفلات دونيا لوكريثيا وفوننشيتو بالفكرة، وحتى خوستينيانا
انفجرت في الضحك أيضاً حين دخلت في تلك اللحظة حاملة
سندويشات الفروج والبالتا مع البيض والبندورة المتبقية من غداء
النزهة الفاشلة.

وهنأته دونيا لوكريثيا:

— الآن أدركتُ ما يعنيه التفكير في الإيجابيات يا زوجي
العزيز. وما يعنيه اتخاذ موقف بناءً من المصائب.
وأكد فوننشيتو:

— مواجهة الوقت العصيب بوجه باسم. مرحى يا أبى.

— لا يمكن لأحد أو لشيء أن يطفئ سعادتي اليوم — قال
دون ريغوبيرتو وهو يتأمل السندويشات، ثم أضاف: — لن أقول
نزهة بائسة. ولا يمكن لقنبلة ذرية أن تؤثر بي. حسن، بصحتكم.

شرب رشفة من البيرة الباردة برضا ظاهر وقضم لقمة من
سندويش الفروج. كانت شمس تشاكالايو قد أحرقت جبهته، وكان
الاحمرار يغطي وجهه وذراعيه من أثر الشمس. وكان يبدو سعيداً
جداً بالفعل، ومستمتعاً بالغداء المرتجل. لقد خرجت منه، في الليلة
السابقة، فكرة النزهة إلى تشاكالايو في يوم الأحد هذا، للهرب
من ضباب ليما ورطوبتها والاستمتاع بالوقت في تماس مع

الطبيعة، على ضفاف النهر وضمن الأسرة. وقد استغربت دونيا لوكريثيا كثيراً هذا الاقتراح، فهي تتذكر الرعب المقدس الذي كان يوحى به إليه كل ما هو ريفي على الدوام، ولكنها وافقت على العرض ببهجة. ألا يكون رغباً في بدء شهر عسل جديد؟ وسيبدأ كذلك بإتباع عادات جديدة. وقد انطلقوا إلى النزهة صباح اليوم في الساعة الموعودة — التاسعة —، مزودين بمؤونة جيدة من المشروبات، وبغذاء كامل أعدته الطاهية، بما في ذلك منخاربلانكو مع فواكه، وهو الحلوى المفضلة لدى دون ريغوبيرتو.

وكان أول أمر سيئ صادفهم هو الطريق في مركز المدينة، فقد كانت مزدحمة جداً والتقدم فيها بطيء جداً، حين يكون التقدم ممكناً، ما بين شاحنات وحافلات من كل الأنواع، وسيارات مخلعة لم تكن تعرقل حركة المرور وتشلها في وقفات طويلة وحسب، وإنما تطلق كذلك دخاناً أسود ورائحة بنزين محروق تبعث على الدوار. وصلوا إلى تشاكالكايو بعد منتصف النهار، مستنفدين ومحققين.

وبدا العثور على مكان منعزل، إلى جانب النهر، أشد صعوبة مما تصوره. فقبل أن يتخذوا السبيل الذي يقربهم من ضفة ريماك — وهو يبدو هناك، على خلاف ما هو عليه في ليما، نهراً حقيقياً، عريضاً وغزير المياه، مزيناً بزبد وأمواج في الأماكن التي يصطدم فيها بالحجارة والصخور — كان عليهم أن يدوروا ويدوروا ليجدوا أنفسهم يرجعون إلى الطريق العام نفسه. وعندما اكتشفوا بفضل مساعدة أحد الجيران، مفترقاً قريبهم من الضفة، بدأت

الأمر تسوء بدلاً من أن تتحسن. فنهر ريماك في ذلك المكان يستخدم كمزبلة للمتزهين (ومكاناً للتبول والتغوط أيضاً) الذين ألقوا هناك كل أنواع الفضلات التي يمكن تخيلها — ابتداءً من الورق، والعلب والمرطبات الفارغة، وحتى بقايا الطعام والبراز والحيوانات الميتة —، فضلاً عن المشهد المقزز، كانت تتبعث من المكان رائحة نتانة لا تطاق. وكانت سحُب من الذباب العدوانية تجبرهم على إغلاق أفواههم بأيديهم. ولم يكن أي شيء من ذلك يتوافق مع حملة الاستكشاف التي تخيلها مسبقاً دون ريغوبيرتو. ولكنه تسلح مع ذلك بصبر لا يلين وبتقاؤل صليبي أدهش زوجته وابنه، وأقنع أسرته بعدم الرضوخ للخوف من الظروف العابرة، وواصلوا البحث عن مكان أفضل.

وعندما بدأ لهم بعد بعض الوقت بأنهم قد وصلوا إلى مكان أشد كراماً — أي أنه خال من الروائح النتنة والزبالة — وجدوا أن أعداداً من الجماعات الأسرية قد سبقتهم إلى احتلاله، وكان بعضهم تحت مظلات شاطئ، وهم يأكلون المعكرونة الملوحة بصلصات حمراء اللون، ويستمعون إلى موسيقا تروبيكالية صاخبة، من أجهزة المذياع أو آلات التسجيل المحمولة. والخطأ الذي اقترفوه حينئذ كان من مسؤولية دون ريغوبيرتو وحده، مع أن أكثر الرغبات شرعية هي التي أوحى به: فبحثاً عن أدنى حد من الخصوصية، والابتعاد قليلاً عن حشود آكلي المعكرونة الذين لا يمكنهم على ما يبدو أن يتصوروا إمكانية الخروج من المدينة لعدة ساعات دون أن يحملوا معهم هذا النتاج المدني الذي هو الضجيج. اعتقد دون ريغوبيرتو

أنه قد وجد الحل. فقد اقترح مثل فتى في الكشافة، أنه يمكنهم أن يخلعوا أحذيتهم ويشمروا بناطيلهم ويخوضوا قليلاً في النهر للوصول إلى ما يشبه جزيرة صغيرة جداً من الرمل والأحجار وبعض النباتات الملتفة، والمعجزة هي أن جموع منتزهي يوم الأحد لم تكن قد احتلتها. وكان هذا ما فعلوه. أو من الأصح القول، ما بدؤوا بعمله، محملين بأكياس الطعام والشراب التي أعدتها الطاهية من أجل هذا النزهة الريفية الصباحية. وبينما كان دون ريغوبيرتو على بعد خطوات قليلة من الجزيرة — وكان الماء لا يصل إلا إلى ركبتيه، وقد اجتاز الطريق إلى هناك دون أي حوادث — انزلق بصورة مفاجئة. ووقع جالساً في مياه نهر ريماك الباردة، وهو أمر ما كان سيثير كثيراً من الأهمية، نظراً لشدة الحر ولكثرة ما كان قد تغرق، لو لم تغرق في الوقت نفسه سلة النزهة، ومن أجل إضفاء لمسة سخرية على الحادث، وقبل أن تبدأ السلة بالاستقرار فوق صفحة الماء، كان قد تبعثر كل ما فيها، وانتشر ذات اليمين وذات اليسار مع المياه التي تجرها باتجاه ليما والمحيط الهادي: السمك المطبوخ مع الثوم، والرز بالبط، ومقالي المنخاربلانكو، وكذلك الشرشف والقوط ذات المربعات الحمراء والبيضاء التي اختارتها دونيا لوكريثيا للنزهة.

— اضحكا كما تشاءان، لا تكبجا رغبتكما في الضحك، فلن أغضب. — كان دون ريغوبيرتو يقول لزوجته وابنه اللذين كانا يساعداه على النهوض وهما يحتالان في إخفاء ضحكهما ويحاولان خنق قهقهاتهما. وكان الناس الذين على الشاطئ يضحكون

أيضاً وهم يرونه مبلاً من رأسه حتى قدميه.
واستعد دون ريغوبيرتو للبطولة (أهي المرة الأولى في حياته؟) مقترحاً الإصرار على البقاء، متعللاً بأن شمس تشا كلاكيو ستجفّفه في لحظات. ولكن دونيا لوكريثيا كانت حازمة. هذا غير ممكن، فقد يصاب بنزلة رئوية، ولا بد لهم من العودة إلى ليما. وكان هذا ما فعلوه، مهزومين، ولكن دون أن يستسلموا لليأس. وكانوا يضحكون بحمّة من دون ريغوبيرتو الذي خلع بنطاله وراح يقود السيارة وهو بسرّوالة الداخلي. وصلوا إلى البيت في بارانكو قرابة الساعة الخامسة مساءً. وبينما كان دون ريغوبيرتو يستحم ويبدل ملابسه قامت دون لوكريثيا، تساعدها خوستينيانا التي رجعت للتو من جولتها في نهاية كل أسبوع — كبير الخدم والطاهية لا يرجعان حتى الليل — بإعداد سندويشات لحم دجاج والبالتا مع البندورة والبيض لهذا الغداء المتأخر والوعر.

— مذ تصالحت مع خالتي أصبحت طيباً يا بابا.

أبعد دون ريغوبيرتو رأسه عن السندويش الذي كان قد أكل نصفه. وفكر بترّو.

— أتقول هذا بجد؟

— بكل جد. رد عليه الطفل، ثم التفت إلى دونيا لوكريثيا:

— أليس صحيحاً يا خالتي؟ منذ يومين وهو لا يتذمر ولا يشكو من شيء، إنه طيب المزاج ويقول أشياء لطيفة طوال الوقت. أليست هذه هي الطيبة؟

— لقد تصالحتنا منذ يومين فقط — ضحكت دونيا لوكريثيا.

ولكنها استعادت الوقار فوراً ونظرت بعذوبة إلى زوجها، وأضافت:
— الواقع أنه كان طيباً جداً على الدوام. لقد تأخرت قليلاً في
معرفة ذلك يا فونتشيتو.

وجاء رد فعل دون ريغوبيرتو أخيراً متخذاً هيئة مفرطة في
التأمل والتروي:

— لست أدري إذا ما كان يعجبني القول إنني طيب. فكل
الأشخاص الطيبين الذين عرفتهم كانوا على قدر من البلاهة. كما لو
أنهم صاروا طيبين بسبب افتقارهم إلى المخيلة والشهية. ولكي أشعر
أنني على ما يرام، آمل ألا أكون قد ازددت بلاهة عما أنا عليه.

فقرّبت السيدة لوكريثيا وجهها من زوجها وقبلت جبهته:

— لا مجال للخوف. فأنت كل شيء في الدنيا إلا هذا.

كانت جميلة جداً بخديها اللذين لوحتهما شمس تشاكالكايو،
وبكتفيتها وذراعيها المكشوفة بهذا الفستان القطني الخفيف المزين
بأزهار الذي يمنحها مظهراً طازجاً وصحياً. «كم هي جميلة، وكم
هي فنية»، فكر دون ريغوبيرتو متلذذاً بعنق زوجته الطويل وبلطف
انحناءة إحدى أذنيها التي تلتف عليها خصلة من شعرها المربوط
عند رقبتها بشريط أصفر له لون خفّ النزهة نفسه. لقد مرت إحدى
عشرة سنة وها هي أكثر جمالاً وجاذبية مما كانت عليه يوم تعرف
عليها. وأين تنعكس هذه الصحة وهذا الجمال الجسدي اللذان يتحديان
الزمن؟ وأجاب: «في العينين». في هاتين العينين اللتين يتبدل
لونهما من البني الشاحب إلى الأخضر القاتم، إلى أسود فاتح. والآن
تبدوان فاتحتين جداً تحت الرموش الطويلة القاتمة المنتعشة بنور

بهيج يكاد يطلق الشرر. زوجته الغافلة عن التأمل الذي هي هدف له، كانت تأكل بشهية السندويش الثاني من البالتا مع البندورة والبيض، وتشرب بين لحظة وأخرى رشقات بيرة باردة ترطب شفثيتها. أهذا الشعور الذي يكتنفه هو السعادة؟ هذا التقدير والامتنان والرغبة التي يشعر بها تجاه لوكريثيا؟ أجل، وتمنى دون ريغوبيرتو بكل قواه أن تنقضي طيراناً الساعات المتبقية للغروب. سيكونان وحدهما مرة أخرى وسيحتضن بين ذراعيه أخيراً، هنا، امرأته المعبودة بلحمها وعظمها.

— الشيء الذي أشعر أحياناً أنني لا أشبه فيه إيغون شيلي هو أنه كان يحب الريف كثيراً بينما أنا لا أحبه على الإطلاق — قال فوننتشيتو وهو يتابع بصوت عال فكرة كان قد بدأها بصمت منذ بعض الوقت —. في هذا الأمر خرجتُ مشابهاً لك يا بابا. فأنا لا أحب مطلقاً رؤية الأشجار والأبقار. وفسف دون ريغوبيرتو الأمر:

— لهذا أخفقت نزهتنا تماماً. إنه انتقام الطبيعة من اثنين من أعدائها. وما هذا الذي تقول عن إيغون شيلي؟ فأوضح فوننتشيتو:

— أقول إن الشيء الذي لا أشبهه فيه هو مسألة الريف، فقد كان مغرماً بالريف وأنا لست كذلك. لقد دفع غالباً ثمن حبه للطبيعة. فقد سجنوه وأبقوه شهراً في السجن، حيث كاد أن يصاب بالجنون. لو أنه بقي في فيينا لما جرى له ذلك مطلقاً. فوجئ دون ريغوبيرتو:

— كم أنت حسن الإطلاع على حياة إيغون شيلي يا فونتشيتو.
فقاطعته دونيا لوكريثيا:

— لا يمكنك أن تتصور إلى أي حد. إنه يعرف عن ظهر قلب كل ما فعله وقاله وما جرى له في سنوات عمره الثماني والعشرين. يعرف كل لوحاته ورسومه وأعمال حفره بأسمائها وتواريخها. بل إنه يظن نفسه كذلك إيغون شيلي مجسداً. إنه يخيفني، أقسم لك.

لم يضحك دون ريغوبيرتو. هز رأسه موافقاً وهو يتمعن في هذه المعلومات باهتمام كبير، ولكنه كان يخفي في الحقيقة الظهور المفاجئ لدودة الشك في وعيه، للفضول السخيف، هذه الأم لكل الرذائل. كيف عرفت لوكريثيا أن فونتشيتو يعرف كل هذه الأشياء عن إيغون شيلي؟ وفكر: «شيلي! تتويع خبيث على الانطباعية يدعوه أوسكار كوكوشكا، بحق، الرسام البورنوغرافي.» واكتشف أنه ممسوس بحقد أحشائي، حامض، صفراوي تجاه إيغون شيلي. لتكن مباركة الأنفلونزا الإسبانية التي أجهزت عليه. من أين علمت لوكريثيا أن فونتشيتو يظن نفسه ذلك المخربش الذي أجهضته آخر أيام الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية التي أجهزت عليها أيضاً المصيدة في ساعة سعد؟ والأسوأ أن دونيا لوكريثيا لم تكن تعي أنها تُغرق نفسها في مياه الوشاية الذاتية النتنة، وواصلت تعذيبه:

— أحب أن نناقش هذا الموضوع يا ريغوبيرتو. منذ زمن وأنا أريد التحدث معك في الأمر، حتى إنني فكرت بالكتابة إليك. إنني

قلقة جداً من هوس هذا الطفل بذلك الرسام. أجل، يا فونتشييتو. لماذا لا نناقش الأمر نحن الثلاثة؟ ومن هناك أفضل من أبيك لإرشادك؟ لقد قلت لك ذلك عدة مرات. ليس لأنني أنظر بعين غير راضية إلى تعلقك بإيغون شيلي. ولكن الأمر تحول إلى هوس لديك. لا يضايقك أن نتبادل الآراء فيما بيننا نحن الثلاثة، أليس كذلك؟

— أظن أن أبي ليس على ما يرام يا خالتي — اكتفى فونتشييتو بقول ذلك بسذاجة اعتبرها دون ريغوبيرتو إهانة إضافية. — رباه، كم أنت شاحب! ألا ترى؟ لقد قلت لك إن ذلك البلل في النهر قد ألحق بك الأذى.

فطمأن دون ريغوبيرتو زوجته بصوت مبهم:

— لا شيء يستحق الذكر، لا شيء. تناولتُ لقمة كبيرة وشرقت بها. أظنها عظيمة. لقد انقضى الأمر، فقد بلعتها. إنني على ما يرام، لا تقلقي.

ذعرت دونيا لوكريثيا:

— ولكنك ترتجف. لقد أصبتَ بالزكام بالطبع. الآن فوراً سنتناول شراب أعشاب دافئ مع قرصي أسبرين. أنا سأعده لك. لا، لا تعترض. ثم إلى السرير، دون كلمة واحدة.

حتى كلمة السرير نفسها لم ترفع قليلاً من معنويات دون ريغوبيرتو الذي انتقل خلال لحظات قليلة من السعادة والحماسة الحيوية إلى قنوط مضطرب. رأى دونيا لوكريثيا تبتعد مسرعة باتجاه المطبخ. ولأن نظرات فونتشييتو الشفافة كانت تسبب له اضطراباً، فقد قال لكي يكسر الصمت:

— هل أُدخل شيلي السجن بسبب ذهابه إلى الريف؟
أطلق الطفل ضحكة:

— ليس بسبب ذهابه إلى الريف، مثلما خطر لك. لقد اتهموه بسوء الأخلاق والإغواء. في قرية صغيرة تدعى نيولينغباخ. وما كان ليحدث له ذلك على الإطلاق لو أنه بقي في فيينا.
— آه، هكذا إذن؟ أرو لي عن ذلك — دعاه دون ريغوبيرتو إلى الحديث وهو يعي أنه يريد كسب الوقت، ولكن دون أن يعرف لماذا يريد ذلك. فبدلاً من التألق المجيد والمشمس في هذين اليومين، تبدلت حالته المعنوية في هذه اللحظة إلى فاجعة مع وابل من المطر والبروق والرعود. ولجأ إلى وسيلة كانت قد أظهرت جدواها في مرات سابقة، فحاول تهدئة نفسه بأن يعد ذهنياً بعض الشخصيات المثولوجية. سيكلوبات، حوريات، مرده، نساء داهيات، كاليسوات. وبقي مستغرقاً في ذلك.

حدث في ربيع 1912؛ وبالتحديد في شهر نيسان — كان الطفل يشرح له بتشوق — أن إيغون شيلي وعشيقته فالي (وهذا مجرد لقب، أما اسمها الحقيقي فهو فاليريا نيزيل) كانا في الريف، في بيت خارج تلك القرية التي يصعب نطق اسمها: نيولينغباخ. وكان من عادة إيغون أن يرسم في الهواء الطلق خارج البيت، منتهزاً فرصة الطقس الجيد. وفي مساء أحد الأيام، جاءت صبية راغبة في تبادل الحديث. وقد تحدثا معها ولم يحدث أي شيء. ثم رجعت البنبت عدة مرات. إلى أن حدث في إحدى الليالي العاصفة أن جاءت مبللة وأخبرت فالي وإيغون بأنها قد هربت من بيت

أبويها. حاولا إقناعها بأنها قد أساءت التصرف، وبأن تعود إلى البيت، وأصرت هي، لا، لا، دعاني على الأقل أقضي هذه الليلة معكما. وافقا. نامت البننت مع فالي؛ ونام إيغون شيلي في غرفة منفصلة. وفي اليوم التالي... ولكن عودة دونيا لوكريثيا وهي تحمل بين يديها شراباً يتصاعد منه البخار وقرصي أسبرين، قطع حكاية فونتشييتو التي كان دون ريغوبيرتو لا يكاد يسمعها. دللته دونيا لوكريثيا:

— اشربه كله وهو ساخن هكذا. مع قرصي الأسبرين. وبعد ذلك إلى السرير مثل الأطفال الطيبين. لا أريدك أن تصاب بالزكام يا عجوزي.

أحس دون ريغوبيرتو — وكان أنفه الضخم يتنشق عبير الأعشاب الجنائني — أن شفتي زوجته تحطان على شعر رأسه الخفيف.

وقال فونتشييتو موضحاً:

— إنني أروي له قصة سجن إيغون يا خالتي. لقد رويتها لك مرات كثيرة حتى إنك ستملين من سماعها مرة أخرى. فشجعتة هي:

— لا، لا، ولا بأي حال، تابع فقط. مع أنني أعرفها بالفعل عن ظهر قلب.

وأقلت من بين أسنان دون ريغوبيرتو السؤال بينما هو ينفخ على شراب الأعشاب:

— متى رويت هذه القصة لخالتك؟ إذا كانت قد رجعت إلى

البيت منذ يومين فقط، وقد احتكرتها أنا فيهما ليلاً ونهاراً.

فرد الطفل بصراحته البلورية المعتادة:

— عندما كنت أذهب لزيارتها في بيتها في بستان

الزيتون. ألم تخبرك بذلك؟

أحس دون ريغوبيرتو بأن هواء غرفة الطعام قد تكهرب. ولكي لا يضطر إلى الكلام أو النظر إلى زوجته شرب رشفة بطولية من شراب الأعشاب الساخن الذي أحرق حلقه ومريه. واستقر الجحيم في أحشائه.

— لم يُتَح لي الوقت بعد — سمع زوجته تغغم بذلك. نظر إليها — أي، أي — كانت شاحبة. ثم أضافت: — ولكنني سأخبره بالطبع. وهل في هذه الزيارات أي سوء؟

وأكد دون ريغوبيرتو وهو يرشف جرعة أخرى من الجحيم

السائل والمعطر:

— أي سوء في ذلك. يبدو لي جيداً أنك كنت تذهب إلى خالتك وتنتقل لها أخباري. وماذا عن قصة شيلي وعشيقته هذه؟ لقد وصلت إلى نصفها وأنا أريد أن أعرف كيف ستنتهي.

وابتهج فوننشيتو:

— أيمكنني أن أوصل القصة؟

كان دون ريغوبيرتو يحس بأن حنجرته قد تحولت إلى قرحة خالصة، ويدرك أن قلب زوجته الصامتة والمتحجرة إلى جانبه قد جمح مثل قلبه.

حسن إذن... في اليوم التالي، أخذ إيغون وفالي البنت في

القطار إلى فيينا، حيث تعيش جدتها. وكانت قد وعدتهما بالبقاء مع تلك السيدة. ولكنها حين صارت في المدينة ندمت، وأمضت تلك الليلة مع فالي في الفندق. وفي صباح اليوم التالي رجع إيغون وعشيقته ومعهما البنت إلى نيولينغباخ، حيث بقيت البنت معهما يومين آخرين. وفي اليوم الثالث جاء أبوها. وواجه إيغون في الخارج حيث كان يرسم. وحذره وهو هائج جداً من أنه قد شكاه إلى الشرطة متهماً إياه بالإغواء، ذلك أن ابنته كانت قاصراً. وبينما كان شيلي يحاول تهدئته، موضحاً له أنه لم يحدث أي شيء، انتهت البنت التي كانت في داخل البيت إلى وجود أביها، فتناولت مقصاً وحاولت أن تقطع أوردتها. ولكن فالي وإيغون والأب تمكنوا من منعها، ومساعدتها. ثم تبادلت هي وذلك السيد التوضيحات وتصالحا. وانصرفا بعد ذلك معاً وظن إيغون وشيلي بأن كل شيء قد انتهى. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالطبع. فبعد بضعة أيام جاءت الشرطة لاعتقاله.

أكانا يستمعان إلى قصته؟ في الظاهر، نعم. فقد كان دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا جامدين وكأنهما قد فقدتا ليس القدرة على الحركة وحسب، وإنما على التنفس أيضاً. كانت عيونهما مسمرة على الطفل، ولم يرمش أي منهما طوال القصة التي كان يرويها دون تملل، مع وقفات وتفخيمات راو جيد. ولكن، ماذا عن شحوب لوكريثيا؟ وماذا عن هذه النظرة المركزة والمستغرقة؟ أتؤثر فيهما إلى هذا الحد القصة الطريفة القديمة عن هذا الرسام البعيد؟ كانت هذه هي التساؤلات التي ظن دون ريغوبيرتو أنه يقرأها في عيني

فونتشيتو الواسعتين الحيويتين اللتين كان يتأملهما بهما الآن، منقلاً نظره من أحدهما إلى الآخر بهدوء، وكأنه ينتظر تعليقاً. أضحك عليهما؟ أضحك عليه؟ حدق دون ريغوبيرتو بعيني ابنه الصافيتين اللامعتين باحثاً عن بريق خبث، عن تلك الغمزة أو الانعكاس اللامع الذي يكشف ميكافيليته، استراتيجيته، ازدواجيته. ولكنه لم يكتشف شيئاً: بل النظرة الصحية، النقية، النظيفة للضمير البريء وحدها.

— هل أتابع أم أنك مللت يا بابا؟

أنكر الملل بحركة من رأسه باذلاً مجهوداً كبيراً — كانت حنجرته جافة وخشنة مثل ورقة سفرة — ودمدم: «وماذا جرى له في السجن؟».

احتجروه أربعة وعشرين يوماً وراء القضبان، بتهمة الإخلال بالأخلاق والإغواء. الإغواء بسبب حادثة البنت، والإخلال بالأخلاق بسبب بعض اللوحات والرسوم العارية التي وجدتها الشرطة في بيته. وبما أنه ثبت أنه لم يمس البنت، فقد بُرئ من التهمة الأولى. ولكنه لم يُبرأ من تهمة الإخلال بالأخلاق. فقد رأى القاضي أن شيلي يستحق العقاب، لأن هناك أطفالاً وطفلات قاصرين يزورون بيته ويرون الرسوم العارية. وما هو العقاب؟ إحراق أشد لوحاته منافاة للحشمة.

لقد عانى في السجن ما لا يمكن وصفه. ففي الصور الذاتية التي رسمها وهو في السجن، يبدو شديد النحول، وبذقن نامية، وعينين غائرتين، وملامح جثة. وكان لديه دفتر مذكرات كتب فيه: «انتظر، انتظر، إنني أحفظ العبارة التي كتبها عن ظهر قلب»:

«أنا، الذي كنت بطبيعتي من أكثر الكائنات حرية، أجد نفسي مقيداً بقانون ليس هو قانون الجماهير». رسم ثلاث عشرة لوحة مائية وكان هذا هو ما أنقذه من الجنون أو الانتحار. وكانت تلك اللوحات تمثل: سرير السجن، البوابة، النافذة، وتفاحة مضيئة، واحدة من تلك التفاحات التي كانت تحملها إليه فالي كل يوم. وقد كانت تذهب كل صباح لتقف في مكان استراتيجي في محيط السجن، حيث يتمكن إيغون من رؤيتها من خلال قضبان زنزانته. لأن فالي كانت تحبه كثيراً وقد كان سلوكها رائعاً معه، وقدمت له كل دعمها خلال ذلك الشهر الرهيب. أما هو فلم يكن يحبها كثيراً على ما يبدو. لقد كان يرسمها، أجل؛ ويستخدمها مودياً، أجل؛ ولكن ليس هي وحدها، بل كثيرات أخريات، وخصوصاً كل أولئك الطفلات اللواتي كان يلتقطهن من الشوارع، ويضعهن هناك، شبه عاريات ليرسمهن في كل الأوضاع التي يمكن تخيلها، وهو فوق السلم. لقد كانت الطفلات والأطفال هوساً بالنسبة إليه. كان يموت عليهم، حسن، يبدو أن ذلك لم يكن من أجل رسمهم فقط، وإنما لأنهم كانوا يعجبونه حقاً، بالمعنى الطيب والمعنى الخبيث للكلمة. هذا ما يقوله كاتبو سيرته. فهو، فضلاً عن كونه فناناً، كان فاسداً بعض الشيء، لأنه كان يميل إلى الأطفال والطفلات...

— حسن، حسن، أظن أن حرارتي قد انخفضت قليلاً بالفعل — قاطعه دون ريغويرتو وهو ينهض واقفاً فجأة، مما أوقع الفوطة التي كانت على ساقيه إلى الأرض — من الأفضل أن أعمل بنصيحتك يا لوكريثيا وأنام. لا أريد أن أصاب بأحد هذه

الرشوحات الحصانية التي تأتيني.

تكلم دون أن ينظر إلى زوجته، وإنما كان ينظر إلى ابنه وحده الذي ما إن رآه ينهض واقفاً حتى صمت واتخذ وضعاً مذعوراً، وكأنه يتشوق إلى مدّ يد المساعدة إليه. ولم ينظر دون ريغوبيرتو كذلك إلى دونيا لوكرينثيا حين مرّ بجانبها متوجهاً إلى السلم، بالرغم من الفضول الذي كان ينهشه لمعرفة إذا ما كانت ما تزال شاحبة، أو على الأقل متوردة من السخط، من المفاجأة، من التردد، من الاضطراب، متسائلة مثله عما إذا كان هذا الذي قاله وفعله الصبي، يستجيب لآلية ما، أم أنه من عمل المصادفة الدساسة، العجيبة، المخيبة، والبائسة، المعادية للسعادة. انتبه إلى أنه يجرجر قدميه مثل عجوز محطم فاعتدل منتصباً. صعد الدرج بإيقاع حيوي، وكأنه يريد أن يثبت (لمن؟) أنه ما يزال رجلاً مفعماً بالنشاط وبكامل قوته. خلع حذاءه فقط، واستلقى على السرير وأغمض عينيه. كان جسده يتوقد محموماً. رأى سيمفونية نقاط زرقاء في عتمة أجهانه وخيل إليه أنه يسمع أزيز الزنابير الحربي الذي سمعه هذا الصباح في أثناء النزهة المحبطة. وبعد قليل استغرق في النوم وكأنه تحت تأثير منوم قوي. أم أنه غاب عن الوعي مغمى عليه؟ حلم بأنه مصاب بالتهاب الغدة النكافية وأن فوننشيتو، طفل بصوت شيخوخي ومظهر طبيب مختص، يحذره: «اعتن بنفسك يا أبتاه! إنه فيروس متسرب، وإذا ما نزل إلى الخصيتين فسيحولهما إلى ما يشبه طابتي تنس، وسيضطرون إلى بترهما لك. مثلما يقلعون أضرار العقل الأخيرة!». استيقظ لاهثاً، ومبللاً بالعرق — كانت

دونيا لوكريثيا قد أَلقت عليه دثاراً — وانتبه إلى أن الليل قد حلَّ.
كان الظلام مخيماً، ولم تكن هناك نجوم في السماء، وكان الضباب
يطغى على أنوار كورنيش ميرافلوريس. فُتِح باب الحمام، ووسط
دفقة النور التي دخلت إلى الحجرة المظلمة، ظهرت دونيا لوكريثيا
بروبها، مستعدة للنوم.

سألها دون ريغوبيرتو مغموماً:

— أهو خبيث؟ أيدرك ما يفعله وما يقوله؟ أيفعل ما يفعله عن
معرفة وتقدير للعواقب؟ أم أنه ليس كذلك؟ ماذا يكون، أهو مجرد
طفل شقي تؤدي شقاوته إلى نتائج مريعة، دون أن يكون راغباً
في ذلك؟

تهاوت زوجته عند قدمي السرير وقالت وهي تنتهد بحزن:

— إنني أسأل نفسي هذا السؤال كل يوم، مرات عديدة كل
يوم. أظن أنه هو نفسه لا يعرف أيضاً. أتشعر بالتحسن؟ لقد نمت
قراءة ساعتين. لقد أعددتُ لك ليمونادة دافئة، إنها في الترمس. هل
أسكب لك كأساً؟ وبالمناسبة. لم أفكر مطلقاً في أن أخفي عنك أن
فوننتشيتو كان يزورني في بستان الزيتون. لقد كان الوقت يفلت
مني في هذين اليومين المفعمين بالأعمال.

فعاجلها دون ريغوبيرتو محركاً يديه:

— بالطبع. فلنترك التحدث في هذا الأمر، أرجوك.

نهض واقفاً ودمدم: «إنها المرة الأولى التي أنام فيها قبل
موعد النوم»، وذهب إلى مشجب ملابسه. تعرى، ودخل بالروب
والخف إلى الحمام للقيام باغتساله الدقيق قبل النوم. كان يشعر بالغم،

والنشوش، مع أزيز في رأسه يبدو أنه نذير زكام شديد. راح يملأ حوض الحمام بماء فاتر ونثر فيه نصف علبة من الأملاح. وبينما الحوض يمتلئ، نظف أسنانه بخيط الأسنان، ثم تمضمض وانترع بملقط صغير الشعيرات الجديدة على أذنيه. كم من الوقت مضى مذ تحلى عن عاداته في تكريس يوم من كل أسبوع للنظافة المتخصصة لأحد أعضائه، فضلاً عن الحمام اليومي؟ منذ انفصاله عن لوكريثيا. منذ سنة تقريباً. سيعيد إقرار ذلك الروتين الأسبوعي الصحي: الاثنيين للأذنين، الثلاثاء للأنف، الأربعاء للقدمين، الخميس لليدين، الجمعة للجم والاسنان. إلى آخره. حين غطس في الحوض أحس بأنه أقل قنوطاً. وحاول أن يتكهن إذا ما كانت لوكريثيا قد اندست تحت ملءات السرير، وأي قميص نوم ترتدي، أتكون عارية؟ واستطاع أن يبعد من ذهنه للحظة حضور المشهد المتسلط: بيت بستان الزيتون في سان إيسيدرو، وصورة طفولية تقف عند الباب، وإصبع صغير يقرع الجرس. يجب اتخاذ قرار حاسم بشأن الطفل. ولكن، أي قرار؟ فكل القرارات تبدو خرقاء ومستحيلة. عندما خرج من حوض الاستحمام، جفف جسده، وفركه ببولونيا من محلات فلورز، من لندن، حيث يوجد له زميل وصديق في شركة لويدز، يرسل إليه بانتظام صابوناً ومعاجين حلاقة ومزيلات عرق ومساحيق وعلطوراً. ثم ارتدى بيجاما نظيفة من الحرير وترك الروب معلقاً على المشجب.

كانت دونيا لوكريثيا في السرير. وكانت قد أطفأت أنوار الغرفة باستثناء ضوء الكوميدينو. وفي الخارج، كان البحر يتكسر بقوة

مصطدماً بهلوية بارانكو والريح تطلق زفرات كئيبة. أحس بقلبه ينبض بقوة بينما هو ينزلق تحت الملاءات، إلى جانب زوجته. رائحة ناعمة لأعشاب طازجة، وأزهار ندية، رائحة ربيعية، تسللت إلى أنفه ووصلت إلى دماغه. في حالة أشبه بتسامي التصلب الذي كان فيه، كان بإمكانه أن يشعر بوجود فخذ زوجته على بعد ميليمترات من ساقه اليسرى. وعلى الضوء الخافت غير المباشر رأى أنها ترتدي قميص نوم وردي اللون من الحرير مثبتاً على الكتفين بشريطين رفيعين، مع حاشية من الدنتلا يظهر من خلالها نهدها. زفر متحولاً. فالرغبة المندفعة المتحررة ملأت الآن جسده وراحت تطفح من مساماته. وأحس بأنه يغمى عليه ويسكر منتشياً بعطر زوجته.

وفي أثناء ذلك، مدت لوكريثيا التي كانت تحس به، يدها وأطفأت ضوء المصباح، ثم التفتت بالحركة نفسها وعانقتة. أفنت منه أنه حين أحس بجسد لوكريثيا، واحتضنه بلهفة، وشدّ عليه وهو يطوقه بذراعيه وساقيه. وراح يقبلها من عنقها وشعرها في الوقت نفسه وهو يهمس لها بكلمات الحب. ولكنه عندما بدأ يتعري ويجرد امرأته من قميص نومها، همست دونيا لوكريثيا في أذنه جملة كان لها مفعول دش بارد:

— جاء لزيارتي قبل ستة شهور. ظهر فجأة في مساء أحد الأيام في بيت بستان الزيتون. ومنذ ذلك الحين صار يزورني دون توقف، لدى خروجه من المدرسة، متخلفاً عن الذهاب إلى معهد الرسم. ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع. كان يتناول الشاي معي،

ويبقى ساعة أو اثنتين. لست أدري لماذا لم أخبرك بذلك أمس، أو أول أمس. كنت سأفعل ذلك. أقسم لك أنني كنت سأفعل.

— بالطبع يا لوكريثيا — قال دون ريغوبيرتو متضرعاً —
لست مضطرة لأن تروي لي أي شيء. بحق أعز ما تحبين. فأنا
أحبك.

— أريد أن أخبرك. الآن، الآن.

كانت ما تزال تحتضنه، وعندما بحث زوجها عن فمها، فتحت
فمه وقبلته أيضاً، بشراهة. ساعدته على خلع البيجاما وعلى
تخليصها من قميص النوم. ولكن، بعد ذلك، وبينما هو يداعبها بيديه،
ويمر بشفتيه على شعرها، على أذنيها، على خديها ورقبتها، واصلت
التكلم:

— لم أنم معه.

— لا أريد أن أعرف شيئاً يا حبي. هل علينا أن نتكلم في

هذا الآن؟

— أجل، الآن. لم أضاجعه، ولكن، انتظر. ليس ذلك لمزية
في، بل لخطأ منه. لو أنه طلب مني ذلك، لو أنه أوحى إلي بأدنى
إشارة لكنت ضاجعته. بألف حب يا ريغوبيرتو. كنت أبقى مريضة
في أمسيات كثيرة، لأنني لم أفعل ذلك. ألن تكرهني؟ يجب أن
أخبرك بالحقيقة.

— أنا لن أكرهك أبداً. أنا أحبك. حياتي، امرأتي الحبيبة.

ولكنها عادت تقاطعه باعتراف آخر:

— والحقيقة أنه إذا لم يخرج من هذا البيت، إذا ما واصل العيش

معنا، فسيتجدد حدوث ذلك. إنني آسفة يا ريغوبيرتو. من الأفضل أن تعرف الأمر. لا دفاع لدي حيال هذا الطفل. لا أريد حدوث ذلك، لا أريد أن أسبب لك الألم، مثلما جرى في المرة السابقة. أعرف أنك تألمت يا حبي. ولكن، لماذا سأكذب عليك. لديه سلطات، لديه شيء لا أري ما هو. إذا ما خطر لذهنه ذلك مرة أخرى، فسأفعل. لا قدرة لدي على منعه. حتى ولو دُمر زواجنا في هذه المرة إلى الأبد. آسفة، آسفة، ولكنها الحقيقة يا ريغوبيرتو. إنها الحقيقة القاسية.

انفجرت زوجته بالبكاء. وتلاشت آخر بقايا التهيج لديه. فاحتضنها بوله، ودمدم وهو يداعبها:

— كل ما تقولينه أعرفه جيداً. ما الذي يمكنني عمله؟ أليس ابني؟ إلى أين يمكنني أن أرسله؟ إلى من؟ إنه ما يزال صغيراً. أوتظنين أنني لم أفكر كثيراً بهذا؟ عندما يكبر، بالطبع. حين ينهي المدرسة على الأقل. ألا يقول إنه يريد أن يصبح رساماً؟ حسن جداً إذن. فليذهب عندئذ لدراسة الفنون الجميلة. في الولايات المتحدة. في أوربا. فليذهب إلى فيينا، ألا تعجبه الانطباعية كثيراً؟ فليذهب إذن إلى الأكاديمية التي درس فيها شيلي، إلى المدينة التي عاش ومات فيها شيلي. ولكن، كيف يمكنني إخراجه من البيت الآن، وهو في هذه السن؟

التصقت دونيا لوكريثيا به، وقاطعت ساقيه بساقيه، وبحثت قدماها عن مسند فوق قدمي زوجها. وهمست:

— لا أريدك أن تخرجه من البيت. إنني مدركة تماماً أنه طفل. لم أتوصل مطلقاً إلى معرفة إذا ما كان يعرف مدى خطورته،

والكارثة التي يمكن له أن يتسبب بها، فهذا الجمال الذي هو عليه، وهذا الذكاء النزوي، شبه الفطيع. إنني أقول لك هذا فقط لأنه.. لأنه الحقيقة. إذا عشنا معه، سنكون دائماً في خطر يا ريغوبيرتو. وإذا كنت لا تريد أن يتكرر ما حدث، فراقبني، أغر عليّ، حاصرني. لست أريد مضاجعة أحد على الإطلاق. لا أحد سواك أنت يا زوجي الحبيب. إنني أحبك كثيراً يا ريغوبيرتو. أنت لا تدري كم افتقدتك، وكم اشتقت إليك.

— أعرف، أعرف يا حبي.

أمالها دون ريغوبيرتو، وجعلها تستلقي على ظهرها واعتلاها. ويبدو أن الشهوة كانت قد تغلبت كذلك على دونيا لوكريثيا — لم تعد ثمة دموع على خديها، وكان جسدها دافئاً، وتنفسها مضطرباً — وما كادت تحس به فوقها حتى فتحت ساقيهما، وسمحت له باختراقها. قبلها دون ريغوبيرتو طويلاً، وعميقاً، بعينين مغمضتين، مستغرقةً في استسلام شامل، وسعيداً من جديد. كانا منطبقين تماماً، جسداهما يلتصقان من القدمين إلى الرأس، يتبادلان عرقهما، يهتران ببطء، بإيقاعية، مطيلين لذتهما.

قال لها:

— الحقيقة أنك ضاجعت أشخاصاً كثيرين خلال هذه السنة.

— آه، صحيح؟ — خرخرت هي وكأنها تتكلم من بطنها، من

غدة سرية، وأضافت: كم عددهم؟ من هم؟ أين ضاجعتهم؟

— عشيق عالم حيوان، ضاجعتك بين القطط — «يا للقرف،

يا للقرف»، احتجت زوجته بوهن، وأضاف هو: — ومحب من

أيام الشباب، مهندس أخذك في رحلة إلى باريس وفينيسيا وكان يغني...

لهتت دونيا لوكريثيا متكلمة بصعوبة:

— إلي بالتفاصيل. كل التفاصيل، حتى أصغرها. ما الذي فعلته، ما الذي أكلته، ما الذي فعلوه بي.

— وكان على وشك أن يغتصبك متعفن الصدر فيتو ثيبويًا، وأن يغتصب كذلك خوستينيانا. أنت أنقذتها من هياج شبقه. وانتهى بك الأمر إلى ممارسة الحب معها، في هذا السرير بالذات.

— مع خوستينيانا؟ وفي هذا السرير بالذات؟ — أفلتت دونيا لوكريثيا ضحكة — يا للأمر كيف تجري. فبسبب فونتشيوتو كدت أن أمارس الحب مع خوستينيانا في مساء أحد الأيام، في بستان الزيتون. إنها المرة الوحيدة التي خدعك فيها جسدي يا ريغوبيرتو. أما مخيلتي بالمقابل، فمرات كثيرة. مثلما تفعل أنت بي.

— مخيلتي لم تخدعك قط. ولكن، أخبريني، أخبريني — سارع زوجها الاهتزاز والتأرجح.

— أنا سأخبرك فيما بعد، أكمل أنت أولاً. مع من أيضاً؟ وكيف، وأين؟

— مع أخ شقيق لي اخترعته، أخ كورسيكي في سهرة حمراء. ومع سائق دراجة نارية مخصي. وكنت أستاذة في القانون في فيرجينيا، وأفسدت أخلاق رجل قانون قديس. ومارست الحب من سفيرة الجزائر، في حمام بخار. وسببت قدماك الجنون لمهووس فرنسي من القرن الثامن عشر. وعشية مصالحتنا كنا معاً

في ماخور مكسيكي، مع خلاسية انتزعت إحدى إذني بعضة من أسنانها.

فاحتجت دونيا لوكريثيا:

— لا تضحكني أيها الأحق، ليس الآن. سأقتلك، سأقتلك، إذا ما أضحكنتي وقطعتني.
— أنا أيضاً بدأت أذهب. فلنذهب معاً، أحبك.

بعد لحظات من ذلك، وكانا قد استكانا، كان هو يدير ظهره، وهي تقبع إلى جانبه ورأسها على كتفه، جددا النقاش. وفي الخارج، فضلاً عن دوي البحر، كانت تمزق صمت الليل صرخات صاخبة تطلقها ققط في صراع أو تهيج تناسلي، وبين حين وآخر تُسمع أبواق سيارات أو زمجرة محركات.

— أنا أسعد رجل في العالم — قال دون ريغوبيرتو.

فاحتكت به بتواضع:

— وهل سيستمر ذلك؟ هل سنجعل السعادة دائمة؟

— لا يمكن لها أن تدوم — قال برقة —. كل سعادة هي لحظة عابرة. إنها استثناء، نقيض السائد. ولكن علينا أن نحياها بين حين وآخر، وألا نسمح لها بالانطفاء. يجب أن ننفخ وننفخ على الشعلة.

وهتفت دونيا لوكريثيا:

— سأبدأ بتدريباتي منذ الآن. سأجعلهما مثل كير. وعندما تبدأ بالانطفاء، سأطلق عليها نفخة تؤججها، تلهبها. فُ ففففوووو! فُ ففففوووو!

بقيا صامتين، متعاقبين. وظن دون ريغوبيرتو، بسبب سكون زوجته، أنها قد نامت. ولكن عينيها كانتا مفتوحتين.

قالت له في أذنه:

— لقد كنت أعرف طوال الوقت أننا سنتصلح. كنت أريد ذلك، أبحث عنه منذ شهور. ولكنني لم أكن أعرف كيف أبدأ. وفي أثناء ذلك، بدأت تصلني رسائلك. لقد قرأت أفكاري يا حبي. أنت أفضل مني.

تصلب جسد زوجته، ولكنه عاد يسترخي على الفور.

وواصل هو:

— إنها فكرة عبقرية، فكرة الرسائل هذه. أعني الرسائل المغفلة. إنها كرمبولا باروكية، استراتيجية متأقنة. أن تبتدعي فكرة أنني قد أرسلت لك رسائل مغفلة لكي تجدي الذريعة وتكتبي لي. إنك تفاجئيني دوماً يا لوكريثيا. ظننت أنني أعرفك، ولكن لا. فأنا لم أتصور مطلقاً بأن رأسك سيبدع مثل هذه الألعاب، هذه التشابكات. يا للنتيجة الطيبة التي أوصلتنا إليها تلك الرسائل، أليس كذلك؟ إنها ساعة مباركة بالنسبة إلي.

ساد صمت آخر، عدّ خلاله دون ريغوبيرتو نبضات قلب زوجته، التي كانت تطفر وتختلط أحياناً بنبضات قلبه.

— أرغب في أن نقوم برحلة — قال بشروء بعد قليل، وهو يشعر بأن النعاس قد بدأ يغلبه — أن نذهب إلى مكان بعيد، وغريب تماماً. حيث لا نعرف أحداً ولا أحد يعرفنا. إلى أيسلندا مثلاً. ربما نفعل ذلك في نهاية السنة. يمكنني أن آخذ إجازة

لأسبوع، أو عشرة أيام. أيروقك ذلك؟

فقلت هي وفي لسانها شيء من النقل، أهو النعاس؟ أم أنه الكسل الذي يظهر عليها دوماً بعد ممارسة الحب؟:

— أفضل الذهاب إلى فيينا. ورؤية أعمال شيلي، وزيارة الأماكن التي عمل فيها. ففي هذه الشهور لم أفعل شيئاً سوى سماع أحاديث عن حياته، وعن لوحاته ورسومه. وقد لسعني الفضول في نهاية المطاف. ألا يفاجئك افتتاح فوننتشيتو بهذا الرسام؟ فأنت، مثلما أعلم، لم تحب شيلي كثيراً في يوم من الأيام. من أين جاءه هذا الاهتمام به إذن؟

هز كتفيه. لم تكن لديه أي فكرة عن مصدر ذلك الميل. وقال:

— حسن، في كانون الأول سنذهب إلى فيينا إذن. لنرى أعمال شيلي، ونسمع موسيقى موزارت. لم يعجبني في أي يوم من الأيام، هذا صحيح؛ ولكن ربما سيبدأ إعجابي به الآن. فإذا كان يعجبك أنت، فسوف يعجبني أنا أيضاً. لست أدري من أين جاءت هذه الحماسة إلى فوننتشيتو. هل بدأت تغفين؟ وأنا لا أتركك تنامين بإلحاحي على الكلام. طابت ليلتك يا حبي.

دمدمت هي «طابت ليلتك». وانقلبت ملصقة ظهرها بصدر زوجها الذي كان قد انقلب أيضاً وثنى ساقيه لكي تبدو وكأنها جالسة على ركبتيه. هكذا ناما طوال السنوات العشر السابقة على انفصالهما. وهكذا فعلاً أيضاً منذ أول أمس. مر دون ريغوبيرتو بإحدى ذراعيه على كتف لوكريثيا وترك يده ترتاح على أحد نهديهما بينما كان يطوق بذراعه الأخرى خصرها.

توقفت القطط عن الصراع أو الحب في الجوار. وكان آخر بوق أو زمجرة محرك قد انطفأ منذ بعض الوقت. وأحس دون ريغوبيرتو الدافئ والمدفأ بقرب هذه التكرورات المحبوبة الملتحمة به، بأنه يبحر، ينزلق، يتحرك في خمول بهيج، في مياه ساكنة رقيقة، أو ربما في الفضاء الكوكبي غير المسكون، باتجاه النجوم الجليدية. كم من الأيام، من الساعات الإضافية سيستمر دون انكسار، هذا الإحساس بالكمال، من الهدوء المنسجم، من التوافق الإيقاعي مع الحياة؟ وكرد على سؤاله الصامت، سمع دونيا لوكريثيا تقول:

— كم رسالة مغلقة تسلمت مني يا ريغوبيرتو؟

فرد هو مرتعشاً:

— عشر رسائل. ظننتك نائمة. لماذا تسأليني؟

وأجابته هي دون أن تتحرك:

— وأنا أيضاً تلقيت عشر رسائل مغلقة منك. هذا ما يسمى

حياً بالتناسب على ما أظن.

وكان هو الآن من تصلّب.

— عشر رسائل مغلقة مني؟ أنا لم أكتب لك ولا رسالة واحدة.

لا رسالة مغلقة ولا رسالة موقعة.

فقالته وهي تنتهد بعمق:

— أعرف ذلك. أنت من لا يعرف. أنت من تمضي شارداً

في القمر. هل بدأت تفهم؟ وأنا أيضاً لم أرسل لك رسائل مغلقة.

رسالة واحدة فقط. ولكنني أراهن أن هذه الرسالة الحقيقية الوحيدة لم

تصاك على الإطلاق.

مرت ثانيتان، ثلاث، خمس ثوان، دون أن يتكلما أو يتحركا. ومع أنه لم يكن يُسمع سوى صخب البحر، فقد خيل لدون ريغوبيرتو أن الليل قد امتلأ بذكور قطط هائجة وإناث قطط في دورتها النزوية.

— أنت لا تمزحين، أليس كذلك؟ — دمدم أخيراً وهو يعرف جيداً أن دونيا لوكريثيا كانت تكلمه بكل جد.

لم ترد عليه. وبقيت ساكنة وصامتة مثله لوقت لا بأس به. يا لقصر هذه السعادة الغامرة، يا للوقت القليل الذي استمرت. وها هي من جديد يا ريغوبيرتو الحياة الواقعية بقسوتها وفجاجتها.

واقترح عليها أخيراً:

— إذا كان النوم يجافيك مثلي، فيمكننا، مثلما يعد آخرون أغناماً لكي يناموا، أن نحاول توضيح الأمر. من الأفضل أن نفعل ذلك الآن مرة واحدة. هذا إذا كنت ترين ذلك وتريديه. أما إذا كنت تفضلين نسيان الأمر، فسننساه. ولن نتحدث مطلقاً عن هذه الرسائل المغفلة.

فأكدت زوجته بنبرة متعبة:

— أنت تعرف جيداً أننا لن نستطيع نسيان ذلك مطلقاً يا ريغوبيرتو. فلنفعل ما نعرف جيداً أنا وأنت أننا سننتهي إلى فعله على أي حال.

— هلمي بنا إذاً — قال وهو ينهض — هلمي لنقرأها. كان الجو قد برد، وقبل أن ينتقلا إلى المكتب ارتديا روبيهما.

وحملت دونيا لوكريثيا ترمس الليمونادة الدافئة التي أعدتها من أجل زكام زوجها المزعوم. وقبل أن يعرضها الرسائل بالتبادل، تناولت رشفات من الليمونادة الفاترة، من الكأس نفسها. كان دون ريغوبيرتو يخبئ رسائله المغفلة في الدفتر الأخير من دفاتره، والذي ما زالت فيه صفحات دون ملاحظات أو لصاقات؛ ورسائل دونيا لوكريثيا كانت في حقيبة يدوية، مربوطة بشريط بنفسجي. تأكداً من أن المغلفات متماثلة وكذلك الورق؛ إنها مغلفات وأوراق من تلك التي تباع بأربعة ريالات في دكاكين الصينيين. ولكن الخط كان مختلفاً. ورسالة دونيا لوكريثيا، الرسالة الحقيقية الوحيدة، لم تكن بينها.

— إنه خطي — تلعثم دون ريغوبيرتو، متجاوزاً ما كان يظنه أقصى حدود ذهوله ومبدياً قدراً أكبر بقليل من الذهول. كان قد تقصص الرسالة الأولى باهتمام كبير، دون أن ينتبه تقريباً إلى ما تقوله، مركزاً على الخط وحده، ثم قال: — حسن، هذا صحيح، فخطي من أكثر الخطوط الموجودة شيوعاً. أي شخص يمكنه تقليده. — وخصوصاً إذا كان فتى يهوى الرسم، طفل-فنان — أضافت زوجته ذلك، وهي تقلت الرسائل المغفلة التي يفترض أن تكون هي كاتبها بعد أن انتهت من تصفحها — أما هذا فليس خطي. ولهذا لم يسلمك الرسالة الوحيدة التي كتبتها إليك. حتى لا تقارنها بهذه وتكتشف الاحتيال.

— إنه يشبه خطك بعض الشيء — صحح لها ريغوبيرتو، وكان قد تناول عدسة مكبرة وتفحصه، مثل هواة جمع الطوابع النادرة، ثم أضاف: — إنه على كل حال خط مدور، مرسوم بتأن.

خط امرأة درست في مدارس الراهبات، ومن المحتمل أن تكون مدرسة سوفيانوم تحديداً.

— أولم تعرف خطي؟

— لا، لم أكن أعرفه — أقر هو. وكانت هذه هي المفاجأة الثالثة في ليلة المفاجآت الكبيرة — الآن انتبهت إلى أنني لا أعرف خطك. وأنت على ما أذكر، لم تكتبي لي أي رسالة من قبل. — وهذه الرسائل أيضاً لم أكتبها أنا.

بعد ذلك، وخلال أكثر من نصف ساعة، بقيا صامتين، كل منهما يقرأ رسائله، أو بعبارة أدق، كل منهما يقرأ النصف الآخر المجهول من هذه المراسلات. كانا قد جلسا متجاورين على الأريكة الجلدية الكبيرة ذات الوسائد، تحت ذلك المصباح العمودي الذي يزين كنته رسم قبيلة أسترالية. وكانت دائرة الضوء الواسعة تكفيهما كليهما. وبين حين وآخر، يشربان رشقات من الليمونادة الدافئة. ومن وقت لآخر، تفلت من أحدهما ضحكة، ولكن الآخر لا يلتفت ليسأله أي شيء. ومن حين لآخر، تتعكر ملامح أحدهما، بسبب الذهول، أو الغضب، أو الضعف العاطفي، أو الرقة، أو التسامح، أو الحزن الغامض. أنهايا القراءة في وقت واحد. وكان كل منهما ينظر إلى الآخر بطرف عينه، مستنفداً، حائراً، متردداً. من أين سيبدأان؟

وأخيراً قال دون ريغوبيرتو مشيراً إلى دفاتره وخزائنه:

— لقد دخل هنا. لقد قلبت أشياءي. أقدس ما لدي وأشدّه سرية. ما لا تعرفينه أنت نفسك. رسائلتي المزعومة إليك هي في الحقيقة رسائلتي. مع أنني لم أكتبها. لأنني متأكد من أنه استنسخ كل

جملة فيها من دفاتري، جاعلاً منها سلطة روسية. خالطاً الأفكار بمقاطع من المزاح واللعب ومن تأملاتي الخاصة وتأملات الآخرين. فقالت دونيا لوكريثيا:

— لهذا السبب بدت لي هذه الألعاب، وهذه الأوامر منك أنت. أما رسائلي بالمقابل، فلست أدري كيف بدت لك أنها مني. واعتذر دون ريغوبيرتو:

— كنت أتلهف بجنون لمعرفة أخبارك، لتلقي إشارة منك. الغرقى يتمسكون بما يجدونه في طريقهم، دون قرف من أي شيء.

— ولكن، هذا التكلف؟ هذا التصنع؟ ألا يبدو أقرب إلى أسلوب كورين تيبادو؟

وقال دون ريغوبيرتو متذكراً، موافقاً:

— إنها لكورين تيبادو، بعضها على الأقل. منذ عدة أسابيع بدأت رواياته تظهر في البيت. ظننت أنها للفتاة الطاهية. الآن عرفت من كان يأتي بتلك الروايات ولأي شيء كان يستخدمها. صرخت دونيا لوكريثيا:

— سأقتل هذا الصغير. أيجلني أكتب بأسلوب كورين تيبادو! أقسم لك أنني سأقتله.

وقال هو بافتتان:

— أتضحكين؟ يبدو لك الأمر طريفاً؟ هل علينا أن نحتمل بذلك؟

وضحكت هي الآن بجذ، ضحكة أطول وأكثر صراحة من ذي

قبل.

— الحقيقة أنني لا اعرف كيف يبدو لي الأمر يا ريغوبيرتو. من المؤكد أنه ليس مضحكاً. أهو مبك؟ أهو يدعو إلى الغضب؟ حسن، فلنغضب إذا كان هذا هو ما علينا عمله. أهذا ما ستفعله غداً؟ هل ستعنفه؟ تعاقبه؟

هز دون ريغوبيرتو كتفيه. وكانت به رغبة إلى الضحك أيضاً. وأحس بأنه أخرق، واعترف بشيء من الخجل:
— لم أعاقبه قط من قبل، ولم أفكر في ضربه قط، فأنا لا أعرف كيف أفعل ذلك. لهذا صار إلى ما هو عليه. الحقيقة أنني لا أعرف ماذا أفعل به، فهو سيكسب دائماً.
واستسلمت دونيا لوكريثيا لذراع زوجها التي مرت على كتفها، فالتصقت به قائلة:

— حسن، لقد كسبنا نحن أيضاً في هذه الحالة. فقد تصالحننا، أليس كذلك؟ أنت لم تكن لتتجرأ مطلقاً على الاتصال بي هاتفياً، وعلى دعوتي لتناول الشاي في تينديثيتا بلانكا، لولا هذه الرسائل المغفلة المسبقة. أليس صحيحاً؟ وأنا ما كنت لأذهب إلى الموعد لولا هذه الرسائل المغفلة كذلك. من المؤكد أنني ما كنت لأذهب. فالرسائل هيأت الطريق. لا يمكننا أن نتذمر؛ لقد ساعدنا، لقد صالحننا. فأنت غير نادم على أننا قد تصالحننا، أليس كذلك يا ريغوبيرتو؟

وانتهى هو إلى الضحك أيضاً. فرك أنفه برأس زوجته وهو يشعر بأن شعرها يدغدغ عينيه، وقال:

— لا، لن أندم على ذلك أبداً. حسن، بعد كل هذه الانفعالات
الكثيرة، فقد كسبنا الحق في النوم. كل هذا جيد جداً، ولكنني
مضطر إلى الذهاب إلى العمل في المكتب غداً يا زوجتي.
رجعا إلى غرفة النوم المظلمة، أحدهما يمسك بيد الآخر.
وتجرات هي على قول مزحة أخيرة:

— هل سنأخذ فوننتشيتو معنا إلى فيينا في كانون الأول؟
هل كانت مزحة حقاً؟ واستبعد دون ريغوبيرتو الفكرة الخبيثة
على الفور معلناً بصوت عالٍ:
— إننا بالرغم من كل شيء نشكل أسرة سعيدة، أليس كذلك يا
لوكريثيا؟

لندن 19 تشرين الأول 1996

